اخترنا لك ١١٠

في داخل أوروبا اليوم

JOHN GUNTHER

INSIDE EUROPE TODAY

How Europe Has Changed
Adenauer
U. S. Army on the Rhine
Crisis in Berlin
De Gaulle
Tragic Conflict in Algeria
Italy— What's Going On
Macmillan & the Establishment
Struggle in NATO
Common Market at Sixes and Sevens
Khrushchev

...and new book about Europe
...in any way a revision of
...ther's classic "Inside
...t a totally new work,
...es vividly the per-
...lems and tensions
... the new, ex-
...pe of today.

بقلم جون جنثر

اخترنا لك ١١٠

في
داخل أوروبا اليوم

تأليف
جون جنتر

الكتاب والمؤلف

لقد اشتهر الكاتب الأمريكى جون جنثر بطريقته فى تقديم أجزاء عديدة من العالم للقارئ بطريقة فريدة تتسم بالحيوية والسهولة . وهو يجمع بين التاريخ والأحداث المعاصرة ، ويجعل المشاكل الهامة والشخصيات السياسية العالمية حية ومألوفة .

ويمكننا أن نتبين النجاح الباهر والشهرة التى تتمتع بها مؤلفاته من أن مايباع من هذه المؤلفات فى العالم أجمع يقدر بعدة ملايين نسخة من كل كتاب ، وقد ترجمت كتبه إلى سبع وعشرين لغة .

وفى عام ١٩٣٦ كتب المؤلف تحفته الخالدة « فى داخل أوروبا » عالج فيه الأحداث التى كانت تدور فى أوروبا فى ذلك الحين ، أى قبل الحرب العالمية الثانية .

وقد كتب جون جنثر عدة كتب فى هذه السلسلة منها: «فى داخل آسيا » ، « فى داخل أفريقيا » ، « فى داخل أمريكا اللاتينية » ، « فى داخل الولايات المتحدة الأمريكية » ، « فى داخل روسيا اليوم ».

* * *

والكتاب الذى بين أيدينا — فى داخل أوروبا اليوم — يحوى

نخبة من الحقائق الشائقة التي حللها المؤلف تحليلا شاملا ، كاملا كما يحوى عدداً من الشخصيات التي تعد جديدة بالنسبة لكثير منا ، والأحداث الهامة التي لم يكن في استطاعتنا متابعتها في مجال سياسة الدفاع الأوروبية والحركة الفردية من جانب بريطانيا ، والنزعات التي ترمى إلى توحيد أوروبا . وهو ينتقل بنا بين ألمانيا . ومشكلة برلين ، وفرنسا ، وإيطاليا وأسبانيا ، والبرتغال ، واليونان ، وتركيا ، والنمسا ، وانجلترا ، ثم يعرض للأحداث التي تدور في الجزائر . ومن بين الشخصيات التي يعرض لها المؤلف : اديناور ، وخروشوف وديجول ، وما كميلان .

وهو يبدأ بألمانيا ويحلل شخصية المستشار أديناور ، ويناقش تقسيم ألمانيا بين شطريها الغربي والشرقي ، ويلقي الضوء على مشكلة برلين التي تعد محوراً دائماً للأزمة . .

ثم ينتقل إلى إيطاليا بمشا كلها الجديدة المعقدة ، ثم إلى أسبانيا ، والبرتغال ، وتركيا . وهو في كل ذلك يعرض الحقائق ويحلل الأحداث والشخصيات .

مقدمة

منذ خمس وعشرين سنة مضت ألفت كتاباً بعنوان «فى داخل أوربا» استعرضت فيه عالم أوربا المعذب فى أواخر الثلاثينيات ، وهو على أبواب الحرب العالمية الثانية ، عندما كانت القارة تخضع لسيطرة ثلاثة من الطغاة الكبار — هتلر ، وموسولينى ، وستالين . والآن ، وبعد أن انقضى ربع قرن على ذلك ، أصبحت الارتفاعات والانخفاضات المباشرة التى سببتها الحرب العظمى فى التاريخ وراء ظهورنا ، ويعتبر الوقت ملائماً لأن نلقى نظرة جديدة على أوروبا — شخصيتها المعاصرة ، وقضاياها — والقوى التى تعتمل فيها ، والمشاكل التى تعانى منها فكيف يمكننا أن نقارن أوروبا اليوم بأوروبا فى عام ١٩٣٦ ؟ وماذا حدث فى ربع قرن ؟ وما هى التغيرات الشاملة الجوهرية ؟

يمكننا أن نرى بعض المعالم الواضحة ، وأن نسجلها مباشرة فقد اختفى الثلاثة الكبار العتاة — كما اختفى صغار الحكام المستبدون . أمثال بلسودسكى وهورثى ، وميتاكساس ، وكمال اتاتورك ، وكثير من ملوك البلقان الكبار ، وملوكها الصغار كما أن الرايخ الثالث ، الذى كان مقدراً له أن يبقى ألف سنة ، قد طواه جوف التاريخ القبيح الذى كان ينتمى إليه . واختفت المملكة الإيطالية كما اختفت كل من

الجمهورية الثالثة والجمهورية الرابعة فى فرنسا ولكن انجلترا أعيدت إليها الحياة .

وفى عام ١٩٣٩ عندما نشبت الحرب لم يكن هناك غير ألمانيا واحدة فقط ، أما الآن فقد قسمت ألمانيا إلى دولتين .

وفى عام ١٩٣٦ لم يكن أى فرد قد سمع عبارة « الستار الحديدى » أو « التعايش السلمى » ، أما اليوم فنحن نعرف هذه العبارات حق المعرفة ولم يكن أى إنسان — فيما عدا حفنة من العلماء — قد فكر فى استخدام الطاقة الذرية كوسيلة من وسائل الحرب ، ولم يكن اسم هيروشيما قد سمعه إلا شخص واحد بين كل مليون شخص .

ولكن لنترك ذلك الآن وننتقل إلى عناصر أخرى .

إن أهم أوجه الاختلاف بين أوروبا فى عام ١٩٣٦ وأوروبا فى عام ١٩٦١ هو أن وقوع حرب شاملة فى المستقبل القريب يعد أمراً بعيداً عن الاحتمال .

وحتى إذا كان هناك عدو عنيد مثل الاتحاد السوفييتى فإن خروشوف — على حد قول المستشار اديناور — لا ينوى اشعال حرب فى الوقت الحاضر ولكن فى عام ١٩٣٦ ، كان كل فرد على قدر ضئيل جداً من عمق النظر يعرف أن هتلر لا بد وأن يشعل حرباً .

فقد كان هتلر يريد الحرب ، ولا شيء دونها ولم يكن جبن مستر تشامبرلين يردعه عن ذلك .

وكان الصراع المحيق وتهديده العنيف ــ ذلك الصراع الذى يهدد الانتشار فى العالم بأكمله على يد مجرم لا يمكن اقناعه بأية وسيلة من وسائل المنطق ــ يخيم على كل وجه كظل أسود مشئوم .

واليوم وليس هناك أى تهديد يشبه ذلك. فمع أن مستر خروشوف يمكن أن يكون شرسا ، وخشنا ، وغير مقبول ، كما يمكن أن يفقد أعصابه ، إلا أنه ليس بالرجل المجنون .

وإذا نحينا هذه العوامل الشخصية جانباً ، نجد أن هتلر لم يكن فى إمكانه أن يحصل على ما يريده إلا بالاعتداء المباشر على الحدود وبالحرب المكشوفة .

أما خروشوف فهو على العكس تماماً من ذلك ، إذ لا يمكنه أن يحصل على ما يريده إلا بالاستفادة من فترات السلم من أجل أغراضه الخاصة . وقد كان هتلر يتوق إلى إشعال الحرب ــ حتى فى مونيخ ، أما خروشوف فيتوق إلى تخفيف التوتر الدولى ــ طبقاً لشروطه بالطبع .

وهناك نقطة هامة أخرى . فقد كان فى استطاعة هتلر أن يشن أشنع الحروب فى التاريخ وأكثرها دماء وتدميرا ، ولكن لم يكن بوسعه أن يحرق العالم بأجمعه بأن يضع أصبعه على أحد الأزرار . وإذا قدر للحرب أن تدور رحاها فى الوقت الحاضر ــ عن طريق خطأ استراتيجى فى التقدير ، أو نتيجة لخطأ أحمق ظاهر ــ فإن

الحضارة لن تبقى لها باقية . ولم يحدث فى سابق التاريخ أن واجهت البشرية احتمال وقوع مثل هذه الكارثة الشاملة . ولذا ، فأمامنا عاملان هامان يجب أن نأخذهما فى الاعتبار ، وهما يكملان بعضهما البعض إلى حد ما . أولها ، ليس هناك أى فرد يسعى إلى إشعال الحرب (ربما كان ذلك باستثناء الصينيين) ، ومع أن الموقف العالمى متوتر ومزعج فلا يحتمل وقوع حرب ساخنة مكشوفة !

ثانياً : ولكن إذا قدر للحرب الشاملة أن تقع فسوف تكون هذه الحرب أشد خطراً من أى حرب مضت ، وهذا يرجع إلى حقيقة هامة وهى أننا دخلنا فى عصر الصواريخ .

وعلى ذلك ، لماذا لا يشعر الأوروبيون بخوف أكثر مما يشعرون به اليوم ، إذا نظروا إلى القنابل التى تقدر بمئات الأطنان ؟ ولماذا يمضى غرب أوربا فى ازدهاره ورخائه ولماذا يشعر بالثقة ؟ إن أحد أسباب ذلك هو التفاؤل فى فترة من فترات الثراء — فالناس لا يريدون أن يواجهوا الحقائق الأليمة . وهناك سبب آخر هو الوضع الذرى المحرج . إن أمامنا اليوم عالما منقسما إلى مجموعتين متضاربتين ، نحن الشيوعيين، والحقيقة هى أن كلا منا يتمتع بقدرة سريعة على القضاء على قوة الجانب الآخر أو النيل منها بدرجة بالغة ، وهذه الحقيقة تعد قوة تدعو إلى السلام . إذ أن أحد الجانبين لا يجرؤ على مهاجمة الآخر . ولكن هذا أيضاً يؤدى إلى التنافس الدبلوماسى العنيف الذى يمتد اليوم إلى قطاعات مثل لاوس وكوبا فى المجال الغربى ، وإلى أجزاء كبيرة

من أفريقيا التى كانت بعيدة تماما عن الصراع الرئيسى من أجل السلطة في عام ١٩٣٦ .

وهناك اختلاف جوهرى آخر بين أوروبا فيما قبـــل الحرب وفيما بعدها ، وهذا بالطبع ، هو قيام حلف الاطلنطى الذى يترتب عليه وجود جزء كبير من قوات الولايات المتحدة الحربية والجويةوالبحرية فى أوروبا وهذا ـ كما يجب أن يكون معروفا لدينا جميعا ـــ يعد تطورا لم يكن يدخل فى حسبان الأمريكيين على الاطلاق خلال فترة العزلة التى مرت فى تاريخنا , أى منذ عهد قريب جداً .

وقد كان لمشروع مارشال و « إدارة التعاون الاقتصادى » الأثر فى جعل غرب أوروبا ينهض على قدميه ، ثم ظهر حلف شمال الاطلنطى إلى الوجود ، واستمرت المساعدات الحربية . وإذا كانت أوروبا اليوم تختلف اختلافا بينا عن أوروبا قبل الحرب , فإن جانبا هاما من هذا الاختلاف هو اتساع الحدود الأمريكية شرقا . ففى عام ١٩٣٦ كان لأوروبا سور مسامى يعرف « بخط ماجينو » ، أما اليوم ، فالقواعد الأمريكية تنتشر فوق منطقة واسعة من أوروبا (وسواء أكان هذا الوضع حكيما أو العكس فإنه يعد مسألة أخرى) ، كما أن جيش أمريكا يقف على نهر الراين .

وأخيراً ، تواجهنا حقيقة أخرى فى مجال الاعتبارات العامة الواسعة وهى أن فرنسا ، وألمانيا الغربية ، وإيطاليا ، والمملكة المتحدة ـــ هى الأخرى ـــ لم تعد فى عداد الدول الكبرى وهذا تطور فى الأهمية أدى إلى انتقال كثير من مسئولية القيادة الغربية إلى الولايات المتحدة

التى لم تثبت على الدوام أنها بلغت من النضج ما يجعلها تتقبل مثل هذه المسئوليات . ومنذ عام ١٩٤٩ عندما أنتجت روسيا قنبلتها الذرية الأولى ، انقسم العالم إلى قوتين . وربما تصبح أوروبا نفسها بمرور الوقت (غرب أوروبا طبعا) قوة كبرى جديدة هذا إذا استمرت التطورات مثل السوق الأوروبيةالمشتركة وسارت نحو القوة والاندماج ولكن هذا الأمر بعيد منا فى الوقت الحاضر . وكذلك هناك الصين ، وربما تصبح الصين توا — لسوء الحظ — إحدى الدول الكبرى من طبقة روسيا والولايات المتحدة . ولكن العالم فى الوقت الحاضر منقسم بين قطبين هما واشنطن وموسكو ، وأن أهم المشاكل العاجلة التى تواجهنا هى المحافظة على استقرار العلاقات بين هذين القطبين . وفى عام ١٩٣٦ كان العالم منقسما إلى مجموعة من الدول المتساوية فى قوتها تقريباً ، أما اليوم فى عام ١٩٦١ فالعالم ينقسم إلى شطرين متوازيين — أحدهما لنا والآخر لهم ، بين عدوين هما الولايات المتحدة الأمريكية واتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، ولا تعد هذه قوى أوروبية فى جوهرها على الاطلاق .

بعض التفاصيل ـــ أوروبا الجديدة

ونسوق هنا بعض التفاصيل السياسية وغير السياسية التى تلقى الضوء على الاختلافات الأخرى بين أوروبا فيما قبل الحرب وأوروبا اليوم . وقليلا ما نجد أن ربع قرن من الزمان تتخلله مثل هـــذه التغيرات الكبيرة . وإننى أضع هذه النقاط دون اعتبار لترتيب أهميتها :

فقد اختفت ثلاثة من الدول الصغيرة ، تلك هى دول البلطيق الثلاث : استونيا ، لاتفيا ، لتوانيا ، وضمت جميعها للاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٤٠ . وكذلك أغار الروس على مساحات هامة من فنلندا وبولندا ورومانيا كما استولوا على جزء من شرقى بروسيا .. وأن إحدى نتائج تغلغل الروس فى بولندا أن أصبحت حدود الاتحاد السوفيتى والمجر اليوم حدوداً مشتركة وقد تسبب ذلك فى تسهيل مهمة الاتحاد السوفيتى عندما قضى الجيش الأحمر على ثورة الشعب المجرى فى أكتوبر عام ١٩٥٦ قضاء وحشيا .

كما ظهرت دولة جديدة تلك هى جمهورية قبرص .

كما أصبحت كل من ألمانيا الشرقية وبولندا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والمجر ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وألبانيا دولا تابعة للاتحاد السوفيتى تدور فى فلكه مع أن درجة تبعيتها تختلف ، وأن كتلة الدول التى تسيطر عليها روسيا تمتد من بحر البلطيق إلى البحر الأسود كما تمتد فى داخل شرق أوروبا من نهر الدانوب حتى جبال الألب . . وقد فقد

ما يقرب من ١١٥ مليون نسمة من هذه الشعوب حريتهم ويعد هذا من بين أسوأ المآسى التى واجهت الحرب الحديثة .

أما يوغوسلافيا تحت حكم الماريشال تيتو فهى حالة خاصة ، إنها دولة شيوعية ولكنها ليست تابعة للاتحاد السوفيتى إذ أن تيتو شيوعى وطنى .

كما أن النمسا التى ضمها هتلر إلى الرايخ بالقوة فى عام ١٩٣٨ أصبحت دولة حرة وهى الآن محايدة . وقد انسحب الروس من منطقة احتلالهم فى النمسا فى عام ١٩٥٥ ، وبهذه الحركة شق خروشوف طريقه إلى مؤتمر القمة الأول فى جنيف .

وقبل الحرب كان الحكام المطلقون ذوو الألوان المختلفة يحكمون ألمانيا (التى كانت تضم النمسا بعد عام ١٩٣٨ وتشيكوسلوفاكيا فى غضون عام ١٩٣٨ — ١٩٣٩) وإيطاليا وأسبانيا ، والبرتغال ، والمجر ، واليونان ، وتركيا ، والاتحاد السوفيتى ، وبولندا ، ومعظم دول البلطيق . ومن هذه الدول أصبحت ألمانيا (غرب الألب) وإيطاليا ، واليونان دولا ديمقراطية فى الوقت الحاضر . كما أن تركيا أطاحت بعدنان مندريس الذى كان يشبه الدكتاتور فى عام ١٩٦٠ .

لم يبق من هـــذه الدول تحت سيطرة حكامها الذين حكموها فى الثلاثينيات إلا ثلاث فقط هى أسبانيا والبرتغال وايرلندة التى أصبحت جمهورية فى عام ١٩٣٩ وانفصلت عن الكومنولث البريطانى . فقد أفلح فرانكو فى القبض على زمام الأمور بصفة دائمة من عام ١٩٣٦ فى أسبانيا ، كما أن سالازار يسيطر على البرتغال منذ عام ١٩٣٢ ،

ولكن دى فاليرا فى ايرلنده مر بفترات داخل الحكم وخارجها . .
ومن الغريب أن كلا من أسبانيا والبرتغال وايرلنده دول كاثوليكية وتقع على الأطراف الخارجية من غرب أوروبا .

ومن بين الأنظمة القليلة التى بقيت دون مساس منذ الحرب هى الأسرة المالكة فى بريطانيا وكذلك دولة الفاتيكان وكذلك الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى، على أن هذا الأخير قد تغير بدرجة بالغة منذ عهد ستالين . .

أما عن الأحداث السياسية الخاصة التى تخص دولا أوروبية بمفردها فإن أهم هذه الأحداث منذ الحرب كان الصلح بين فرنسا وألمانيا، كما أن أهم قضية فى المستقبل هى قضية نزع السلاح .

كذلك فإن قتل هتلر لستة ملايين من اليهود كجريمة بشعة فى التاريخ الإنسانى أدى إلى ظهور كلمة جديدة كريهة — افناء جنس بأكمله — فى القاموس العالمى .

كذلك فقد اختفت عصبة الأمم القديمة فى جنيف . . وأصبحت الأمم المتحدة فى نيويورك أكثر قوة وحيوية . . وأصبحت يوما بعد يوم تلعب دوراً هاماً فى الشئون العالمية ، وبدون شك فهى أكثر قوة من عصبة الأمم القديمة ، وهذا يرجع إلى أن الولايات المتحدة عضو فى جمعية الأمم المتحدة كما يرجع إلى حماسة وقوة سكرتير الأمم المتحدة الحالى داج همرشولد . ولكن لا جدال فى أن هذه المنظمة تختلف تماما عما كان فى أذهان أولئك الذين وضعوا ميثاقها فى سان فرانسسكو

عام ١٩٤٥ إذ يبلغ أعضاؤها اليوم ٩٩ دولة مقابل إحدى وخمسين دولة فى اجتماعها الأول .

وقديما كانت هذه المنظمة تخضع للدول الديمقراطية الغربية ولكن هذه الدول فى الوقت الحاضر ليس لها إلا أغلبية طفيفة . إذ أن ٤٢ دولة من بين أعضائها ينتمون إلى الكتلة الآسيوية الأفريقية كما أن ٣٥ دولة من بين أعضائها يمثلون شعوبا سوداء أو ملونة .

كذلك فإن القوى الاستعمارية الأوروبية - بريطانيا وفرنسا ، وبلجيكا وهولندا - قد فقدت معظم مستعمراتها الشاسعة وستفقد الباقى فيما بعد . فقد تنازلت بريطانيا عن الهند ، وباكستان ، وبورما وسيلان ، والملايو ، والسودان ، ونيجيريا ، وغانا ، ودول كثيرة أخرى ، وفقدت فرنسا سوريا ، ولبنان ، والهند الصينية ، ومراكش وتونس كذلك فقد سلمت بلجيكا للكونغو ، وما زالت نتائج هذا الاستقلال حامية فى أنباء العالم ، وقد فقدت هولندا أندونيسيا ، وقد أصبح ما لا يقل عن ١٣ دولة فى آسيا و ٢٢ دولة فى أفريقيا على حريتهم ،وقد دخل ١٦ دولة أفريقية جديدة الأمم المتحدة فى عام ١٩٦٠ وسيزداد هذا العدد فيما بعد ،ولو قال ذلك أحدهم فى الثلاثينيات لاتهم على الفور بالجنون . تذكر المناقشات الحادة العديمة القيمة فى البرلمان الانجليزى قبل الحرب عن المشكلة الهندية ، وكان مستر نهرو ما زال فى السجن فى أوائل الأربعينيات . ولا جدال فى أن ظهور القوميات الآسيوية الأفريقية تطور جوهرى عميق ، وانطوى عصر الاستعمار . فماذا يمكن أن يقول شبح كذشنر الآن ؟... أو شبح هنرى مورتون ستانلى

أو الملك ليوبولد أو شبح دودس أو ليتى ؟ وقد قال مستر تشرشل مرة إنه لم يأت ليشرف على توزيع الامبراطورية البريطانية : ولكن هذا ما حدث بالضبط خلال ثمانية عشر عاما .

ويبدو أن الشيوعية مركزة فى الاتحاد السوفيتى وفى الدول التابعة له ، ولكنها اختفت تقريبا على أنها قوة داخلية خطيرة فى غرب أوروبا وهذا يعد تغيرا هاما منذ الحرب عند ما كانت إمكانية تقدم الشيوعيين واستيلائهم على السلطة فى كل من فرنسا وإيطاليا أمراً محتملا ،ومن ناحية أخرى يعد الحزب الشيوعى فى إيطاليا ثانى حزب من ناحية القوة كما أنه له أتباع كثيرون فى فرنسا ، وكذلك فإن الشيوعيين يسيطرون على أكبر حزب فى فنلندا وثانى حزب فى اليونان .

كما أن القوى الاشتراكية إذا تحدثنا عنها من الناحية السياسية فإنها تعد ضعيفة فى غرب أوروبا عما كانت عليه قبل الحرب مع أن السويد والنرويج لا زال بها حكومات اشتراكية أو عمالية كما أن الحزب العمالى يتمود الحكومة الائتلافية فى الدانيمرك، والنمسا تحكمها حكومة ائتلافية يشترك فيها الاشتراكيون الديمقراطيون بالتساوى ويعتبر الاشتراكيون الحزب الثانى فى كل من بلجيكا وهولندا ، كما أنهم يتولون الزعامة فى سويسرا .

ولكن حزب العمال فى بريطانيا خسر الانتخابات العامة ثلاث مرات متوالية وكذلك حزب الديمقراطيين فى ألمانيا .

ويبدو أن الاشتراكية فى طريقها إلى التدهور من الناحية السياسية

فى معظم دول أوروبا الصناعية، كما أن اليساريين غير الشيوعيين قد فقدوا معظم حماسهم الاصلاحى وهذا يرجع إلى الرخاء وإلى أن المحافظين فى كل مكان (وخصوصاً فى انجلترا) قد سرقوا معظم حماس الاشتراكيين

وربما تكون الاشتراكية فى طريق الهبوط كقوة سياسية، غير أن التغيرات الاشتراكية تسير فى طريق التقدم، إذ أن معظم الدول الأوروبية (فيما عدا الدول المتخلفة منها مثل أسبانيا والبرتغال) تعمل على تحقيق دولة الخدمات العامة فى حدود نظام المشروعات الحرة، ومن الواضح أن هذا يرجع إلى أن الفرصة تكون ضيقة أمام الحكومة لإعادة انتخابها مرة أخرى ما لم تأخذ على عاتقها مسئولية المواطنين بدرجة أو بأخرى فى الخدمات الصحية، والمساعدات الطبية، ومعاشات المسنين، والمساعدات التى تعطى فى حالة عدم التشغيل الكامل والاشكال الأخرى من أشكال التأمين الاجتماعى. ومن البديهى أن هذا ليس بالشىء الجديد إذ أن الدول الاسكندنافية أخذت بنظام دول الخدمات العامة منذ جيل أو أكثر كما أن اصطلاحات الجبهة الشعبية بفرنسا بدأت فى عام ١٩٣٦ كما أن ألمانيا أخذت بنظام الضمان الاجتماعى منذ عهد بسمارك.

ولكن حركة توسيع الخدمات الاجتماعية ازدادت بدرجة كبيرة منذ الحرب وأصبح العالم يتقبل الفكرة القائلة بأن كل المواطنين يجب أن يشتركوا فى عوائد الدخل القومى.

وإن ألمانيا الغربية تنفق مالا يقل عن ٣٠٪ من ميزانيتها على الخدمات الاجتماعية (بما فى ذلك الاسكان ، كما تنفق إيطاليا ٧ ٪.

كما أن أوروبا الغربية تتمتع (منذ هذه اللحظة على الأقل) بازدهار كبير ، فلم تتمتع كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية وايطاليا بحالة أفضل مما هى عليه اليوم، فيبدو أن الناس فى كل مكان يملكون المال وهذا يساعدهم على الحركة والنشاط ، ولذا فإن المنظر يختلف تماماً عما كان عليه فى الثلاثينيات عندما كان الاقتصاد راكدا

وقد اختفت الحاجة إلى مساعدات الولايات المتحدة الاقتصادية والمالية ، ويعد هذا تطوراً جوهرياً يحدد نهاية فترة ما قبل الحرب فى تاريخ أوروبا كما يقول بعض المعقبين ، وفى الواقع أن الولايات المتحدة تبحث عن مساعدة أوروبا ، وليس العكس ، إذ أنها تعانى من نقص فى رصيد الذهب فى عامى ١٩٦٠ — ١٩٦١، وأن الإنتاج القومى الكلى فى غرب أوروبا فى الوقت الحاضر يزيد عن انتاج الولايات المتحدة الكلى بمقدار ١٠٪ ومن المتوقع أنه فى عام ١٩٧٠ سيصبح الدخل القومى الكلى فى أوروبا الغربية ٨٠٠ بليون دولار مقابل ٧٤٠ بليون دولار ولم تعد أوروبا (طفل) أمريكا الذى يجب أن تتولاه بالعناية بل على العكس يصبح غرب أوروبا ككل بمرور الزمن منافساً لأمريكا فى مجال التجارة .

إن أوروبا تشعر بالثقة وإنها تمضى فى طريق التقدم ، وهناك نقطة هامة أخرى يجب أن نبينها فالناس ينفقون المال ببذخ ، كما أن أوروبا

بها طبقة ثرية ولكننا إذا قارنا هذا الوضع بما كان عليه فى عام ١٩٣٠ نجد أن الامتيازات قد قلت كما نجد أن ثورة اجتماعية كبيرة قد حدثت وهذا هو العالم الجديد لأن الغالبية العظمى من المواطنين المعدمين أمامهم اليوم فرصة لم يسبق لها مثيل لنيل قسطهم من التعليم والعمل المربح والشعور بالأمن فى حالة كبر السن ..

ولا جدال فى أن الملايين من الناس مازالوا فقراء ، ولننظر مثلا إلى أسبانيا أو اليونان .

ولكن الفقر فى معظم دول غرب أوروبا لم يعد مرتبطا بالطبقة ، فقد اصطبغ المجتمع بالصبغة الديمقراطية .

فنظام الضرائب وخصوصاً فى انجلترا قد قضى على امكان امتلاك الفرد لثروة باهظة عن طريق الميراث . كما أن الطبقة الأرستقراطية لا تزال قائمة فى انجلترا وغيرها كما أن قدراً كبيراً من الاقطاع لايزال قائماً فى أسبانيا وايطاليا ..

ولكن معظم أوروبا اليوم يخضع لسيطرة الطبقة المتوسطة .. وبمرور الوقت ، وموت الجيل القديم ستنقضى هذه الامتيازات .

ولكن فلنرجع إلى العناصر الأكثر أهمية ، إن أوروبا قد تغيرت بدرجة لا يدرك مداها .

ولكن هناك شيء واحد لم يصبه التغيير فعندما ألفت كتابى الأول بعنوان « فى داخل أوروبا » منذ ربع قرن من الزمان بدأته بألمانيا

ذلك لأن ألمانيا - قلب أوروبا المتأجج - كانت مفتاحا لكل شيء، ولا زالت ألمانيا كذلك .

ولكن ألمانيا اليوم منقسمة إلى شطرين ولن يستقر السلام فى أوروبا ، ولن نصل إلى حلم دائم ، إلا إذا وصلنا إلى تسوية لمشكلة ألمانيا تلك المشكلة الدائمة الصعبة التى تثير السخط ، ولذا فنحن نبدأ رحلتنا فى أوروبا مرة أخرى بألمانيا باعتبارها أول بقعة هامة ، ولنبدأ من النقطة التى عبر منها يوليوس قيصر والفرقة المسلحة التاسعة من جيش أمريكا نهر الراين.

- ٢ -

رجل عجوز على ضفاف نهر الراين

حينما رأيت دكتور كونراد أديناور في أوائل عام ١٩٦٠ ، كنت أعتقد أنه يبدو فى الخامسة والخمسين مع أنه كان يبلغ الرابعة والثمانين إن الشيخوخة لا تعرف طريقها إليه مثل الحكام الصينيين القدماء ..

وفى الواقع أن ملامح وجهه تميل قليلا إلى الشكل الصيني ، فعظام وجنتيه عريضة ، وجلده عاجي جميل ، وحواجبه مختفية تقريباً ، وأنفه طويل مندفع إلى الداخل عند طرفه مثل « التابير » تقريباً .. وأنه يبدو جميلا — نسبياً — لدرجة أن انتشرت الأسطورة الغريبة التى تقول إنه مر بعملية تجميل بوجهه ..

ولا جدال فى أن هذا غير حقيقى ولكنه كان يعانى من جروح شديدة فى الوجه من جراء حادثة سيارة منذ سنين طويلة ، أوجبت إجراء عملية جراحية . هى السبب — بين أشياء أخرى — فى ميل عينيه اللامعتين الصغيرتين إلى الطابع الشرقى

على أية حال يبدو أن الدكتور أديناور غير قابل للفناء . . ولد هذا الرجل المتماسك فى عام ١٨٧٤ ، حينما كان يوليوس س . جرانت رئيساً للولايات المتحدة ، وحينما كانت الملكة فيكتوريا فى منتصف

حكمها ، وحينما كان الكسندر الثانى يحكم روسيا . وما زالت قوة إبصار الدكتور أديناور جيدة ، وسمعه أيضاً ، وما زال يعمل يوما حيويا شاقاً ، ولكنه يأخذ أغفاءة طويلة بعد الأكل .. وإذا كان مسافراً إلى الخارج ، وعليه أن يحضر اجتماعاً عاماً .. فكثيراً ما يطلب وضع سرير له بالقرب من المكان الذى سيخطب فيه حتى يستطيع أن يستريح قليلا قبل أن يظهر أمام الجمهور .

ودكتور أديناور - الذى لم تبدأ أعظم أيام حياته إلا حين بلغ الثانيه والسبعين - لا يعيش فى بون نفسها ، عاصمة جمهورية ألمانيا الاتحادية -- كما تسمى ألمانيا الغربية رسمياً -- وانما يعيش فى ريندروف ، وهى ضاحية على بعد أميال قليلة عبر الراين حيث يعيش هناك منذ سنين عدة ، وحيث توصل أربع وخمسون درجة من الشارع إلى بوابة فيلته ، وهى التى يصعدها يوميا ، ليس بخفة الطفل ، ولكنه يصعدها أحيانا أسرع من زائريه . . أما إذا كان اليوم متعب ، فإن جولة بين الأزهار أو زجاجة من نبيذ الراين المعتق تعيد إليه نشاطه . . وهو يحب أن يلعب لعبة البوكى -- وهى تشبه لعبة كرة إيطالية -- وعنده ملاعب خاصة لها فى كل من بيته ودار المستشارية ، وهى قصر اسكمبيرج فى بون . أن الدكتور اديناور ظاهرة طبيعية مذهلة .. بيد أن سلوكه ما زال حادا ، وصريحا ، وجريئا . . وإن الناس يتحدثون بلا انقطاع عما سيحدث فى ألمانيا حينما يموت أديناور ، كما لو كان هذا سيحدث غدا ، ولكن من الجائز أن يعيش سنين طويلة .

والمصادر الرئيسية لقوة أديناور عديدة :

أولا — حقيقة عمره نفسه . فإنه قد أصبح نوعا من « صورة جد » . . وهو ليس محبوبا بالضرورة ، فإنه لا يثير كثيراً من الحب ، نظراً لأنه قاس جدا ، وعنيد جدا ، ومتحكم جدا ، وماكر جدا . . « إنه جدنا الذى يحكى لنا القصص الخيالية ».. هكذا قال أحد معارضيه السياسيين . . وقال آخر « إنه ليس صورة للجد ، إنه صورة شبح » . فليكن ما يكون . . ولكن دكتور أديناور ، حتى لو لم يكن محبوباً . فإنهم يحترمونه جميعاً تقريباً ويعجبون به . . إنه يملك جاذبية روحية قوية . . وأكثر من ذلك فإن شيخوخته مظهر خادع، درع واق له من كل هجوم .

ولقد قال لى معارض من أكبر معارضيه السياسيين ، ديمقراطى اشتراكى إنه لم يعد يشعر بالحرية فى الضغط عليه بشدة فى أى هجوم سياسى ، فإنه ليس من الرياضة أن تسدد الرمح بشدة ، مع أن المستشار قادر على حماية نفسه تماما فى أية مناقشة . . وأخيراً ، فإن التجربة ميزة للعمر — أو هكذا يجب أن تكون — وإن الدكتور أديناور يتمتع بكنز لا يبارى من الخبرة السياسية .

وثانياً — نجاحه . . فلا جدال فى أنه قد ارتكب أخطاء ، ولكنه حول ألمانيا — فى الإحدى عشرة سنة من حكمه المستمر — من حطام تام إلى أعظم دولة قوية وموسرة ، وواثقة من نفسها فى القارة كلها .. هذه الدولة التى نهضت من ألفاقة والعوز الكامل فى عام ١٩٤٦ ، والتى وصل مجموع انتاجها القومى ٧٠ مليون دولار عام ١٩٦٠ ، ووصل احتياطيها من الذهب إلى ١٢٩ر٢ مليون دولار ، وتعتبر ثانى

كبر دولة فى العالم، ويصل مجموع احتياطيها من الذهب والعملات لأجنبية إلى حوالى٧ بلايين دولار ،وقد زاد انتاجها الصناعى ٨٥٪ نذ عام ١٩٥٣ .

ثالثاً — تأييد أمريكا . .

رابعاً — لا يوجد أحد فى ألمانيا يؤيده كمحتكر للإدارة السياسية فهناك كثير من السياسيين الألمان المحنكين ، ولكن أديناور يغطى عليهم جميعا ، سواء كانوا من أعضاء حزبه أو من المعارضة . . ان أديناور — ولنضع ذلك فى الاعتبار — ليس فقط الرئيس الإدارى للحكومة ، ولكنه أيضا قائد مشرع ، وإن مهارته فى كلا الناحيتين لاتبارى ..وقد تحدث تغيرات سياسية هامة فى ألمانيا ، بعد وقت قصير، ويصبح ويلى براندت عمدة برلين الغربية ، منافساً قوياً للمستشار فى الانتخابات المقرر إجراؤها هذا العام.

خامساً — إن أديناور يناضل من أجل ما يبدو أن سكان ألمانيا الغربية يطالبون به اليوم : السلام ، والاستقرار والتودد لفرنسا ، والتكافل مع أوروبا . . وغنى عن القول ، أن هذه الشروط مقبولة خاصة بعد عــدم كفاية جمهورية فيمر ، وبعد اثنتى عشرة سنة من الوحشية العسكرية تحت حكم هتلر ، وبعد كارثة الحرب العالمية الثانية .

وقد قال لى أحد الألمان الموقرين « أنا لا أحب أديناور ولكنه أنهى النزاع المحزن عبر نهر الراين ، وسأشعر بالضياع بعد أن يموت » .

والميزة الرئيسية للمستشار أديناور ، بجانب متانته وقوة تحمله

وشجاعته وحكمته السياسية، هى قدرته على تبسيط الأشياء ، وهى ميزة غير عادية نوعا بين الألمان . .

ولكن هتلر (الذى لا يمثله أديناور فى أية ناحية أخرى) كان يمتاز بها أيضاً . . فإن هتلر بنى كل حملاته الوحشية تقريباً على بعض نقاط قليلة ، معروضة، ببساطة وتفهم بسهولة : مجال حيوى، ضد السامية إلغاء معاهدة فرساى، القوة الحربية.. وبعض المفاهيم مثل «الامبراطورية الشعب ، الزعيم » .

وأديناور أيضاً من أصحاب الأفكار القليلة نسبياً ، ولكنه يتمتع بموهبة فذة فى جعلها مفهومة للشعب على نطاق واسع . . وهو يحب أن يشرح سياساته فى أسلوب سهل ، وهو رجل منطقى يستطيع أن يجعل من الجمل الطويلة جملا قصيرة (وهذه ميزة أخرى غير عادية بين الألمان) وأحد أفكاره المحببة هى « إذا كنت معقداً فإنك تصبح على الفور عميقاً وعديم التأثير » .

ومن ناحية أخرى ، فإنه يتمتع بما يوصف بالعقل « الأسود » . . وهذا لا يرجع فقط إلى محافظته العميقة ، ولكن أيضاً إلى شكله ، أى حساسيته المفرطة نحو الخطط الخيالية والمؤامرات والخداع .

وذات مرة كتب دكتور أديناور مقالا قصيرا لمجلة (ودرذ ديجست) قال فيه : إنه تعلم أنه حينما يتعب يمكنه أن يستعيد نشاطه بسرعة بوضع قدميه فى إناء به ماء مثلج ليدفع الدم إلى رأسه . . وهناك سمة أخرى لطيفة ، وهى أنه يملك أسنانا جميلة ، وأنه خلال اجتماعات مجلس

الوزراء الطويلة يتسلى بقطع الشيكولاته . . ولكن لا يجب أن نخدع بهذه التفاهات ، فإنه رجل قوى ، عزيمته لا تنثنى ، وغير متردد ، ولا تنم ملامح وجهه عما يعتمل بداخله .

وقصة حياة أديناور معروفة جداً ، ولسنا بحاجة إلى أن نحكيها من جديد . . فهناك ثلاث قوى ساعدت على تشكيله — الطبقة ، الدين ، الجغرافيا — وهذه القوى هامة جدا ، فقد جاء من والدين ينتميان للطبقة المتوسطة (كان أحد أجداده خبازا) ذات الجذور العميقة فى البروقراطية . . ولا جدال فى أنه مخلص للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، يجب أن يعتقد أن الله بجانبه ، وأن الله من المحافظين .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن أديناور ينتمى إلى حركة أرض الراين الانفصالية ، أى أنه ألمانى يستطيع أن ينظر إلى الوراء إلى سكان أوروبا الأغنياء وأيضا إلى التراث التيتونى . . وأن الأقوال الإسمية تنكر ذلك دائما ، ولكن هناك كثير من الأسباب تدعو إلى الاعتقاد بأنه انضم إلى حركة أرض الراين الانفصالية بعد الحرب العالمية الأولى ، أى أنه كان مستعداً للتنازل لفرنسا عن ألمانيا . .

أما عن آرائه نحو بروسيا وألمانيا الشرقية — اللذين يناقضان حركة أرض الراين — فقد حكيت عنه قصة لطيفة ، ذلك أنه عند ما كان يأخذ القطار إلى برلين . فى الأيام الماضية ، ويعبر جبال الألب ، كان يتمتم « لقد دخلنا آسيا الآن » . . ولكنه لم يذهب إلى حد أن يعتقد أن بروسيا وبوميرانيا وبراندنبرج ومثيلاتها ، كان يسكنها البدو

والمغول ، ولكنه كان يعتبر جبال الألب كما هى فى الحقيقة اليوم . . حدوداً لألمانيا .

وحينما استولى الأمريكيون على كولونيا قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية بقليل ، استدعى أديناور من التقاعد وعين من جديد فى منصبه القديم كعمدة لكولونيا . . كان هذا فى عام ١٩٤٥ ، وكان أديناور فى ذلك الوقت فى التاسعة والستين ، وكان الحلفاء فى حاجة ملحة لإداريين « نظاف » لم يتعاملوا من قبل مع النازى ، وكان من الصعب الحصول على رجال الخبرة والمكانة فى ذلك الوقت ، وقد كان اختيار أديناور موفقا ، مع أنهم كانوا يعتقدون أنه كبير فى السن بعض الشئ . . ولكن الأمور لم تسر على ما يرام بعد أن خضعت منطقة كولونيا للاحتلال البريطانى ، فقد أطلق عليه أحد الضباط الانجليز فى عام ١٩٤٧ النار « لعدم كفاءته » . . ومعنى ذلك أنه كان متحكما جداً بالنسبة للذوق الانجليزى المحلى .

وقد قرر أديناور أن يدخل ميدان السياسة القومية ، وبدأ فى تأسيس حزب الوحدة الديمقراطى المركزى . . ذلك الحزب الذى ما زال يتزعمه إلى اليوم . . وقد أصبح مستشاراً فى عام ١٩٤٩ ، كممثل لائتلاف حصل على أغلبية اثنين فقط فى البندستاج . وقد كسب الانتخابات العامة مرتين فى عامى ٩٥٣، و ١٩٥٧، وكانت الانتخابات الأخيرة تسمى « استفتاء أديناور » . . وارتفع عدد الأصوات التى حصل عليها من ٤٥٫٢٪ فى عام ١٩٥٣ إلى ٥٠٫٢٪ ، وهى أغلبية طفيفة ولكنها كافية . وقد كان فى نفس الوقت وزيراً للخارجية من عام

١٩٤٩ إلى عام ١٩٥٥ وفى الحقيقة أنه مازال كذلك ، حتى بعد أن تولى شخص آخر ، وهو دكتور برينتانو ذلك الرجل القدير ، ولكنه مختلف دائما ،فهو فى هذا المنصب بصفة إسمية .

وأن أديناور يفكر دائماً بعقله المنطقى ، ولكنه متحذلق بعض الشيء . . فقد حاول أولا توحيد المناطق الثلاث التى يحتلها الحلفاء فى ألمانيا الغربية لي جعلها قنطرة للحرية من السيطرة الأجنبية ، وثانياً حاول أن يثبت من وضع الجمهورية الاتحادية الجديدة حينما أصبحت دولة ذات سيادة فى ٥ مايو عام ١٩٥٥ ، وثالثاً حاول أن يحصل على احترام المنتصرين فى ا رب العالمية الثاية ويصبح حليفهم الثابت ، رابعاً حاول إعادة تسليح ألمانيا الغربية وضمها إلى حلف الأطلنطى .

وقد حقق كل ذلك . . أما الخامس العظيم ـــ وهو توحيد شطرى ألمانيا ـــ فلم يتم بعد .

وبلا جدال فإن دكتور أديناور له عيوب وقيود .. وحكمه شخصى تقريباً بلا منازع ، وهو يرسل القانون إلى مجلس الوزراء فى أسلوب مؤكد وكل شيء يعتمد كثيراً على رغبة ـــ أو هوى ـــ المستشار لدرجة أنه ليس هناك أحد يتجرأ على ابراز سلطة كبيرة غيره ، وإذا كانت هناك مشكلة ذات أهميـــة كبيرة فإنها تسمى « مشكلة المستشار » ولا يسمح لأى شخص أن يلمسها إلا اديناور نفسه . ونتيجة لذلك فإن الحكومة ـــ كما سمعت أحد الدبلوماسيين الكبار

وفى بون يصفها ـ (متداعية) نوعا ما . الرأس قوية ولكن الأرجل ضعيفة ، وبذلك يكون الاتصال خاطئاً ، وتكون إحدى الوزارات جاهلة كل الجهل بما تقوم به وزارة أخرى فى الشئون العامة .

وهناك خاصة من خواص الدكتور اديناور وذلك أنه لا يميل إلى الاقتصاديات ، التى غالباً ما تعتمد عليها السياسة ومنذ وقت قصير همس أحد مساعدى المستشار فى أذن مساعد آخر وقال : « يجب على أحد منا أن يذهب إلى المستشار ويبين له ما هى التعريفة الجمركية » . ولكن عدم اهتمامه بالاقتصاديات فى معناها المجرد لم يمنعه من أن يكون داعياً متحمساً للوحدة الاقتصادية الأوروبية أو للسوق الأوروبية المشتركة ، حتى بعد أن أدى ذلك إلى صراع عنيف بينه وبين لدكتور ايزهارد ، وزير اقتصاده ، ذلك الرجل المتشدد والذى يعارض سمات معينة للسوق المشتركة لأن العنصرية معناها أن ألمانيا سوف ترفع من تعريفتها الجمركية . ويعتقد دكتور ايزهاردأن ذلك سيضر بالصناعة الألمانية ، ولكن دكتوراديناور سيطر عليه وجعله يرضخ لهذا القرار . وأحد أصدقاء المستشار المقربين دكتور وولتر هالستين وهو موظف سابق فى وزارة الخارجية ، يشغل الآن وظيفة رئيس اللجنة التنفيذية للسوق المشتركة فى بروكسل وقد ساعده اديناور فى تعيينه فى هذا المنصب ويعتبر اديناور السوق المشتركة ، وسيلة هامة وسامية لتعضيد رغبته الغالبة ، التكامل السياسى لألمانيا ، وفرنسا ، وايطاليا ، ودول البينيلوكس . وقد قال لصديق له منذ وقت قصير « إننى أريد أن أعيش

فترة أطول لسبب واحد — وهو أن أرى ولايات أوروبية متحدة فى عهدى » .

وكان يمكن لهذه الجملة أن تتمشى أكثر مع عقيدة دكتور اديناور الداخلية إذا كان قال «ولايات متحدة لأوروبا الغربية » وكما هو معروف فإن عداوة المستشار للاتحاد السوفيتى ثابتة لا تتغير ولا تتبدل . . وهناك نكتة صغيرة وذلك أن اسمه فى الحقيقة جون فوستر اديناور (أى نسبة إلى جون فوستر دالاس عدو روسيا اللدود) ويبدو لأصحاب العقول المتحررة أن أراءه نحو روسيا مظلمة وقديمة إن عنده مفاهيم قليلة للقوى الجديدة التى تهب على العالم ، فإن عقله — على حد قول ناقديه — ليس فقط مقفولا بل أيضاً مجدب وعقيم . إذ يبدو أنه لم يشعر بعد بأن ثلث العالم شيوعى ، وأنه فى المدى الطويل سيكون البديل الوحيد للحرب نوعا من التسوية مع الاتحاد السوفيتى ، بصرف النظر عن سياسته الوحشية واللاأخلاقية ويعتقد كل من ديجول فى فرنسا وماكميلان فى انجلترا أن تخفيف التوتر مع روسيا طبقاً لشروط معقولة — أمر هام جداً ، وحتى بعد انهيار مؤتمر القمة فى مايو عام ١٩٦٠ يجب العمل بكل قوة على الوصول إلى هـــذه التسوية ولكن اديناور لا يعتقد ذلك أبداً فالرجل العجوز ثابت لا يتحرك مثل غابات دزاشينفيلز التى تقع بالقرب من منزله .

ومهما يكن من أمر ذلك ، فإن ما قام به اديناور فى سنوات حكمه الحادية عشرة عظيم جداً وهائل . فإنه هو ، وهو ما زال يتمتع بالقوة فى أواخر السبعينيات من عمره ، الذى جعل فى الامكان هذا التغير

المنتظم من نظام النازى إلى حكومة برلمانية . وهو الذى أخرج ألمانيا من نيران الدكتاتورية الشريرة ، ومن الهزيمة ، ومن الفوضى الحارقة إلى أحضان العالم الديمقراطى ، وكان لابد أن تكون هناك قنطرة ، ولقد بناها اديناور ، وعلاوة على كل ذلك فقداستطاع أن يجعل التودد الفرنسى الألمانى حقيقة دامغة لأول مرة بعد أكثر من ثلاثمائة عام ، وارتفع بألمانيا الغربية إلى مجتمع الأمم المتحضرة ، وأنه يريد بأية طريقة وبأى ثمن أن يحافظ على وطنه من الضياع والانهيار ثانياً .

الأصدقاء والخلافة

واديناور ، وهو ألوف واجتماعى مثل العصافير ، له مئات من الأصدقاء . ومن بينهم (وهذا شيء غير عادى إلا فى انجلترا) كثير من ألد أعدائه السياسيين مثل ويلى براندت . والدائرة الداخلية تتكون من مجموعة صغيرة من الأشخاص معظمهم من كبار السن . الأغنياء ، وبالتأكيد فى جانب المحافظين أحدهم هيرمان ابس وهو من أقوى رجال المال فى ألمانيا ، وآخر هو دكتور هينرك كرون المتحدث البرلمانى باسم الاتحاد الديمقراطى المسيحى — ويقول بعض المراقبين إنه المستشار السياسى المقرب من المستشار . وأيضاً هناك دكتور هانز جلوبك . وهربرت بلانكينهورن وفيلكس فون اكاروت وآخرون .

وغنى عن القول أن أحداً من هؤلاء الرجال لن يستطيع أن يصبح خليفة لاديناور ، ولكن المرشح المباشر الظاهر الذى سيخلف اديناور — هذا إذا بقى الاتحاد الديمقراطى المسيحى فى الحكم —

هو دكتور ايرهارد ، برغم الخلافات المتكررة فى الرأى بينه وبين المستشار . وبعد ايرهارد يمكن أن يخلفه الشاب القوى فرانز جوزيف ستراوس وزير الدفاع . وهناك حصان أسود هام هو يوجين جير ستينماير ، الرئيس المتحدث باسم البوندستاج . وهو شخصية قوية فى الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، وقد اشترك فى مؤامرة عسكرية فاشلة لقتل هتلر فى يوليو عام ١٩٤٤ . وبهذا الشك فيمن يخلف دكتور اديناور ، نشعر بقدر كبير من القلق عندما نتذكر أن اديناور قد بلغ من العمر الخامسة والثمانين .

بون . . قرية ذات طابع خاص

ولا يمكننا أن نتبين الاختلاف الشديد بين ألمانيا ماقبل الحرب إلا بعمل مقارنة بين بون ، العاصمة الحالية وبين برلين تلك المدينة التى تشبه مدن سدوم وعمورة . ولا يمكننا أن نفهم اديناور تماماً بدون أن نتذوق جو بون . (من الناحية الفنية ، مازالت برلين « عاصمة » ألمانيا وليست بون إلا العاصمة « البديلة » و « مقر حكومة » الجمهورية الاتحادية . ولكن بون ستظل فى وضعها الحالى لفترة طويلة) . وتعتبر بون أقوى قرية فى العالم ، حتى الألمان يسمونها قرية . بسخرية أحيانا وبمحبة أحياناً أخرى ، وقد اتسعت بون عما كانت عليه فى عام ١٩٤٩ ويبلغ عدد سكانها ١٣٨٫٠٠٠ نسمة .

من الذى يحكم الجمهورية الاتحادية ؟

١ ــ أديناور والاتحاد الديمقراطى المسيحى اللذان يسيطران على ٢٧١ مقعداً من ٤٩٧ فى البندستاج وللديمقراطيين الاشتراكيين ١٦٩ مقعداً . وهم الحزب المعارض الهام .

٢ ــ رجال الصناعة الكبار فى أرض الراين ـ منطقة الروهر ـ وهم يعضدون الاتحاد الديمقراطى المسيحى بقوة ، ولهم أغلبية كبيرة فى البندستاج ، فمن المعتقد أن ما يقرب من سبعين نائباً يمثلون الصناعات الضخمة مباشرة . ولكن لا داعى إلى الاعتقاد بأن المستشار تحت سيطرة رجال الصناعة هؤلاء إنهم فى جيبه وليس العكس ، فلا يوجد أحد فى ألمانيا يتحدث لا ديناور عما يجب أن يفعله ، حتى ولا الفريد كروب نفسه .

٣ ــ المقاطعات أو الولايات التى تتكون منها الجمهورية الاتحادية . هناك عشر منها وهى ممثلة فى مجلس البرلمان الأعلى أو البندسرات . وهى مثل الولايات الأمريكية فى أنها تتمتع بشخصية محلية معقولة ولها نفوذ أيضاً ، وهى مستقلة فى شئون كثيرة مثل التعليم . وهناك ثلاث مقاطعات تحكمها حكومات ديمقراطية اشتراكية فى الوقت الحالى. ويقول ليجند : إن الولايات أعطيت مثل هذه السلطة الكبيرة حينما أنشئت ألمانيا الغربية وذلك لسببين :

الأول : أن الفرنسيين اعتقدوا فى ذلك الوقت أن زيادة حقوق

الولايات سيضعف من قوة الحكومة المركزية ، وكانوا يريدون أن تظل ألمانيا ضعيفة .

والثانى : هو أن الجنرال لوكيس كلاى ، الذى لعب دوراً كبيراً فى هذا التطور ، هو نفسه من الجنوب ولذلك فمن الطبيعى أن ينضم إلى جانب حقوق الولايات . وإنه لمن المهم أن نذكر هنا ونحن نتكلم عن المقاطعات ، أن بروسيا التى حكمت ألمانيا ما يقرب من مائتى عام ، قد انهارت ولم تعد موجودة حتى ولا على الخريطة .

٤ — الكنيستان — الكاثولوكية والإنجيلية (البروتستانت) — فأحيانا يقول بعض الناس: إنه بما أن أديناور كاثولوليكى فإن الاتحاد الديمقراطى المسيحى حزب كاثولوليكى نتيجة لذلك ، مثل الحزب الديمقراطى المسيحى فى إيطاليا ، ولكن هذا ليس صحيحاً ، فحينما أسس أديناور الحزب فإنه اختار . عن عمد ، ألا يتبع نظام الحزب الكاثوليكى الخالص القديم ، بل إنه عمــل كل مافى وسعه للحصول على تأييد البروتستانت أيضاً ، فإنه كان يعرف إن عليه أن يحصل على تأييد البروتستانت الذين يكونون ١ر٥١ ٪ من الأمة .

وفى هذه الأيام – وهى ظاهرة تدعو للاهتمام — هناك جهود تبذل فى الدوائر الحكومية العليا للمحافظة على موازنة بين الكاثوليك والبروتستانت ، فإذا كان (ا) فى وزارة معينة كاثولوكى فإن السيد(ب) — الذى يأتى بعده فى الترتيب — لا بد وأن يكون بروتستانيا ثم يأتى السيد (جـ) فيكون كاثوليكيا وبعده السيد (د) بروتستانيا وهكذا

حتى آخر القائمة . وهناك تقليد يفترض أن رئيس الجمهورية والمستشار يجب أن يكونا من عقيدتين مختلفتين ، وهذا حقيق طالما أن دكتور تيودور هيس ، رئيس الجمهورية ، بروتستانتى وخليفته دكتور هنريك لوبيك كاثوليكى — أما فى وقتنا الحالى فإن كلا من رئيس الجمهورية والمستشار كاثولوكيان .

٥ — الاتحادات التجارية ، التى تمثل صورة مختلفة ، والأصوات الزراعية وهى محافظة تماماً . ويبلغ عدد الفلاحين ١٢ ٪ من مجموع سكان ألمانيا الغربية .

٦ — « المواطنين الكبار » — أى الطبقة المتقاعدة مع مئات الألوف الآخرين من هؤلاء والذين « يتمتعون بالضمان الاجتماعى » . . ومعظم هؤلاء حريصون على حماية حقوقهم ومكاسبهم العظيمة . وعلينا أن نتكلم قليلا عن الصحافة ، وهى تعتبر قوة عظيمة لاستمرار المبادىء الديمقراطية الجديدة . وفى ألمانيا الغربية ما يزيد على سبعة آلاف نشرة و (يبلغ التوزيع الإجمالى حوالى ٥ر٥٢ مليون نسخة) . وفى هذا العدد ما لا يقل عن ١٥ ألف صحيفة .

ومما لا جدال فيه أنه يصعب علينا أن نحصى كل القوى التى تعمل فى ألمانيا المعاصرة .. ولا يحق لأى فرد منا أن يكون منحازاً ، وأحد الأسباب الهامة لذلك هى حقيقة مدهشة ، وهو أن واحداً بين كل أربعة أفراد من سكان ألمانيا الغربية يكون إما لاجئاً أو هارباً ، ولم يندمج بعد كثير من القادمين الجدد فى الحياة الألمانية .. ومن بين

موع السكان البالغ عددهم ٥٣ مليوناً .. نجد أن حوالى ١٣ مليوناً نهم لم يعيشوا فى ألمانيا الغربية قبل الحرب . وقد اضطر بعض هاربين إلى الخروج من تلك المناطق التى كانت ألمانية ذات يوم، والتى قع شرق خط أودر - نيس ، والتى وضع الروس وحلفاؤهم أيديهم عليها فى نهاية الحرب ، وقد استؤصل سكان هذه المناطق من الألمان ن آخرهم وطردوا خارجها بالقوة . أما الباقون فهم يمثلون تيار للاجئين الذين يهربون من النظام الشيوعى فى ألمانيا الشرقية اليوم . ومن الواضح أن جمهورية ألمانيا الاتحادية بما يتدفق عليها من مهاجرين هاربين بلغ عددهم ما لا يقل عن ١٣ مليوناً ، تعتبر فى حالة صهر - جسمانى وعاطفى - يتبخر معه كل تطور . وأن ألمانيا الغربية ليوم بلد جديد .

٣ - التيارات المختلفة فى الجمهورية الاتحادية

لقد تغير وجه ألمانيا فى الربع قرن الماضى أكثر من أى دولة أوروبية أخرى ، فانظر إلى خريطة الرايخ المتسعة أيام هتلر، ثم احسب الانكماش الذى طرأ على ألمانيا فى الوقت الحاضر ، فقد كانت مملكة هتلر فى أوج عظمتها تمتد من طرف النرويج الشمالى إلى جبال البرانس، من أعتاب موسكو والقاهرة إلى جبال القوقاز .. وقد سحقت جيوش

النازى أو ردت على أعقابها ، وأصبحت النمسا اليوم حرة ، وعادت السوديت إلى تشيكوسلوفاكيا ، وفقدت أراضى شاسعة فى الشرق . . وعلاوة على ذلك فإن الأمة الألمانية قد قاست مصيراً محتوماً قاسياً ، ذلك هو التقسيم . فهناك اليوم دولتان ألمانيتان أو ثلاثة (إذا أخذنا فى اعتبارنا المناطق الشرقية التى دخلت اليوم فى بولندا والاتحاد السوفييتى) . . ويمكننا من ناحية أخرى أن نذكر تفاصيل كثيرة مثل اختفاء بروسيا التى تحركت نحو الشرق ، إذا جاز لنا أن نقول . . ولكننا إذا سلمنا بكل ذلك تبقى أمامنا أسئلة خطيرة ، فهل تغيرت ألمانيا — وأعنى بذلك ألمانيا التى تخضع لحكم اديناور وتتبع الغرب — هل تغيرت ألمانيا هذه ؟ . . وهل يمكن لأية دولة أن تتغير فى الواقع ؟

ربما يكون الجواب بالإيجاب . . إذا كانت الصدمة عنيفة . . فلا جدال أن روسيا اليوم تختلف عن روسيا فى عهد القياصرة .

وحينما ذهبت فى ألمانيا اعتدت أن أسأل سلسلة من الأسئلة المترابطة . . فهل ما زال الشعب الألمانى يحترم السلطة ؟ وهل وجدت الديمقراطية الجديدة لتبقى ؟ . . وما هو تفكير الرجل الألمانى العادى عن هتلر فى الوقت الحاضر ؟ . . وهل هناك أى احتمال لإحياء حركة النازى من جديد ؟ . . وكيف تعد ألمانيا الجديدة قومية ؟ . . وهل فى الإمكان أن يشن الشعب الألمانى حرباً أخرى ؟ . . وكل ذلك يرتفع بنا بالطبع إلى نفس السؤال الهام وهو : هل تعلم الشعب الألمانى من

الدرس الذى مر به ؟.. وهل ما زال الشعب الألمانى يعانى من نفس النزعة العدوانية التى لا يمكن إصلاحها ، والروح العسكرية والنزعة التوسعية ؟ أو هل أصلحته مأساة الحرب العالمية الثانية أخيراً وروضته ؟

هذه أسئلة صعبة ، ولكنى سأبذل جهدى لكى أعطى ملخصاً وافياً للإجابات التى حصلت عليها .

هل ما زال الشعب الألمانى يحترم السلطة ؟ .

نعم ، فالمستشار اديناور نوع من الحاكم المطلق بنزعاته الطبيعية .. ومعظم الشعب الألمانى — بكل احترامهم الطبيعى للقيادة والسلطة — يحترمه لهذا السبب .. ومن ناحية أخرى ، فإنه ليس دكتاتوراً تماماً من الناحية الدستورية ، وأقل كثيراً من شخصية هتلر .. ومن ناحية أخرى فإن المعارضة القوية الساهرة — تبعاً للإجراءات والمبادىء الديمقراطية — تراقب كل خطوة وقفزة له .

أما الجواب عما إذا كانت الديمقراطية ستثبت أقدامها فى ألمانيا أم لا ، فان ذلك يعتمد إلى حد كبير على العوامل الاقتصادية . . فاذا ما انهار الحاضر -- بكل ازدهاره — وأتى الانكماش والركود العنيف . فان أى شىء ممكن أن يحدث.. ولحسن الحظ فان الديمقراطية والحالة الاقتصاديه المزدهرة تسير جنباً إلى جنب .

وهناك عامل أدى إلى انهيار جمهورية فيمار ، بجانب الصعوبات الاقتصادية والتضخم المالى ، ذلك هو زيادة عدد الأحزاب المتنازعة

التى كانت عبئاً على الديمقراطية ، وعامل آخر هو اساءة استعمال سلطات رئيس الجمهورية . . واليوم لا توجد مثل هذه الظروف ، فألمانيا الغربية تتمتع بنظام الحزبين السليم (نظام الحزبين الوحيد فى أى بلد أوروبى هام ما عدا انجلترا) . . ورئيس الجمهورية شخصية هامة ، وقد نال الحزب الديمقراطى المسيحى الذى يرأسه أديناور ٥٠٪ من عدد أصوات الناخبين مع البافاريين المؤيدين له، وقد نال الاشتراكيون الديمقوقراطيون حوالى ٣٥٪ من عدد أصوات الناخبين .

وبمعنى آخر نجد أن اثنين من الأحزاب الكبيرة جداً المنظمة المترابطة تسيطر على أكثر من أربعة أخماس الناخبين فى الدولة . . ولكن الحزبين الآخرين الممثلين فى البوندستاج أحزاب غير ذات شأن.. الديمقراطيون الأحرار لهم ٤٢ مقعداً تحت رياسة أحـــد البرلمانيين المتازين يدعى اريك ميند والحزب الألمانى الذى كان شريكا فى الائتلاف مع أديناور وهو الائتلاف الذى انقسم فى الوقت الحاضر، وهناك منظمة أخرى معقدة. ذات تاريخ عاصف، وهى حزب اللاجئين الذى يعرف أحياناً بجبهة المبعدين ، وضحايا الظلم ، وقد نال هذا الحزب ٩ر٥٪ من أصوات الناخبين فى عام ١٩٥٧ ، ولكنه لم يفز بالتمثيل فى المجلس التشريعى..وهناك حزب آخر ليس ممثلا فى المجلس التشريعى وهو حزب يمينى متطرف ، يشبه الحزب النازى ، وهو حزب الرايخ الألمانى الذى حصل على أقل من ١٪ من مجمـــوع الأصوات فى عام ١٩٥٧ ، وقد حصل الشيوعيون على ٢ر٢٪ من الأصوات فى عام ١٩٥٣ ، ولكنهم لم يستمروا حتى عام ١٩٥٧ لأنهم استبعدوا باعتبار حزبهم حزباً غير دستورى .

وقصارى القول ، فالمواطنون الألمان ليس لهم أى اختيار سياسى فى الوقت الحاضر إلا بين الأحزاب المشكلة بطريقة ديموقراطية .

ماهو تفكير الرجل الألمانى العادى عن هتلر ؟...

ان أغلبية الشعب الألمانى ـ إذا كنت قد أفلحت فى قياس الرأى العام بطريقة صحيحة ـ تعتقد أن هتلر كان مجرماً أو مجنوناً أو كليهما وهناك آخرون يتحاشون ذلك السؤال ولا يحاولون الاجابة عليه ... وهناك أيضاً بعض الذين يمتدحونه على أعماله الباهرة ، مثل إخراج الفرنسيين من أراضى الراين وانهاء نصوص نزع السلاح التى وردت فى معاهدة فرساى ، وبناء الطرق ذات الاتجاهين .. ولا جدال فى أن هناك آخرون لم يكن بوسعهم أن يدينوه اليوم إذا كان قد انتصر فى الحرب وأن الكراهية التى تلحق به لا ترجع إلى شروره الفظيعة فحسب بل لأنه تسبب فى الفشل وفى حدوث المأساة . ويقول الناس إنه ، فقد توازنه .

إن للسن وان للعمر حكماً فى هذا السؤال فالمواطنون الذين كانوا فى ثلاثينياتهم وأربعينياتهم فى عام ١٩٣٣ . عندما تولى هتلر زمام الأمور قد ازداد عمرهم اليوم ثمانية وعشرون عاماً ... ومن الواضح أنهم يكونون جيلا راحلا . فقد كان مئات الآلاف منهم يتولون مناصب تحت حكم النازى ، سواء أكانوا أعضاء حقيقيين فى الحرب النازى أو العكس ، وكثير منهم لا يزالون فى هذه المناصب ـ كقضاة أو بيروقراطيين وهكذا ـ مع أن المفروض أن عملية تطهير النازيين قد

أطاحت بكل أولئك الذين يمثلون إلى النزعات الضارة ... ولكن الأستاذ ثيودور أوبرليندر وزير اللاجين فى وزارة أديناور اضطر إلى الاستقالة فى برلين عام ١٩٦٠ فى ظروف كريهة ، لأنه اتهم بأنه عندما كان أحد كبار موظفى النازى باشر عملية ذبح عدد من الروس والبولنديين واليهود فى عام ١٩٤١ ، وهناك على الأقل واحد من الأعضاء البارزين فى وزارة أديناور كان أحد النازيين المبرزين ، ولكن النازيين الذين لا يزالون على قيد الحياة يمثلون جيلا راحلا كما سبق أن قلنا .

وان شباب الدولة أهم من ذلك كله ... أولئك الذين كانوا أطفالا أثناء السنوات التى سيطر فيها هتلر على زمام الأمور أو الذين كانوا لم يولدوا بعد . أو بمعنى آخر الناخبين الذين ستكون لهم الكلمة العليا فى السنوات التالية ... ويبدو أن هؤلاء يشعرون بشعور عميق ضد النازية ... ولقد شهد شباب الوقت الحاضر فى المناسبات أفلاما عن فظائع النازى . ودعوا إلى الاصغاء إلى تسجيلات لخطب هتلر الرنانة وهم يخرجون من هذه الأفلام وقد ألجمهم الرعب . ولا يكادون يصدقون مارأوا .. كما أن هذه الخطب تجعلهم يضحكون . ولا يكادون يصدقون آذانهم .

ولقد طمس عهد هتلر فى جميع الكتب المدرسية والكتيبات الرسمية ومستندات الدولة وما إلى ذلك ، وإن كتب التاريخ الرسمية تتلافى هذه الأعمال المكروهة التى لاحد لها .. مثل قتل مئات الألوف من الأطفال الابرياء فى حجرات الغاز وتعبر عنها بعبارات مثل ، لقد

بدأ حكم اشتراكى قومى يسوده العنف عندما أصبح أدولف هتلر مستشاراً فى عام ١٩٣٣ .

ونتيجة لذلك يجد كثير من الشباب صعوبة فى الوصول إلى الحقائق بطريقة مباشرة .. وإذا سأل هؤلاء مدرسيهم عما فعلوه فى عهد هتلر فإن المدرسين ـ إذا كانوا من الكبر بحيث إنهم تولوا مناصبهم فى عهد هتلر (وهناك آلاف من هؤلاء) تحرجوا فى الإدلاء بأية إجابة مقنعة ، وعلى ذلك فإنهم يميلون إلى أن يطلبوا من تلاميذهم أن يذهبوا إلى آبائهم طلباً لهذه المعرفة ، ولكن الآباء أيضاً ، وقد أحرجتهم تلك الأسئلة ، غالباً ما يتحاشون الإجابة المباشرة عن ذلك .

وبالاختصار .. يشعر بعض الألمان بشعور حاد حقيقى بالذنب والعار من هتلر ، ولكن الآخرين يحتمون بالجهل . . فانى أعرف شاباً كان يعيش على مسافة عشرين ميلا من معسكرات الإبادة فى أوسوتز ، عندما كان فى سن المراهقة وهو يقسم أنه لم يكن يعرف بوجود هذه المعسكرات ، ولقد أخبرنى دكتور كارلو شميد أحد الزعماء الديمقراطيين الاشتراكيين المعروفين اليوم ، والذى كان يتولى منصباً إدارياً هاماً فى بلجيكا المحتلة أثناء الحرب ، والذى يعد رجلا مستنيراً ، أخبرنى أنه قد « سمع » بمعسكرات الاعتقال فى عهد النازى ، ولكنه ادعى أن مجموع نزلاء السجون لم يكن يتعدى العشرين ألفاً تقريباً .. وعندما علم أخيراً بتفاصيل ما كان يقع فى واشو وبوشنولدر ، قال « لم نفعل ذلك » . . الروس هم الذين يمكنهم أن يرتكبوا مثل هذه الأشياء .

هل هناك أى احتمال لاحياء حركة النازى ؟ . .

الجواب عن ذلك هو أن هناك احتمالا ضئيلا جداً إذ ربما تمر ألمانيا بفترة رد فعل ، ولـكن ليس من المحتمل أن تأخذ طابعا هتلريا مكشوفا .

إن الفاشية ، على حد تعريفها التقليدى تأتى إلى أى دولة كنتيجة لتفاعل عدة ظروف منها : إفقار الطبقة المتوسطة ، والتضخم ، وضعف الكيان الديمقراطى والضعة التى ترجع إلى الهزيمة العسكرية والشعور المتطرف بالقومية ، وظهور زعيم مهرج قوى ، والخوف من الشيوعية المحيقة ، ولا جـــدال فى أن الرايخ قد لقى الهزيمة فى عام ٩٤٥ ، وفى أن الخوف من روسيا ومن الشيوعية ينتشر بين الألمان ، ولـكن الظروف الأخرى لا تنطبق على ألمـانيا . . ومن الناحية الأخرى فان تقسيم ألمانيا إلى شطرين يعد تهديداً دائماً ، ويمـكن أن يستغله أحد المهرجين السياسيين القوميين استغلالا سيئاً ، هـذا إذا تأجل توحيد ألمانيا إلى أجل غير مسمى .

كيف تعد ألمانيا الجديدة قومية ؟ . . وهل يمكن أن تنشئ ألمانيا حزبا جديدة . . ؟

يمـكننا أن نجيب على هذا السؤال بشىء من التأكيد ، فليس هناك أى شخص من ألمـانيا يريد الحرب -- وربما كان ذلك باستثناء قليل من المخبولين الذين يميلون إلى أقصى اليمين ، فلقد كلفتهم الحرب الأخيرة الـكثير ، إذ خسرت ألمانيا سبعة ملايين من أبنائها . وعلاوة على ذلك

فان الحقيقة أنهم عانوا من الهزيمة على يد الروس ، وكذلك على يد الحلفاء الغربيين ، كما أنهم تعرضوا لخسائر فادحة فى روسيا، هذه الحقيقة لها وضع خاص عليهم ، إذ أن الحروب التى خسرها فى شتاء روسيا القارس ، لاتدعو ذكراها إلى السرور . وعلاوة على ذلك فان ألمانيا بشقيها الغربى والشرقى تعيش فى العالم الحديث وتدرك كما يدرك البريطانيون، والروس والأمريكيون أن العالم يعيش فى عصر الصواريخ ، وأن نشوب حرب ذرية ربما يؤدى إلى فناء المدنية ، وليس هناك أى بلد تعرض لمثل هذه العلقة — بالأسلحة التقليدية — من الجو كما تعرضت ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية، وكفانا أن ننظر إلى برلين حتى فى الوقت الحاضر ، لنرى مدى الدمار الذى لحق بألمانيا كلها . ثم نضع فى اعتبارنا أن قنبلة هيدروجينية واحدة تحمل من قوى الدمار ما يماثل مجموع القنابل التى أسقطت على ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية كلها . والمواطنون الألمان متعلمون وعلى علم تام بهذه الحقائق المريعة .

وقد اتفق على إعادة تسليح الجمهورية الاتحادية بعد نزاع دولى عنيف، ولكن مشروع القرار الخاص بتكوين جيش لألمانيا الغربية لم يوافق عليه البرلمان إلا بعد صراع عنيف ، وبعد أن تعرض لمعارضة عنيفة من جانب الديمقراطيين الاشتراكيين ، ويبدو أن معظم الشباب الصغار لايشعرون إلا بشعور قومى ضئيل وبعضهم مسالم تقريباً . ومعظمهم يمرون بالخدمة العسكرية — ومدتها سنة — كارهين ولم يكن فى الإمكان حتى اليوم بناء قوة جوية فعالة ، ذلك لأن قليلا جداً من الشباب هم فقط الذين يرغبون فى التطوع للعمل كطيارين .

وعلى أية حال ، فلا بد من ذكر بعض التحفظات حول كل ذلك فلا جدال فى أنه ليس هناك أى شخص فى ألمانيا له أى خطط توسعية نحو الشمال أو الغرب أو الجنوب وليس هناك من يفكر فى الاعتداء على بلجيكا أو فرنسا ، أو القيام بأية محاولة لاستعادة أراضى السوديت .. وعلى أية حال فان شرق ألمانيا يعتبر مسألة أخرى ، فليس من المحتمل ، وعلى أقصى الفروض أن تحول ألمانيا الغربية تحقيق الاتحاد مع ألمانيا الشرقية عن طريق احراز نصر عسكرى ذلك لأن هذا يدفع روسيا بكل تأكيد الى التدخل . وربما يتسبب فى اثارة حرب كبرى .

وهناك نقطة أخيرة وهى أن جمهورية ألمانيا الاتحادية تعتبر من الناحية النظرية رسميا ، أن المناطق التى تقع شرق خط أودر - نيس ، والتى تدخل الآن ضمن بولندا والاتحاد السوفيتى لازالت جزءا من ألمانيا .

وان الخرائط الألمانية تؤكد دائما ان هذه المناطق المفقودة مناطق (ألمانية) وانها تخضع فقط (لادارة) البولنديين والروس بصفة مؤقتة.

ومن الممكن من الناحية النظرية أن تندفع ألمانيا الغربية الى استعادة الجزء الشرقى المحتجز خلف ألمانيا الشرقية ولكن من الناحية العلمية لا يعتبر هذا الأمر ممكنا ، ذلك لأن ألمانيا الشرقية قبل أن تستطيع استرجاع هذه المناطق . . وان السلطات فى بـــون لا تصرح بذلك جهارا ، ولكن خط أودر - نيس لم يعد قضية هامة ويعد هذا تغيرا ملحوظا منذ عام ١٩٤٥ ، وفى الواقع تعد المقاطعات الشرقية التى جردت اليوم من سكانها الالمان مفقودة . .

بين الزعماء

لقد التقيت بعدد من الرجال الذين يعملون تحت رياسة أديناور وأعتقد أن أهمهم هو دكتور لودفيج ايرهارد . نائب المستشار ووزير اقتصادية ألمانيا الغربية ، الذى ألف « المعجزة الاقتصادية » أى انتعاش ألمانيا ويبلغ ايرهاد من العمر واحدا وستين عاما . ولقد سألته ذات مرة عن كيفية انخراطه فى السياسة ، فأجابنى بمرح : ان عربة جيب أمريكية صعدت الى شقته فى ميونخ ذات صباح فى عام ١٩٤٥ . وحملته دون ابداء أى تفسير،كان ايرهارد أستاذا للعلوم الاقتصادية وقد اعتقد أنه قد قبض عليه لأسباب غامضة ولكن ذلك لم يحدث . .

وقدكان الامريكيون قد سمعوا أنه أحد رجال الاقتصاد المتخصصين القلائل فى الدولة ، والذين لايحملون أى أثر للنازية ، وكانوا يرشحونه فى حكومة بافارية جديدة ، كانوا بصدد تأليفها.

ويعتبر ايرهارد من الوجهة الاقتصادية تاجرا حرا من الطابع القديم ، وهو يؤمن إيماناً عميقاً بمذهب « دعه يعمل » والشيء الذى يعمل على اقامته فى ألمانيا الغربية هو « اقتصاد حر ذو صبغة اشتراكية. ويعتبر ايرهارد ـ على الوضع الحالى للأمور ـ أقوى منافس لتولى منصب المستشارية ، إذا تقاعد دكتور أديناور ، مع أنهما كثيراً ما يختلفان.ولم يكن الاختيار يقع على ايرهارد ليكون خليفةللمستشار بل كان الاختيار ينحصر فى وزير المالية فرانز اتزل ، لأن المفروض أنه أكثر ميلا لأوروبا عن ايرهارد ، وبذلك يكون أكثر ملاءمة لذوق

المستشار العالمى ، ولكن إرتزل لا يمكنه أن يبدأ فى منافسة ايرهارد فى الحصول على الأصوات كما أنه لم يعد فى الصورة . . وغالبا ما يذكر رجل آخر وهو ايرنست ليمر ، وزير شئون عموم ألمانيا .

ولكن ما سبب تلك المعجزة الاقتصادية التى نجح ايرهارد فى تحقيقها . . ؟

١ ـ لقد عرف عن الشعب الألمانى أنه شعب دؤوب ، انهم يعملون بجد ، وهم شعب مدبر وقد سيطر اليأس على الأمة فى عام ١٩٤٦ ، ولم يكن العمل الجاد مجرد شىء نتوقعه من كل مواطن ، بل إنه طريق الخلاص ـ أى طريق للخروج من زقاق مظلم محير .

٢ ـ لقد تدمرت معظم مصانع ألمانيا التى كانت قائمة فيما قبل الحرب بقنابل الحلفاء ، أو أنها تعرضت للتخريب على يد الفرنسيين والبريطانيين بعد الحرب ، ومن هنا نجد أن معظم المصانع الألمانية جديدة نسبياً ، وهى مصانع حديثة وقوية

٣ ـ وقد تدفق ما يقرب من ثلاثة ملايين دولار كمساعدة لألمانيا طبقا لمشروع مارشال .

٤ ـ وقد ساعد التيار الجارف من اللاجئين الذين ينزحون من ألمانيا الشرقية ، والأشخاص الذين طردوا مما وراء خط أودر ـ نيس على توفير سوق لا تنضب تقريبا من اليد العاملة . وأن البطالة اليوم لا وجود لها فى ألمانيا ، بل فى الواقع تعانى ألمانيا من نقص حاد فى اليد العاملة . .

٥ — وقد كانت ألمانيا حتى وقت قريب جداً دولة منزوعة السلاح ولم يكن عليها - مثلها فى ذلك مثل اليابان - أن تخصص نسبة كبيرة من ميزانيتها لأغراض التسليح

ولد نرانز جوزيف استراوس وزير الدفاع فى ميونخ فى عام ١٩١٥ من أب يعمل جزارا..واستراوس بافارى ، وزوجته بنت أحد صانعى النبيذ ، وهو ضخم الجثة مثل ايرهارد ، وقد قال عنه أعداؤه إنه هو الشخص الوحيد فى ألمانيا الذى يزن مائتى رطل، ولكن سجله لا يعد خالياً من المآثر ، فهو الرجل الذى بنى جيش ألمانيا من لا شىء والذى يحمل مسئولية تعاونه مع القوات الأمريكية ، وقوات حلف شمال الأطلنطى على أرض ألمانيا ،وإن استراوس أيضاً هو صاحب فكرة إقامة قواعد فى أسبانيا وذلك لعدم توفر المكان فى ألمانيا الاتحادية ، ولكن هذه الفكرة دحرت ، ويدور كثير من النقاش حول شخصه، وإن اديناور يحبه ولكنه يميل إلى الاعتقاد بأنه مازال يافعا ولا يمكنه أن يخلفه فى منصب المستشارية فى الوقت الحاضر . كما أنه مثير للضجة ، ويميل إلى تأييد البافاريين . .

وإذا طلب منى أن ألخص شخصية مستر استراوس لقلت إنه رجل مرح ، وواقعى ولا تخدعه المظاهر ، وماهر , كما أنه طموح . ووجهه أشقر ولكنه يملك ذقنا تشبه قطعة صغيرة مستديرة من الصخر وعيناه زرقاوان لامعتان ونظراته ثاقبة . وأن ولاءه للمستشار متطرف ، وهو يتحدث بتبجيل واحترام عما « عمله » المستشار للشعب الألمانى ويشعر استراوس شعورا عميقا بأن جميع الدول ، إذا أرادت أن تبقى

فلا بد وأن تتنازل عن فكرة وجود جيوش قومية صرفة وأن أهم ما يشغل باله هو تنظيم مساهمة ألمـــانيا فى حلف شمال الأطلنطى ، كذلك جعل جيش ألمانيا الجديد قوة محاربة مدربة وقوية ، وأن أحد الأشياء التى يفخر بها استراوس بدرجة كبيرة هو أن الكتائب الألمانية فى زيها الرسمى الكامل قد قامت بمناورات ناجحة على أرض فرنسا أخيراً ، دون حدوث أية حادثة ، وبأن ألمانيا سيكون لها قواعد فى كل من فرنسا (كورسيكا) وايطاليا (سردينيا) .

كلمة عن الجانب الاشتراكى

إن كورت سشماخير أحد عظماء الرجال فى ألمانيا الحديثة وهو زعيم اشتراكى مات فى أغسطس ١٩٥٢ ، ولم يأخذ أى فرد مكانه غير ديلى براندت عمدة برلين الغربية الشهير الذى سنلتقى به فى الفصل التالى ، ويعتبر أريك أولنهور زعيم الحزب الديمقراطى الاشتراكى من الناحية العملية ولكنه شخصية باهتة،ولم يعقب سشماخير إلا بطريق الأقدمية، ولكن أولنهور أعلن أنه لن يرشح نفسه لمنصب المستشارية فى الانتخابات التالية . . والشخص الذى شيرشح نفسه هو براندت ، وجدير بالذكر أن الاشتراكيين الديمقراطيين لم يتولوا السلطة منذ حكومة هيرمان موللر فى عام ١٩٣٠ .

ويعتبر دكتور كارل ـ وهو شخصية جذابة ـ زعيم الجناح اليمينى فى الحزب ، كما يعتبر الشخص الثانى بعد براندت ، ومع أن شميد اشتراكى

فانه يميل إلى الماركسية مثل ما يميل سناتور جولدووتر أو أسقف يورك .
وأن شميد نصف فرنسى إذ ولد فى بيرينان ، من أم فرنسية وقد كان أستاذاً ألمانيا يقوم بالتدريس هناك ، كما كان شميد نفسه مدرساً لعدة سنوات ، وفى الواقع فإنه لايزال يلقى محاضرات فى العلوم السياسية فى فرانكفورت ويعتبر شميد خطيباً بيزنطيا ، مرحا ، وذكيا ، ومؤثراً .
وهو من الناحية الجسمانية واحد من الرجال الأقوياء الذين يزنون مائتى رطل مثل منافسيه السياسيين : ايرهارد ، واستراوس . وإذا كسب الاشتراكيون الانتخابات ، فمن المفروض أنه سيصبح وزيراً للخارجية.

وقد سألته ذات مرة عن كيفية دخوله الحياة العامة ، فأجاب إنه ، كما لو كان « يكفر عن سيئات هتلر » . . فقد سأل نفسه بعد الحرب ، من هو الشخص الذى يعد مسئولا عن ظهور هتلر ، إنه بالتأكيد ليست جماهير الشعب التى لم تكن تفهم معنى كتاب « كفاحى » الذى ألفه هتلر ، وقد قرر شميد أن المسئولية تقع على عاتق هؤلاء الذين فهموا المقصود من (كفاحى) ولكنهم لم يتجرأوا على معارضة هتلر برغم فهمهم ذلك ، ولذا انضم دكتور شميد إلى الاشتراكيين الديمقراطيين لكى يصلح ما تلف وقد حاول منذ الحرب أن يهب نفسه للصالح العام . .

وهناك زعيم آخر من الاشتراكيين الديمقراطيين يأتى فى الترتيب بعد هؤلاء وهو يقف فى الوسط تقريباً . ذلك هو بارون ولديمارفون كنورنجن أحد الارستقراطيين البافاريين ، وفى الجانب اليسارى يقف هيربرت فهنر نائب رئيس الحزب ، وهو أحد الشيوعيين السابقين الذين يكرهون الشيوعيين فى الوقت الحاضر ، كما يحدث مع أي شيوعى سابق

وقد عاش فترة فى الاتحاد السوفيتى ، وحول كثيراً من شباب ألمانيا إلى شيوعيين ، عمل بعد ذلك فى الحركة السرية المعادية للنازى وهناك أحد الزعماء الاشتراكيين الآخرين وهو فريتز ايرلر . وقد كان يعمل ناظرا لاحدى المدارس فى منتصف أربعينياته ، وإذا قدر أن يفوز حزبه فى الانتخابات ، فانه سوف يصبح وزيراً للدفاع وهو رجل قدير وجذاب ، انه رجل يستحق الاهتمام .

ومن البديهى أن المشكلة العويصة التى تواجـــه الاشتراكيين الديمقراطيين ، هى إيجاد السبل التى تزيد من الأصوات التى يحصلون عليها أكثر من نسبة ٣٥٪ التى يتمتعون بها الآن ، ولكن هذا ليس بالعمل السهل ، فاذا انتمى الحزب إلى اليسار أبعد من ذلك فإنه سيثير عداء المواطنين الذين يتفقون فى منتصف الطريق ، والذين يجب عليه أن يكسب ولاءهم ، أما إذا انتمى الحزب نحو اليمين ، فلن يكون فى الامكان تميزه عن المحافظين أتباع أديناور ، وأن إحدى الصعوبات التى تواجه الاشتراكيين هى أن الانتعاش الاقتصادى فى ظل نظام « دعه يعمل » أضعف من قوة الاشتراكيين . وأن الحزب يحاول أن يطرح بقايا الماركسية جانبا ، ولكن يجب عليه أن يقوم بذلك ببطء وذلك لتقاليده اليسارية العميقة الأثر ، وعلى أية حال فإنه قد تخلى عن أمله الذى طالما تمسك به وهو تأميم الصناعة ، والذى طالب به فى مؤتمر الحزب فى عام ١٩٥٩ ، واتجه نحو مركز متوسط فى عام ١٩٦٠ والاتجاه الحالى يميل إلى الاعتراف بضرورة التغيير وانتهاج نظام يجمع بين الاشـــتراكية والاقتصاد الحر وهو يشبه فى ذلك الجناح الذى

يتزعمه مستر جيتسكل فى حزب العمال البريطانى. وقد عدل الاشتراكيون الديمقراطيون فى ألمانيا موقفهم التقليدى المسالم فى مؤتمر ١٩٦٠ الذى عقد فى هانوفر ، فهم لا يريدون ألمانيا أن تكون فى حوزتها أسلحة ذرية (وتلك مشكلة كبيرة) ، ولكنهم يطالبون بولاء ألمانيا لحلف شمال الاطلنطى وللتحالف الغربى .

* * *

ولا جدال فى أن أعظم مشكلة فى ألمانيا ، هى مشكلة توحيد شطرى ألمانيا ، أى توحيد شرق وغرب ألمانيا فى دولة واحدة .

وتنقسم ألمانيا فى الوقت الحاضر إلى قسمين يضم القسم الغربى منها ٣ ، مليوناً من الشعب الألمانى ، ويضم الشرقى ١٧ مليوناً ، ويفصل هذين الشطرين ٨٢٥ ميلا من الأسلاك الشائكة تشق قلب الدولة كحدود بين شطريها ، ولا يعد هذا مجرد اغتصاب جغرافى وسياسى أو أنه خروج على حدود اللياقة فحسب . بل إنه يتعدى شرور التقسيم التقليدى ، ويترتب على ذلك أن الذى يتعرض للخطر هو حقاً أولئك الملايين السبعة عشر الذين يمثلون شعب ألمانيا الشرقية ليس فى انضمامهم لوطنهم فحسب بل أيضاً إلى العالم المتمدين ، وعلاوة على ذلك فإن التوحيد قد ينهى هذا الموقف الشاذ الذى جعل برلين ـ العاصمة الحقيقية لألمانيا ـ ليس فقط مقسمة ، ولكنها أيضا تقع فى المنطقة الشرقية خلف الحدود بحوالى ١١٠ أميال كجزيرة محاصرة ومحاطة تماماً ببحر من الشيوعية ، ولنتصور ما الذى كان يعتقده الأمريكيون إذا كانت

الولايات المتحدة قد قسمت مثل ألمانيا ، وأصبح ربع الدولة ـ فلنقل ساحل الاطلنطى وجزءا من الساحل الغربى الأوسط ـ فى يدالشيوعيين تسيطر عليه موسكو ، ولنتصور أيضاً واشنطن وقد قسمت إلى قطاع شيوعى وقطاع غير شيوعى ومفصولة عن دنفر وأوهاما بحزام من أرض سوفيتية لا يمكن عبورها الا بتحفظات شديدة .

وقد أجرى احصاءللرأى العام منذسنين قليلة عن أهم مشكلة فى ألمانيا وقد أجاب ٤٥٪ أن أهم مشكلة هى إعادة البناء ، وأجاب ١٥٪ بأنها التوحيد . ولكن الآن ،وبعد أن تم إعادة البناء، فان الأرقام تغيرت وفى كل مكان ذهبت إليه فى ألمانيا رأيت الرجال والنساء يعلقون شارة معدنية صغيرة فى ستراتهم ، وهذا معناه العضوية فى منظمة « ألمانيا الموحدة »ـوهى منظمة تعدت كل الخطوط السياسية التقليدية، وأصبحت أكبر جماعة لها نفوذ فى ألمانيا . .فمازال لمئات الألوف من سكان ألمانيا الغربية أقارب فى ألمانيا الشرقية وهذا شرط هام فى العضوية لهذه الجماعة

وبعد أن تحدثنا عن كل ذلك فمن الواجب أن نضيف — وهذا سمعته يقال — أن الوحدة ، مع أنها مشكلة خطيرة ، فإنه يبدو أنها ليست مشكلة حية . فإن المواطنين يعطونها حقها من الكلام ولكن قليلا من العمل . . . والفكرة العامة هى أنه بما أن التوجيه لا بد وأن يأتى فى الوقت المناسب ، إذن فلماذا لا ننتظر ونأمل فى حدوث الأحسن ، ويقولون إنه بطريقة ما فى يوم ما غير محدد ، سينتهى هذا الموقف السخيف ؟

ولكن إذا سألت أى سياسى فى ألمانيا الغربية ، أو أى إنسان إذا كان صحيحاً أن عهد اديناور أصبح ينظر لمشكلة التوحيد بفتور يجيبك على الفور بحدة « ليس هذا صحيحاً » لقد سمعت هذه الإجابة مرات عديدة . وتعتبر الحكومة الاتحادية نفسها السلطة المعنية بأمر جميع الألمان ، وخصوصاً هؤلاء الذين فى المنفى ، مثلما تفعل اسرائيل باعتبار نفسها مسئولة عن جميع اليهود ، وهذا تشابه غريب نبهنى إليه كثير من الألمان ، ولكن ، بصراحة تامة ، هناك كثير من المواطنين الألمان الذين — حتى وإن لم يجرؤوا على معارضة التوحيد جهاراً — يتساءلون بإلحاح ماذا سيكون الثمن ، فهناك شىء يعرفه الجميع وهو أن روسيا قد تحارب ، لماذا حاولت ألمانيا الغربية ابتلاع الشرق بالقوة ، وليس هناك من يريد الحرب .

ثم نأخذ فى الاعتبار الحقيقة التى يعرفها الكاثوليكيون البافاريون وحركة أرض الراين فى أن التوحيد سيغير كثيراً من توازن القوى الدينية فى الدولة حيث إن ٨١٫٣ ٪ بروتستانت فى ألمانيا الشرقية ، وأيضاً فإن المحافظين عامة ورجال الصناعة فى منطقة الروهر خاصة لا يستسيغون فكرة امتزاج سبعة عشر مليوناً فى ألمانيا الغربية . حتى لو كان معظمهم يكره النظام الشيوعى فإنهم قد أمضوا خمسة عشر عاما بين التعاليم الاشتراكية ، والذين من المحتمل أن يتخذوا موقفاً يساريا قوياً فى دولة ألمانيا لفترة معينة على الأقل ، وإن التوحيد

سيحتاج إلى مال ، إلى كثير من المال ، وسيقلب المعجزة الاقتصادية (التى حققها ايرهارد) رأساً على عقب .

وبما أنهم يقعون فى قلب أوروبا الغربية ، والذى أخذ فى الاعتبار لأفكار الأجنبية . . . فإن ألمانيا المتحدة قد تقطع بقوة التكامل بين ألمانيا الغربية وأوروبا الغربية ، والذى قد يحزن كثيراً من الألمان . فلا يريد ألمان اليوم أن يسيئوا لا إلى البريطانيين ولا إلى الفرنسيين وأنهم يعرفون أن البريطانيين خاصة يخافون دولة ألمانية متحدة — قوتها سبعون مليوناً — قد تكون منافساً قويا فى الميدان التجارى ، والفرنسيون لا يريدون أن يروا سبعين مليوناً متحدين كقوة عسكرية ، وعلاوة على ذلك — بجرد خيالات — فإن دولة ألمانية متحدة بها جناح يسارى قوى قد تصبح حليفاً للاتحاد السوفيتى .

والتوحيد هو المشكلة الرئيسية بين الأحزاب فى داخل ألمانيا نفسها .

فالاشتراكيون الديمقراطيون يحبذونها بقوة لنفس السبب الذى جعل بعض أعضاء حزب اديناور المحافظ يميلون إلى الحذر منها ، وهذا السبب هو أنها ستغير الاطار الدينى للبلد فى صالح البروتستانت وتساعد على زيادة قوة اليساريين وربما تساعد على تحويل ألمانيا إلى الاشتراكية .

وفى نفس الوقت . فإن جيلا جديداً ينمو فى كل من ألمانيا الغربية والشرقية . وبالتدريج سيثبت الوضع فى الدولتين الألمانيتين على أنهما

دولتان منفصلتان . فإن مئات الألوف من الشباب الصغير اليوم يعتبرون الشرق دولة أجنبية . فى الوقت نفسه فإن السلطات الشيوعية فى الشرق تضغط على الناس بقوة سنة بعد أخرى ، وتعمل كل صلة ما فى وسعها لقطع كل صلة بالغرب ، ويعتقد كثير من الألمان أنه قبل مضى مدة طويلة ستصبح مشكلة التوحيد شيئاً غير واقعى مثل مسألة استعادة المقاطعات خلف خط أودر — نيس ، وبالاختصار فإن الوضع الحالى سيدوم . وعلى العالم الغربى أن يكيف نفسه على الحقيقة فى أنه سيكون هناك دولتان ألمانيتان لمـــدة طويلة مع ما فيها من مآسى للملايين المحرومة التى تعيش فى ألمانيا الشرقية . وهذا هو الثمن الذى يدفعه الألمان اليوم لقيامهم بالحرب العالمية الثانية وانهزامهم فيها ، التقسيم هو الثمن الذى جعلهم هتلر يدفعونه وسيظلون يدفعونه لمدة طويلة . .

سؤالان يترددان

لمـاذا لا تقدم الولايات المتحدة على عقد معاهدة صلح مع جمهورية ألمـانيا الاتحادية ! . .

إن عدم وجود مثل هذه المعاهدة من الناحية العملية — مع أن العلاقات الدبلوماسية قد أخذت شكلها العادى منذ عام ١٩٥١ — يبـــدو شاذاً . . ومن الواضح أن السبب الرئيسى لذلك هو أن

ألمانيا مقسمة ، وأن توقيع مثل هذه المعاهدة اليوم سيكون اعترافا رسميا بالوضع الراهن ، ويجعل من المستحيل بالنسبة للألمان أن يتقدموا نحو توحيد ألمانيا ، وأن إحدى النتائج التى تترتب على ذلك هى أن ألمانيا الغربية ليست عضوا فى الأمم المتحدة حتى الآن . . إنها دولة مستقلة ذات سيادة ، وبناء على ذلك انضمت إلى حلف شمال الأطلنطى ،ومجلس أوروبا ،واتحاد غرب أوروبا ،والرابطة الأوروبية للحديد والصلب ،وصندوق النقد الدولى والسوق الأوروبية المشتركة، وهيئة اليونسكو . . ولكنها ما زالت مستبعدة من الأمم المتحدة . . وهنا دول مثل سلفادور ومالى وجابون أعضاء فى الأمم المتحدة . ، ولكن ألمانيا الغربية ليست عضوا فيها .

وإذا كانت الولايات المتحدة قد اعترفت بالدول التابعة للاتحاد السوفييتى مثل بولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا وغيرها . . فلماذا تصر على عدم الاعتراف بألمانيا الشرقية ؟ . .

إن الإجابة على ذلك هى نفس الإجابة . . فالاعتراف بالنظام الشيوعى يعنى أننا نوافق على وجوده ، وهو الشئ الذى لا نعترف به من الناحية العملية. . كما أن ذلك يحتمل أن يقضى على كل أمل فى توحيد ألمانيا فى المستقبل القريب ، وأن سياسة الولايات المتحدة ما زالت تقوم على هدف نهائى هو تحقيق وحدة ألمانيا . . ولكننا نعرف جيداً أن الشروط التى نضعها لذلك لن يقبلها الشيوعيون .

٤ — برلين .. نقطة حراسة ومحور

لقد طرت أنا وزوجتي من فرانكفورت إلى برلين على طائرة أمريكية فوق المنطقة الشيوعية لمسافة ١٠ أميال ، مستخدمين واحداً من الممرات الجوية الثلاثة التي تخضع لإشراف دقيق جداً ، والتي تعطى العالم الغربي مدخلا إلى المدينة بطريق الجو . . وهذه الرحلة في الوقت الحاضر تحف بها المخاطر . مثلما تحف بالرحلة من ميلووكى إلى ديترويت . . وفي المرة الأخيرة قطعت هذه الرحلة في ظروف مختلفة تماماً ، فقد جلسنا فوق ٤ ألف رطل من الفحم أثناء حركة المواصلات في عام ١٩٤٨ .

وبرلين نفسها تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه منذ اثنتى عشرة سنة .

وهنا أيضاً كما في الروهر — تصل المعجزة الألمانية إلى ذروتها فبرلين التي ما زالت تعد أكبر مدينة صناعية في ألمانيا تنبض بالحركة والضجيج ، كما أنها تبرق . . . وفي المرة الأخيرة التي طفت فيها كورفيرستندام وقعت عيناى على أناس جياع يقفون في صف من أجل الحصول على قدر قليل من الطعام ، وكان في امكانك أن تشترى أى فتاة مقابل سيجارة واحدة . . ولكن اليوم ، هناك في المنطقة الحديثة من برلين محلات فاخرة تمتلىء بالبضائع التي جاءت من أطراف الأرض ، كما أن هناك مطاعم حسنة الزخرف ويندر أن تقع عينيك على أحد التاكسيات ليس من ماركة مرسيدس — بنز .

ورغم كل ذلك فآثار الحرب ما زالت كثيرة . . فمازالت هناك آثار للدمار والقسوة ، فقد حطمت قنابل الحلفاء ٦٠٪ من المدينة ، ولم يتم بناء كل ذلك مرة أخرى .

وإذا سرت عشر دقائق فى برلين لرأيت السبب الذى يجعل معظم الألمان يشعرون بالسخط والخوف من التفكير فى حرب أخرى ، إذ أن المدينة لم تطرح أكفان الحرب الماضية . . وفى الواقع ، لم يوافق المواطنون من أهل برلين على اقتراح بإعادة بناء الكنيسة التذكارية . . إنهم يريدون الإبقاء على هذا الأثر من آثار الرعب كما هو إلى الأبد ، ليكون نصباً تذكاريا يمثل الآلام التى مرت بها برلين ، ويذكر أهلها بالمحنة القاسية التى مرت بها بلدهم .

وبرلين مدينة مقسمة — كما يعرف كل منا — ويعيش فى القطاع الغربى منها حوالى ٢ر٢ مليون أما فى القطاع الشرقى فيعيش حوالى المليون أو أكثر بقليل . . وقد كان عدد سكانها قبل الحرب ٥ر٤مليون نسمة ، ويغطى القطاع الغربى مساحة قدرها ١٨٥ ميلا مربعا ، أما القطاع الشرقى فيغطى مساحة قدرها ١٥٥ ميلا مربعا . . وتبلغ المساحة الكلية لبرلين قدر مساحة واشنطن ثلاث مرات ونصف المرة . . وما زال القطاع الغربى مقسما إلى قطاع انجليزى ، وقطاع فرنسى ، وقطاع أمريكى (القطاع الأمريكى تبلغ مساحته ٨١ ميلا مربعا ، ويعتبر أكبر من باريس) . . ولكن الحدود بين هذه القطاعات غير ذات أهمية ، فتستطيع أن تمر من قطاع إلى قطاع دون أن تشعر بذلك . . وما زالت السلطة الحاكمة المشتركة بين الحلفاء

موجودة إلى الآن ، لأن المدينة ما زالت — نظريا — تحكم بواسطة تصريح برلين المزعوم ، الذى أصدرته القوات الأربع المنتصرة (الولايات المتحدة، الاتحاد السوفييتى ، بريطانيا ، فرنسا) فى ٥ يونية عام ١٩٤٥ .

ولكن فى واقع الأمر ، فإن برلين الغربية تتكون من القطاعات الأمريكية والانجليزية والفرنسية ، وبرلين الشرقية تتكون من القطاع الروسى ، ولكل منها حكومة تختلف اختلافا جوهرياً عن الأخرى . . ومن الناحية العملية فإن برلين الغربية ليست جزءا من ألمانيا الغربية ، مع أنها متحدة معها تماماً فى الشئون الاقتصادية والعملة .وما إلى ذلك، ولكن برلين الشرقية ضمت إلى ألمانيا الشرقية . . وأحيانا يطلق على قيادتها اسم حكومة « بانكو » حيث إن رئيس الوزراء يعيش فى دائرة انتخابية فى شرق برلين اسمها بانكو . . أما برلين الغربية فإنها ترسل ٢٢ نائبا إلى بون ، لهم الحق أن يتكلموا ولكن لا صوت لهم . . وحكومة (بون) الاتحادية تحتفظ بما لا يقل عن ٥٤ وكالة فى برلين ، ولها موظفون هنا أكثر من بون نفسها ، ومساعدات بون تساند برلين ، وهى تصل إلى ما لا يقل عن ٥٠٠ مليون دولار سنويا، ومع ذلك فإن برلين الغربية ليست فى ألمانيا الغربية . . لا من الناحية الجغرافية ولا من أى ناحية أخرى .

ولم يبق من حكومة القوات الأربع إلا أربعة آثار :

١ — سجن سباندو حيث ما زال ثلاثة من أشهر مجرمى الحرب النازيين محبوسين هناك : رودلف هيس ، بالدور فون شيراك ،

والبرت سبير . . وتتبادل قوات «الاحتلال» حراسته مرة كل شهر .. وسجن سباندو ذو تكاليف كبيرة لدرجة أنه من الصعوبة الاحتفاظ به ، ولكن الروس لا يريدون التنازل عنه .

٢ — مركز الحلفاء للرقابة الجوية ، الذى ينظم المواصلات فى ممرات جوية عرضها ٣ر٣ ميلا ، والتى تؤدى إلى برلين من ناحية الغرب .

٣ — مكتب جمرك على الحدود بين المنطقتين :

٤ — مكتب سفريات على الحدود بين المنطقتين .

إن هناك شيئاً يستحق النظر، وهو أن برلين تعتبرالمدينة الوحيدة فى ألمانيا حيث يمكن لكل من الحزب الشيوعى (الحزب الشيوعى فى ألمانيا الشرقية) والحزب الاشتراكى الديمقراطى فى ألمانيا الغربية) من التصويت. . . وفى آخر انتخابات (عام ١٩٥٨) حصل الشيوعيون على ١ر٩ ٪ ـ وقد حصلوا فى عام ١٩٤٦ على ١٩ ٪ ـ ويحكم الاشتراكيون ـ تحت رياسة ويلى براندت ـ برلين عن طريق ائتلاف يناسب اغراضهم ، مع أن لهم الاغلبية المطلقة (٧٨ مقابل ٥٥) فى مجلس المدينة . . وتتكون المعارضة من حزب أديناور المحافظ ، وان فرانز امريهن نائب العمدة ، وهو السلطة الحقيقية فى الحكومة من الحزب الديمقراطى المسيحى .

ويحتفظ الحلفاء فى برلين الغربية بحوالى ١١ ألف جندى : ٥٠٠٠ أمريكى، ٣٥٠٠ فرنسى، ٢ر٥٠٠ بريطانى .. أما الروس فانهم يؤكدون

أنه ليس لهم أى قوات فى برلين الشرقية ، ولكن هناك ما لا يقل عن ٢٢ فصيلة روسية تعسكر بالقرب من ألمانيا الشرقية (ولا جدال فى أن قوات حلف الاطلنطى ـ ومعظمها من الامريكيين والبريطانيين تعسكر فى ألمانيا الغربية ، ولكنها مفصولة عن برلين الغربية بحزام صلب من الارض الشيوعية ، بينما ألمانيا الشرقية وبرلين الشرقية متحدتان تحت حكم حكومة بانكو ومن هنا فان القوات الروسية تستطيع الوصول بسرعة الى برلين الشرقية) .

وبرلين مدينة مقسمة ، لا ريب فى ذلك . . ماذا يكون حال لندن اذا فصلت وست مدستر مثلا عن شيلسى بفاصل يفصل بين نظامين مختلفين للحكومة ، وللمجتمع ، وللقيم الانسانية ، وشديدى العداء لبعضهما ؟

وانه لمن المستحيل فى برلين ـ الافى حالة اتصالات على أعلى مستوى أن تتصل من القطاع الغربى بالقطاع الشرقى تليفونيا أو بالعكس ، وان اتصالا بين بعض الناس على بعد ميل واحد لابد وأن يكون عن طريق فرانكفورت وليبزج عبر أكثر من ألف ميل من الاسلاك ، وحتى امتدادات المياه منفصلة عن بعضها .

ومع أن برلين مدينة مقسمة ، فهى ليست مقسمة تماما ، فهناك ثلاثة مرافق عامة تخدم المدينة كلها . . أولا شبكة المجارى التى يديرها الشرق ، يدفع فيها الغرب ...ر١٠٠ مارك (٠٠ ر٢٥ دولار) نصيبه فى المحافظة عليها فى حالة سليمة . . ثانياً السكك الحديدية المعلقة التى تدار أيضاً بواسطة الشرق . . وثالثاً خطوط المواصلات التى تسير

تحت الارض ، وهي تدار بواسطة الغرب مع أن الشرق يملك فيها ١٤٠ عربة ، ويدفع الغرب مبلغاً من المال سنويا للشرق نظير استخدامه لها . والاتوبيسات والسيارات العادية تقف عند الحدود . . وعلى المسافر أن يركب مركبة أخرى ، ولكن المواصلات فى الخطوط المعلقة والتى تحت الأرض (فى الحالات العادية) تسير مباشرة الى هناك وعلى ما يبدو فى هذا من غرابة ، فان حوالى ٤٠ ألفا من أهل برلين الشرقية يعملون فى الغرب ، ويرجعون يوميا إلى برلين الشرقية . . كما يوجد حوالى ٧ آلاف من أهل برلين الغربية يعملون فى الشرق .. وعلى ذلك فان حوالى ٥٠ ألف مواطن يعبرون الحدود يومياً . . ونقطة غريبة أخرى ، هي أن اثنين من الاثنين والعشرين من نواب برلين الغربية فى بون يعيشون فى الشرق ، ومن بينهم أرنست لمر أحد أعضاء حكومة أديناور ، وأيضاً ستة أعضاء من حكومة برلين الغربية . . والسبب واضح ، وهو أنهم كانوا يعيشون فى القطاع الشرقى من المدينة ، أو لهم فيها أملاك قبل التقسيم بزمن طويل ، ولا يريدون تركها الآن .

وكثير من سكان برلين الغربية يعبرون الحدود الى برلين الشرقية ليستمتعوا بالمسارح والاوبرات ، لأن مسارح ألمانيا الشرقية رخيصة وجيدة .. كما أن كثيرا من سكان برلين يأتون الى برلين الغربية ليستمتعوا بمشاهدة الأفلام ودخول مكتبة مركز الاستعلامات الامريكى ليقرأوا الصحف الغربية ، ويأتى اليه حوالى ٤٠٠٫٠٠٠ شخص من سكان ألمانيا الشرقية سنويا . . والناحية الثقافية هى كل ما تهتم به الولايات المتحدة الآن لتقديمه لأهل برلين ، بعد أن أصبحت المعونة المالية غير ضرورية

فهناك معهد هام مثل (الراديو فى القطاع الامريكى) الذى أسس عام ١٩٤٥ / ١٩٤٧ وهو أقدم محطة إذاعة فى برلين .. وهو يقدم لهم الدروس المختلفة ، ويمثل حرية التعبير والرغبة فى الحياة .

ولذلك ، فإن برلين تعتبر النقطة الوحيدة على الحدود بين العالم السوفييتى والعالم الغربى التى نستطيع أن نقول عنها : إنها مفتوحة .

ولا جدال فى أن كثيرين يوافقوننى على أن مركز اللاجئين هو الظاهرة التى تستحق الاهتمام فى ألمانيا .. إننى لا أناقش الآن الأشياء العارضة ، مثل سكان برلين الذين يذهبون ويرجعون عبر الحدود بطريقة روتينية عادية . ولكننى أتكلم عن اللاجئين الحقيقيين . . فقد هرب حوالى ٣٫٣٥٠٫٠٠٠ شخص من المقيمين فى المنطقة السوفييتية (ألمانيا الشرقية) إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية منذ عام ١٩٤٥! (ويجب ألا نخلط بين هؤلاء وبين « المبعدين » ويصل عددهم من تسعة إلى عشرة ملايين ، وهم الذين طردوا من المناطق التى كانت يوما ما ألمانية ، وأصبحت الآن بولندية وروسية ، وراء الحدود الشرقية لألمانيا الشرقية) .

وعدد اللاجئين الذين يعبرون الحدود من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية يختلف حسب سياق الحوادث ، فقد وصل عددهم فى عام ١٩٥٨ إلى ٢٠٤٫٠٠٠ شخص ، وفى عام ١٩٥٩ وصل إلى ٠٠٠ر٤٣ شخص ويرجع الهبوط الذى حدث فى عام ١٩٥٩ إلى التحسن الملموس فى الحالة الاقتصادية فى المنطقة الشرقية ، مما أدى إلى شعور قليل من الناس بضرورة الهرب . . وارتفع الرقم من جديد فى عام ١٩٦٠ ، فقد عبر الحدود فى شهر مايو من هذا العام حوالى ٢٠ ألف لاجىء ، أى بمعدل

۲٤٠٫۰۰۰ شخص سنويا .. والسبب فى هذا الارتفاع الكبير اقتصادى أيضاً ، فقد أقام حكام ألمانيا الشرقية نظام المزارع الجماعية .. وقد سبب هذا كثيراً من البؤس والاستياء واليأس .

وقد هرب ما يقرب من ٨٠٪ من اللاجئين إلى الغرب عن طريق برلين ، وذلك لأن الهروب من هذه النقطة أسهل بكثير من أى مكان آخر على الحدود . . والجمهورية الاتحادية ترحب بهم رسميا ، ولكنها تجرى عليهم اختبارات دقيقة فى مركز الاستقبال فى مارينفيلد وفى أماكن أخرى، حتى تستأصل منهم الجواسيس ودعاة الشعب الذين يحتمل أن يكونوا مندسين بينهم . . وبعد هذا التطهير تقوم الحكومة بنقلهم بالطائرات (وهى الطريقة الوحيدة لنقلهم) إلى هانوفر . وبعد ذلك يكملون رحلتهم بالسكك الحديدية أو بالطريق البرى إلى معسكر من المعسكرات الأربعين المعدة لهم فى أماكن متفرقة من ألمانيا الغربية ثم بعد ذلك ينزلون إلى المجتمع وتوفر لهم الحكومة الأعمال ، وكذلك الاسكان إذا أمكن . . وهذه العملية كثيرة التكاليف ، فبعض اللاجئين يصلون إلى مارينفيلد وليس معهم إلا ملابسهم فوق ظهورهم .

ونصف مجموع اللاجئين فى السنة الماضية كان من الشباب تحت سن الخامسة والعشرين ، وبعضهم كان يحاول الهرب من الخدمة العسكرية فى ألمانيا الشرقية .. وتقوم شركة طيران ايرفرانس والخطوط الأوربية البريطانية وشركة بان الأمريكية بعمليات النقل الجوى من برلين (والغريب فى الأمر أن خطوط الطيران الألمانية غير مسموح لها

بالطيران إلى برلين) وتقوم شركة بان الأمريكية بحوالى ٥٤ رحلة من وإلى برلين يوميا .

ويوجد بين اللاجئين فوق سن الخامسة والعشرين كثيرون من المثقفين ، من بينهم مدرسين وأطباء ومهندسين معماريين ، وكثير من المهن الأخرى . . فى الواقع أ م الصفوة المختارة فى الأمة . . ولقد سمعت رقما يدعو إل الدهشة ، من سلطات رسمية لدرجة أننى لا أكاد أصدقه وهو أن ٨٠ ٪ من هيئة التدريس العليا فى جامعة ليبزج ، وهى إحدى المعاهد التعليمية العظيمة فى العالم ، من خريجى هذه المعسكرات (معسكرات الاستقبال) .

وكثير من اللاجئين يتركون ديارهم فى ألمانيا الشرقية بقلوب مثقلة فإنهم لا يتركون أحباءهم وأقرباءهم فحسب . بل إنهم أيضاً يحرمون شعبهم — الذى خنقه النظام الشيوعى — من خدماتهم . فبعض الجهات فى ألمانيا الشرقية لم يعد لديها أى طبيب أو طبيب أسنان أو مهرة المهندسين . ولقد وصل أخيراً إلى مارينفيلد طبيب فى منتصف العمر . قال : « لقد تركت أربعة آلاف نسمة فى قريتى بدون عناية طبية . إنها مأساة ولكن كان على أن أخرج أنا وعائلتى لأن المدرسين الشيوعيين لقنوا ابنى البالغ من العمر الحادية عشرة درسا فى ألا يعتقد فى الله » .

وبالرغم من أن المانيا الغربية لا ترفض أى لاجيء فإنها أحيانا ترجو سكان ألمانيا الشرقية أن يظلوا كما هم وتقود الكنيسة الانجيلية هذه الحملة . والسبب ليس فى أن ألمانيا الغربية ليست قادرة على

استيعاب مزيد من اللاجئين . ولكن لأن المسئولين فى ألمانيا الغربية وعينهم على الوحدة القادمة ، لا يريدون أن تخلو ألمانيا الشرقية من المواطنين البورجوازيين تماما ، الذين يحملون شعورا وديا نحو الغرب وأيضا ، من الناحية الإنسانية حيث إن خسارة ألمانيا الشرقية من الأطباء والمدرسين وما إلى ذلك ، ينظر إليها بكثير من الخوف والهلع .

لماذا تسمح حكومة ألمانيا الشرقية بهذا التسرب الخطير فى السكان ؟ لماذا لا توقفه باغلاق الحدود بين ألمانيا الشرقية من حيث يأتى معظم اللاجئين ، وبين برلين الشرقية ؟ وسبب ذلك هو أن هذا يعنى أن حكومة بانكو تحجز مواطنيها عن عاصمتهم ، وهذه استحالة سياسية . وإذا قبض على أحد مواطنى ألمانيا الشرقية وهو يحاول الهرب فإنه يحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات، ويحكم على أمه — إذا كانت موجودة — بمدة أقل ، ولكن لا يقبض على عائلات اللاجئين الذين تم هربهم . وأن ٩٩ ٪ ممن يحاولون الهرب ينجحون فى ذلك ، فإنه إذا وصل اللاجىء إلى برلين الشرقية فالباقى سهل . فما عليه إلا أن يأخذ المواصلات المعلقة أو التى تحت الأرض ليصل إلى القطاع الغربى . ولكن لماذا لا توقف حكومة برلين الشرقية الخط المعلق أو على الأقل تنظمه ؟ من الواضح أنه يمكن أن تفعل ذلك ، ولكن الاستمرار فيه سيكون صعبا وغالى التكاليف ويجعل من المستحيل على عمال ألمانيا الشرقية أن يذهبوا إلى أعمالهم ويعودون .

إنه بالرغم من أن ذلك شيء عجيب إلا أن ذلك يحدث فعلا وأن حوالى ٥٠٠٠٠ مواطن من ألمانيا الغربية يهربون إلى ألمانيا الشرقية سنويا . ويتكلم عن الأسباب التى تدفعهم إلى ذلك فيقول : إن هناك أسبابا عائلية تدعوهم إلى ذلك ، وأحيانا لا يجـــدون العمل المناسب فى ألمانيا الغربية فيهربون إلى هناك وأن معظم هؤلاء يكونون من اللاجئين السابقين إلى ألمانيا الغربية . ولما لم يجدوا العمل الذى يريدونه أو لأنهم يريدون أن يروا ديارهم القديمة فيهربون إلى هناك .

ويلى براندت وأزمة برلين

ويعتبر ويلى براندت عمدة برلين الغربية (فى الحقيقة رئيس وزارة حكومة برلين الغربية) من أحسن الرجال الجذابين الذين قابلتهم فى الحياة العامة . وهو شخص لطيف المعشر . ويدعو إلى الثقة والصفاء وهو ليس بالشخص المخادع ، وهـــذه لعنة كثير من السياسيين ، وهو شخص سريع البديهة ، فصيح وشريف .

وبراندت ، كما ذكرت من قبل، مرشح الحزب الاشتراكى الديمقراطى ضد مرشح الحزب الديمقراطى المسيحى فى انتخابات عام ١٩٦١ . وهو يقف فى الجناح الأيمن المعتدل من الحزب ، وموقفه بالتقريب مثل موقف جيوسيب سيراجات فى إيطاليا أو إلى حد ما ، هيو جيتسكل فى بريطانيا وهو ليس مهتما بالنظرية مثل اهتمامه بالسلطة . فليتول الحزب الاشتراكى الديمقراطى المنصب أ لا . ثم بعد ذلك يجىء الوقت

فى الـكلام على الآراء المتعارضة فى النظرية الاشتر كية . ومصادر قوة براندت ومميزاته عديدة ، مثل قوته الشابة (فهو ما زال فى السادسة والأربعين) وطريقته فى الحصول على أصوات الطبقة المتوسطة غير الاشتراكية ، وعلاوة على ذلك ، فهو الرجل الذى يقف على خط النار ، الرجل الذى يقف على المدفع فى برلين ، مدينة المتاعب المستمرة ، وقلب أخطر أزمة تهدد العالم .

وقد ولد براندت فى لوبك ، وقد هرب من ألمانيا بعد ظهور هتلر ، وعلى عكس معظم زملائه من الاشتراكيين الديمقراطيين الذين هربوا إلى الجنوب وإلى الشرق ذهب إلى الشمال فى طريقه إلى النرويج . وقد عمل صحفياً ، وتجنس بالجنسية النرويجية ، وانضم إلى حركة المقاومة النرويجية ، ووصل إلى رتبة ماجور ، وبعد الحرب عاد إلى برلين (فى زى نرويجى ، وزوجه نرويجية حسناء). ثم استرد جنسيته الألمانية وعمل فى رافوس وأصبح تحت حماية ارنست رويتر الذى كان عمدة لبرلين الغربية فى عام ١٩٤٨ . وهو لا يختلف كثيراً فى معظم تصريحاته فى السياسة الخارجية عن سياسة اديناور . وقد هزم براندت فى محاولته الأولى لشغل منصب العمودية فى برلين ، ولـكنه كسب المحاولة الثانية

أما عن مركز براندت كعمدة برلين فإنه يدعو إلى التفاؤل . وهو لا يعتقد فى أن الروس سيتجرأون على فرض حصار رسمى آخر لأن « حتى خروشرف لا بد وأن يكون له مستشارون فى العلاقات العامة . ولأن استخدام سلاح التجويع ضد مدينة مالن يكون عمـــلا يكسبه

لأصدقاء ، — وهو لا يريد أن يصبح الاتحاد السوفيتى أكثر عزلة عما هو عليه الآن . وعلى أية حال فإنه إذا حدث حصار جديد . فإن العمدة يؤكد بكل ثقة أن برلين مستعدة كل الاستعداد لمقابلته ، فلا توجد مدينة فى العالم عندها احتياطى فى الفحم أو الطعام مثل برلين . أما عن ألمانيا عامة فإنه أعرب عن أمله فى إمكانية نزع السلاح . وإن المشكلة الألمانية ومشكلة السلام مرتبطان ببعضهما تماماً . فإذا ما استطاع الروس والغرب أن يحققا اتفاقية لنزع السلاح ، فسيقلل ذلك من الضرورة التى يشعر بها كلا الجانبين فى احتفاظهما بقوات فوق الأراضى الألمانية .

إن الباعث على « مشكلة » برلين هو نيات الاتحاد السوفيتى ، فمن الواضح أن نظام البانكو فى برلين الشرقية يعتبر عظمة فى حلق الغرب وكذلك فإن الغرب عظمة فى حلق الشرق . ومن الصعب القضاء على سبب قيام هذه المشكلة ذلك لأن فى جعبة كلا الطرفين الكثير وإن برلين فى حد ذاتها جائزة ضخمة ، وأيضا فإن الشيوعيين لا يستطيعون أن يسيطروا تماماً على ألمانيا الشرقية ، التى تعتبر حيوية وهامة لموسكو مثل أوكرانيا ، طالما أن برلين لها قطاع غربى يمثل الفجوة التى يستطيع أن يخرج منها سكان ألمانيا الشرقية وطالما وجدت برلين الغربية فإن النظام الشيوعى فى أوروبا يظل مهددا دائماً . والنظام السوفييتى لم يكمل بعد .

ومن ناحية أخرى فإن أهمية برلين للعالم الغربى واضحة جداً فإذا ما سقطت برلين . فإن ألمانيا الغربية كلها ستسقط هى الأخرى . وقد

سمعت هذه الجملة تقال « إذا ما تراخينا وسمحنا لأنفسنا بأن نجلو عن برلين فإننا سنفقد كل أوروبا » . إنه ليس مجرد الشرف ذلك الذى دعا أمريكا وبريطانيا وفرنسا إلى ذلك بل إنه لضمان سلامة أنفسهم فإن فقد برلين سيكون ضربة قاضية للعالم الديمقراطى بأكمله .

ولكن المشكلة تبقى ، فكيف تنوى تلك الدول الاحتفاظ ببرلين إلى ما لانهاية ؟ .. وكيف يمكن الدفاع عنها ؟ ..

كيف يمكن للغرب أن يحتفظ بمثل هذه المدينة الصناعية الكبيرة التى يعيش فى القطاع الغربى منها مليونان وربع مليون نسمة . فى الوقت الذى تعتبر فيه المدينة منفصلة من الناحية الجغرافية عن الغرب بل فى الواقع يحاصرها الشرق تماماً ؟ .. وهل تستحق برلين الخوض فى حرب عالمية جديدة ؟.. وهل سيحارب الفرنسيون ؟.. وهل سيحارب البريطانيون ؟.. وهل سنحارب نحن الأمريكيين ؟..

لقد تأزمت هذه المشاكل فى ٢٧ نوفمبر ١٩٥٨ ، عندما خرج خروشوف عن بروتوكول الدول الأربع الذى يحدد إدارة الحلفاء لبرلين، وأصدر إنذارا مدته ستة أشهر يطالب فيه وضعاً جديداً لبرلين كمدينة حرة منزوعة السلاح ... وإذا قدر لهذا الوضع أن يقوم فانه سوف ينهى حكم الدول الأربع لبرلين ، وينقضى قانون الاحتلال ويجعل الموقف بأكمله مفتوحاً ، وعندئذ يسيطر سكان ألمانيا الشرقية على الدخول إلى برلين ، ويدعون بأن الحلفاء الغربيين لم يتخذوا مركزهم فى المدينة بمقتضى اتفاق دولى .

ومن البديهى أن مواطنى ألمانيا الشرقية الشيوعيين سوف يكونون تحت إشراف الروس طوال الوقت ، ولكن الروس سوف يتظاهرون بعكس ذلك ، وسوف يكون فى استطاعة سكان المانيا الشرقية أن يعزلوا برلين ويعرضوا عليها حصاراً فى أية وقت ، مؤكدين أن هذه المشكلة قد أصبحت مشكلة ألمانيةداخلية تماماً ، وأن الدول الغربيةليس لها الحق فى التدخل فى المسألة ، أوليس لها الحق فى الوجود فى برلين على الإطلاق .

وترتب على ذلك أزمة كبيرة ، ولكن الحلفاء صمدوا ، ولم يستطع خروشوف تنفيذ إنذاره بل فى الواقع ألغى خروشوف إنذاره ، وقد فعل خروشوف ذلك جزئياً لأنه يخاف الحرب ، وجزئياً لأنه غير تكتيكاته ، جاهداً فى محاولة عقد مؤتمر للقمة ، وقرر أن يلتزم جانب الاعتدال .. واننا نألف مثل هذا التأرجح السوفييتى .. وأعقب ذلك زيارة خووشوف للولايات المتحدة ومحادثاته مع الرئيس السابق أيزنهاور فى كامب ديفيد ، وان ما قيل فى هذه المحادثات لايزال محلا للنقاش ومختلف التفسيرات .

ولم تمض ثمانية أشهر حتى تسببت حادثة الطائرة ى ـ ٢ الأمريكية فى تحطيم مؤتمر القمة فى باريس فى مايو عام ١٩٦٠ ، وتوقع العالم بعدذلك أن خروشوف ـ فى غضبه الجنونى ـ سوف يطلق زمام مواطنى ألمانيا الشرقية ويعيد فرض الضغط على برلين الغربية .. وبدلا من ذلك تحدث خروشوف فى شرق برلين بعد فشل مؤتمر القمة مباشرة ، والتزم جانب الاعتدال .. وهذه هى المشكلة ، فن الواضح أن خروشوف

لا زال يأمل فى إجراء مفاوضات تؤدى إلى تعديل وضع بولين فى صالحه دون المغامرة بالدخول فى حرب .. وعلى أية حال فلابد أن نضع أمام أعيننا احتمال وجود تأرجح جديد فى السياسة السوفيتية واشتداد الأزمة فى برلين مرة أخرى .

ومسألة أخرى تستحق الذكر .. فمع أن ألمانيا الشرقية (المنطقة الروسية) دولة تابعة للسوفييت ، وأن الاتحاد السوفييتى يعترف بها كدولة ذات سيادة ، فإن لروس لم يوقعوا معاهدة صلح مع ألمانيا الشرقية .. كما أن الحلفاء الغربيين لم يوقعوا معاهدة صلح مع ألمانيا الغربية ، والسبب الرئيسى لذلك هو أن الروس ـ الذين يحاولون كسب الوقت ويضعون أمام أعينهم هدفا بعيد المدى ـ يحرصون على الفوز بألمانيا كلها أكثر من حرصهم على ألمانيا الشرقية فقط . ومن البديهى أن عقد معاهدة صلح مع ألمانيا الشرقية سوف يعطى الصفة الرسمية لوضع ألمانيا فى الوقت الحاضر، ويجعل تقسيمها أمراً دائماً ومن الواضح أن الروس يريدون ألمانيا شيوعية موحدة .

أما الحلفاء ـ من الجانب الأخير ـ فهم ينظرون بامتعاض وخوف إلى إمكانيات عقد معاهدة بين الكرملين وألمانيا الشرقية ، وذلك لعدة أسباب أهمها: أن ذلك سوف يقضى على امكانية توحيد ألمانيا فى المستقبل القريب على الإطلاق .. وعلاوة على ذلك ، فان عقد معاهدة مع ألمانيا الشرقية ربما تؤوله كثير من الدول المحايدة وغير المنحازة على أنه انتصار للدبلوماسية السوفييتية ، وربما يعقب ذلك اعتراف عدد من هذه الدول بألمانيا الشرقية ، ولكن يجب على خروشوف أن يمعن التفكير فى ذلك

كله ، إذأن اعتراف السوفييت بالنظام القائم فى ألمانيا الشرقية له مساوئه ومزاياه ، إذ ربما يخسر الاتحاد السوفييتى ـ كما قال برندت أخيراً لأحد الصحفيين ـ الاتصال المباشر بألمانيا الغربية .. ولكن برندت يعتقد أن عقد معاهدة صلح بين الكرملين وألمانيا الشرقية لن يحدث قريباً وأنه إذا حدث ذلك ، فانه لن يغير من الوضع القائم كثيراً .

ويجب علينا الآن أن ننتقل فى الحديث عن الشرق أى عن المنطقة السوفيتية أو القطاع السوفييتى .

٥ ــ القطاع السوفيتى أو المنطقة السوفيتية

وعبرنا بوابة براند نيورجر تور . وهى أغرب منفذ فى الحدود بين برلين الشرقية وبرلين الغربية ودلفنا فى القطاع السوفييتى على طول أونتر دن لينذ.ن والأشجار هنا ـ كما فى تيرجارتن (حديقة الحيوان) قطعت لاستخدامها كوقود أثناء الشتاء القارس الذى تخلل الحرب . ثم أعيدت زراعتها ووصلت إلى ارتفاع ملحوظ فى الوقت الحاضر ولكنها تبدو نحيلة

وكنا كلما تقدمنا خطوة ازداد إحساسنا بالتناقض الشديد بين برلين الغربية وبرلين الشرقية . إن السيارات قليلة فى برلين الشرقية عنها فى الغربية . . وكذلك فالمحلات فارغة وليست فاخرة ، وليست هناك مطاعم فاخرة أو مقاه على جانبى الشوارع . . ولكن أهم عناصر التناقض هى أن الزائر يشعر ــ مباشرة تقريبا ــ بنوع من الركود

النفسى الشامل الذى يدعو إلى الغرابة . . فهناك تشابه كئيب لا يشرح الصدر يصبغ المدينة بأكملها باللون الرمادى . . هذه هى روسيا ، بل وأسوأ من ذلك ، هذه هى ألمانيا الروسية . . وإن وجود الاثنين أمر خانق لا يطاق .

والدمار هنا أكثر بكثير مما هو فى برلين الغربية ، فالمبانى ماهى إلا أشلاء وهياكل . . ولازالت الميادين الكبيرة تكتظ بالأنقاض ، وان أحد الأسباب التى حدت بالذين يسيطرون على برلين ألا يحضوا شعبهم على ازالة هذه الاشلاء ، هى أنهم أرادوا أن يلقنوهم درساً — أى أن يحتفظوا بذكريات الحرب حية لكى تذكر الشعب الألمانى بما جلبته عليه الحرب . . والروس لايثقون بالألمان على الاطلاق . . ومن بين التفاصيل التى تدعو إلى الغرابة هو أن أهم عيد قومى فى ألمانيا الشرقية اليوم هو يوم ٩ مايو من كل عام ، وهو اليوم الذى سلمت فيه ألمانيا دون أى شروط . . ولنتصور أمة تحتفل بيوم هزيمتها !

ومن بين الأحاسيس التى يحتمل أن يشعر بها معظم الزوار الذين يفدون من الغرب ، والذين ينظرون إلى برلين الشرقية نظرة سطحية هى أن تفوق نظام المشروعات الحرة على الاقتصاد الشيوعى يتضح فى برلين الشرقية بدرجة كبيرة . . وهنا يرى الزائر جزءين قريبين من مدينة واحدة . أحدهما نابض يكتظ بالحركة والحيوية والحياة ، والآخر يبدو راكداً مهملا قذراً . . ولكن من الحمق أن نبنى مقارنة صحيحة على هذه الشواهد .

فأولا : نجد أن برلين الغربية قد تمتعت بفوائد «مشروع مارشال».. وهى فوائد كبيرة لم تتمتع بها برلين الشرقية .

وثانياً : لا تعتبر برلين الشرقية - فى بعض النواحى - رمزاً لألمانيا الشرقية بأكملها ، إذ أن ليبزج وبعض المدن الأخرى مدن غنية .

وثالثاً : لا يعير الشيوعيون - عادة - اهتماما كبيراً بمظهر المحلات، وصيانة المبانى ، وماشابه ذلك .. ولكنهم يركزون اهتمامهم - بدلا من ذلك - على أشياء غير مرئية ، أهمها بناء صناعة ثقيلة .

ورأينا المكان الذى كانت به مدينة الملاهى فى الماضى (وهو اليوم ميدان ماركس - انجلز .. وجبنا فى مساحة من الأنقاض الأرضية فى الطرف النهائى من أونتر دن ليندن ، واشترينا بعض الأشياء من إحدى المحلات الكبيرة التى تمتلكها الدولة وهو كئيب جداً ولكنه يضم كثيراً من البضائع المعروضة للبيع .. ورأينا الأعلام الضخمة ذات اللون الأحمر والذهبى ترفرف فى كل مكان .. وأحياناً ترفرف على مناطق مدمرة خربة تماماً ، وقد كتب على هذه الأعلام عبارات تقول .. التخطيط المشترك . العمل المشترك ، الحكومة المشتركة ، أو من أجل معاهدة السلام وإنهاء التوتر ، ومن أجل انتصار الاشتراكية عن طريق تدعيم السلام .

ومررنا فى شارع ليبزجر الذى كان أكبر شارع تجارى فى ألمانيا قبل الحرب والذى أصبح فى الوقت الحاضر لاشىء تقريباً ، ورأينا حطام المسرح القديم الجميل ، وألقينا نظرة على فناء القيصر القديم الذى

بقى منه حائط متداع ، ونظرنا إلى مبنى وزارة الطـــيران الذى يبدو على حاله تقريباً .. ورأينا شارع ولهلم حيث مات هتلر ـ وهو تل رملى منخفض ومسطح يغطيه المحار الأسود والأنقاض ـ وهذا هو كل ماتبقى من دولة الرايخ .

ولا جدال فى أن أهم تحفة هى « شارع ستالين» الذى كان فيما مضى « شارع فرانكفورت » .. وان النكتة السائدة عنه فى الغرب هو أنه الشارع الذى لايؤدى بك إلى أى مكان .. وهنا تعيش الصفوة المتعلمة فى برلين الشرقية .. وهنا يبلغ اتساع الرصيف ثلاثمائة قدم ، والمبانى السكنية كئيبة ، وغريبة ، طليت باللون الأصفر السمنى ، وهى تشبه مبانى موسكو .

وفى طريق عودتنا عبرنا مساحات من الخراب ، مررنا بما تبقى من فندق الدون ، ولم نستطع مغالبة القاء نظرة على الداخل .. لقدكان هذا الفندق فيما مضى أعظم الفنادق على الاطلاق .. وأعتقد أنه كان أعظم فندق نزلت فيه فى حياتى ، وكل ماتبقى منه اليوم طريق يؤدى إلى السلم ، ومغطى بمشمع قديم مهلهل رمادى اللون يؤدى إلى ما كان فيما مضى جناح الخدم ، حيث توجد غرفة للطعام تحوى ست موائد أو تزيد قليلا .. وفى الطوابق العليا توجد حجرات قليلة الايجار .

ورآنى أحد الخدم أحملق فى غرابتها ، ويبدو أنه أدرك ما كنت أفكر فيه بالضبط لأنه غمغم قائلا : « هـــذا هو كل شىء » .. وعلى قاعدة الشباك رأيت طبقاً من الموز الذى أصابه العطب ،

وإلى جانبه باقة وحيدة من الورد المصنوع من الخيط ؛ ولكن كل شيء كان يبدو نظيفاً ، وكان الجو يوحي بالتعمير والتوسع الذى سيتم قريباً.

ويستطرد المؤلف فى الحديث عن ألمانيا الشرقية ، وفى المقارنة بينها وبين ألمانيا الغربية ، وعن زعماء ألمانيا الشرقية وكيف وصلوا إلى الحكم . فيقول :

تعتبر ألمانيا الشرقية ـ فى بعض النواحى ـ أهم الدول الأوروبية التابعة للاتحاد السوفييتى ، وهى الدولة الوحيدة ـ فيما عدا المجر وألبانيا ـ التى لا تنتمى إلى الجنس السلافى ؛ وهى قريبة جداً من الغرب من الناحية الجغرافية . . . ويوجد فى ألمانيا مدن مثل ايرفيورت ، وفايمار ، وينه . وماجدبرج ، ودرسون . . وربما تبدو برلين الشرقية فقيرة فى المظهر ولكن ألمانيا الشرقية ككل دولة ناجحة . وإنتاجها الصناعى ثابت ومتزايد . . وإنتاجها القومى الكلى يتزايد بمعدل سنوى قدره خمسة فى المائة ، وكان فى عام ١٩٥٨ ١٨ بليون دولار .. وفيما قبل الحرب كانت المناطق التى تكون ألمانيا الشرقية اليوم تنتج ٥٥ ٪ من كل الأدوات الميكانيكية التى تنتجها ألمانيا ، ٧٥ ٪ من المنسوجات ، وكثير من المعدات والأدوات العلمية المتخصصة .

ومن الخطأ الفاحش أن نقلل من قيمة ألمانيا الشرقية ، أو أن نقلل من مدى انتعاشها الاقتصادى أو مساهمتها فى المجال السوفييتى بصفة عامة . . . إن ارتفاع مستوى المعيشة ملحوظ وخصوصاً بعد الاهتمام

بإنتاج مزيد من السلع الاستهلاكية . والتركيز عليها الذى بدأ ببدء مشروع السبع سنوات الجديد فى عام ١٩٥٨ ، ولألمانيا الشرقية أهمية ملحوظة فى مجال آخر هو المجال العسكرى ، فجيشها قوى حسن العتاد ، وبها قواعد للصواريخ قريبة من حدود العالم الحر ، مما يدعو إلى القلق .

وتسمى ألمانيا الشرقية من الناحية السياسية « نموذج » الدولة التابعة ولكن هذا لا يعنى أن زعماءها ليسوا أكثر من مجرد ألاعيب فى يد الكرملين وتابعين له .. ولكن هؤلاء الزعماء يتمتعون بقدر كبير من الإرادة والمبادرة الخاصة بهم ، ذلك لأنهم ألمان على أية حال ، ويجب ألا ننسى أن الحزب الشيوعى فى ألمانيا كان قوة وطنية لها قيمتها قبل الحرب .. وقد ورثت حكومة ألمانيا الشرقية الحالية من هذا الحزب إلى حد كبير ، وهذه الدولة ليست واجهة ، أو ليست ظلا لدولة .. إنها دولة حتمية ، ويجب علينا أن نتذكر دائماً أنها تحيط ببرلين تماما .

ويعتبر حزب الحكومة — من الناحية النظرية — ائتلافا يضم الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين اليساريين . وهو يسمى « حزب الوحدة الاشتراكى » . ولكن الشيوعيين يسيطرون تماما على هذه الحكومة الائتلافية المزعومة . . ورئيس هذه الحكومة هو والتر أولبرخت (٦٨ سنة) وهو السكرتير الأول للحزب الشيوعى ورئيس مجلس الدولة . . . ورئيس الوزراء هو أوتو جرتفول ، وهو أحد الاشتراكيين الديمقراطيين المرتدين ، وهو يقف فوق أولبرخت

من الناحية الفنية فى الجهاز الحكومى ، ولكنه لا يتمتع بقوته أو بهيبته الكبيرة ، وقد كان أولبرخت يعمل نجاراً ، وهو يتحدث الألمانية فى لهجة ساكسونية جافة . وهو أحد ثوار المدرسة الدولية القديمة ، وقضى سنوات عدة فى موسكو .

وقد كان أولبرخت — وربما كان حتى الآن — ستالينياً قلباً وقالباً . . . ويقول البعض : إنه أقرب إلى الصين منه إلى موسكو . . . وليكن ذلك أو لا يكون ، فقد احتمل كل انقلاب حدث فى الحزب كما أن مستر خروشوف يبدو أنه يثق ثقة كاملة فى الاعتماد عليه . . . ولا جدال فى أن كل القرارات السياسية الهامة تتخذ فى الكرملين ، ولكن الكرملين يستشير أولبرخت فى ذلك . . . وجدير بالذكر أن عدداً من الأفراد ذوى الأهمية فى حكومته من أتباع النازى السابقين . . .

وأولبرخت شخصية تجمع بين الضدين ، فهو يتبع الشيوعيين مثل جومولكا فى بولندا (أو تيتو فى يوغوسلافيا) .. ولكنه مع أنه ألمانى فهو لا يشعر بشعور قومى واضح .. وجومولكا يفخر بكونه بولنديا .. ويعتبر تيتو فوق كل شىء وطنياً يوغوسلافياً . ولكن ولاء أولبرخت الوحيـــد الذى لا يهتز يتجه نحو قضية الشيوعية فى العالم أى يتجه إلى الحزب كأداة للثورة والتآمر الدولى وأن ماضيه الستالينى لا يقلق خروشوف على الإطلاق ! بل فى الواقع يرغب خروشوف أن يكون أتباع ستالين على حدود الإمبراطورية السوفييتية . . وعلاوة على ذلك يود لو كانوا على أكبر قدر ممكن من القسوة والجفاف .

والآن لا بد لنا أن نقول شيئاً عن الصورة الخلفية . . . فكيف وصل أولبرخت وصحبه إلى الحكم ؟

يجب علينا أن نعود إلى نهاية الحرب ، وهناك عدة تواريخ أساسية هامة . . أن أولبرخت — الذى تصادف أنه يتحدث الروسية بطلاقة — ينتمى إلى ما يعرف باسم « جروب أولبرخت » وهى منظمة مدنية خلف الجيش الأحمر ، وقد كانت أول فريق من المستشارين السياسيين الشيوعيين الألمان يصل إلى برلين ، وعملت مباشرة على تدعيم مركزها فى المنطقة السوفييتية ، ولكن الشيوعيين وجدوا أنفسهم يواجهون موقفاً سياسياً غريبا ، ذلك أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى كانت أقدامه راسخة فى أقاليم ألمانيا الوسطى والشرقية ، وكان عدد أعضائه مبلغ ٦٨٠٠٠٠ عضو ، وهو عدد يفوق قوة الشيوعيين . . وعلى ذلك حاولت موسكو التوحيد بين الحزب الشيوعى والاشتراكيين ، على أمل أن يستوعب الشيوعيون الاشتراكيين ، ولكن شوماخر والزعماء الاشتراكيين المتطرفين عارضوا هذه المحاولة بقوة .

ولم يستطع الروس الاقدام على أى شىء لمدة من الزمن . . ثم استطاعوا بمهارة فائقة عقد صفقة مع ستة أو ثمانية زعماء من الديمقراطيين الاشتراكيين اليساريين ، من بينهم جروتفول . . وقالوا لجروتفول : إنه إذا بقى فى ألمانيا الغربية فلن يكون إلا شخصاً ثانياً بعد شوماخر ، ولكنه إذا غير موقفه فإنه سوف يصبح دون منازع رئيس أول دولة اشتراكية فى تاريخ ألمانيا .

ونجحت هذه المناورة الروسية ، وفى ٢٠ ابريل من عام ١٩٤٦ انضم الحزب الشيوعى إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، مكونين حزب الوحدة الاشتراكى ، وهو الذى لا زال يحكم ألمانيا الشرقية حتى اليوم باسم الشيوعيين . . ولم يجد الاشتراكيون الفرصة للادلاء بأصواتهم على الوحدة بينهم وبين الحزب الشيوعى على أساس يضم الدولة بأكملها ، ولكنهم فى برلين حيث لا يمكن للشيوعيين أن يمنعوا اجراء انتخابات حرة ، صوّت ٨٧٪ منهم ضد الوحدة . . وتصادف أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى حاول الاحتفاظ بعملية سرية قوية فى برلين الشرقية منذ ذلك العهد ، برغم العقبات الخطيرة .

وفى ١٧ يونيو عام ١٩٥٣ واجه أولبرخت ثانى أزماته ، فقد كانت سياسته تقوم على صبغ ألمانيا الشرقية بالصبغة السوفيتية تماما ، ولكن التجربة لم تفلح تماماً وعارضه ثلاثة من أقوى أعضاء الحزب من بينهم رئيس البوليس السرى الهر زايسر الذى عرف باسم « بريا الألمانى »

ولكن أولبرخت أفلح فى سحق هذا التمرد .

وواجهت أولبرخت أزمة أخرى فى فبراير سنة ١٩٥٦ ، بعد أن ألقى خروشوف خطابه فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى فى موسكو وهو الخطاب الذى قلل فيه من قيمة ستالين .

وفى ذلك الوقت نهض أحد أعضاء الحزب المتمرسين ـ ويدعى شيردفان ـ فى برلين الشرقية ، مطالبا بتنحية أولبرخت لأنه من أتباع ستالين . .

ويبدو أن خروشوف عضد شيردفان فترة من الوقت ، ولكنه غير موقفه .. وهكذا أمكن لأولبريخت أن يصمد أمام العاصفة وتنحى شيردفان عن المسرح وأصبح رئيساً لمكتب محفوظات الدولة فى بوتسدام

* * *

وقصارى القول : ما هو رد فعل سلطات ألمانيا الشرقية بالنسبة لظاهرة اللاجئين ؟

إن نقص السكان أمر خطير بلا جدال ، وقد انخفض سكان الدولة حوالى ٢٠ ٪ فى اثنى عشر عاما ، من أكثر من عشرين مليوناً إلى سبعة عشر مليوناً ، وتشعر ألمانيا الشرقية بنقص شديد فى الأطباء والمهندسين والرجال المهرة من الناحية الفنية بسبب هجرتهم إلى الغرب

وعلى أية حال فليس هناك نقص فى الأيدى العاملة فى الصناعة حتى الآن .

ويعتبر نقص السكان فائدة إلى حد ما ، إذ أن قلة السكان تعنى قلة الأفواه التى تطالب بالغذاء ، وهذا يعنى قلة السلع الاستهلاكية التى يجب انتاجها .

ومن البديهى أنه إذا بدأ النظام فى الاحساس بالعسر ، وأصبح انخفاض الانتاج مشكلة فانه سيتصرف مع الشعب بالحيوانية المعهودة عند كل الأنظمة الشيوعية ، ويفرض قواعد تقضى بتخصيص حصص تموينية للمواطنين ، أى أن المواطنين سيأخذون قدراً من السلع الاستهلاكية أقل مما ينالونه اليوم .

وإلى جانب كل ذلك يوجد عنصر هام آخر يأتى من طبيعة السياسة

لشيوعية طويلة المدى . . وهو أنه حتى ولو كانت هجرة اللاجئين مسألة خطيرة ، فانها لا تدعو إلى اغلاق الحدود ونقض قانون الاحتلال وخلق أزمة دولية خطيرة ، وإن عقيدة ألمانيا الشرقية تتشابه مع عقيدة الكرملين ، وهي أن العالم بأسره سوف يكون شيوعياً بمضى الوقت. وعلى ذلك فبما أن النصر مؤكد فليس هناك مايدعو إلى الاسراع ، وأن زعماء الكرملين ـ وكذلك أولبرخت وسكان ألمانيا الشرقية يأملون أن الغرب سوف يعتقد إن آجلا أو عاجلا أن برلين أصبحت مدعاة للقلق ، ويقرر أن الموقف لا أمل فيه ، أو باختصار سيتنازل الغرب عن حراسته لبرلين الغربية .

وماذا يترتب على إجراء انتخابات حرة فى ألمانيا الشرقية ؟

لا أحد يعرف ، ولكن سلطات ألمانيا الغربية عامة ، بما فى ذلك دكتور أديناور ودكتور ايرهارد ، وكذلك ويلى براندت ، يعتقدون أن الحكومة الشيوعية لن تخرج من الانتخابات الا بعشرة فى المائة فقط من الاصوات .

ربما يكون فى ذلك بعض الحكم العاطفى . . وبينما يرى بعض المراقبين أن أغلبية كبيرة سوف تدلى بأصواتها ضد الشيوعيين ، فهم يعتقدون أن هذه الاغلبية ستكون أقل مما كانت عليه منذست أو سبع سنوات مضت ، وهم يقولون :

إن الناس بدأوا يشعرون بالإذعان . وقد أثر فيهم التلقين الشيوعى وطمس تفكيرهم ، وجعلهم يحسون بالإذعان ..

وهناك عامل يجب أن نلاحظه وهو أن شعب ألمانيا الشرقية هو الشعب الوحيد فى غرب أوروبا الذى خضع بصفة دائمة لحكم دكتاتورى مطلق منذ أوائل الثلاثينيات ، فقد انتقل من هتلر الى ستالين دون فترة للانتقال ، وإن أى حكم دكتاتورى يستمر ثلاثين عاما تقريبا دون انقطاع يمكن أن يثبط أقوى عزيمة .

ومن ناحية أخرى يجب أن نتذكر أن شعب ألمانيا الشرقية هو أول شعب فى الامبراطورية التابعة بأكملها يحاول التمرد، فقد حدثت حركة تمرد جريئة فى شارع ستالين فى ١٧ يونيوعام ١٩٥٣ اذ قذف الاطفال العزل الدبابات السوفييتية بالحجارة ، وكان على السلطات أن تفض هذا التمرد بقوة السلاح .

وهناك نقطة أخيرة تستحق الذكر ،وهى أن سلطات ألمانيا الشرقية لاتقدر على اساءة معاملة الشعب بخشونة ، ذلك لوجود المخرج الذى توفره برلين الغربية لهم ، فاذا تأزمت الامور فان مزيدا من الناس سوف يهرعون الى الغرب . . ومن هنا تتضح لنا الاهمية الحيوية من الاحتفاظ ببرلين الغربية للعالم الحر .

بعض الاعتبارات الدولية

وإذا ما تركنا ألمانيا الآن بشطريها الشرقى والغربى فعلينا أن نتكلم قليلا عن بعض الاعتبارات الدولية .. من الواضح أن ألمانيا بشطريها وموقعها فى قلب أوروبا ، تعتبر قلب المشكلة الأوروبية . وإذا ما نظرنا إلى هذه المشكلة من خارج ألمانيا ، فإننا نجد أن لها مظهرين :

أولا : الخوف من أن ألمانيا نفسها ، وخاصة بعد أن تتحد ، قد تثير حربا في يوم ما .. ويرى معظم المراقبين ذوى الخبرة أن هذا الاحتمال بعيد ، غير أن المرء لا يستطيع أن ينسى أن ألمانيا أثارت مالا يقل عن خمسة حروب عدوانية خـــلال القرن الماضى ، فى عام ١٨٦٤ وفى عام ١٨٦٦ وفى عام ١٨٧٠ وفى عام ١٩١٤ وفى عام ١٩٣٩ . إنك لا تستطيع أن تخمد قوة الألمان ، ولا جدال فى أن القرار الذى اتخذ بالسماح بإعادة تسليح ألمانيا ، والذى تم التوسع فيه بعد أن أقدم عليه الأمريكيون فى أوائل عام ١٩٥٠ ، كان قراراً مزعجاً .. إن كل سياستنا مبنية على مبدأ هو أننا لا بد أن نبنى دفاعاً قوياً فى أوروبا ضد أى هجوم سوفيتى محتمل ، مهما انطوى هذا الأمر على مخاطرة .

ثانياً : الخوف من أن يعلن آخرون الحرب بسبب ألمانيا ، خاصة إذا لم تتحد ، وحتى إذا كان لا يوجد مثل هذه الحرب .. ومن هنا ظهر عدد من الاقتراحات لحل مثل هذا الموقع المائع ، وهذه الاقتراحات تتسلسل من الكلمة الغامضة الغريبة « سحب الجيوش » التى تساندها عواطف الجناح الأيسر التموية فى معظم أوروبا بشكل أو بآخر ، والتى قد تعنى ضمنا انسحاب كل من قوات حلف شمال الأطلنطى والجيش الأحمر عن الأراضى الألمانية إلى أن تصل هذه الاقتراحات إلى مشروع راباكى ، وقد اقترحه آدم راباكى وزير خارجية بولندا فى الأمم المتحدة فى ٣ أكتوبر عام ١٩٥٧ ، وهو « يربط بين سحب الجيوش ونزع الأسلحة النووية » .. ويقترح إقامة منطقة « خالية من الأسلحة النووية » فى وسط أوروبا على جانبى الستار الحديدى .

وفى نفس الوقت ، فإن مجريات الأمور داخل الجمهورية الاتحادية عرضة للتغيير ، وقد أكدت فى صفحات سابقة من هذا الكتاب إخلاص المستشار أديناور للوحدة الأوروبية ، وخاصة للتقارب الألمانى — للفرنسى ، إلى جانب عداوته القديمة الصريحة للاتحاد السوفييتى .. ولكن تيارات الزمن والظروف العنيفة قد تؤدى إلى ظهور تطورات جديدة .. فإن اتفاق ديجول — أديناور مثلا معرض للانهيار ، ومن الجائز أن يكون ذلك مؤقتاً بسبب إصرار ديجول فى أواخر عام ١٩٦٠ على اتباع سياسة مستقلة فيما يتعلق بالتسلح الذرى ورفضه ضم قوات فرنسية أكثر إلى قوات حلف الأطلنطى ، ورغبته فى تغيير بنيان التحالف الأطلنطى ..

أما بالنسبة لروسيا فمازال أديناور يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الشيوعية مناقضة للكرامة الإنسانية ، وأن الحياة بدون حرية لا تساوى شيئا .. ومع ذلك فقد اتبع أخيراً سياسة أكثر استرضاء نحو روسيا أكثر من أى وقت مضى .. وقد ذهب فى ذلك إلى حد أنه قرر أن خروشوف طراز يختلف تماماً عن طراز ستالين ، وأنه يتبع أهدافاً أخرى من أجل الشعب الروسى ،وأنه « رجل يستطيع الإنسان أن يتكلم معه » وأنه من المرغوب فيه أن يتم اجتماع بين الرئيس كنيدى والسيد خروشوف ، وأرسل بيرتولد بيتز — الذى يدير مصانع كروب — فى بعثة غير رسمية إلى بولندا فى يناير عام ١٩٦١ ، راجية تهيئة الجو لإعادة العلاقات الدبلوماسية بين ألمانيا الغربية وبولندا .

ولا يستطيع أحد أن يتكهن حاليا بالمغزى الكامل لمثل هذه

المناورات . . إن سياسة الجمهورية الاتحادية ظلت كما هى بدون تغيير جوهرى ، والذى يريده سكان ألمانيا الغربية هو السلام والاتحاد ، والمشكلة هى كيف يتم تحقيق ذلك بدون التضحية بالأمن . . وأخيراً فلا يفوت المرء أن يلاحظ وجود بعض الاتجاهات الحيادية فى ألمانيا الغربية ، مع أنها على مستوى افتراضى ضئيل ، وقد نستطيع أن نفكر فى احتمال ظهور حياد على نمط حياد النمسا ، غير أنه من الضرورة بمكان أن يكون ذلك جزءا من اتفاق أوروبى شامل .

٦ — شخصية ديجول

وبعد أن أنهى جنتر حديثه عن ألمانيا بشطريها ، وبعد أن تحدث عن مشكلة برلين ، يتكلم فى هذا الفصل عن فرنسا فيبتدئ حديثه عن جنرال ديجول قائلا :

حينما كنت « فى داخل أوروبا » منذ خمس وعشرين سنة ، كانت ألمانيا ممثلة فى شخص واحد هو شخصية هتلر ، بينما كانت فرنسا يمثلها أناس عديدون . . أما اليوم فإن العكس صحيح تماماً لأنه مع أن أديناور هو الشخصية القوية فى ألمانيا اليوم ، فإن البلد مقسم ويوجد كثير من الألمان القديرين فى كل من الشرق والغرب .

أما فى فرنسا اليوم ، فلا يوجد أى شخص اطلاقا ذو وزن لا شارل أندريه جوزيف مارى ديجول .

وعند ما ظهر « فى داخل أوروبا » لأول مرة فى عام ١٩٣٦ كان

ليون بلم قد خلف بيير لا فال كرئيس للوزراء ، وقد أعدم لا فال فى عام ١٩٤٥ ، أما بلم فقد مات فى عام ١٩٥٠ ، ولم نذكر ديجول فى « داخل أوروبا » . . فقد كان فى هذا الوقت كولونيلا غير ظاهر فى سلاح المشاة فى منتصف أربعينياته ، ولم يسمع عنه أحد خارج دائرة معارفه إلا القليل ، وأصبح فى غضون أربع سنوات قائدا الأمة الفرنسية فى المنفى ومنظما للفرنسيين الأحرار ، وقائدا للفرنسيين المحاربين . . . وبنهاية الحرب أصبح ديجول نجما عالميا غير محبوب ، وشرسا فى أمكنة كثيرة . . ولكنه نجم سام لا يهزم فى نفس الوقت .

ولقد قابلت جنرال ديجول مرات عديدة ، ترجع فى تاريخها إلى لندن عام ١٩٤١ ، إنه يستطيع أن يكون أوقح إنسان حينما يريد ذلك. ولن أنسى هذه المقابلة الصعبة التى تمت معه فى باريس عام ١٩٥٢ حينما كان خارج الحكم . . ويستطيع أيضاً أن يكسب الناس إلى جانبه . . وكلما أراه فإننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من التفكير فى أن صفته الرئيسية هى عدم المرونة ، ومن المستحيل أن تتجاهل أيضاً تعاليه وشموخه .

والجنرال مكتنز نوعاً ما ، هذه الأيام . . ويبدو بارتفاعه الهائل كسلة منتفخة قليلا . . ويبلغ ديجول السبعين من عمره وهو لا يكاد يرى بدون نظارة ، ولكنه فى صحة جيدة .

ولا يستطيع مقابلة ديجول إلا أقرب أقاربه الشخصيين مثل عائلته . ولا جدال فى أن له أصدقاء مثل زملائه القدامى فى المقاومة ،

أو الرجال الذين يحترم عقلياتهم مثـــل أندريه مالرو ، المؤلف والناقد الفنى الشهير ، وهو وزير الثقافة فى حكومة ديجول ، وأيضا لويس جوكس السفير السابق فى موسكو ، ووزير التربية والتعليم وهو الآن وزير الدولة للشئون الجزائرية . ولكن الرئيس نادراً مايتواضع مع أى شخص ، فعلاقته بمساعديه تـــكاد تكون كعلاقة العاهل برعيته وهو هنا عاهل متعجرف إلى حد ما ، وهو لا يتقبل نصيحة أبداً ، ونادرا ما يفصح عن نياته لمعاونيه ، وليس لأى شخص تأثير عليه . وقد قيل إن أحد موظفى مجلس وزرائه قال فى مناسبة ما: « إن مشكلة الجنرال الوحيدة هى أنه ليس كائنا بشريا » . وقد سئل مرة وزير مسئول عن سياسة فرنسا تجـــاه قضية معينة ، فأجاب : « كنت أعرف هذه السياسة حينما تركت الجنرال منذ نصف ساعة ولكن لاأعرف ماانتهت اليه الآن »

ولا يستطيع الغرباء أن يعاملوا ديجول . ان اديناور - ذلك الرجل - اجتماعى يجب أن يقابل أى إنسان تقريبا . وهكذا يفعل خروشوف إذا كان يهدف من وراء ذلك إلى هدف ما . أما ديجول فهو رئيس الدولة الوحيد فى أوروبا الذى من الصعب جداً أن تقابله — باستثناء دكتور سالازار فى البرتغال . ولكن من الخطأ الاعتقاد بأنه يحتقر الناس . إن السبب بكل بساطة — كما قاله لى أحد المراقبين الذين درسوه عن كثب لسنين عـــديدة — هو أن له نظرة متشائمة للقيم الانسانية . إنه يتردد فى توزيع جهوده لأنه يشعر أن الإنسانية ضعيفة وأن طبيعة الإنسان أن يكون ضعيفا ، وأنه لايمكن التوقع من أحد —

حتى من أقدر الرجال — أن يعمل على تحقيق وعودهم , ولذلك فن الأحسن ألا نثق فى الطبيعة الإنسانية تماما وألا نعطى معاونيه ثقة لاأساس لها .

وهذه الصفة الراسخة فى شخصية ديجول ، والتى ساعدت أيضاً على جعله رجلا عظيما حينما يتخير عنه أحدهم هى السبب الرئيسى الذى جعل مسرح السياسة خالياً من خليفة له . فلا يوجد أى إنسان تدرب على القيام بمسئولياته ، فهناك بعض رؤساء الدول الذين يتجنبون باستمرار أن يحوطهم رجال من الطراز الأول ، خوفا من أن يحجبوهم عن الأنظار ، ويشعرون بالغيرة من هؤلاء الذين بالقرب من مراكزهم ويتمتعون برؤية الطامحين إلى السلطة الذين يتطاحنون ويتنازعون مع بعضهم ، وقد كان كل من ستالين وهتلر من هذا النوع. ولكن ليس هذا هو السبب فى إحجام ديجول عن تدريبهم على المسئوليات ، فهو لايشعر بالغيرة من أى شخص ولايخاف من أى شخص آخر يصل إلى خلافته

إن الذى يخاف منه ديجول هو أنه قد لايكون لدى المرشحين الأقوياء للسلطة المقدرة أو الظروف الضرورية لذلك . وقد سأله حديثاً نائب فى الجمعية الوطنية بصراحة عما سيكون عليه المستقبل ، فأجاب ديجول بهدوء : « عليكم أن تبحثوا عن ديجول آخر »

وهذه الأنانية صامدة كالصخر ، لاتلين ولا تتزحزح ، وهى شىء مطلق تقريبا . ففى ذات مرة ، حينما كان فى التقاعد ، وكان يستعرض الفترة الأولى من حياته ، قال بلهجة جادة تماما : « آه ! . هذا كان حينما كنت فرنسا » .

ومنذ فترة وجيزة لا تتعدى ينـاير عام ١٩٦١ حينما اقترح عليه احد أصدقائه أن يشكر هؤلاء الذين أيدوه عند التصويت على مشكلة الجزائر ، أجاب بقوله : « كيف تشكر فرنسا نفسها » .

ولقـد سمعت مرة من يقول : إن الفرق بين ديجول و«ديناور» هو أن الأول فرنسى ، والثانى أوروبى . ولـكننى لاأعتقد أن هذا حقيقى تماماً .

فلا جـــدال فى أن ديجول فرنسى قبل كل شىء ، وهو يكره كل مظاهر السياسة التى تعلو عن القومية ، ولـكنه فى نواح عديدة أوروبى أكثر من أديناور لأن مجـاله أوسع ، وفى حقيقة الأمر فان أديناور ماهو إلا أمريكى فى عهد أيزنهاور ، أما ديجول فعنده مفهوم أكبر لأوروبا ، يعتقد أنها تمتد إلى جبال الأورال .

وبعد انهيار مؤتمر القمة فى عام ١٩٦٠ ، كان هو أول رئيس دولة أشار إلى الضرورة الملحة فى ايجاد نوع من التفاهم (بشروط معقولة) مع روسيا . بصرف النظر عمـا عليه خروشوف من عدم ليـاقة وعدوانية .

وهناك بعض الإشاعات تقول : إن ديجول سيترك وصية كما فعل لينين ، يذكر فيها بعض المرشحين لخلافته وتقييمه لهم

وقد علق على ذلك واحد من أعقل الرجال الفرنسيين ، فقـال : « هذا كلام فارغ ، أرجو أن تتذكروا أن هذه فرنسا وحينما يموت

ديجول فانه يصبح منتهيا ، ولن يعير أى فرنسى أقل اهتمام لأية وصية يتركها ديجول ».

ان هناك حقيقتين متعارضتين يجب أن نتذكرهما عن فرنسا التى تتكون من ٤٥ مليون نسمة . معظمهم إما واقعى عنيد أو فوضوى فى أعماقه .

إن القصص عن ديجول نادرة ، ولكن القصة التى تصور اتجاهه نحو فرنسا ، وترفعه العظيم، ذات صلة بأحد أعضاء سكرتيريته ، وهو شاب يدعى أوليفبيه جيشارد ، إنه رجل فنى وليس بسياسى ، وهو واحد من جماعة صغيرة مقربة من الرئيس . إذ يتناول طعام الغداء يومياً مع أسرة ديجول . كان ديجول يتصدر مائدة الغداء ، يغرف الحساء بنفسه الحساء الذى يعتبر الطبق الرئيسى فى الوجبة الرئيسية لكل فرنسى . ولكن جيشارد ، لم يكن يحب الحساء وعندما كانا يتناولان الطعام معاً لأول مرة ، بعد أن انتقل ديجول إلى قصر الاليزيه بقليل ، اتجه ديجول إليه قائلا : « هل لك فى تناول الحساء ياجيشارد ؟ » فرفض جيشارد شاكراً بأدب، وتكرر هذا الحوار يومياً مدة ثلاثين يوماً دون تغيير . وفى اليوم الواحد والثلاثين كف الرئيس عن دعوة جيشارد إلى الحساء بعد أن أدرك أخـيراً أنه لايتناول الحساء ، فقال له بابتسامة جامدة «جيشارد ! كيف يمكن لفرنسا أن تبقى عظيمة إذا كان أهلها لايتناولون الحساء ؟ » فتمتم الشاب معتذراً ، وامتنع ديجول بعد هـذا عن إرغام جيشارد على تناول الحساء ، وهو يشعر من غير شك بحسرة دفينة لهذا

الدليل المحزن ، على أن فرنسا ، لم تعد حتى بين أهل بيته كما كانت عليه فى الماضى .

ويروى أن الجنرال ديجول وزوجته ، عندماانتقلاإلى قصرالاليزيه عفيا من العمل عندهما كل مطلق بلباقة وهدوء ، ولم يكن عدد هؤلاء كبيراً . وكان ذلك لأن الجنرال ، باعتباره كاثوليكيا متديناً ، لم يكن يعتقد أن من اللائق أن يخدعه — هو وأسرته — شخص مطلق .

ومما يروى فى انتخابات الرئاسة أن فرداً واحداً صوت ضدد يجول فى قريته « كولومبى لى ديز اجليز » التىيبلغ عدد سكانها حوالىخمسمائة. وكانت طاهيته هى الوحيدة التى صوتت ضده ، إذ كانت تعتقد أن الانتقال إلى باريس وتحمل أعباء الرئاسة سوف يتعب الجنرال العجوز كثيراً .

ونستطيع أن نتبين طريقة ديجول فى التفكير من هذه المقتبسات من مؤتمر صحفى عقده فى واشنطن فى الخامس والعشرين من شهر ابريل سنة ١٩٦٠ ، خلال زيارته للولايات المتحدة . وقد كان هذا بالطبع قبل مؤتمر القمة .

س — ياسيادة الرئيس ، هل تتوقع احتمال عقد مؤتمر آخر للقمة فى موسكو ، بجانب اجتماع باريس هذا العام ، عندما يزور الرئيس ايزنهاور روسيا ؟

ج — اذا لم نقم بالحرب ، فلا بد أن نعمل من أجل السلام ، ولكى نحقق السلام لا بد أن نتفاوض ، ولكى نتفاوض لابد أن نلتقى معا .

س — ياسيادة الرئيس ، ان حب الاستطلاع الصحفى يفوق الخبر
فهل لى أن اسألك عن شاعرك الفرنسى المفضل ؟

ج — ان الشاعر الذى أقرأ له هو الشاعر المفضل عندى . فثما
شعراء كثيرون احبهم وأعجب بهم . وانى ارجو أن تسمحوا لى الا
أوذى مشاعر الشعراء ، حتى من مات منهم من زمن طويل ، بالمفاضا
بينهم .

* * *

إن من الممكن أن نقدم باختصار ، خلاصة لحياة ديجول . فقد ولد
فى « ليل » فى الثانى والعشرين من نوفمبر سنة ٩٨٠ وكان أبوه استاذاً
للفلسفة فى كلية من كليات الجزويت . وهو ينتمى — من ناحية أبيه
وأمه — إلى صغار النبلاء ، الذين ورث عنهم صفات الصلابة والفطنة
والاقتصاد والاستقامة . كما ورث عنهم اسمه « ديجول » هذا الاسم
ذا الإيحاء الشديد ، الذى قد يتسع مغزاه ليعنى « بن فرنسا » . ولقد
قرر ديجول أن يختار مهنة عسكرية ، وتخرج بدرجـــة الشرف من
« سان سير » المعهد الفرنسى المعادل لمعهد « وست بوينت » .

وكان يشعر باعجاب شديد نحو الضابط الذى عمل تحت قيادته
أول الأمر : « هنرى فيليب بيتان » الذى كان إذ ذاك فى رتبـــة
الكولونيل ، وقد أهدى اليه كتابه الأول ، وكان « بيتان » أبا فى العماد
لابنه الوحيد .

وبعد عشرين سنة أصدرت حكومة فيشى برئاسة التعس بيتان أصدرت حكمها بإعدام ديجول بتهمة الخيانة .

كان ديجول ضابطاً طيباً ، ولكنه ارتقى ببطء ، وكان واحداً من الضباط القلائل الذين يرون القلم أمضى من السيف . وقد نشر فى سنة ١٩٣٤ كتابه « جيش المستقبل » الذى أيد فيه الرأى القائل بأن الهجوم أفضل من الدفاع، وهو الرأى الذى كان ينظر اليه فى ذلك الوقت باعتباره خروجا على المألوف ، عندما كانت فرنسا تربض خلف خط ماجينو المنيع ولقد دعا ديجول فى كتابه إلى خلق نوع جـــديد من الجيوش سريعة الحركة المزودة بالمعدات الميكانيكية . والمميزة باستخدام اعداد كبيرة من الدبابات . ولكن الفرنسيين لم يعيروا هذه الآراء إلا قدراً يسيراً من الاهتمام ، بينما اهتم بهـــا الألمان كثيرا ، إذ عنيت الدوائر الحربية فى برلين بكتـاب ديجول وأصبح ديجول دون قصد منه بمثابة الأب لفرقة البانزر النازية ، التى سحقت فرنسا سنة ١٩٤٠ ، كما اجتاحت الأراضى الواطئة والحملات البريطانية بسرعة سريعة ، وعلى أى حال فقد أثبتت الأيام صحة نظريات ديجول العسكرية .

ولقـد هرب ديجول إلى لندن بعد انهيار فرنسا ، وألقى فى الثامن عشر من يونيو سنة ١٩٤٠ خطبة من أكبر الخطب شهرة فى التـاريخ المعـاصر .

لقد كان مغمورا منسيا ، وكان معدما شريداً وحيدا ، وكان جليلا مهيبـا .

لقد كان يقول : إن فرنسا خسرت معركة ولم تخسر الحرب وإن الفرنسيين فى كل مكان ينبغى أن يجمعوا صفوفهم .

ولقد كانت السنوات التالية سنوات عاصفة ، فلقد أسس حركة فرنسا الحرة . وكانت معارك مريعة مع الامريكيين والبريطانيين أيام حكومة فيشى وقاسى من مذلات عديدة فى الجزائر عندما لم يستطع الحلفاء أن يقرروا تأييده أو عـــدم تأييده ، ودخل باريس دخول الظافر عام ١٩٤٤ ، وأقام حكومة مؤقتة ، وأشرف على مولد الجمهورية الرابعة ، ووضع تخطيطا لسياسة رشيدة لافريقيا الفرنسية ، وذهب إلى موسكو (عندما كان الأمريكيون والبريطانيون مترددين فى الاعتراف بعهده) وعقد معاهدة فرنسية روسية ، وأدخل عددا من الفرنسيين الشيوعيين فى حكومته ، واتهم فى نفس الوقت من قبل الجهـــلاء بأنه فاشى .

واعتزل السلطة مبكرا فى سنة ١٩٤٦ لأن تعدد الأحزاب السياسية فى فرنسا شل حركة الحكومة وأقعدها عن العمل ، ثم اعتزل الحياة العامة فترة ما ، ثم أسس حزباً ، وأمل أن يدعى ثانية إلى الحكم ، ولكنه لم يدع ، فاعتزل السياسة ، واعتكف فى كولومبي سنوات عدة يترقب فرصة سانحة ، وأثبت مقدرته الفائقة فى كتابة النثر الفرنسى بكتابة نفيسة فى تاريخ حياته ، ودعم فلسفته فى الحياة ، ودعا ثانية لإنقاذ الجمهورية ، أيام المحنة الكبرى سنة ١٩٥٨ ، عندما أوشكت ثورة الجيش فى الجزائر ، بقيادة جاك ماسو قائد المظلات أن تودى

إلى حرب أهلية ، وتولى منصب رئيس الوزراء ، وأشرف على تكوين الجمهورية الفرنسية الخامسة ، ثم أصبح أخيراً أول رئيس للجمهورية الخامسة وللجماعة الفرنسية المؤسسة فى الثامن من يناير سنة ١٩٥٩ .

* * *

ما الذى يؤمن به ديجول ؟

انه يؤمن أولا بفرنسا ، ويؤمن ثانيا بنفسه باعتباره رمزاً لفرنسا.

وما الذى يريده قبل كل شىء ؟

انه يريد أن يجعل فرنسا مرة أخرى دولة من الدرجة الأولى دون منازع ، وهى حالة لم تبلغها من أيام ميونخ . وهو من أجل هذا قد أصبح شوكة فى ظهر حلف شمال الأطلنطى ، ومن أجل هذا يصر على أن تكون لفرنسا قوتها النووية الرادعة .

وما الذى يحتاجه قبل كل شىء ؟

إنه يحتاج الى الوقت، ولكنه مع هذا قد جاوز السبعين . وما هى أهم مصادر قوته . بالاضافة إلى بعض الصفات الشخصية الظاهرة كقوة الاحتمال والذكاء والعقلية المنطقية العجيبة .

إن أول هذه المصادر تقمصه شخصية فرنسا أو روحها . فالقائد والرسالة ، والأمة ، كل ذلك قد أصبح فى رأيه واحداً . فأى فرنسى يستطيع أن يقاومه عندما يقول إن الأشياء الثلاثة التى لها قيمتها فى ميدان الزعامة هى الإيجاز والدقة والحسم . لا يوجد إنسان يغمره الشعور بالذات أكثر من ديجول ، ولكنه يجمع إلى هذا تواضعاً عجيباً

غريباً . فلقد تلقى حوالى خمسة آلاف خطاب من مواطنين يطرونه ويهنئونه على عودته إلى السلطة مع أن الفرنسيين لا يهتمون كثيراً بإرسال خطابات إعجاب ، فكتب الجنرال لكل من هؤلاء الخمسة الآلاف خطاباً — بخط يده !

إنه يستظهر خطبه ، ويستطيع أن يتكلم عن أصعب المسائل مدة ساعة دون أن ينحرف عن النص قيد أنملة وهذا مايعجب به الفرنسيون لأسباب غير واضحة ؛ إنهم يسمونه العقل المفكر .

وخطبته التليفزيونية التى ألقاها عن الجزائر فى التاسع والعشرين من يناير سنة ١٩٦٠ كانت كما يعتقد كثير من الناس أفضل خطبة سمعتها أوروبا منذ أن ألقى تشرشل خطبته العظيمة خلال الحرب . وهى تفوق خطب تشرشل ذاتها فى قوة المنطق الصافية البراقة .

وكما هو الحال غالباً يتحدث ديجول عن نفسه بضمير المتكلم وضمير الغائب ففى خطبة له بالتليفزيون ، استهل كلامه بقوله :

إذا كنت قد لبست اليوم حلتى الرسمية لأحدثكم فى التليفزيون ، فإنما ذلك لتعلموا أن الذى يتكلم هو الجنرال ديجول ورئيس الدولة فى الوقت نفسه .

لقد أعلن فى خطبته هذه بشجاعة أن الجزائريين ينبغى أن تتاح لهم حرية تقرير المصير .

وقال فى فقرة من خطابه : أيها الفرنسيون فى الجزائر : كيف تنصتون إلى الكذابين والمتآمرين الذين يقولون أن منح الجزائريين

حرية تقرير المصير يعنى أن فرنسا وديجول يريدان هجركم ؛ وانتزاع الجزائر من أيديكم وتسليمها للثوار ! فإن من يبعث إلى الجزائر ويحتفظ فيها بجيش قوامه خمسمائة ألف من الرجال المزودين بكميات هائلة من المعدات ؛ وأن من يرضى بأن نضحى هناك بعدد كبير من أبنائنا ؛ وأن ننفق فى هذا العام بالذات ، نفقات مدنية وعسكرية تبلغ ألف بليون من الفرنكات لننفذ هناك برنامجا كبيرا للتنمية ، وإن من يجلب البترول والغاز من الصحراء إلى الموانى بكثير من المشقة وكثير من النفقات إن من يفعل هـــذا كله لا يمكن أن يقال إنه يهجركم أو أنه يريد أن يضيع الجزائر .

والمصدر الثانى من مصادر قوته أن التاريخ قد أثبت .بعد كل هذا أنه على حق لقد قال أن فرنسا سوف تعود إلى الحياة وعادت فرنسا فعلا إلى الحياة وقال إن « المتطرفين » الجزائريين سوف يذعنون للنظام فى عامى ١٩٥٨ - ١٩٦٠ وقد أذعن هؤلاء فعلا للنظام .

والمصدر الثالث من مصادر قوته هو أنه ليست له مصالح خاصة فكل مواطن فرنسى تقريبا يعلم أن الجنرال لا يهتم بغير الصالح العام .

والمصدر الرابع هو أن العهد الذى سبقه كان عهدا فاشلا وأخيرا فمع أن مساوىء ديجول وعيوبه واضحة فقد قدم لبلاده الكثير دون شك . إن القليل من الساسة يمكن أن يقال عنهم إنهم أنقذوا أوطانهم وقد كان لنكولن واحدا من هؤلاء ، وكذلك كان تشرشل ولكن

ديجول تفوق عليهم فى هذا المجال لأنه أنقذ بلاده مرتين لا مرة واحدة وهذه ظاهرة نادرة فى التاريخ . فبغير ديجول ما كانت لتقوم فرنسا الحرة سنة ١٩٤٠ وبغير ديجول كانت البلاد ستندفع إلى الحرب الأهلية سنة ١٩٥٨ . أنه أنقذ بلاده من ألمانيا مرة وأنقذها مرة ثانية من نفسها .

التغيرات والارتباكات فى فرنسا

إن الزائر لفرنسا هذه الأيام ، سريعا ما يلاحظ أن هناك ظاهرتين على جانب كبير من الأهمية . أولا رجل هو ديجول ، وثانياً . بلد هو الجزائر الذى يمثل مشكلة عجيبة ، وربما لا حل لها ،

ولكن علينا أن نذكر أيضا أن فرنسا أصبحت أكثر تساهلا مما كانت عليه منذ سنين ، بالرغم من حدة الأزمة الجزائرية والقلق على الجيش ، ومثل هذه المشاكل .. فسائقو التاكسيات (بلا جدال فى أن هذا التعميم واسع جدا) يبتسمون الآن أكثر مما يزمجرون ، وخدم الفنادق يبدو عليهم السرور وهم يعدون غرف النوم ، وحتى رؤساء السقاة مؤدبون ، وباريس — التى فى استطاعتها أن تكون أكبر مدينة سيئة السلوك ، أضحت الآن بجو جديد من العذوبة والرضاء .

ومن الواضح أن الازدهار الاقتصادى ، هو سبب من الأسباب التى أدت إلى تخفيف حدة التوتر .. فلم ير هذا البلد — بسكانه الأربعة والأربعون مليونا — ازدهارا كهذا أبدا ، مع أن كثيرا من المتاعب

الاقتصادية مازالت موجودة ، ولا يعرف أحد إلى متى سيظل هذا الارتفاع فى الأسعار . . وسبب آخر هو أن لذعة الذل والهزيمة فى عام ١٩٤٠ قد توارت تماما . . ومن الأسباب أيضا هو الشعور بالرضاء الذى جاء مع الهدوء السياسى تحت حكم ديجول ، مع أنه يبدو أن مركزه قد تزعزع أخيرا

أما عن الازدهار ، فإن الإنتاج القومى الكلى كان ٦٣ بليون دولار فى عام ١٩٥٨ ، وقد ازداد بمعدل سنوى قدره ٤٫٥ ٪ ، ويعتبر معدل الزيادة فى الإنتاج الصناعى مساو تقريبا لهذه الزيادة فى ألمانيا .. وعلى ما فى هذه الحقيقة من غرابة ، فإن دخل الفرد فى فرنسا أعلى منه فى ألمانيا . . وهناك عوامل أخرى ساعدت على وجود هذا الازدهار فهناك برنامج تحقيق الاستقرار (عام ١٩٥٨) الذى قضى على التضخم والتقشف واحتفظ بالفرنك فى حالة ثابتة ، وتوسع فى التجارة الخارجية وقد أدى الهدوء والطمأنينة السياسية بعد عام ١٩٥٨ ، إلى استرجاع كميات كبيرة من الذهب الذى كان فى الخارج ، ومركز العمل الهادىء تماما . . ولا يفوتنا أن نذكر المساعدة الأمريكية التى وصلت فى عام ١٩٥٧ إلى ٩٫٠٤٧ مليون دولار .

ولا جدال فى أن فرنسا دولة متجانسة تماما . . وحدة جغرافية موحدة ، متكاملة ، ومتوازنة تمـــاما بين الصناعة والزراعة . . وإذا ما عقـــدنا مقارنة بينها وبين إيطاليا التى ليست بلدا بالمعنى المفهوم للكلمة ، فما هى إلا مجموعة من المدن المختلفة اختلافا بينا ، لكل منهما طابعها الخاص . . أو قارن بينها وبين ألمانيا ، فتجد أن

فرنسا مثل الماسة ، جوهرة واحدة ، صلبة ، لامعة ، متلألئة . . أما ألمانيا فما هى الا عقد مفروط أو تاج غير منتظم . . وبوصف آخر : أن فرنسا كوب من الشامبانيا الباردة المعتقة ، أما ألمانيا فما هى إلا برميل صغير من البيرة .

ونستطيع أن نقول : إن فرنسا هى اتحاد عشرة ملايين أسرة فى أسرة واحدة ، وبها ديجول — على الأقل — فى الوقت الحالى . . ونستطيع أن نقول هذه العبارة التى يرجع تاريخها إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى : « إن ألمانيا جنس ، ومصر نهر ، والنمسا — المجر سياسة ، وإيطاليا لغة ، وبريطانيا جزيرة ، أما فرنسا فتقاليد » .

أى تغير آخر حدث لفرنسا منذ الحرب ؟ . .

من ناحية ، فقد أصبح البنيان الاجتماعى أكثر مرونة ، وأصبح الفرنسيون كثيرى السفر عن ذى قبل . ولم يعد الناس يذهبون إلى بيوتهم فى ميعاد محدد لتناول الغذاء (وهذه حتما ثورة ؟) . ففى كل أنحاء باريس تجد أماكن لبيع — السندوتشات ، ومقاه ، وما أشبه ذلك .. وأصبح الآن الويسكى الاسكتلندى هو المشروب المفضل عند الطبقات العليا ، ودخلت كثير من « الكلمات الانجليزية » إلى اللغة الفرنسية .

ومازال تقاليد (الدونه) موجود فى فرنسا ، وخصوصا فى الأماكن الريفية . . وكثير من البنات يتزوجن فى وقت مبكر ، ومنذ ثلاثين سنة كان شىء غريب جدا أن تذهب فتاة إلى جامعة

مثل السوربون .. أما اليوم فقد أصبحت من الأشياء العادية .

وكانت هناك أسطورة قديمة تقول : إن الفرنسيين من الطبقة البورجوازية ، أو على الأقل الذين كانوا يعيشون فى الريف ، كانوا يخبئون مدخراتهم ورءوس أموالهم فى جوارب تخبأ فى حشياتهم ، ولم تختف هذه العادة إلى الآن .. ولكنها قلت كثيرا عن ذى قبل وكان ذلك بسبب خوفهم من حدوث تضخم أكثر . . ودخل المواطنون عهد الاقتصاد الاستهلاكى ، وأخذوا ينفقون أموالهم ، وأصبح واحد من كل تسعة من الفرنسيين يمتلك سيارة ، ويشترون الآن المنازل ذات التكاليف المنخفضة ويستثمرون أموالهم فى الصناعة واندفعوا نحو شىء لانعرفه نحن هنا تقريبا : الشراء بالتقسيط ، ولكنه ليس بالانتشار الموجود فى انجلترا .

وعلى أية حال ، فإن عادات الفرنسيين من ناحية الشئون المالية مازالت من طراز قديم ، فمعظم الفواتير لاتدفع إلا بالنقد . . ومعظم المحلات لاتتعامل بالشيكات . . والشىء الذى يدعو إلى الغرابة أن هناك قلة من الناس لهم حسابات جارية ، وأعرف رئيس تحرير جريدة من أهم الجرائد ليس له أى حساب فى البنك . . والسبب فى ذلك هو أن البنوك مرغمة أن تقدم سنويا إلى الحكومة تقريراً بالمركز المالى لكل مودع وذلك لكى تحصل منه الضرائب . . وكل فرنسى يقدر تعبه ، يقاوم فكرة أن يدفع ضريبة دخل .

وحدث تغيير كبير ومثمر آخر وهو ارتفاع نسبة المواليد . . وكانت فرنسا قبل الحرب بجدية ، عقيمة . . أما اليوم فإن نسبة المواليد

عالية جداً ، وابتدأ هذا المنحنى الآخذ فى الارتفاع بعد الحرب مباشرة فى عام ١٩٤٥ ، حينما ابتدأ تدفق الأسرى الفرنسيين إلى أرض الوطن بمئات الألوف . . وقد حدث أيضاً ارتفاع فى نسبة المواليد فى عام ١٩١٩ — ١٩٢٠ ، وهذا بسبب الزواج الذى كان قد توقف بسبب الحرب العالمية الأولى .. ولكن كان هذا الارتفاع مؤقتا .

وهذا الارتفاع الحالى والمستمر عال جدا ، لدرجة أنه فى الثلاثين سنة القادمة — كما تؤكد الاحصائيات — ستكون فرنسا « أكثر دول أوروبا شبابا » . . وقد سميت فرنسا البلد الفارغ ولكنها لن تظل كذلك طويلا ، وتستطيع فرنسا أن تستوعب ستين أو سبعين مليونا زيادة عن عدد سكانها الحاليين . . ولكن ارتفاع نسبة المواليد سيسبب حتماً كثيراً من المشاكل الاجتماعية الخطيرة فى الوقت المناسب ، وخاصة فى التعليم والاسكان ، ما الذى تسبب فى ارتفاع نسبة المواليد ؟.. ليس هناك من يعرف سبباً لذلك ، ولكن قال لى أحد المعلقين الفرنسيين .. إنها ظاهرة « أوتوماتيكية » ترتبط بالرغبة فى البقاء ، فبعد الخسارات المريعة فى الحرب العالمية الثانية ظهر إحساس لا إرادى بين المواطنين بالحاجة القومية المباشرة ، إحساس بأن القوى البشرية الفرنسية يجب أن تسترد قوتها وتحافظ عليها ، وتزداد .

الاشتراكيون الراديكاليون والمائتا أسرة

أول سؤالين سألتهما حينما وصلت إلى باريس فى عام ١٩٦٠ كانا : « ماذا حدث للحزب الاشتراكى الراديكالى ؟ » . . . « وماذا حدث للمائتى أسرة ؟ » كانت فرنسا قبل الحرب تحكم — إذا كان هناك أحد يحكمها — باتحاد غـــير منظم بين هذين العاملين : الراديكاليين الاشتراكيين الذين لم يكونوا لا اشتراكيين ولا راديكاليين ولكنهم كانوا يمثلون مجموعة المواطنين الفرنسيين فى الطبقة المتوسطة الذين كانوا قلب الأمة وكانوا دائماً يصوتون ضد « الكنيسة والقصر » ، وثانيهما « المائتا أسرة » التى تتكون من الأقلية الفنية المركزة فى الأوصياء على بنك فرنسا .

ولكنهما ليسا بالشىء ذى الأهمية هذه الأيام ، وهذا هو الذى أدى إلى أكبر تغيير فى فرنسا المعاصرة ، باستثناء ظهور ديجول . فإن الاشتراكيين الراديكاليين ، حزب العمالقة أمثال كليمنسو وهيريوت ، فى أعظم أيامهم محوا من الوجود كأداة خطرة ، وذلك بثلاث عوامل :

أولا — هتلر : لقد كانوا أساس وأصل الجمهورية الثالثة . . ومن هنا ، فإنه حينما هزم هتلر فرنسا ، أصبح الحزب فى نظر الفرنسيين خائناً . . ولم يستطع أن يسترجع مكانته بعد ذلك فى الجمهورية الرابعة التى حكمت من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٠ ، ولا جدال فى أن أفول نجم هذا الحزب يرجع إلى ما قبل الحرب .

ثانياً — العزلة الداخلية : وهذه قصة معقدة ، وخلاصتها هو أن بيير منديس فرانس ، الذى كان رئيس الوزراء الذى ينتمى إلى الحزب الاشتراكى الراديكالى فى عام ١٩٥٤ — ١٩٥٥ ، ابتدأ فى إعادة تكوين الحزب ، بعد أن أزال كل رواسب الماضى ، وكيفه مع الوضع الحالى بالتخلص من الطبقة البيروقراطية التى كانت تدير الأجهزة المحلية ، وقد أدى ذلك إلى حدوث استياء شديد ، وانقسم الحزب ، وأسس منديس جماعة يسارية منفصلة برئاسته . . ولا بد لنا من أن نذكر الاتجاهات الانتحارية نحو الانفصالية التى كانت نقطة سوداء فى جبين النظام السياسى فيما مضى . . ولكن الراديكاليين لم يكونوا مسئولين وحدهم عن كل هذا ، ولكنهم يحملون جزءاً كبيرا من عبء هذا التغير المستمر فى الوزارات التى اشتهرت بها فرنسا قبل وبعد الحرب مباشرة .

ثالثاً — ديجول : فقد جاءت الجمهورية الخامسة إلى الوجود . . وفقد كل من منديس (الذى كان من أشجع رؤساء الوزارات التى رأتها فرنسا) وأيضاً الجناح المحافظ من الحزب الاشتراكى الراديكالى كثيراً من وجوده .

أما عن القلة الفنية المتحكمة ، فمازالت موجودة ، ولكنها فقدت كثيراً من قوتها ، وهذا ليس فقط لأنها أضحت أضعف مما كانت عليه . ولكن لأن الدولة أصبحت أقوى من ذى قبل . . وتتعلق الطبقة البورجوازية بثرواتها ، ولكن التوجيه الحقيقى للأمور أصبح فى يد طبقة إدارية جديدة . . فالحكومة — الدولة — تلعب فى الشئون

الصناعية والمالية أوزاراً أكبر مما كانت تلاحبه قبـــل الحرب :

باختصار . . إنه التأميم الذى قتل طبقة القلة من الأغنياء ، وأن الناس فى الخارج أدركوا كثرة ما أمم من الاقتصاد الفرنسى ، فالدولة تملك وتدير السكك الحديدية ، ومناجم الفحم ، والقوى المائيـــة والكهربائية ، والصناعات البترولية . . كما أنها أيضا تملك وتدير أكبر مصانع السيارات فى فرنسا (رينو). وأكبر خمس بنوك تسليف وعديد من شركات التأمين ، والقـــوى الذرية ، ومعظم وسائل المواصلات الجوية (مثل شركة ايراوفرانس)، وأكبر خط ملاحى ، وأيضا فإنها تملك منذ وقت طويل الدخان ، والاوبرا ، ومراكز البريد والتلغراف .

ومضى الكاتب يقول : إن الكثير من هذا النمو والترقى تم فى عهد ديجول ، فى فترة حكمه الأولى القصيرة التى استغرقت سنتى ١٩٤٥ و١٩٤٦ ... وكذلك كان للشركات الشبيهة بالعامة أهمية فائقة فى النمو الاقتصادى للممتلكات الفرنسية السابقة فى أفريقيا ، وأخيراً أصبحت الحكومة تسيطر إلى حد كبير على قطاع من الصحافة .. ويرجع هذا إلى أحداث وقعت بعد الحرب مباشرة . عندما صودرت الصحف المتعاونة مع الاحتلال ، وحولت معداتها إلى رجال المقاومة .

وأمثلة التأميم هذه ، ليست ـ كما قد تبدو ـ ثورية جداً ، لأن تدخل الدولة فى الصناعة له فى فرنسا تاريخ طويل مشرف ، إذ بدأت الدولة أو بدأ الملوك يحتكرون بعض الصناعات منذ عدة قرون ... كما

أن تأميم بعض الشركات كان نتيجة لظروف خاصة ، إذ أممت شركة رينو ـ على سبيل المثال ـ لأنها تعاونت مع الاحتلال ... أضف إلى ذلك أن عدداً كبيراً من الصناعات قد تملكه الدولة .. ولكن إداراتها تظل متمتعة بسلطات واسعة ، فكثير من الشركات الحكومية .. كشركة أير فرانس مستقلة استقلالا ذاتياً ، وهى تعتبر أكبر شركات الطيران فى العالم .

وثمة تجاه آخر ، لا يقدر بصفة عامة فى الخارج ، وهو ترقى نظام الضمان الجماعى ، إذ تعتبر فرنسا أقرب الدول الأوروبية إلى الرفاهية (الاجتماعية) بعد انجلترا والنمسا والدول الاسكندنافية ، فهى لا تمنح الإعانات العادية فحسب ، بل تمنح الكثير من الرواتب الشهرية وعلى سبيل المثال : تمنح إعانات فى حالة الزواج وإنجاب الأولاد . ويشمل الضمان الجماعى إعانة ربات البيوت ، والتأمين الصحى ، ورعاية الأطفال قبل الولادة . كما يحصل الآباء على إعانات وفيرة تتمم تأمينهم الاجتماعى كلما ولد لهم طفل ، وهى إعانات تصل إلى ٣٢٪ من مرتب الأب إذا كان له أكثر من ثلاثة أولاد . وتقدم الدولة مساعدات قيمة أخرى لكفالة الأولاد الآخرين فى النمو فكلما زاد عدد الأطفال فى الأسرة زادت الإعانة .. ولعل هذا من أسباب ارتفاع معدل المواليد فى فرنسا .

من الذى يحكم فرنسا إذا لم يعد للاشتراكيين الراديكاليين والأقلية الغنية وزن ؟

إن هذا سؤال عسير ، ولكن ثمة عناصر ثلاثة يمكن ذكرها على الأقل ، وهى .

١ — ديجول ..
٢ — الموظفون المدنيون ..
٣ — بقايا حركة المقاومة ..

السياسات والخلافة

يعتبر ديجول ، من بعض الوجوه ، فى موقت انعزالى غريب ... لقد أخذت الجمهورية الخامسة قوى معينة من البرلمان .. وأسست نظاما شبيها بالرئاسى .، حيث يجتمع حول الرئيس نواب يمثلون اتجاهات مختلفة . كما يجتمع الذباب حول عصا كبيرة من الحلوى ، ولكنه لاتزال توجد فى فرنسا جماعات لا تؤازر ديجول ، بل وتوجد أيضاً جماعات معادية له .. إن المذكرة البيانية الحديثة عن الجزائر قد منحت الجنرال عدداً كبيراً من أصوات الثقة ـ حوالى ٧٥ ٪ ـ ولكن فرنسا لا تزال هى فرنسا ، بمعنى أنها إلى حد كبير فردية داخل مظهر عام . وليس ساستها الانفراديون أخفياء بحال .

واذا غيرت الاستعارة ، فإن طيف السياسة الفرنسية يمثل قوس قزح مكفهر فى حركة مستمرة .. فالأحزاب تنقسم ، ثم تنقسم ثانية وتتحد ،وتختفى ، وتولد من جديد . إن من المستحيل تقريباً أن نميز بين بعض الجماعات الصغيرة المنفطرة ، فبعضها ليس شظائر متساوية

وإنما هى شظايا متناثرة ، والتسميات مختلطة اختلاطا مشوشاً ، فثمة فرق كبير - على سبيل المثال - بين « اتحاد الجمهورية الجديدة ، وجماعة « وحدة الجمهورية » الممثلتان فى الجمعية العمومية ، كما أن بعض الأحزاب ترمز لأسمائها حروف يصعب تفسيرها أو بيان مدلولها .

إن حزب ديجول الجديد ، وهو حزب الرئاسة المعروف بـ« اتحاد الجمهورية الجديدة » يكاد يكون حزبا مركزيا .. إن أساسه شخصى تماما ، وفى اللحظة التى أكتب فيها هذه الأسطر ، يمتلك هذا الحزب ٢١٠ مقعداً من بين ٥٥٢ .. ومن أجل هذا لابد له من عون إذا أراد أن يمضى تشريعا .. وثمة حزب مركزى هام آخر هو الحركة الجمهورية الشعبية المعروفة ، الذى يملك مع حزب آخر يسمى « المركز الديمقراطى » سبعة وخمسين مقعداً وحزب الحركة الجمهورية الشعبية حزب كاثوليكى ، وهو على العموم يؤيد ديجول بقوة .

لقد نشأ من حزب المقاومة . ولعب دوراً واضحا أيام الجمهورية الرابعة . وأيد منظمة حلف شمال الأطلنطى والسوق المشتركة . وهو يساوى تماما فى معظم المسائل الاجتماعية .. إنه يريد ضماناً اجتماعياً كاملا كى يباعد بين العمال وبين الشيوعية وهو يحبذ تكوين الأسر الكبيرة لأنه حزب كاثوليكى متدين . وقد يكون أبرز الأعضاء فيه روبرت شومان وزير الخارجية السابق . المولود فى اللورين . والذى يعتبر واحداً من آباء صناعة الصلب والفحم فى أوروبا :

والقوة الرئيسية إلى اليمين من ديجول تتمثل فى حزب المستقلين

والفلاحين ثانى الأحزاب الكبيرة فى فرنسا (١,٩ مقعداً) .. ومن زعمائه سكرتيره العام « روجر ديشى » ذوالشخصية الرائعة . و « بول رينو » آخر رئيس للوزراء فى الجمهورية الثالثة وأنطوان بينيه أحد رؤساء الوزارة ووزراء الخارجية السابقين وهو رجل كبير الأهمية وقد كان وزيراً لمالية ديجول حتى يناير سنة ١٩٦٠ .. و « بينيه » هذا الذى يحب أن ينظر إلى نفسه كممثل للرجل الفرنسى العادى يؤمل أن يعود إلى الحكم يوما ما .. وهو مهتم دائماً بتمثيل دور الرجل المنسى الذى يأمل بإخلاص ألا ينسى : وقد ولد فى سنة ١٨٩١ . وانحدر من إقليم الرون . واشتغل سنوات عدة صانعاً للجلود

والسياسة اليمينية فى الواقع . سياسة أشخاص أكثر منها سياسة أحزاب . وثمة رجلان لهما وزنهما إلى جانب « ديشى وبينيه » وهما « جاك سوستيل » و « جورج بيدو » ، أما بيير بوجار » قائد الدهماء الذى أراد أن يلغى الضرائب فقد أصبح نسيا منسيا ولا يمكن ضمه إلى هذه القائمة من الزعماء . والزعماء اليمينيون جميعهم مختلفون بشدة . إلا فى مسألة واحدة هامة هى مسألة الجزائر . فهم يعتقدون أن ديجول قد أصبح متساهلا أكثر من اللازم فى موضوع الجزائر . وأنه يحتاج إلى تشدد أكثر .. واحتمال السماح للجزائر أن تنفلت من قبضة فرنسا يخيفهم ويرعبهم .

و « سوستيل » — كما هو معروف — كان واحد من المقربين ومن أشد المخلصين لديجول عدة سنوات . . لقد كان فى أول أمره رجلا

يسارياً ، وكان مدربا على وضع الخطط ، إنه رجل واسع المدارك ، قادر على العمل . . العمل المنحرف أحياناً . . لقد عمل بمهارة فى عديد من المناصب الوزارية (بما فى ذلك الاستعلامات ، وما وراء البحار والطاقة الذرية) . . وكان حاكما عاماً للجزائر ، ولكنه طرد من حزب ديجول فى أبريل سنة ١٩٦٠ . . إن له آراء سديدة فى جميع المسائل ماعدا مسألة الجزائر .

وقد ولد « بيدو » سنة ١٨٩٩ وعلى هـــذا فسوستيل أصغر منه بكثير وهو شخصية مشهورة فى السياسة الفرنسية المعاصرة ، وقد كان رئيساً للوزارة ووزيراً للخارجية ، وكان لسنوات عديدة واحداً من أقطاب الحركة الجمهورية الشعبية ، ولكنه انفصل عنه بسبب الجزائر ليتخذ موقفاً يمينياً مستقلا . . وحزبه الجديد الذى يتركز على شخصه إلى حد كبير يعرف باسم الحزب الديمقراطى المسيحى .. ولكن بيدو ، الذى كان أستاذا للتاريخ ، رجل له وزنه .. لسببين اثنين . أولهما أنه قاد حركة المقاومة داخل فرنسا أثناء الحرب .. قادها بمهارة ولا يزال يمثل نوعاً من البطولة ، وثانيهما أنه يعطى اليمينيين قدراً معيناً من التبصر والتعقل .

وننتقل الآن إلى الأحزاب اليسارية بالنسبة لديجول ، مستثنين الجماعات الصغيرة المتعددة . . إن ثمة قوى أربعة : تتمثل الأولى فى بيير منديس فرانس ، وجماعة من الجناح اليسارى للحزب الاشتراكى الراديكالى ، وهى جماعة صغيرة . . ولكن منديس لا يمكن إغفاله لأن له مقدرة فائقة وشجاعة وخيالا (خصباً) . . وهو يحاول أن

يخلق حزباً يسارياً قوياً ، كما أنه يعتبر السياسى الفرنسى الوحيد الذى يلى ديجول وبينيه ، وربما بيدو ، فى المكانة الوطنية السامية ، وجماعة منديس تربط نفسها الآن باتجاد يعرف باسم اتحاد القوى الديمقراطية .

والقوة الثانية تتمثل فى بقايا الاشتراكيين الراديكاليين القدامى والجمهوريين اليساريين (٤٣ مقعداً) .. ومن القادة الراديكاليين ذوى الشأن : « فيلى جايلار » أحد رؤساء الوزارة فى الجمهورية الفرنسية الرابعة

والقوة الثالثة تتمثل فى« جى موليه » والجناح الأيمن فى الاشتراكيين المحافظين (٤٤ مقعداً) .. ولكن موليه يعمل بين عدة معوقات .. فلقد كان رئيساً للوزارة أيام محنة السويس ، وقد هجر حزبه بالتالى برضوخه لديجول .. لقد كان وزيراً للدولة سنة ١٩٤٦ ، واتفق مع ديجول على المسائل الجوهرية فى موضوع الجزائر ، ولكنه اختلف معه فى التنميات الحديثة المتصلة بمنظمة حلف شمال الأطلنطى وبالسياسة النووية .. وموليه رجل أريب ، فى منتصف الحلقة السادسة من العمر وهو ينتمى إلى الطبقة العاملة إذ كان أبوه عامل نسيج .

والقوة الرابعة تتمثل فى الشيوعيين .. وموقفهم اليوم لا يمكن تبينه بسهولة ، لأن ديجول سن قانوناً انتخابياً جديداً يجعل حق التمثيل فى الجمعية الوطنية قاصراً على الأحزاب التى يمثلها فى البرلمان خمسون نائباً على الأقل .. ولقد بلغ الشيوعيون القمة فى سنة ١٩٤٦ — ١٩٤٧ ، إذ كان حزبهم هو أكبر الأحزاب فى فرنسا ، فكان فيه تسعمائة ألف

عضو ، نالوا أكثر من خمسة ملايين وخمسمائة ألف من الأصوات ، أى ربع الأصوات الانتخابية ، وكان له مائة وخمسون نائباً .. ولكن عدد الأصوات التى نالها فى انتخابات نوفمبر سنة ١٩٥٨ انخفض إلى ٣٫٨٨٢٫٠٠٠ صوت (أى إلى نسبة ١٨٫٩ ٪ من المجموع الكلى للأصوات) .. وهو رقم لا يزال كبيراً ، ومع هذا لم ظفر الحزب إلا بعشرة مقاعد فى الجمعية الوطنية ، وذلك بسبب الطريقة التى أجريت بها العملية الانتخابية . والذى يؤلم الشيوعيين هو الرخاء .. وثمة عامل آخر له أثره السيء على الشيوعيين ، وهو أنهم أصبحوا حزباً قديماً .

والشيوعيون يعادون منظمة حلف شمال الأطلنطى ، والوحدة الأوروبية . والسوق المشتركة ، وهم يتهمون ديجول بقسوة ، ولكنهم لا يعارضونه دئماً .. ففى يونيو سنة ١٩٦٠ على سبيل المثال . أيد الشيوعيون العرض الذى تقدم به ديجول لمفاوضة الثوار الجزائريين .

وأكبر قوة وراء الحزب الشيوعى ، هو أقوى الاتحادات الفرنسية وأهم الزعماء الشيوعيين هم : موريس ثورى أحد مؤيدى ستالين القدامى ، الذى يتمتع رغم هذا بتأييد الكرملين الحالى . وجاك دوكلو ، وقد ولد ثورى سنة ١٩٠٠ لأب من عمال المناجم ، وقاد الشيوعيين فى حكومة الجبهة الشعبية ، وقضى كثيراً من الوقت فى موسكو .

رئيس الوزراء ووزير الخارجية

ولد ميشيل ديبريه، أول رئيس للوزراء فى عهد الجمهورية الخامسة، فى باريس عام ١٩١٢ وهو نصف يهودى، وقد كان أبوه أستاذا قديراً فى الطب، وهو نفسه دكتور فى القانون (جامعة باريس) وقد أصبح ديبريه موظفاً حكومياً وانضم إلى القوات المسلحة فى عام ١٩٣٩ وحينما سقطت فرنسا انضم إلى حركة المقاومة وقد لمسه سحر ديجول منذ وقت طويل وأصبح متعصباً للجنرال منذ عشرين سنة .

وبعد تحرير فرنسا أصبح ديبريه شخصية بارزة فى حزب اتحاد الشعب الفرنسى وحصل على مقعد فى البرلمان ، وظل محتفظاً به لمدة سنين عن دائرة اندر ـ و ـ لواد . . ولقد أصبح مشهوراً بسبب كتاب هاجم فيه الجمهورية الرابعة بقوة ، وبعد ذلك ارتفع إلى مركز المتحدث الرسمى باسم ديجول فى البرلمان ، وقد لعب دوراً كبيراً فى مؤامرة مايو سنة ٩٥٨ : وحينما تولى ديجول الحكم ، عين وزيراً للعدل ، وهو الذى وضع دستور الجمهورية الخامسة ، وحينما أصبح ديجول فى النهاية رئيساً للجمهورية فى ١٨ يناير عام ١٩٥٩ ،عين ديبريه وزيرها الأول .

ورئيس الوزراء رجل شريف وهذا وصف لا يمكن أن يطلق على جميع السياسيين ،وشجاعته ملحوظة ولكن تعوزه اللمسات السياسية، ولا جدال فى أنه مساعد لديجول لا أكثر ولا أقل ، وهو لا يتسامح

مع النقد بسهولة ، ومنذ مدة قصيرة انفجر غضبه بهذه العبارة « أى دولة أخرى تستطيع أن تتحمل جرائد مثل الاكسبريس وفرانسو — ابزيرفاتير ، والكنار انشنيه أو الهيومانتيه التى تهدد أعمال الحكومة بانتظام » ؟! . وجاءت الإجابة سريعة من جريدة الكنار « أى دولة أخرى تستطيع أن تتحمل مسيو ميشيل ديبريه كرئيس للوزراء » ؟ . . ومثل كثير من رجال المقاومة ما زال ديبريه ينطوى على شئ من التآمر .

وبجانب مشكلة الجزائر فإن مشاغل ديبريه الرئيسية الجديدة كرئيس للوزراء تتصل بسياسة التسلح الذرى الفرنسية والتقارب الفرنسى الألمانى ، بما فى ذلك حلف شمال الأطلنطى ، أما عن المشكلة الأولى فإن فرنسا — كما هو معروف — ابتدأت فى تكوين قوتها الذرية التى ستتكلف — كما قدر لها — مبلغاً كبيراً يصل إلى ١ر٣ بليون دولار فى عام ١٩٦٥ ، وقد أجرى الفرنسيون ثلاث تجارب ذرية فى الصحراء الكبرى . . ورسمت الخطط لبناء أسطول صغير — ولكنه باهظ التكاليف — من قاذفات القنابل قادرة على إلقاء الأسلحة الذرية . . وديجول مصمم على امتلاك فرنسا للقنبلة الذرية ووسائل استخدامها وذلك لأربعة أسباب على الأقل :

أولا : لإعلاء شأن الكرامة الفرنسية بعضويتها فى « النادى الذرى » .

ثانياً : الخوف المستمر من إعادة تسليح ألمانيا ، والقلق من أن

الألمان سيحصلون على قوة ذرية خاصة بهم فى الوقت المناسب .

ثالثاً : الاستياء من السياسة الأمريكية التى تصمم على منع تخزين الرءوس الذرية الأمريكية فى أراض أجنبية ، وهذه السياسة لا يرضى عنها ديجول .

رابعاً : عدم الرغبة فى الانضمام إلى أية ترتيبات مستقبلة والتى على أساسها تصبح القوة الذرية الفرنسية الضاربة عرضة لأن تكون تحت سيطرة دولية (حلف شمال الأطلنطى) ، ولقد مر ديبريه بفترات عصيبة وهو يعرض سياسة ديجول الذرية على الجمعية الوطنية بالرغم من هيبة رئيس الجمهورية . . وقد أنقذت الحكومة بصعوبة حيث أنها هزمت مرات عديدة عند التصويت على لومها . . ولم يصبح مشروع القرار قانونا إلا بعد سبعة أسابيع عصيبة من المناقشات الحامية .

أما بالنسبة لعلاقته بألمانيا وحلف شمال الأطلنطى ، فإن موقف ديجول يعتمد كلية على كراهيته للسياسة التى تعلو على القومية . ولا جدال فى أنه يريد التقارب مع ألمانيا ولكن تبعاً لشروطه الخاصة . . وقد ذهب ديبريه فى أكتوبر عام ١٩٦٠ إلى بون ليناقش هـــذه الأمور ــ ولكن بلا نتيجة ملموسة ــ ولقد استمر ديجول نفسه فى التحويم حول دول حلف شمال الأطلنطى . إن ديجول يريد « أوروبا أرض الآباء » بملامحها القومية وخلق « سكرتيرية أوروبية » يكون مقرها باريس ، ومعارضة استخدام أى قوة من قوات حلف الأطلنطى للأسلحة الذرية . . ويبدو للمراقبين إن هـــذا ما هو إلا « بحث

عن العظمة القومية الفرنسية على حساب وحـــدة التحالف » . .

ووزير الخارجية موريس كوف دى مورفيل مثل رئيس الوزراء كان أستاذا فى جامعة باريس ، وعمل بعضا من الوقت موظفاً حكومياً، ولد دى مورفيل فى ريمز عام ١٩٠٧ ، وقد كان مديراً للشئون السياسية فى كاى ذى أرساى . وعمل سفيراً فى القاهرة ، روما ، وواشنطن وبون ، وقد أصبح وزيراً للخارجية فى حكومة ديجول الأولى فى عام ١٩٥٨ وكان هذا داعياً لدهشته ، وقد احتفظ بمنصبه منذ هذا الوقت ، وهو من الأعضاء القلائل فى الحكومة الذين لم يساعدوا ديجول أثناء الحرب ،وقد عمل فى حكومة فيشى حتى عام١٩٤٣ كموظف حكومى . .

وكوف دى مورفيل شخصية لا لون لها تقريباً ،وما هو إلا منفذ للسياسة الديجولية وهو على علاقة حسنة بالألمان وحينما كان التقارب الفرنسى الألمانى على أشده ، كان يطلق عليه تهكما « وزير خارجية فرنسا ــ ألمانيا » .

نظرة إلى المستقبل

ولكن ماذا يحدث لو مات ديجول غدا؟ حينئذ من الممكن حدوث أى شئ ، فلو تتابعت الأحداث بطريقة دستورية صحيحة ، فستكون هناك فرصة كبيرة أمام بينيه للنجاح أكثر من أى شخص آخر، وذلك لأنه يتمتع بأنصار أقوياء ـ وربما يتلقى مساعدة ملموسة من اليساريين

بالرغم من كونه يمينيا — لأنه حينئذ سوف ينظر إليه على أنه دفاع ضد التيار اليميني المتطرف ، وهناك احتمال آخر — وإن كان أضعف — وهو قيام ائتلاف بين اليساريين بزعامة منديس فرانس أو حتى موليه .. ومع ذلك فإن هذين الاحتمالين يتوقفان على تطور الأمور تطوراً دستورياً — وهذا أيضاً يمكن ألا يحدث — فلو مات ديجول — أو أقيل من منصبه بطريقة ما — قبل أن تضع الحرب الجزائرية أوزارها فهناك احتمال كبير بوقوع انقلاب . وربما يحاول سوستيل الاستيلاء على السلطة وهو قادر فعلا على ذلك إذا ما وجد تعضيداً من الجيش .

وربما يدفع هذا بالشيوعيين إلى الخروج صوب الشوارع، وبالتالى يسبب حرباً أهلية .

ويعتقد معظم المراقبين المطلعين بأن الجيش سوف يسيطر على الموقف فى أية محنة كبرى - على الأقل لو استمرت الحرب الجزائرية — وهذا ما يجعل ديجول شديد الرغبة فى أن يجد تسوية سريعة للمشكلة الجزائرية ، وفى استطاعته هو فقط أن يجد مثل هـــذه التسوية دون حرب أهلية .

٨ — الجيش والجزائر وأفريقيا

والشىء الوحيد الذى يستطيع أن يقلب عهد ديجول هو تفاقم الموقف الخطير فى الجزائر . . ولكن الجنرال قضى على انقلاب ٢٥ يناير عام ١٩٦٠ الفاشل بيد حازمة واثقة من نفسها إلى درجة أن أصبح حدوث

تمرد آخر من المتطرفين أو المستوطنين الفرنسيين فى الجزائر أمر محتمل، أو على الأقل تأجل حدوثه .

وعلى أية حال فإن موقف الجيش الفرنسى غامض وقد يؤدى إلى متاعب خطيرة . وهـذا سبب من الأسباب التى جعلت معظم الفرنسيين العقلاء يأملون فى أن يستمر ديجول فى الحكم لخمس سنوات أخرى أو أكثر وذلك لأنه إذا ما مات ديجول وما زالت المشكلة الجزائرية بدون حل فإن استيلاء الجيش على السلطة عن طريق انقلاب، كما ذكر منذ وقت قصير ، تحت قيادة ضباط مثل جنرال راؤول سالان سيؤدى إلى دكتاتورية عسكرية

وهذا لايعنى بالضرورة قيام دكتاتورية فاشية أو رجعية لأن الجيش الفرنسى فى الجزائر جيش من نوع غريب . . وسالان موجود الآن فى أسبانيا ومعه بيير لاجار وكثير من الذين اشتركوا فى تمرد يناير ، ومن الملاحظ أن الجيش يستطيع أن يقيم ويدير دكتاتورية « مختلطة » أو حتى دكتاتورية يسارية . . والجيش منقسم جداً . وقد كان الجيش قديما محافظاً جداً وكان معظم الضباط كاثوليكيين ولم يكن الشاب منهم يستطيع أن يدخل كلية سان سير بسهولة فإنه كان يجب أن يأخذ توصية من ممثل الإشراف المحلى ومن القسيس . . وهكذا كان الضباط يجندون من طبقة المحافظين ، وظل معظمهم محافظاً إن لم يكن رجعياً ؛ طوال حياتهم ، مثل المارشال جوان .

ولكن نظام كلية سان سير التقليدى يحتضر هـذه الأيام . . فقد

أحيل إلى التقاعد معظم الرجال الذين كانوا يحملون رتبة كابتن فأعلى فى الحرب العالمية الثانية ، وحل محلهم الآن جيل جديد . وهناك جزء كبير من الضباط والجنود الذين هم عنصر من عناصر الجيش الآن ؛ فروا بتجربة حرب الهند الصينية ، وتعلموا الكثير منها — صرف النظر عن الذل الذى لاقوه من الهزيمة — لقد درس هؤلاء الرجال نظم ماوتسى تونج العسكرية الثورية وتعلموا الأهمية العظيمة لحرب العصابات حينما تعتمد على الاتصال التام بالفلاحين المحليين . ولقد أسر الصينيون بعض الضباط الفرنسيين . وقد أدرك الجميع قوة جيش الشعب العظيمة ؛ إذا ماقورنت بقوه الجيش المنظم الذى يتموده ضباط من الطراز القديم. وأدركوا أيضاً ضرورة قيام الجيش الفرنسى بإعادة تنظيم نفسه ، ولا يتقبل الضباط اليوم النكتة الساخرة التى تقول أن فرنسا كانت مستعدة تماما لحرب عام ١٨٧٠ فى عام ١٩١٤ ؛ وأنها كانت مستعدة عام ١٩٤٠ لحرب عام ١٩٢٤

وهناك ظاهرة غريبة وهى أن الجيش الفرنسى فى الجزائر لا يحب ولا يعجب بالمستوطنين الفرنسيين. وقد استخدم رجال الجيش المستوطنين فى تحقيق أغراضهم وعملوا معهم فى المناسبات ولكن لا يوجد كثير من المشاركة الوجدانية بينهم ويطلقون على المستوطنين اسم الأقدام السوداء . والمرء يتوقع أن يرى هوة عميقة بين الجيش والمستوطنين حيث أنهما فرعان من جزر واحد . ولكن هـــذا ما لا يحدث فى الواقع . السبب هو إدراك الجيش أن المستوطنين مسئولون عن تسميم العلاقات مع السكان المسلمين الوطنيين ، وأدرك الجيش أيضاً إدراكا جيداً

(بعد ست سنوات من الحرب) إنه لن يكون هناك حل دائم لمشكلة الجزائر إذا تم إبعاد الوطنيين المسلمين عن الاشتراك فى وضع هذا الحل . انه يريد أن يستميل هؤلاء المسلمين الذين لايحـــارب معهم فى الحقيقة وعلى كل حال فإن المنطق يؤكد بوضوح أنه سيكون من السهل أن يظل الجيش فى البلد إذا ما أصبحت جماهير الجزائريين من الأصدقاء (١١)

ولكن الجيش يشك فى ديجول أيضاً ، وذلك لأنه يخشى أن تضطر الظروف ديجول ، رغما عن نفسه ، إلى التنازل عن الجزائر ، وهذا ما لا يسمح به الجيش . فقبل كل شىء يريد الجيش أن يظل فى الجزائر، وهذا هو جوهر موقف الجيش كله . إنها ليست فكرة احتلال عسكرى وإنما هى كراهية للهزيمة . فقد هزم الجيش الفرنسى فى الجزائر ، وأرغم على الانسحاب من سوريا ولبنان ، وطرد من مراكش وتونس ، ومر بكارثة ديان بيان فو فى الهند الصينية وفقد كل النفوذ الفرنسى فى الشرق الأقصى ، والتاريخ ملىء بالتقهقر التقهقر المستمر ، والهزيمة . الهزيمة المستمرة . ونتيجة لذلك يقول الجيش الآن : « لا هزيمة بعد الآن . إننا هنا فى الجزائر ، المعقل الأخير . وسنظل هنا » !

وفى نفس الوقت مازالت الأزمات الخطيرة مستمرة بين العناصر المتطرفة فى الجيش وبين موظفى ديجـــول الحكوميين . وفى يناير عام ١٩٦٠ انضم الجيش الى جانب المستوطنين المتمردين الذين حصنوا أنفسهم فى شوارع الجزائر بالمتاريس . ولكنه تراجع حينما أصبح من الواضح

أن فرنسا كلها تقريباً تقف صامدة خلف ديجول . وانتهت الحركة . وقد عملت حكومة ديجول كل ما فى وسعها منذ ذلك الوقت على « تصفية » الموقف عن طريق تقليم أظافر الجيش . فقد أعفى كثير من الضباط بهدوء من العمل فى الجزائر عن طريق التقاعد أو النقل .

ويمضى المؤلف فيقول : لقد بدأت الحرب الجزائرية ، وهى الحرب الساخنة الوحيدة التى تشن اليوم فى العالم الغربى ، بدأت بغارة على المنشآت الفرنسية ، قامت بها فى اليوم الأول من شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، جماعة من الوطنيين الجزائريين ، يحتمل ألا يزيد عددها عن خمس مئات , ولقد نظر الفرنسيون أول الأمر إلى هذه الغارة ، باعتبارها وخزة صغيرة فى الظهر . ولكن هذه الوخزة لم تلبث أن أصبحت جرحا نافذا فى جسد السياسة الفرنسية قد تنزف منه حتى الموت . ولكن الصدمة التى أصابت باريس كانت محيرة للغاية ، إذ كان يظن — منذ وقت طويل — أن الجزائر آمنة مع أن من زارها — من ذوى الوعى والإدراك — فى السنوات الخمسينية الأولى لم يكن عليه أن يطيل النظر كى يعلم أنها ليست كذلك .

ولكن الفرنسيين وضعوا الجزائر فى وضع مختلف تماما عن جاراتها المغرب وتونس حيث ولدت العاطفة القومية اضطرابات عنيفة . لقد كانت الجزائر — من الناحية الواقعية على الأقل ، جزءا متمما لفرنسا نفسها ، تماما كنورماندى أو تورين ، وقيام ثورة حقيقية كاملة هناك كان شيئاً مستبعداً — شيئاً شبيها بالحرب الأهلية ومن الأمور التى تبعث على الضيق ، وهى حقيقية يعرفها كل إنسان ، أن الجزائر لاتضم

على وجه التقريب مجرد تسعة أوعشرة ملايين مسلم، ولكنها تضم أيضاً مليون فرنسي والوجه المقلق للمشكلة يتعلق دائماً بهذا المليون من الفرنسيين البيض من رجال الأعمال والموظفين والعمال المقيمين فى الجزائر . ماذا نفعل إزاءهم ؟ أنضحى بهم ؟ أنتركهم تحت رحمة العرب ؟ أننقلهم ثانية إلى فرنسا ، ونهيء لهم وظائف جديدة ، وحيوات جديدة هناك ؟ أم ماذا ؟ إن ثمة ملحوظة هامة هنا ، وهى أن كثيراً من الملايين البيض من النساء والرجال المقيمين فى فرنسا لا ينتمون إلى أصل فرنسى . فالكثيرون منهم ينتمون إلى أصل إيطالى أو أسبانى ، وهم كثيرون بدرجة أن غير العرب من الجزائريين قد يمثلون فيما يبدو قومية جديدة هى مزيج من قوميات البحر الأبيض المتوسط ولكنهم جميعاً مواطنون فرنسيون ، ومشكلة حفظ حقوقهم ، والتصرف إزاءهم مشكلة عويصة.

لقد كلفت الحرب فرنسا والجزائر خسائر باهظة . وأجبرت فرنسا على الاحتفاظ بجيش فى الجزائر يبلغ عدده خمسمائة ألف ، وهذا يعنى . بشىء من الاعتدال ، استنزافا خطيراً للاقتصاد القومى . إن أحداً لايعرف تماما ماتتكلفه الحرب الفرنسية الجزائرية ، ولكن من المحتمل أنها تكلف خزانة فرنسا فى العام ٢ بليون دولار ، أضف إلى هذا أن الخسائر فى الأرواح لا تسر .

فمع أن القتال قد خفت وطأته فى الأشهر الأخيرة إلى حد كبير فالأطفال الفرنسيون يقتلون يوما بعد يوم ، ومتوسط القتلى فى العام حوالى الألفين . فى جانب الجزائريين يقدر الفرنسيون عدد المصابين

منهم بحوالى ٢١٠٫٠٠٠ ويقدرهم الجزائريون بما لا يقل عن نصف مليون ، بما فى ذلك ٥٠٫٠٠٠ لقوا مصارعهم . إن السفر فى كثير من أنحاء الجزائر لا يزال غير مأمون الجانب ، والاقتصاد المحلى قد أصابه العطب ، وما يقرب من مليون ومائتين وخمسين الفا من الجزائريين قد أجبرتهم السلطات الفرنسية على الإقامة فى مراكز اللاجئين . وهذا العدد الضخم من الناس ، الذين يبلغون عشر التعداد الكلى لسكان الجزائر ، قد أجلاهم الفرنسيون عن مناطق كانت مصدر متاعب لهم أو مأوى للمشتغلين بحرب العصابات . وأخليت أحياء بأسرها تماما من الجنس البشرى ، كما فر أخيراً ربع مليون من اللاجئين الجزائريين إلى تونس والمغرب .

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن الجزائريين بالرغم من الضغط الفرنسى المستمر ، الذى يشمل التعذيب من قبل الجيش والبوليس المحلى قد أصبحوا قادرين لا على مجرد الإبقاء على أنفسهم كقوة لا تتمهر فى حرب العصابات ، ولكنهم أوجدوا شيئاً شبيها بالحكومة الحقيقية ، مع أن الفرنسيين ينكرون هذه الحقيقة بشدة . وتنظيم الثوار الذى يسمى جبهة التحرير القومية ، يجمع الضرائب ويحفظ نوعا من النظام المحلى . ويحتمل أن سلطاتهم تشمل ثلث الجزائر مع أن الفرنسيين يسيطرون بالطبع على الشريط الساحلى ذى الأهمية الحيوية وقائد جبهة التحرير القومية هو فرحات عباس ، الذى يعرف برئيس حكومة الجزائر المؤقتة ومقره الرئيسى فى تونس وأحيانا فى القاهرة . وهو فى الثانية والستين من عمره ، وكان منذ عدة سنوات نائبا يمثل الجزائر فى البرلمان الفرنسى

وهو ينتمي أصلا إلى الجناح المعتدل من الوطنيين الجزائريين، ولم ينضم إلى الثورة ،التي يمثل الآن بصفة اسمية قائدها السياسي والحربي ، إلا في سنة ١٩٥٦ ، عندما بلغت الثورة عامها الثاني أنه يعتبر غالباً الطليعة لعناصر قوية ؛ وربما يتمتع الكثير ممن دونه من الزعماء ؛ كنائبه بلقاسم بقوة أكبر مما يتمتع بها هو . إن فرحات مزاج غريب من الدهاء والانفعالية والصلابة . إن زوجته فرنسية ومن المفروض أن يتكلم الفرنسية أفضل من العربية. والقضية الجزائرية، كما يلخصها فرحات عباس وزملاؤه بسيطة جداً : إن الجزائر هي الدولة الإسلامية الوحيدة في العالم الباقية في قبضة الاحتلال ؛ والتي تستحق الحرية عن جدارة . وقد لعبت الاعتبارات الدولية دوراً حيوياً في تطور جبهة التحرير القومية من ذلك أن الرئيس ناصر ، ذلك الزعيم الذي بلغت كراهيته الغاية لفرنسا منذ حرب السويس ؛ يؤيد جبهة التحرير بشدة . ولقد ذهب الفرنسيون إلى حد القول بأن جبهة التحرير لا يمكن أن تعيش بغير ناصر ، وثمة عامل آخر وهو أن تونس والمغرب ؛ كما هو متوقع ؛ تؤيدان جبهة التحرير في هيئة الأمم وكذلك يفعل أعضاء آخرون من الكتلة الأفريقية الآسيوية . ومن الأمور البالغة الأهمية أن جبهة التحرير تلتمس التأييد من الاتحاد السوفيتي ومن الصين الشيوعية على وجه الخصوص لقد زار فرحات عباس كلا من موسكو وبكين مع أن جبهة التحرير ليست شيوعية ، وقد تعهد ماوتسي تونج أخيرا في سنة ١٩٦٠ ؛ بمساعدة الجزائريين مساعدة كاملة غير مشروطة . وقد استقرت بعثة جزائرية دائمة في العاصمة الصينية . وقد

كانت موسكو رغم هذا ؛ وحتى وقت قريب على الأقل ، تبدى شيئاً من التردد . وهذا راجع إلى أن الروس ، وهم يأملون إضعاف حلف شمال الأطلنطى قد اتجهوا إلى ديجول يؤيدونه ضد الجزائريين لأنه كان معادياً للحلف ولكن الأيدى الروسية ، كالأيدى الصينية ، تمتد الآن لتأييد الجزائر ففى أكتوبر سنة ١٩٦٠ عند ما كان خروشوف فى الأمم المتحدة ، انضم إلى ماوتسى تونج فى تقديم الوعود لجبهة التحرير ببذل المعونة الممكنة لمساعدة الجزائريين على الظفر بحريتهم وثمة حلول ستة ممكنة للمشكلة الجزائرية ، إذا أمكن تسمية الحرب المدمرة السامة مجرد مشكلة ، وهى حلول ممكنة نظريا

١ ـ الانتصار العسكرى الكامل لفرنسا ، وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الحرب . وهذا غير ممكن إلا بتكاليف لا تطاق .

٢ ـ الانتصار العسكرى الكامل للجزائريين ، وهو كذلك مستحيل .

٣ ـ التقسيم على نحو ما تم فى شبه القارة الهندية أو إسرائيل وهو أمر لا يستقيم من الناحية الجغرافية .

٤ ـ الاتحاد الكامل بين فرنسا والجزائر ، الذى يعتبر برنامجا لليمينيين الفرنسيين ولكن أحدا لا يرغب فى تعريف هذا الاتحاد تعريفا دقيقا . إن كل فرنسى يوافق على أن الاتحاد إذا قام . فإن امتيازات كبيرة ينبغى أن تمنح للشعب المسلم فى الجزائر ، كمثل التمثيل السياسى الكامل فى باريس . إن العرب يمنون بالمساواة ، ولكن المراد بالمساواة لم تتضح بعد .

٥ — سياسة التسوية، وهى عبارة الديجوليين. إن الجنرال ديجول الذى ولى السلطة كرئيس للوزراء فى مايو سنة ١٩٥٨ قضى ثمانية عشر شهرا يدرس الموقف حتى اتخذ رأيا بصفة مؤقتة. وفى السادس عشر من سبتمبر سنة ١٩٥٩ صدر تصريح سياسى كبير، لم يسبق له مثيل فى إقراره إمكان التفاوض مع جبهة التحرير، وإنما فى وعده بمنح الجزائريين امتيازات لم يكن يحلم به أحد حتى ذلك الوقت.

قال ديجول، إنه مادامت الحرب قد توقفت فإنه سيكون مستعدا لأن يمنح الجزائر حق تقرير مستقبلها. ومعنى هذا أنه قد سلم بأن للجزائر حق تقرير مصيرها، وأن تختار الحرية إذا أرادت، ولكنه أصر على وقف إطلاق النار وعلى فترة من الهدوء تمتد أربع سنوات كشرط لإجراء الانتخابات، وعندما تجرى الانتخابات، سيكون للشعب الجزائرى أن يختار واحد من ثلاثة:

١ — الانفصال أو الاستقلال التام عن فرنسا

٢ — استقلال ذاتى داخل الإطار الفرنسى.

٣ — الاتحاد مع فرنسا وقد استعمل ديجول كلمة «الاتحاد» ولم يستعمل كلمة «الاندماج» لأن هذه الكلمة تثير الوطنيين الجزائريين

ومن هذه الثلاثة يختار ديجول الثانى، ومن المهم كذلك أن نلاحظ أن الجزائر إذا اختارت. الانفصال، فإن من المحتمل أن تنقسم فتظل الأجزاء الفرنسية الخالصة فرنسية.

وقد رأت جبهة التحرير أن عرض ديجول رغم كونه مثيرا لم يخط نحو حل المشكلة بالدرجة الكافية ، ومن ثم فقد رفضته الجبهة وكان اعتراضها عليه أنه لم يعرف شروط وقف اطلاق النار ، وأنه ترك فرنسا تسيطر على الجزائر أربع سنوات ، ولم يكن ثمة ضمان للظروف التي تجرى فيها الانتخابات . وإذا كانت الجبهة لا ترضى باقتراحات ديجول ، فإن الجيش والمستوطنين فى الجزائر لا يرضون بها أيضا وبدرجة أكثر . والمستوطنون على وجه الخصوص قد أثارهم أن ديجول الذى جاء إلى السلطة سنة ١٩٥٨ ليحل المشكلة الجزائرية بتصفية الحرب ، قد أخذ يفتح الآن باب المفاوضات مع الثوار ، ويجلب الإهانة التي لا تحتمل ، بتمكينه الجزائريين فى المستقبل من أن يصوتوا للانفصال عن فرنسا . وكانت النتيجة المباشرة لهذا هى ثورة المستوطنين فى يناير سنة ١٩٦٠ .

وفى الرابع عشر من يونيو سنة ١٩٦٠ جدد ديجول محاولاته ، فقد أعطى ضمانا شخصياً بأن الجزائر ستكون حرة تماما لتختار مستقبلها ، وحث على المفاوضات لوضع نهاية كريمة للحرب . وفى الرابع والعشرين من يونيو وافقت جبهة التحرير على هذه الدعوة الجديدة ، وقدم إلى فرنسا وفد من رجلين يمثلان فرحات عباس . وبدأت المحادثات سرا فى ميلون على مقربة من باريس ولكنها انتهت بغير نتيجة ؛ فقد أعلن المفوضان الجزائريان أنهما عوملا كأسرى ولم يسمح لهما بمفاوضة فرنسيين مساوين لهما فى المكانة والمقام .

تأزمت الحوادث فى فرنسا واتسعت هوة الخلاف فيها بعد ذلك .. ووقف ديجول بعض الوقت فى وسط كان اليمنيون يشيرون إلى أنه إذا فقدت الجزائر فإن العواقب الاقتصادية ستكون وخيمة على كل المستويات ، فمثلا قدر لمصانع رينو ـ وهى مصانع السيارات الضخمة ـ أنها ستضطر إلى التوقف عن العمل يومين فى الأسبوع . ومن ناحية فهناك قوى مختلفة تحاول التأثير على ديجول .

فالكرادلة الكاثوليك الرومانيون ـ بما فيهم أسقف باريس ـ يحثونه على إيجاد تسوية ، وفى نفس الوقت تقريباً قامت مظاهرة للطلبة المنتمين إلى الجناح اليسارى تطالب بجزائر حرة . ووقعت مجموعة كبيرة من المثقفين بزعامة جان بول سارتر ومن بينهم رجال معروفون فى جميع أنحاء العالم ، منشور الـ ١٢١ ، الذى حث فى النهاية الجنود الفرنسيين فى الجزائر على هجر صفوف الجيش .

وفى يوم ٤ من نوفمبر ألقى ديجول خطبة جديدة ، بين فيها أنه مازال متمسكا بقوة برأيه فى أنه من الممكن أن تحدث مفاوضات مع الثوار الجزائريين إذا ما توقف أولا إطلاق النار ، تبعاً لشروط يتم تحديدها ولكنه قتل احتمال الاندماج الكامل . وقد ذهب إلى حد أن قال إنه يجب إقامة « جزائر جزائرية » بحكومتها وقوانينها المستقلة . ولا تخضع لسيطرة الحكومة الفرنسية ، وإن قيام جمهورية جزائرية شيء محتم . ونتيجة لذلك فقد ثار المتطرفون فى الجزائر ، ولكن سرعان ما أخمدت ثورتهم . وقد زار ديجول بنفسه الجزائر فى ديسمبر ليحصل على التأييد

لمشروعه هـــذا . . ولـكن فى ١٨ من ديسمبر قام المسلمون بحوادث شديدة مثيرة للشغب ، أدت إلى حدوث إصابات خطيرة . وقد وقف الجيش بقوة بجانب ديجول ، ولأول مرة فى تاريخ حركة التمرد ، قام الجيش بإطلاق النار على المستوطنين الأوربيين .

وقد قام ديجول بإجراء استفتاء عام فى ٨ من يناير ١٩٦١ حيث ذهب أكثر من عشرين مليون ناخب فى فرنسا وأكثر من ٢ر٦ مليون ناخب فى الجزائر إلى صناديق الاستفتاء حيث طلب من الناخبين أن يجيبوا بلا أو نعم على اقتراحين لتقرير المصير . وكانت النتيجة النجاح التام لديجول ولسياسة تقرير المصير . . فقد حصل على ٧٥٫٣ ٪ فى فرنسا وحصل على ٦٩٫٠٩ ٪ من مجموع الأصوات . وقد صوت ضد ديجول حوالى ٧٨٠٫٠٠٠ جزائرى . والسبب فى ذلك هو أنه ما زال هناك عدد كبير من الجزائريين — بالرغم من كل شىء — ليس مخلصاً لفرنسا فقط . بل يخدمها فى الواقع كثيرون كمساعدين فى الجيش الفرنسى . وقد صوت الجزائريون الأميون عن طريق الألوان فاللون الأبيض معناه : نعم واللون الأرجوانى معناه : لا .

ومن الواضح أن هذا الاستفتاء أنهى احتمال وجود حل «فرنسى» خالص وابتدأت من جديد لاستعدادات للمفاوضات بين باريس والثوار ، واستعد آلاف من المستوطنين لحزم أمتعتهم والعودة إلى الوطن الام . وفى الحال أعلنت جبهة التحرير الجزائرية أنها ستمنح امتيازاً خاصاً للأوربيين الذين يختارون الإقامة فى الجزائر وذلك إذا ما حصلت الجزائر على الاستقلال التام . ولـكن عناصر الجيش لم توافق

على الوضع الجديد ، وحاول أربعة من الجنرالات الفرنسيين ومن بينهم سالان وشال فى ٢٢ من أبريل عام ١٩٦١ الاستيلاء على السلطة فى الجزائر عن طريق انقلاب وقد واجهت باريس تهديداً بالغزو من رجال المظلات المتمردين . ولكن ديجول واجه الموقف بقوة وانتهى التمرد بعد أربعة أيام. ولكن لا يمكن أن نستبعد احتمال حدوث اضطرابات أخرى .

وهناك نقطة تدعو إلى الاهتمام، وهى أن الأراضى التابعة للصحراء الكبرى الغنية والتى تقع جنوب الجزائر ، والتى كانت تعتبر فيما مضى جزءاً من الجزائر ، ولم تكن موضع مناقشة . فلا بد من أن تظل الصحراء الكبرى جزءاً لا يتجزأ من فرنسا مهما يحدث من نتائج وهناك سبب لتصميم الفرنسيين على الاحتفاظ بالصحراء الكبرى مهما كلفهم الأمر . وهو أن المساحات الشاسعة من الصحراء ضرورية لتجاربها النووية . وسبب آخر هو أنه لا شك فى أن هناك أجزاء كبيرة من الصحراء الكبرى مليئة بالبترول ، ويصل الإنتاج اليومى إلى حوالى ثمانية ملايين طن فى السنة . وسيزداد هذا الإنتاج فى السنوات الخمس القادمة والشعور الوطنى فى أغوار الصحراء الكبرى مهمل . وليس لجبهة التحرير الجزائرى إلا نفوذ ضئيل فى الوقت الحاضر هناك .

المغرب... تونس... وأفريقيا السوداء

لقد حصلت كل من المغرب وتونس على استقلال من فرنسا قبل وصول ديجول إلى الحكم. ودخلت الأمم المتحدة كدول ذات سيادة فى عام ١٩٥٦. وهذا تطور عظيم فى حد ذاته. وازدادت عظمته بالسرعة التى تم بها هذا الاستقلال. فقد كان من المعروف أن فى المغرب وعلى الأخص فى تونس حركة وطنية مسلحة ومنظمة تنظيما دقيقاً. لقد كان هناك بعض المراقبين المتفائلين. حتى عام ١٩٥٢. ولم يكن الواحد منهم يحلم بأن يتم هذا الإستقلال بهذه السرعة. لقد كان أمس (هكذا يبدو) حينما كان الحبيب بورقيبة. رئيس جمهورية تونس. سجينا فى يد الفرنسيين. وكانت بلده تتقدم إلى نوع غريب من الفوضى الكريهة. وكان السلطان محمد الخامس قد عزل عن العرش ونفى إلى جزيرة مدغشقر. واليوم كل منهما رئيس لدولة مستقلة (توفى السلطان محمد الخامس منذ شهور قليلة) وانكمش مركز الفرنسيين فى البحر المتوسط إلى الجزائر والصحراء الكبرى.

ولم تكن النوازع الخيرة ولا الرضوخ لرغبات العصر هى التى جعلت فرنسا — وهى التى كان مركزها راسخا فى شمال أفريقيا منذ عشر سنين كمركزها فى مقاطعة بريتانى الفرنسية — تتنازل عن مستعمرات مثل تونس والمغرب بدون مقاومة أطول مما كانت وتفسير ذلك هو أن الثورة الجزائرية هى السبب.. فقد كان الفرنسيون

يعلمون تمام العلم بأنه إذا ما امتد هذا التمرد القوى إلى الشرق و غرب ، إلى المغرب وتونس ، فانهم سيفقدون دولا حتماً ، ولذلك قرروا أن يقللوا من خسائرهم ، فلتذهب تونس والمغرب ، وركزوا جهودهم فى الاحتفاظ بالجزائر التى تعتبر أكثر الدول الثلاث قيمة ، والأرض التى يعيش عليها كثير من الفرنسيين . وتفسير آخر ، هو أن الوطنيين المغربيين والتونسيين استغلوا ضعف الإدارة الفرنسية فى المنطقة واستغلوا أيضاً هذا الجو السياسى المنقسم الذى كان يحيط بباريس فى هذا الوقت ، وأخيراً ترأس منديس فرانس مفاوضات تحرير تونس .

وفى الأيام الماضية ، أى أمس ، وكما هو الحال فى الجزائر الآن ، كان الوضع الفرنسى التقليدى هو أنه من المستحيل أن يتنازلوا عن المغرب وتونس ويهجروا المستوطنين هناك . لذلك فإنه لمن المفيد لنا ، ونحن نضع الجزائر فى اعتبارنا ، أن نرى ماذا حدث فى الواقع . فى تونس رجع حوالى ١٠٠٫٠٠٠ شخص من ٢٥٠٫٠٠٠ شخص من المستوطنين إلى فرنسا ، أما هؤلاء الذين فضلوا المعيشة فى تونس فيبدو — وهذا أمر يدعو إلى الدهشة — أنهم لم يثيروا أية شكوى أو حادثة أخرى ذات مغزى ، ويظهر أن كثيراً من الملاك الفرنسيين فى تونس الذين رجعوا إلى فرنسا كانوا خبراء فى زراعة الأراضى البور ، وقد نقلوا خبراتهم الزراعية التى تعلموها فى أفريقيا ، إلى الوطن الأم حيث حقق ذلك نتائج عظيمة ، وقد كان هذا تطورا مثمرا خاصة فى مناطق جنوب فرنسا حيث تتشابه الأحوال الزراعية مع الأحوال فى أفريقيا ، أما بالنسبة للمغرب فلم يكن من المتوقع حدوث

عودة المستوطنين الفرنسيين بامتيازات ضخمة في مقابل بقائهم هناك وقد رجع ٤٠٠٫٠٠٠ شخص من حوالي ٣٠٠٫٠٠٠ من المستوطنين إلى فرنسا ، ولكن لا جدال في أن هذه الأمثلة لا تقلل من الصعوبة التي يواجهها الجزائريون ، وذلك لأنه يوجد في الجزائر ، مليون فرنسي ، وأن استيعاب نسبة كبيرة منهم في فرنسا سيكون عملا محفوفا بالخطر

وحينما كتبت « في داخل أوروبا » منذ خمسة وعشرين سنة لم يكن هناك من يحلم بحصول المغرب وتونس على حريتهما : ولكن ما حدث لأفريقيا السوداء ، أفريقيا الفرنسية فيما وراء الصحراء الكبرى . هو شيء مثير ، إذ كانت هذه المناطق الشاسعة التي كانت معروفة يوما ما باسم أفريقيا الغربية الفرنسية (ومن بينها جزيرة مدغشقر أيضاً) أو هكذا كان يعتقد — من العمد الراسخة للإمبراطورية الفرنسية . ولكن ، خلال الحرب وبعدها ، أصبح من الواضح أن الاستعمار لا بد وأن ينتهي بمرور الوقت ، وذلك يرجع على الأقل إلى أن الاستعمار يلزمه تكاليف عالية لدرجة لا يمكن معها الاحتفاظ به . وقد كان لديجول أفكار بعيدة النظر في هذا الموضوع ترجع في تاريخها إلى يناير عام ١٩٤٤ حينما عقد مؤتمر للمستعمرات في برازافيل ووعد فيه الشعوب الأفريقية بتعديل القيود الفرنسية عليهم في الوقت المناسب . وقد كانت خطوته الكبيرة التالية (وذلك اختصارا للموضوع) في عام ١٩٥٦ ، حينما ظهرت فكرة « الاتحاد الفرنسي » في عهد الجمهورية الرابعة . وقد أعطى هذا للمستعمرات الفرنسية شكل رابطة بين دول حرة على غرار الكومنولث البريطاني تقريبا .

وقد قدم عرضاً للمناطق الفرنسية ليختاروا نفس الاختيار الذى عرضه على الجزائر فيما بعد — أن تظل فرنسية ، أو تنفصل ، أو تصبح دولا تتمتع بالحكم الذاتى مرتبطة بفرنسا ، وعلاوة على ذلك فإنه جعل من الواضح أن للدول التى تختار الثالث الحق فى أن تعلن استقلالها الكامل فى أى وقت .

وقد اختارت دولة واحدة هى غينيا الخروج من الاتحاد الفرنسى ، وأصبحت فى الحال دولة مستقلة . وقد ضايق ذلك فرنسا كثيراً . فقد كان من الواضح أن ديجول اعتقد أن أحدا لن يستغل عرضه . ويختار قطع كل رابطة مع فرنسا . وعلى غرار غينيا ولأسباب أخرى لا يتسع المجال بها هنا ، قررت الدول الأفريقية الأخرى — بعد أن أصبحت تتمتع بالحكم الذاتى فى نطاق المجموعة الفرنسية ، أن تسير فى الطريق إلى آخره وأعلنت استقلالها التام ، وكان ذلك مثل السلسلة المتشابكة ، فما جاء خريف عام ١٩٦٠ إلا وكانت اثنا عشرة دولة من دول المجموعة الفرنسية فى أفريقيا السوداء ،قد أصبحت حرة ، مع أن خمسا من هذه الدول احتفظت بعضويتها فى المجموعة الفرنسية . وقد ابتدأ العرض بمدغشقر التى أصبحت جمهورية مالاجاس ، ثم اتحدت السنغال والسودان الفرنسى وكونتا اتحاد مالى — ولكن المتاعب أصابت هذا الاتحاد ، وانفصم وأصبح دولتى مالى والسنغال . ثم سرعان ما جاء الكونغو الفرنسى ، وتشاد ، وجمهورية أفريقيا الوسطى (التى كانت سابقاً أبانجى — شارى) والتى اتحدت فى الاتحاد الجديد لجمهوريات أفريقيا الوسطى ولكنها احتفظت بشخصيتها ، ثم ساحل

العاج ، وداهومى ، والنيجر ، وجمهورية فولتا ، وجابون وأخيرا موريتانيا فى أسبوع واحد حصلت ثمانى مستعمرات فرنسية راغبة عن مناطق تصل مساحتها إلى ٣٠١٤ر٣٠٧ر٣ ميلا مربعاً ، وفيها مالا يقل عن سبعة عشر مليون شخص ، بدون أى أثر للاضطراب بين الفرنسيين والأفريقيين وبدون أن تطلق طلقة واحدة . ودخل الأمم المتحدة سرب من البلاد السوداء الجديدة .

وهذا تطور عجيب يدعو إلى الدهشة ولكنه فى الوقت نفسه تطور مفيد . فإذا ما قارنا بين ما حدث وبين ما يحدث فى الكونغو البلجيكى وجدنا المغزى العميق وراء ذلك ، إن الفرنسيين لم يكونوا مستعمرين نموذجيين بأى حال من الأحوال ولكنهم أعطوا بعضها من التعليم للشعوب الافريقية ، وجعلوهم مواطنين ، وسمحوا للافريقيين أن يعملوا فى البرلمان فى باريس . وشجعوا التقدم السياسى إلى حد ما . وعلاوة على ذلك فإنهم لم يقوموا بعمل تفرقة ـ تفرقة عنصرية ـ وكانت النتيجة أن العلاقات بين فرنسا وأفريقيا السوداء كانت (على وجه العموم) متجانسة ، وحينما قرر الفرنسيون أخيراً أن يخرجوا تركوا وراءهم نظاماً إداريا مكوناً من الموظفين الأفريقيين المتعلمين القادرين على تحمل المسئوليات ، ولكن البلجيكيين طوال سنوات حكمهم للكونغو لم يبنوا أى شىء . إلا ما سموه « بالقاعدة الاقتصادية » ولم تكن لهم أية تجارب فى الأصول البرلمانية . ولم تكن لديهم صحافة حرة ولم يكونوا على علم بفنون الديمقراطية . ولا أى تمرين على طريقة الحكم وقد كان حكم البلجيكيين صارما لدرجة أن مفهوم الوطنية لم يكن

معروفا إلا فى أضيق نطاق ، ولقد ترك الفرنسيون أفريقيا بتعقل . لأسباب واقعية . بعد فترة من التدريب على تحمل المسئوليات ، ولكن البلجيكيين تركوا الكونغو فى الليل بدون أن يدربوه على كيفية حكم نفسه بنفسه .

ولننتقل الآن إلى البحر المتوسط

١٠ — شبه جزيرة ايبيريا

إن البرتغال ، هذه الدولة التى لا يعرفها إلا القليل فى أوروبا ، مكان صغير غريب ويحكمها رجل أغرب منها ، فما زال دكتور سالازار هذا البروفسور العظيم ، وعميد السياسيين فى أوروبا فى الحكم بعد مضى تسع وعشرين سنة ، وبالرغم من موضوع سانتا ماريا ورجالها القراصنة ، فإنه من الممكن أن نصف سالازار بأنه من طراز موسولينى ولكن الحقيقة أعقد من ذلك .

وفى حقيقة الأمر ، وبالرغم من أنه يقرر كل شىء مهم بنفسه ، فإن رئيس وزراء البرتغال جاء إلى الحكم بوسائل قانونية تماما ، لم يقم بانقلاب أبدا ، وكان دائما يحكم تحت ستار الوسائل الدستورية . ويوجد فى البرتغال رعب واضح ، وتجرى الانتخابات — من نوع معين — ومن الناحية النظرية يستطيع الادميرال أميركو دريس دودريجوس توماز رئيس الجمهورية أن يقيل دكتور سالازار فى أى وقت ، ولكن

توماز رجل نقى ، مسكين وبسيط وليس أمامه فرصة لتغيير رئيس الوزراء الذى لا يعوض

. جوهر الموضوع هو أن البرتغال تحت حكم سالازار فيها من سمات الدكتاتورية التقليدية الكثير ـ نظام الحزب الواحد ، وكتم الحريات وخنق المعارضة، والرقابة الصارمة على الصحافة والبوليس السرى ـــ ولكن ذلك يتم بطريقة معتدلة على العموم .والدولة منظمة تبعا لنظام الاتحادات ، وطبعا رئيسها سالازار ولكن نظامه كما يحب البرتغاليون أن يصفوه « مطلق » أكثر منه «جماعى» ولا يؤمن سالازار بالعنف ، ويفزعه أن يطلق عليه أى لقب غير طيب

وقد أطلق سالازار على دولته التى تتبع نظام الاتحادات اسم الدولة الجديدة ، وأطلق على حزبه اسم الاتحاد الوطنى . . ويوجد هيئتان « تشريعيتان » ، مجلس الأمة ويبلغ عدد أعضائه ١٠٠ عضوا وينتخب كل أربع سنوات ، ومجلس النقابات وهو سلطة استشارية يبلغ عدد أعضائها ١٣٥ عضوا وهو يمثل اتحادات اقتصادية ، وإدارية ،وثقافية. وفى الحقيقة أن نظام الاتحادات يعنى أن أعضاء الهيئة التشريعية يمثلون الطوائف والأعمال المختلفة كما يمثلون أيضاً المناطق الجغرافية .

وقد استمدت المبادئ الاجتماعية من المنشورين البابويين الشهيرين اللذين أصدر أحدهما البابا ليو الثالث عشر عام ١٨٩١ ، والثانى أصدره البابا بيوس الحادى عشر منذ أربعين عاما . وقد رسم هذان المنشوران نظاماً اجتماعياً راسخاً ، تمت بسببهما على كل شئ سيطرة الدولة . وقد

ثم تصميمهما لتشجيع الوحدة الكاثوليكية ، والتمسك بقدسية الملكيات الخاصة ، ومنع التفاوت الاقتصادي وحرب الطبقات . وقد عارض الاشتراكيون هذا النظام بقوة ، لأنه إذا تم تنفيذه بالكامل فهذا معناه نهاية النقابات العمالية التي يسيطر عليها الاشتراكيون ويحرم العمال من قوتهم المنظمة ومن حقهم في الاضراب .

وتتمتع البرتغال بجو أهدأ مما كانت عليه دول أخرى تتبع نظام الاتحادات مثل إيطاليا ما قبل الحرب ، وأسبانيا في عهد فرانكو . وهي تشبه إلى حد ما النمسا ما قبل الحرب حيث كان منشور البابا بيوس الحادي عشر هو الأساس النظري لسياسة الدولة ، وحيث ولا بد أن يتذكر المرء ذلك ، أدى هذا النظام إلى حرب أهلية دامية . ولكن التجربة البرتغالية تعكس شخصية شعبها ، فالشعب البرتغالي شعب ودود لا يحب التطرف البطولي ، هو شعب تسويفي . ودكتور سالازار مقتنع تماماً بأن البرتغال ليست مستعدة بعد لتحمل مسئوليات الديمقراطية ، ولذلك عليه أن يحكمها .

إن البرتغال على وجه التحديد ، دولة من دول الاطلنطي ، لا من دول البحر الأبيض المتوسط . فالمحيط الاطلنطي يحدها من الغرب والجنوب ، وكما هو معروف للجميع قام البحارة البرتغاليون بعدة اكتشافات بحرية مدهشة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر فقد دار بورتولوميو دياس حول رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٨٨ ونزل فاسكودي جاما وبحارته في كل المناطق من كينيا إلى ساحل مالابار . وقد خرجت البرتغال من ذلك بتراثين .

(١) علاقات برتغالية مع البرازيل ، ذلك الطفل الذى أصبح أكبر مما كان وأغنى وأصبح أكثر قوة وقدرة من الأم نفسها .

(٢) وامبراطورية برتغالية استعمارية . تعتبر الآن أكبر امبراطورية استعمارية فى العالم بعد أن استقلت كثير من المستعمرات الإنجليزية ، والهولندية ، والفرنسية ، والبلجيكية .

وتعتبر بريطانيا أقدم حليف للبرتغال ، وقدأقامت معاهدة وندسور عام ١٣٨٦ هذه العلاقة بينهما ، وظلت هذه العلاقة منذ ذلك الوقت . وتملك البرتغال جزر الآوزر وهذا يؤكد مركزها كقوة من قوى الاطلنطى . وكان يمكن أن تكون هناك صعوبات أمام الطائرات الأمريكية للوصول إلى بريطانيا العظمى أثناء الحرب العالمية الثانية لولا وجود جزر الآوزر . وقد كانت البرتغال من الناحية النظرية حيادية أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولكنها كانت عضواً فى التحالف الاطلنطى وفى حلف شمال الاطلنطى منذ انشائهما ، وما زال فى جزر الاوزر قاعدة أمريكية .

وقد دخلت البرتغال الأمم المتحدة فى ديسمبر عام ١٩٥٥ ولم تعترف البرتغال بالاتحاد السوفييتى ، ومثلها مثل أسبانيا ليس لها علاقات رسمية مع الاتحاد السوفييتى أو مع الدول التى تدور فى فلكه .

ومشكلة البرتغال (مساحتها ٣٥٫٤٩٠ ميل مربع وعدد سكانها ٨٫٨٠٠٫٠٠٠ نسمة) الرئيسية هى الفقر ، والسلعة الرئيسية هى الفلين .. وقد واجه سالازار صعوبات اقتصادية بطرق مختلفة . . . ولا تعتقد

البرتغال أن الاتحاد السوفييتى موجود ، ولكنها صممت سلسلة من مشاريع السنوات الست للتنمية على غرار الطراز السوفييتى . . والمشروع الحالى يبدأ فى عام ١٩٥٩ وينتهى فى عام ١٩٦٤ وما زال دخل الفرد فى البرتغال أقل دخل فى أوروبا — حوالى ٢٣٠ دولاراً سنويا — وكثير من الخدمات الاجتماعية والخدمات الأخرى من طراز قديم وغير كافية . . ويصل إلى البرتغال كثير من السياح عن طريق أسبانيا .

وكثيراً ما يعتقد بأن مستوى المعيشة فى البرتغال ، ذات المناظر الرائعة والقرى الجميلة ، أعلى منه فى أسبانيا . . وهذا يرجع إلى حقيقة أن المناطق الأسبانية المجاورة للبرتغال هى أفقر مناطق أسبانيا . . وهكذا تبدو البرتغال — بمقارنتها بها — على أنها أحسن مما هى عليه . . وهناك مقارنة أخرى فى مجال الدين . . فهناك ٩٧ ٪ كاثوليكى فى البرتغال ، ولكن الكنيسة ليست بالقوة الغلابة كما هو الحال فى أسبانيا . . ورجال الدين ليسوا ظاهرين هناك ، ولا يلبسون ملابس تظاهرية ، ولا تتمتع الكنيسة فى البرتغال بشىء مثل السلطة الاقتصادية فى أسبانيا ، ويسمح للبروتستانت بالعبادة فى حرية . . . وفى حقيقة الأمر لا تتشابه البرتغال وأسبانيا فى شىء إلا سطحياً ، مع أنهم يتقاسمون نفس الشبه فى السمات الجغرافية .

ولشبونة مثل روما وكامبالا (عاصمة أوغندا) مقامة على تلال سبعة ، وتتمتع بسحر طبيعى ، وتختلف تماما عن مدريد . . ومن العجيب أنه يعيش فى ضواحى لشبونة مجموعة خيالية من الملوك السابقين ،

والمطالبين بالعروش ومعاونيهم ، منهم الملك امبرتو ملك ايطاليا السابق ، وماجدا لويسكو ملك رومانيا ، ومنهم كونت باريس ، ودون جوان ، والأمير جوان كارلوس المطالبين بعرش أسبانيا .. ولشبونة أيضاً عضو هام فى منظمة راديو أوروبا الحرة — الإذاعة الأمريكية فى ميونيخ التى تذيع إلى روسيا والدول التابعة لها والبرامج لا تسجل فى لشبونة ولكنها حيوية كمركز للتبادل الإذاعى .

شخصية دكتور سالازار وصفاته

ولد دكتور أنطونيو دى أوليفيرا سالازار — الذى كان باحثاً فى شبابه — فى ٢٨ من أبريل عام ١٨٨٩ ، وهو من بيئة زراعية متواضعة ، فقد كان أبوه عاملا زراعيا .. ومع ذلك استطاع أن يلتحق بجامعة كوامبرا ، حيث حصل على درجة الدكتوراه فى القانون . . ثم ترك بعد ذلك فكرة انخراطه فى سلك القساوسة ، وأصبح أستاذاً للعلوم الاقتصادية فى جامعة كوامبرا . وهى من أقدم الجامعات فى أوروبا .

وصفة دكتور سالازار البارزة هى التقشف ، وهذا على غير عادة البرتغاليين ، وهو أعزب ، ويؤمن بالنظام . ويكسب ١٣٠ دولاراً فى الأسبوع ، ويعيش فى شقة من ثلاث غرف ، وهو معتدل جداً فى نفقاته ، ويعمل أربع عشرة ساعة يوميا ، ونادراً ما يقابل الزوار . فمن الممكن أن نعد عدد مقابلاته خلال ثلاثين سنة على أصابع اليد الواحدة .. وعلى أية حال فإنه عندما يوافق على استقبال زائر يظهر

سحره جليا فى الحال .. وقد تأثر به كثيراً دين اتشيسون وزير خارجية أمريكا السابق ، حينما قابله أخيراً ، وشعار دكتور سالازار هو « أن يدرس فى شك ، وأن يتحقق بإيمان » .

ولا جدال فى أن سالازار كاثوليكى مخلص ، وأن البرتغال بلد كاثوليكى ، ولكنهم يقولون أحيانا « إن رئيس الوزراء ضد رجال الكنيسة » . . وذلك أنه رجل دولة ، وليس رجل كنيسة ، يعتقد بفصل الكنيسة عن الدولة ، ويعمل كل ما فى وسعه على المحافظة على الزعامة الدينية فى مكانها .

وقد جاء سالازار إلى الحياة العامة فى عام ١٩٤٦ ، وكانت الحكومة البرلمانية قد انهارت ، وكان هناك ما يقل عن أربعين حكومة فى ثمانى عشرة سنة . . وقام جنرال يدعى جوما دوكوستا بثورة ، وابتدأ عهد الدكتاتورية ، وتم حل البرلمان . وأخذت حكومة مكونة من ثلاثة عسكريين — هم جنرال أنطونيو أوسكار دى فراجوسا كارمونا . والادميرال منديس كابيكاديس ، ودا كوستا — فى النضال من أجل السلطة . .

وكانت الناحية المالية للدولة فى حالة سيئة ، وكان أحد أعضاء الحكومة قد سمع أن سالازار رجل قدير فى الناحية الاقتصادية ، فاقترح دعوته ليتولى منصب وزير المالية .

وحينما وصل إلى لشبونة ، درس الموقف ، وطالب بسيطرته التامة على ميزانية الدولة كشرط لتوليه هذا المنصب .

ولكن داكوستا رفض طلبه . فأجاب البروفسور أنه راض تماما عن عودته إلى الحياة الأكاديمية فى جامعة كوامبرا .

ثم تدهورت الأمور فى لشبونة من سيء إلى أسوأ ، وتدهورت العملة ،وطلبت البرتغال قرضاً من عصبة الأمم القديمة،ولكنها رفضت أن تمد يد المساعدة للبرتغال إلا إذا أرسلت مراقباً له سلطات واسعة ليكون فى لشبونة ، فكان هذا الاقتراح تحديا لشرف البرتغال القومى وفى سبيل حل المشكلة تمت دعوة البرفسور سالازار من جديد .

وفى هذا الوقت من عام ١٩٢٨ ، كانت حكومة الثلاثة الثورية قد انهارت ، وأصبح الجنرال كارمونا رئيسا للجمهورية ودكتاتورا ، وقد احتفظ بالرئاسة مدة ثلاث وعشرين سنة حتى وفاته فى عام١٩٥١ ولكن سالازار بتوليه منصب وزير المالية فى عام ١٩٢٨ . أصبح الشخصية الرئيسية تقريباً فى الحكومة .

ولم يكن سالازار رئيساً للوزراء منذ ٩٠٢ . بلا انقطاع ، بل كان أيضاً وزيراً للمالية من عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٤٠ ، ووزيراً للحربية من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٤٤ ، ووزيراً للخارجية من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٤٧ ، وكان أيضاً وزيراً للمستعمرات بعضاً من الوقت ، وكان يدير كل الإدارات الهامة فى الدولة بنفسه . مثل موسولينى .

ونظام الأحزاب ــ كما هو معروف لنا ــ غير موجود فى البرتغال ولكن المواطنين يقودون المعركة كأفراد ضد مرشحى الاتحاد الوطنى ولا توجد معارضة رسمية تحت النظام الدكتاتورى ، ولكن هناك أربعة مصادر مختلفة واضحة على الأقل للسخط السياسى .

وقد كان هناك مظاهرات الطلبة ضد سالازار فى المناسبات ،وكانت هناك محاولة ــ يرجع تاريخها إلى عام ١٩٣٧ ــ لاغتياله .

وأول مجموعة معارضة له اليوم تتركز فى الحفنة القليلة من أعضاء البرلمان قبل عام ١٩٢٦ التى ما زالت على قيد الحياة ، والذين مازال لهم بعض الاحترام .

والمجموعة الثانية هى بعض العناصر فى الجيش ، فقد كان هناك ستة ضباط بين ثلاثة وعشرين شخصاً اتهموا جميعاً بالتآمر لأحداث تمرد مسلح ضد العهد الحاضر فى مارس ١٩٥٩ .

وثالثاً : الجماعات اليسارية « التى لا يستهان بها » .

ورابعاً : الحزب الشيوعى ، وهو حزب غير شرعى ، ولكنه منظم تنظيماً دقيقاً ، وهو منظمة سرية معتدية . مع أنه صغير .

وجاءت فى عام ١٩٥٨ مشكلة ديلجادو المعروفة .

فقد قرر هيرتو سيلفا ديلجادو الجنرال فى القوات الجوية ، والذى كان مديراً للطيران المدنى أن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية ضد أدميرال توماز مرشح الاتحاد الوطنى .

ويجب أن نلاحظ أن ديلجادو لم يرشح نفسه ضد سالازار، بل ضد شخص رئيس الجمهورية الضعيف .

ولم يأخذ أحد المواطنين ترشيح ديلجادو لنفسه مأخذ الجد ، حتى تصرف الجنرال كما لو كانت مباراة عادله سيكون له فيها النصر .

لقد كان هناك « سباق » على الرئاسة من قبل ، ولكن ذلك كان فقط من الناحية الشكلية .

وعلاوة على ذلك ، انتقد ديلجادو سالازار علنا ، وأعلن اتهامات نارية عن الرشوة والمحسوبية فى داخل الحكومة .

وقال إنه إذا تم انتخابه سيطرد سالازار من رئاسة الوزارة .

وكانت المفاجأه أن حصل ديلجادو على نسبة كبيرة من الأصوات وهى ٢٣٫٥ ٪ فى البرتغال الوطن الأم ، وحصل على مايزيد عن ٢٥ ٪ فى المستعمرات فيما وراء البحار عامة ، وحصل على ما لا يقل عن ٣٥ ٪ فى المستعمرة البرتغالية الأولى : موزامبيق .

والشىء المحير أكثر من ذلك هو أن ديلجادو (الذى مثل البرتغال مرة فى حلف شمال الأطلنطى وفى واشنطن) رفض أن يسكت بعد الانتخابات وصمم على أنه هو الفائز ، وأن هناك تزويراً فى الانتخابات

ويبدو أنه لم يكن هناك شىء يسكت هذا الجنرال الصغير ، الحاد الطبع بل لقد بلغ به التهور إلى حد أن دعا أنيورين بيفان زعيم حزب العمال البريطانى ، لزيارة لشبونة والقاء سلسلة من المحاضرات .

وكان هذا كثيرا ، فقبض على ديلجادو ،وبعد أن حوكم أمام مجلس تأديبي تابع للجيش أحيل إلى التقاعد بثلثى مرتب . وعلى أية حال ، سمح له أن يستمر فى حمل لقب جنرال ، وأن يلبس ملابسه العسكرية فى المناسبات .

ولكن ديلجادو رفض أن يتقبل التوبيخ ، واختفى فى السفارة البرازيلية فى لشبونة طلباً للحماية،وقد سبب ذلك أزمة عنيفة فى الدوائر الدبلوماسية البرازيلية .

وأخيراً تم ترحيله من السفارة وأرسل بالطائرة إلى مصحة فى البرازيل نفسها .

وكانت نتيجة هذه الضجة ، حدوث تغير فى القانون الذى به سيتم اختيار رؤساء جمهورية البرتغال (كل سبع سنوات) عن طريق « لجنة انتخابية » بدلا من الانتخاب الشعبي المباشر .

وفى يناير عام ١٩٦١ جاءت مغامرة سانتا ماريا الوهمية . فقد أبحر « القراصنة » فى باخرة الركاب البرتغالية الفاخرة سانتا ماريا (٢٠٩٠٦ طن) حينما كانت فى رحلة بحرية فى البحر الكاريبي وعليها ستمائة شخص ، واستولوا عليها فى ظروف مؤثرة ، وظل الضابط والبحارة والمسافرون سجناء لمدة اثنى عشر يوما ، بينما كانوا يبحرون فى خط غير منتظم نحو راسيف فى البرازيل ، ولم يكن هؤلاء الخارجون على القانون بالطبع ، قراصنة ولكنهم كانوا متآمرين من نوع جديد ضد سالازار . وكان زعيمهم الكابتن هنريك مالتا جالفاو . الذى كان

ضابطا وأديبا من الأدباء . وقد كان يتولى منصبا هاما فى أنجولا ، وكان مقبوضا عليه فى لشبونة بسبب نشاطه الثورى ، ولكنه استطاع أن يهرب إلى البرازيل ، وأقام علاقات مع ديلجادو وقد قال وهو فوق سطح الباخرة سانتا ماريا : أنه يعمل تحت قيادة « حركة الاستقلال الوطنية » التى يتزعمها ديلجادو ، والذى شكل « حكومة » فى الأراضى البرازيلية كل هدفها قلب حكومة سالازار .

وقد حاولت وحدات الأسطول الأمريكى ، والانجليزى ، والهولندى والدانميركى . وسلاح الطيران والسفن التجارية تتبع خط سير السفينة سانتا ماريا ولكن دون جدوى . وقد طلب الدكتاتور سالازار — وهو مرتبك تماما — من الولايات المتحدة أسر السفينة ، وإنزال قواتها البحرية عليها ، وأن تسلم المتآمرين للسلطات البرتغالية . وقد رفضت الحكومة الأمريكية الجديدة أن تفعل ذلك . وأخيراً استسلم جلفاو وقواته للسلطات البرازيلية . وهنا ، حتى وقت كتابتى هذه ، انتهت القصة . ولكن هذا الفصل من القصة كان له أصداء هامة فى البرتغال نفسها باطلاق المشاعر المكبوتة ضد الدكتاتورية ، ومرت على سالازار أوقات عصيبة لم يعرفها من قبل خلال الثلاثين سنة الماضية .

ومازال الدكتاتور نشيطا وهو فى سن الثانية والسبعين بالرغم من أن أيامه قد أصبحت معدودة . وهناك إشاعة تقول أنه ستتقاعد فى نهاية توماز — عام ١٩٦٥ . وإذا حدث وجاء من سيخلفه بالطرق القانونية ، فإن الذى سيصبح رئيسا للجمهورية سيعين رئيس الوزراء الجديد . وهناك كثيرون من المرشحين لذلك ، فإذا كان من ناحية

السن والنفوذ ، فإن أصلحهم هو دكتور بدور تيتوينو بيريرا ، وهو سفير سابق فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية ، والمملكة المتحدة وهو الآن وزير شئون رياسة الجمهورية فى حكومة سالازار وهناك شخص آخر هو ماركيلو كايتانو . وقد كان مساعدا لرئيس الوزراء قبل بيريرا ، ومدير جامعة لشبونة ، وقد عمل تحت رئاسة سالازار فى وضع تفاصيل الدولة الجديدة أما من ناحيةالعسكريين ؛ فإن الرجل الذائع الصيت هو الجنرال جوليو بوتيلهو مونز ؛ وزير الدفاع ؛ ورئيس الهيئات العسكرية .

وتلخيصا للموضوع نقول . لقد تغيرت البرتغال قليلا فى ربع قرن ويبدو أنها تقهقرت وأصبحت بعيدة عن الأحداث الجارية بصفة مؤسفة ! .

البرتغال ومستعمراتها

تشمل الامبراطورية البرتغالية فيما وراءالبحار منطقتان أفريقيتان شاسعتان ؛ موزامبيق وأنجولا ؛ وتشمل أيضاً بعض المناطق الصغيرة المبعثرة على طول الطريق من الهند البرتغالية (جوا) ؛ إلى تيمور فى جنوب غربى المحيط الباسفيكى ، وهناك أيضاً ماكاو هذه المستعمرة الصغيرة القريبة من هونج كونج ومن بين أملاك هذه الامبراطورية أصغر مستعمرة فى العالم — حصن القديس يوحنا المعمدان — على الساحل الغينى فى أفريقيا وقد احتفظ البرتغاليون بهذا الموقع البعيد

منذ عام ١٦٨٠ ؛ ويتكون شعب هذه المستعمرة من ضابط (المقيم) وأحد عشر رجلا .

ومن ناحية الواقعية ؛ لاتعتبر المستعمرات البرتغالية «مستعمرات» ولكنها تعتبر أجزاء من البرتغال نفسها فيما وراء البحار : كجزء من الدولة . مثل لشبونة أو أبروتو وقد منح لهم هذا الوضع فى عام ١٩١٥ حينما أعيد تسمية البرتغال نفسها رسميا على أنها دولة «أفرو ـ أوروبية» فقد رأى البرتغاليون رياح الوطنية تهب فى كل مكان ، وأرادوا أن يتخلصوا من كلمة « المستعمرة » الكريهة .

ولكن هذا التغيير الوهمى فى الاصطلاحات لم يغير شيئا من واقع الأمر ؛ فالممتلكات فيما وراء البحار ليست فى الواقع إلا مستعمرات؛ وتقوم وزارة المستعمرات بإدراة موزامبيق ، وأنجولا وبقية المستعمرات ، وهذه الوزارة مثل كل شىء فى البرتغال ؛ يديرها سالازار . وقد يؤثر حاكم عام قوى على مجريات الأمور إلى حد ما فى منطقته ولكن لشبونة هى المسيطرة على كل شىء وتحكم الأقاليم فيما وراء البحار ؛ مثلما تحكم البرتغال بالضبط ، وهدف الإدارة البرتغالية هو أن يستمر حكمها للمستعمرات إلى الأبد . وهناك انتخابات تجرى فى الأقاليم ؛ وترسل هذه الأقاليم نوابا عنها إلى لشبونة ، ولكن لايوجد أدنى تفكير فى السماح للسكان الأفريقيين أن يتقدموا نحو الحرية . وفكرة الحكم الذاتى محرمة تماما هناك ، والمنظمات السياسية محدودة ، ويقمع الشعور بالوطنية هناك بقوة .

وقد كان البرتغاليون عرضة للنقد فى الأمم المتحدة ، وفى كل مكان بسبب استمرارهم فى الأساليب الاستعمارية . وفى نوفمبر عام ١٩٦٠ رفض مجلس الوصاية التابع للأمم المتحدة إدعاء البرتغال أن المناطق أو الأقاليم المستعمرة ، ما هى فى الحقيقة إلا « أقاليم فيما وراء البحار » . وطلبت من الحكومة البرتغالية أن ترسل تقريرا إلى الأمم المتحدة عما يدور فى كل مستعمرة . وقد طلبت هذه المعلومات من كل الدول الأعضاء الذين مازال لهم مستعمرات . . ورفضت ، طبعا ، البرتغال بغضب أن تذعن لهذا الطلب . وكان الغريب فى أمر التصويت ضد البرتغال (٥٠ مؤيدون للقرار و ٦ معارضون ، وامتنعت ٢٤ دولة عن التصويت) أن تمتنع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى عن التصويت ، مع أن دولا كثيرة أخرى بما فيها حلفاء البرتغاليين فى حلفاء شمال الأطلنطى صوتوا ضدها لأسباب مختلفة .

أن أنجولا وموزامبيق ، التى زرتها حينما كنت أقوم بجمع المعاملات لكتابى « فى داخل أوربا » أقاليم ساحرة .

والحكم البرتغالى خليط من الطيب والسيء هناك ولكن الجانب الأكبر منه سيء ويحصل العمال فى موزامبيق على أجـــر يومى يصل فى المتوسط إلى ١٢ سنتا ، وفى كل أنجولا التى يصل سكانها إلى ٤٫٠ مليون نسمة ، لايوجد أكثر من مائة أفريقى يتمتع بالتعليم العالى . وأعمال السخرة ، التى لا يمكن تمييزها عن العبودية، هى أساس الاقتصاد هناك ، والتعليم قليل وضعيف والعقوبات الجسمانية من النوع القاسى هى القاعدة هناك ، والافريقون ليس لهم أى حقوق سياسية من أى

نوع ، ومن ناحية أخرى ليس هناك تميز بسبب اللون فى المستعمرات البرتغالية فى أضيق نطاق ، ونتيجة لذلك لايوجد أى نوع من أنواع التوتر العنصرى .

وإنك لتجد لورينسو ماركيز ، المدينة الساحرة الوحيدة والتى هى عاصمة موزامبيق ، هادئة مثل ما تجد جوها نسبرج متوترة،ومعذبة، ومعرضة للانفجار .

ويستطيع أى مواطن زنجى فى أفريقيا البرتغالية ، لحسن الحظ ، أن يصبح ما يطلق عليه اسم المندمج ولكى يفعل ذلك ،لابد وأن يستوفى أربعة أو خمسة شروط :

ان يتعلم البرتغالية . وأن يمارس تعاليم الكاثوليكية ، وأن يعيش على الطريقة الاوربية ، وأن يتزوج من أكثر من واحدة ، وأن يكون فى مستوى اقتصادى معين . ويصبح ، بعد أدائه امتحاناً معيناً،مواطنا له حقوق مساوية تقريباً لحقوق البرتغاليين .

معنى ذلك أن الرجل الأسود لا يستطيع أن يصل إلى مكانة الرجل الأبيض بسرعة .

ولكن هناك حوالى ثلاثين ألفا فقط من المندمجين فى أنجولا التى يصل عدد سكانها إلى ٤ر٥ مليون نسمة وحـــوالى ستة الاف فقط فى موزامبيق التى يصل عدد سكانها إلى ٥ر٦ مليون نسمة .

وقد عالج سالازار المشكلة الاستعمارية بكياسة فى أرض الوطن .

ويقول المواطنون ان البرتغال فى خطر ، وأن رايتها مهددة ،

وأن اسمها العظيم طعن فيه ، وأنهم لابد وأن يتحدوا حول سالازار ، قائدهم دفاعا عن سمعتهم .

ولم يعد هناك معارضة حتى فى المشاكل الأخرى — على الأقل فى الوقت الحالى . وبعد ذلك فى نوفمبر عام ١٩٦٠ ، تظاهر أكثر من ١٠٠٠٠٠ من الرجال والنساء فى شوارع لشبونة مؤيدين سالازار ومحتجين على النقد الذى وجه إلى البرتغال فى الأمم المتحدة .

ومن ناحية أخرى فان الشعور الوطنى فى أفريقيا البرتغالية فى ازدياد مستمر . وقد حدثت بعد حادثة الباخرة سانتا ماريا ، حوادث شغب دامية فى أنجولا .

نظرة سريعة إلى أسبانيا

فى الواقع أن كل شىء هام فى اسبانيا اليوم — ما عدا مصارعة الثيران ، والكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، والمناظر الطبيعية الجميلة تحت ضوء القمر — يرجع فى تاريخه إلى الحرب الأهلية .. وقد ساعد هذا على ابعاد اسبانيا عن المجرى الاساسى للتطورات الاوروبية لمدة تقرب من ربع قرن ، وقد أدى ذلك إلى نتائج اقتصادية خطيرة ، وكانت أساس القوة العظيمة التى يتمتع بها الجنرال فرانسيسكو فرانكو .

لقد قامت الحرب الأهلية الاسبانية منذ خمس وعشرين سنة . حينما قامت الجماعات اليمينية لقلب حكومة اسبانيا الدستورية الشرعية . وقد ظلت هذه الحرب من ١٨ يوليه عام ١٩٣٦ إلى ٣١ مارس عام

١٩٣٩ ، ولكن جراحها لم تلتئم بعد . وكانت ألمانيا وايطاليا تساند اليمينيين .

أما حكومة الموالين فكانت تخضع للنفوذ السوفيتي ، وقد فقدت اسبانيا ما لا يقل عن ٧٠٠,٠٠٠ شخص قتلوا فى الحرب ، ودمرت المدن ، وتحطمت الصناعات ، وعانت الزراعة الكثير . وقد هرب ٢٥٠,٠٠٠ من المواطنين الأسبان إلى فرنسا ، وقد أمضى حوالى ربع مليون اسبانى فترات طويلة أو قصيرة فى السجون ومعسكرات الاعتقال ، وقد أعدم الطرفان ما لا يقل عن ثلاثين ألفا . ونادراً ما حدث فى التاريخ الحديث أن دمرت دولة بهذه الطريقة .

ولا جدال فى أن أسبانيا اليوم تختلف اختلافا بينا عنها فى عام ١٩٣٦ ، لا يسمع لزائر لها الآن طلقات المدافع فى شوارع توليدو ومدريد .

ولكن من المستحيل ألا نذكر أنه حتى فى أيامنا هذه مازال الشعب الإسبانى محروما حتى من مبادىء الحريات المدنية : الحكم البرلمانى والاساليب الديمقراطية ، وذلك كله نتيجة للحرب الأهلية .

ومن الممكن أن نقول انه لو لم يكسب فرانكو الحرب ، لأصبحت اسبانيا اليوم شيوعية ولكانت مأساة أسوأ مما هى عليه الآن . وكان ومن الممكن ألا يكون فرنكو دكتاتورا ، لولا المساعدة الكبيرة التى قدمها له هتلر وموسولينى أثناء الحرب الأهليه .

ولحسن الحظ قد انتهى كل من هتلر وموسولينى ، ولكن فرانكو مازال معنا .

وقد أعلن فرانكو أكثر من مرة ، أثناء الحرب العالمية الثانية . أنه « مخلص تماماً » لدول المحور .. وقال فى مناسبةما « إن حرب ألمانيا ضد روسيا هى أعظم معركة فى التاريخ » .. وعبر عن شعوره بالكبرياء لأن « الدم الأسبانى قد سال فى سبيل هذا العمل النبيل » ..

وحينما سقطت فرنسا ، قابل هتلر على الحدود الفرنسية وسلم عليه فرانكو مبتسماً ، ثم كتب إليه بعد ذلك « عزيزى الفوهرر .. إننى أقف مستعداً بجانبك .. وتحت تصرفك تماماً ، متحدين فى المصير التاريخى المشترك » .. غير أن فرانكو لم ينضم رسمياً إلى دول المحور .. ومازالت بعض الدوائر فى أوروبا تحقد على أسبانيا بسبب مساندتها لهتلر وموسولينى وقد أصبحت أسبانيا عضواً فى الأمم المتحدة فى عام ١٩٥٥ ولكنها لم تصبح بعد عضواً فى حلف شمال الأطلنطى، مع أن الولايات المتحدة — ربما بحماقة — تريدها أن تكون ..

والسبب الذى جعل أسبانيا بعيدة عن هذه العضوية ، هو أن الحكومات الديمقراطية الصغيرة فى أوروبا الشمالية ، بين دول أخرى ، ترفض أن تتقبلها كعضو فى حلف شمال الاطلنطى .. وأسبانيا تريد بشغف أن تصبح عضواً فى هذا الحلف ، ولكنها لن تقدم طلباً للعضوية بسبب خوفها من التصويت بعدم قبولها ..

ومن الغريب أن بعض اللاجئين الموالين من أيام الحرب الأهلية والذين يعيشون فى الخارج — فى فرنسا مثلا — يريدون أن يروا

أسبانيا عضواً فى حلف شمال الاطلنطى .. ووجهة نظرهم هى أنه ربما يؤدى ذلك فى الوقت المناسب إلى تحرر الحكومة الأسبانية .

وقد جاءت الحرب العالمية الثانية بعد الحرب الأهلية مباشرة ، وهذا يعنى أن إعادة بناء الاقتصاد الأسبانى المنهار قد تأخر بعض الوقت .. وقد تركت أسبانيا لتقف وحدها ، بعناصرها المنعزلة والمشتتة .. وبعد انتصار الحلفاء ثم مقاطعة أسبانيا مقاطعة معنوية .. وقد هوجمت أسبانيا المنبوذة فى الأمم المتحدة ، ولم تحصل على أية مساعدات من مشروع مارشال . وقد وبخها المحايدون توبيخاً شديداً ، وقد أدانها الاتحاد السوفييتى والدول الشيوعية التابعة له بقوة .. وحتى اليوم ليس هناك أية علاقات دبلوماسية — أو أية علاقات — بين أسبانيا تحت حكم فرانكو ، والكتلة السوفييتية ..

إننى أتذكر دهشتى حينما كنت فى موسكو عام ١٩٥٦ ، وأردت أن أتصل بصديق لى فى برشلونة لأسباب شخصية ، واكتشفت أن هذا مستحيل ، وأنه ليس هناك أية خطوط جوية مباشرة بين الاتحاد السوفييتى وأسبانيا ، وتصل الخطابات عن طريق مركز تبادل فى سويسرا.

أما بالنسبة للغرب ، فإن أسبانيا ظلت منعزلة حتى عام ١٩٥٣ ، ثم حدثت واقعة بارزة وهى إقرار الحكومة الأمريكية بناء عدة قواعد عسكرية فى أسبانيا وتجهيزها بالرجال والعتاد .. وقد كان هذا ضرورياً بسبب تدهور الموقف السياسى فى المغرب حيث فقدت القواعد الأمريكية التى بنيت حديثاً هناك بعضاً من قيمتها ، ولأن القواعد الأسبانية ستكون قريبة من ألمانيا ، والطريق إلى أوروبا ..

وقد كانت المفاوضات من أجل الحصول على القواعد الأسبانية — كما قال لى أحد الذين اشتركوا فيها — من أصعب ما قامت به الحكومة الأمريكية فى الميدان الخارجي ، وقد حصل فرانكو على ثمن عال لذلك .. وكان من ضمن الاتفاق حصول أسبانيا على مساعدات أمريكية كبيرة — تبتدىء بـ ٤٦٥ مليون دولار — وقد ارتفع هذا المبلغ بالتدريج .

وقد توطد مركز أمريكا فى أسبانيا عن طريق إقامتها لخطوط الأنابيب ، والمحطات البحرية ، واشتراكها فى الاستثمارات التجارية .. وقد تم مساعدة أسبانيا من الناحية المالية ومن نواح أخرى بمقتضى اتفاق القواعد . . وانتهى الحظر المعنوى على أسبانيا ، وتبع ذلك إقامة علاقات أكثر مع الولايات المتحدة وأوروبا . . ومع ذلك فمازالت الدولة تقابل كثيراً من الصعوبات فى الشئون الدولية . . ولم يزر وزير بريطانى أسبانيا رسميا حتى عام ١٩٥٩ ولم يحدث ذلك إلا فى عام ١٩٦٠ ، وبعد فترة قطيعة طويلة تصل إلى حوالى ٢٧ سنة زار وزير خارجية أسبانيا الحكومة البريطانية رسميا .

وأسبانيا التى يبلغ عدد سكانها حوالى ثلاثين مليونا ومساحتها تبلغ قدر مساحة كالفيورنيا مرتين ، ليس بها نفس الرخاء الموجود فى ألمانيا الغربية وفرنسا ، وذلك لأنه يعوزها الكثير من الموارد الاقتصادية الرئيسية . ودخل الفرد السنوى منخفض جدا حوالى ٢٦٥ دولار سنوياً .

والسكك الحديدية هى أسوأ سكك حديد فى أوربا كلها . والاقتصاد

فى حالة ركود تام فى بعض المناطق ، ولقد عانت الزراعة ، التى هى عصب القدرة الإنتاجية للدولة الكثير ، ولا تصل الخدمات الاجتماعية إلى المستوى التى هى عليه فى بقية دول غرب أوربا . وهناك حوالى ٣٠٠ر٠٠٠ عاطل ، وقد عانى العمال أخيراً من تخفيض أجورهم . ومن ناحية أخرى كان هناك تحسينات ملحوظة فى الناحية المالية . فقد ابتدىء فى عام ١٩٥٩ برنامج للاستقرار الذى يتضمن تخفيض سعر البستا ، وبذلك تم القضاء على التضخم ، وأصبحت أسبانيا أيضاً عضواً فى منظمة التعاون الاقتصادى الأوربية ، وحصلت على قروض كبيرة من بنك الاستيراد والتصدير .

ويعتبر جنرال فرانسسكو فرانكو ، كما كتبت فى عام ١٩٣٦ بعد اندلاع الحرب الأهلية بأسابيع قليلة ، مثالا بارزاً للصدف التاريخية . فلا جدال فى أن حياة فرانكو كانت رائعة ، وكان من الممكن أن يصبح رئيساً للدولة فى لوقت المناسب . ولكن الذى دفعه إلى مكان الصدارة هو أولا : اغتيال كالفوسو تيلو فى يولية عام ١٩٣٦ ، ثم حادثة سقوط الطائرة ، الذى قتل فيه الجنرال جوس سانجيرجو ، بعد اندلاع الحرب الأهلية بثلاثة أيام ، وقد كان كالثوسو تيلو ، الذى كان وزيراً سابقاً للمالية ، الزعيم السياسى للثوار اليمينيين ، وكان سانجيرجو القائد العسكرى. وعندئذ ، وقف فرانكو ، حاكم جزر كانارى ، على قدميه ، واتخذ خطوة حازمة بطيرانه إلى مراكش ، واستطاع بمساعدة الطائرات الإيطالية أن ينقل الفرقة الأجنبية والقوات المراكشية إلى أسبانيا . وأصبح رئيساً للدولة بعد ذلك بشهور قليلة .

ولد الجنرال فرانكو فى ٤ ديسمبر عام ١٨٩٢ ، وهو من عائلة متوسطة ، والتحق بالجيش ، ورقى سريعاً فقد كان كابتن وهو فى سن العشرين . وماجور فى سن الثالثة والعشرون ، ثم أصبح برجدير جنرال وهو فى الثانية والثلاثين ، وكان أصغر برجدير جنرال فى أوربا كلها . ويماثله فى سرعة ترقيته هذه الجنرال دوجلاس ماكارثر . والجنرال فرانكو القصير القوام رجل متحزلق ومستواه الفكرى محدود .

وكان يطلق على فرانكو فى أوائل حياته إسم « الجنرال الطفل » طفل أو غير طفل ، فرانكو الآن أكثر دكتاتورية واستبداداً فى أسبانيا من خروشوف فى روسيا ، فهو رئيس الدولة مدى الحياة ، وزعيم الامبراطورية ، والقائد العام للقوات المسلحة ، ورئيس الوزارة وحامى الكنيسة ، ورئيس حزب الفلانج ، الحزب السياسى الوحيد فى اسبانيا ، وله حق الاعتراض الكامل على أى تشريع يقدمه البرلمان وعلى عكس خروشوف لا يتمتع بعقل ذا تفكير سليم .

والقوة الرئيسية التى تقف وراء فرانكو هى الجيش ، والكنيسة وطبقات الملاك ، والطريقة الآلية الرئيسية ، لممارسة السلطة ـ فى النواحى المدنية ـ هى حزب الفلانج ، وهذا الحزب لم يؤلفه فرانكو ولكن أسسه جوزى أنطونيو بريمو دى ريفرا فى عام ١٩٣٣ ويشمل هذا الحزب عناصر وطنية . وملكية ، وطائفية ، وفاشية ، ونقابية . ولكن هذا الحزب أصبح اليوم إطاراً للبيروقراطية الحاكمة فقط ،

أما بالنسبة للكنيسة . فان المرء يستطيع أن يقرر بأن حكومة

فرانكو . والكنيسة الكاثوليكية الرومانية وحدة متشابكة غير مجزأة ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً . فمن الوجهة النظرية تعتبر الدولة والكنيسة واحدة . ولكن هناك عدد كبير من البابوات البارزين حتى ولو لم يتجرأوا على إعلان عدوانهم جهاراً . لا يقدمون لعهد فرانكو سوى تأييدهم الظاهرى . وذلك لأن معظمهم من أنصار الملكية المخلصين ،

وقد كان الكردينال بيدر سيجورا . رئيس أساقفة اسبانيا الراحل من ألد أعداء عهد فرانكو . أما المساندة الرئيسية للدكتاتور فانها تأتى من النجاح الرجعى فى الكنيسة وليس الفاتيكان على علاقات حسنة مع أسبانيا حتى الآن ، وكانت الكنيسة دائماً كما هو معروف للجميع . تتمتع بامتيازات خاصة وعظيمة فى أسبانيا . فلم تلغى محاكم التفتيش إلا فى عام ١٩٣١ . وكان الكفر جريمة حتى قيام الجبهة الشعبية بالثورة وما زالت السلطات الكنيسية . والمنظمات الدينية مثل الجزويت . هى واضعة يدها على الأراضى . وملكية المناجم . والصناعات . وعمليات الشحن . ووسائل المواصلات . تتمتع بقوة اقتصادية ملحوظة، ونفوذ الكنيسة على التعليم نفوذ مطلق . وتدرس التعاليم الكاثوليكية إجباريا حتى فى مدارس الدولة وهناك ما لا يزيد عن ٢٥٫٠٠٠ بروستانتى (٩٩٫٩٨ ٪ من اسبانيا كاثوليك رومانيين) ونشاطهم محدود جداً وقد سمح للبروستانت أن يتعبدوا فى كنائسهم (حوالى ١٨٠ كنيسة فى كل أسبانيا) ولكن الأسبان ينظرون إلى البروتستانتينية نفسها على أنها شر ، وليس مسموح للبروتستانت أن يطبعوا أو يستوردوا

الأناجيل . أو يشغلوا مناصب القوات المسلحة . أو أن يتولوا رئاسة تحرير الجرائد . أو أن يلتحقوا بالوظائف العامة أو أن يفتحوا مدارس خاصة بهم .

ودكتاتورية فرانكو هي المسيطرة على الحكم. ولكن هناك كثير من السخط الظاهر مع أن الحكومة تقوم بقمع كل حركة للمعارضة بقسوة والغريب في الموضوع أن كثيرا من المعارضة موجود داخل حزب الفلانج نفسه ، ذلك أن كثيرا من أعضاء هذا الحزب يعتبرون فرانكو خائناً لمبادىء بريمودى ديفيرا الاساسية .

وهناك أيضاً الجيل الجديد من الشباب ، الذى كبر منذ الحرب الأهلية وأصبح الآن في سن الالتحاق بالجامعة فانهم يشعرون بالاختناق من الشعور النفاذ بالتعب والاجهاد - إن لم يكن قلق حقيقى - الذى أصبح يتزايد سنة بعد أخرى ، وحتى وإن كان غير مركز تماماً . فما زالت الرقابة شديدة على الصحافة والاذاعة ، ولكن من المستحيل أن تمنع المواطنين من أن يتشبعوا ببعض تيارات الفكر الموجودة فى بقية دول أوروبا . أو أن يسمعوا أحاديث الشعوب . والمعارضة السياسية تبدأ من الكاثوليكيين أنصار الملكية وهم يمينيون متطرفون ، وتنتهى عند الحزب الشيوعى - غير شرعى وسرى طبعاً - وبعض ما تبقى من الفوضويين ، وهناك جماعة من الكاثوليكية وهى المنظمة الخاصة التى يطلقون عليها اسم أوبس دى . ومنظمة أخرى يتزعمها جوزيه ماريا جل روبلز وهو شخصية هامة قبل الحرب الأهلية . وهم الديمقراطيون المسيحيون . ثم هناك بعض الأحزاب الضعيفة ، فاذا ما أخذنا

فى الاعتبار شدة قسوة الدكتاتورية . لوجدنا أن قوة الاثارة السياسية التى نجحت تدعو إلى الدهشة . فى الواقع هناك ٨٠ أو ٩٠ ٪ من الشعب يعارض فرانكو . ولكن ليس لديهم الوسائل الكافية لابعاده وعلى أية حال فكثيرا ما تحدث اضراابات غير مشروعة فى بعض المناسبات . مع أن الاضرابات ممنوعة منعاً باتا . وكل برهة تصدر البيانات بالقبض على بعض المواطنين لقيامهم بنشاط تخريبى مع تقديمهم للمحاكمة أمام المحاكم العسكرية.. وإذا ماقيست أسبانيا بالبرتغال نجد أن العقاب أكثر وحشية فى أسبانيا منه فى البرتغال . وبالاختصار ليست اسبانيا بالدولة السليمة . حيث يخنق دكتاتور من أبشع الدكتاتوريين أنفاس بلد رائع وشعب عظيم ، وليس مركز فرانكو بالمركز المريح وربما لا تتقدم الدولة وتنهض وهو على قيد الحياة .. ولكنه رجل يعيش فوق غطاء قديم .

الخلافة

وهذه قضية حية ، حتى مع ان فرانكو يحافظ على صحته جيداً ، وهو فى صحة جيدة مع أنه فى الثامنة والستين، ويحب فرانكو أن يفاخر بأن أباه توفى فى التسعين من عمره ، ومشكلة الخلافة تدور حول الملكية. وهناك مرشحان رئيسيان — والد وابنه . والوالد هو دون جوان من آل بربون ، كونت برشلونه ، وهو يعيش فى المنفى فى البرتغال ؛ ويبلغ من العمر السابعة والاربعين . وقد كان الابن الثانى لملك أسبانيا السابق ؛ الفونس الثالث عشر الذى هرب من اسبانيا عام ١٩٣١ ؛

وابن دون جوان الامير جوان كارلوس دى بربون ويبلغ من العمر الثانية والعشرين، هو الثانى فى الترتيب . وليست أسبانيا فى الواقع مملكة ولكنها دولة ذات عرش (فارغ) . وهذا يعنى أن الميدان مفتوح ؛ نظريا ؛ وأن لفرانكو فقط السلطة فى الاختيار ؛ ويعتقد العليمون ببواطن الامور ، أنه يفكر فى إغفال الأب ؛ ويعطى الخلافة للأمير جوان كارلوس ؛ ولكن هذا ليس مؤكداً ،وقد صدر قانون بعد إعلان بيان بشأن الملكية فى عام ١٩٤٧ لا يسمح لأى شخص أن يعتلى العرش قبل أن يصل إلى سن الثلاثين، ومعنى هذا أن على الأمير جوان كارلوس أن ينتظر ثمان سنوات أخرى . وقد كانت هناك معارك حامية بين فرانكو ووالد الأمير حول تعليمه . فكان دون جوان يفضل أن يعيش ابنه فى الحرية النسبية الموجودة فى البرتغال ولكن فرانكو كان يريده فى أسبانيا ؛ والأب والابن لا يتنافسان أبداً ؛ فوجهة نظر الابن أن أباه هو الملك ، والاب لا يريد أن يقف فى طريق الأمير جوان .

وفرانكو له الحق أن يظل رئيساً للدولة مدى الحياة . ولكنه أيضاً يستطيع أن يتقاعد فى أى وقت . وإذا لم يفعل ذلك ، ولم يختار خليفة له قبل أن يموت ، فان السلطة تعطى لمجلس المملكة ، الذى يتكون من رئيس البرلمان ، ورئيس الاساقفة ، والقائد العام للقوات المسلحة ، ليختار حاكما « أى اسبانى يجرى فى عروقه دم ملكى » ، ويعتقد كثير من أفراد الشعب أن دون جوان ، وهو نصف انجليزى ، وأباه جوان كارلوس « نبيلان » و « أوربيان » وهناك مرشح آخر هو

الامير اكسافيير من آل بوربون — بارم ولكن فرصته ليست كبيرة على أية حال . لا يهمنا من الذى سيتولى العرش ، فما زال هناك سؤال كبير . من الذى سيحكم بعد خروج فرانكو أو موته ؟ . إن الجميع يخمنون بأن الجيش هو الذى سيحكم .

١١ - ماذا يحدث فى ايطاليا ؟

الموقف السياسى فى ايطاليا اليوم — الذى يبدو أنه معقد جداً — يمكن أن نصفه بسهولة ، ذلك أنه ليس هناك أى حزب كبير بما فيه الكفاية ليحصل على أغلبية كبيرة فى مجلس النواب ولذلك فان الحكومة كما هى الحال الآن ، لا بد أن تؤلف عن طريق ائتلاف . والسياسة مسألة حسابية بسيطة ،كيف تحسب الاغلبية ،وكثيراً مايجمع الائتلاف الناتج بطبقة صغيرة من الاسمنت، يمكن شرحها بسهولة،وكثيرا ماتحدث الأزمة تلو الأزمة ، وكقاعدة عامة ، فان عمر الحكومات قصير مع أنه ليس بالقصر الذى كان يحدث لحكومات فرنسا قبل عهد ديجول .

وأكبر الاحزاب ، وهو الذى يقف فى الوسط تقريبا ، هو الحزب الديمقراطى المسيحى وهذا الحزب ، وهو حزب الكنيسة ، يسيطر على الفاتيكان . ومع ذلك فان الحزب الديمقراطى المسيحى ليس بالجماعة المتجانسة .. فالحزب يتكون من جناح يمينى والوسط ، وجناح يسارى ويسيطر الحزب الديمقراطى المسيحى ، فى الوقت الحالى ، على ٢٧٣ عضوا من ٥٩٦ عضوا من أعضاء البرلمان ، وهذا يعنى أنه يقل عن

الاغلبية بمقدار ثلاثين صوتاً ، ولكى يستطيع أن يتولى الحكم لا بد أن يلتقط ثلاثين صوتا أكثر - بأى طريقة ومع ذلك فهو ليس متأكدا دائماً من أعضائه -- فهناك على الأقل مائة من ٢٧٣ عضوا التابعين له فى الجناح اليسارى ، مع أنهم موالون للفاتيكان .

ويحق لنا أن نسأل كيف يكون أعضاء حزب الفاتيكان يساريين وكاثوليكيين فى نفس الوقت ؟ كيف يكون زعيم سياسى ايطالى رجل كنيسة ، ورجلا يساريا فى نفس الوقت مثل السنيور جورنش رئيس الجمهورية ؟ والإجابة هى ان ايطاليا مازالت أمة فقيرة أساسا (بصرف النظر عن بشائر الرخاء الظاهرة الآن) ؛ فعلى السياسى إذا أراد أن ينجح أن يحاول عمل أى شىء للشعب أو يتظاهر بذلك، ومن الطبيعى أن يرغب الوطنيون الكاثوليكيون الايطاليون أن يثبتوا اهتمامهم بالاصلاح الذى سيرفع من دخل الفقير ، مثل اهتمام الشيوعيين والاشتراكيين ، والموقف يشبه بالتقريب موقف حركة الجمهوريين الشعبيين فى فرنسا ، والغريب أن كثيراً من الشيوعيين الإيطاليين كاثوليكيون . وسنتكلم عن هذا فيما بعد .

ويستمر جنتر فى حديثه قائلا . إنه إذا تأرجح الديمقراطيون المسيحيون كثيراً إلى اليمين ، فإن هناك خطراً فى أن يفقدوا الجناح اليسارى ، والعكس أيضاً صحيح ، ومع ذلك ، وبصرف النظر عن الانشقاقات الكبيرة فى الحزب ، فإن على الاشتراكيين المسيحيين أن يتحدوا ويتماسكوا، لأنهم إن لم يفعلوا ذلك وظلوا منشقين، فسيكون الحزب الشيوعى هو الفائز ، وهذه فكرة مفزعة .. فإذا ما أراد

الحزب الديمقراطي المسيحى أن يحصل على الأغلبية .. فإلى أين يتجه للحصول على هذه الأصوات المطلوبة ؟.. لقد اتجهوا نحو الحزب الناشيء الجديد ، وهو جماعة يمينية متطرفة فى ابريل عام ١٩٦٠ ، بعد الأزمة التي استمرت ثلاثة وستين يوماً ظلت إيطاليا خلالها بدون أية حكومة . ولكن رئيس الوزراء فيرناندو تامبرونى ، الديمقراطى المسيحى ، الذى نظم هذه الترتيبات ، لم يعمر أكثر من شهور قليلة . وكان هذا هو الوضع ، وذلك لأن اليساريين لا يتقبلون وجود الفاشيين الجدد فى الحكومة .

ولقد حدث الكثير من أعمال الشغب المأسية. وحينما سقط تامبرونى فى يولية من عام ١٩٦٠ ، اتجه الديمقراطيون المسيحيون بيأس إلى ثلاثة أحزاب صغيرة فى الوسط — الجناح اليمينى من الحزب الاشتراكى الذى يتزعمه جيوسيب ساراجات والأحرار . . والجمهوريين — واختاروا أمينتورى فانفانى ، وهو من الجناح اليسارى المعتدل ، رئيساً للوزراء ، ولا يستطيع أحد أن يتكهن بالمدة التى سيقضيها فانفانى ، ذلك لأن هذا الائتلاف يعتبر أغرب ائتلاف عرفته إيطاليا فما لا شك فيه أن الحزب الديمقراطى المسيحى تابع للفاتيكان ، أما الجناح اليمينى من الحزب الاشتراكى ، والأحرار ، والجمهوريون (الذين يتزعمهم راندولف بكياردى وزير الدفاع السابق الذى حارب مع الموالين فى أسبانيا) فهم ضد رجال الدين تماماً ..

ومبدأ الوقوف ضد رجال الدين مبدأ محترم تماماً فى إيطاليا ، خاصة فى الدوائر العليا ، فقد كان مجلس السافوى نفسه ضد رجال

الدين ، فالجميع يعرفون قصة ريزور جيمنتو ، ذلك أن الذين وحدوا إيطاليا ، وأقاموا دولة هم رجال مثل كانور ، ومازيني . . وغاريبا لدى الذين حاربو البابوات؛ وحرروا الولايات البابوية وأقاموا على العرش أسرة مالكة جديدة ، وقد انتهى اليوم مجلس السافوى، ولكن الاتجاه المعادى لرجال الدين ما زال باقيا .

أما عن يسار الحزب الديمقراطى المسيحى فهناك الشيوعيون (١٤٠ مقعداً) والجناح اليسارى من الاشتراكيين (٨٨ مقعدا) الذى يتزعمه بيتر نينى ، أحد الزعماء الإيطاليين البارزين الجدد . . ويقوم نينى والشيوعيون بالعمل سويا فى معظم الأمور . فقد عارض نينى مثلا انضمام إيطاليا إلى عضوية حلف شمال الأطلنطى وأثنى جهارا على حوادث الشغب التى قام بها الشيوعيون، والتى ساعدت على قلب حكومة تامبرونى . وبالرغم من ذلك فإن كل هم السياسة الإيطالية هو إحداث شقاق بين نينى والشيوعيين، وبذلك يتم دخول كتلة نينى من النواب فى تحالف مع الحزب الديمقراطى المسيحى . ويوافق الرئيس جرونش خاصة على هذه العملية ؛ ويعمل بلا هوادة على تحقيقها إنها الحلم الذى يحلم به ، بيد أن هناك عقبتين كبيرتين :

الأولى — أن الفاتيكان يعارض هذه الفكرة بقوة على أساس أن ذلك « سيعلى من قدر » نينى ، وسيؤدى إلى ازدياد نفوذ اليساريين كثيراً .

الثانية — أن نينى نفسه لا يريد أن يكسبه أحد ، لأنه إذا فقد تحالفه مع الشيوعيين فسيختفى مصدر قوته الأساسى .

وعلينا أن ندرس الآن شخصية سنيور جرونش ، الذى يلعب دوراً كبيراً فى هذه التطورات .

صورة لرئيس الجمهورية

إن جيوفانى جرونش رجل يثير الاهتمام ، مع أنه غير معروف للكثيرين خارج إيطاليا . ومما يثير دهشتنا أن نجده يجلس حيث جلس موسولينى يوما ما ،وأنه رئيس الدولة الإيطالية . . وقد وصفت موسولينى فى « داخل أوروبا » بأنه « عنيف متأنق . . . وأنه خليط هائل من الغدر والغطرسة . وأنه رجل عبقرى فى التاريخ الحديث » ولكن جرونش ليس محباً للظهور ولا عنيفاً ولا متأنقاً ، ربما شابه شخصية من شخصيات بلزاك ، فهو ريفى ، يقظ ، وبخيل إلى حد ما ... وقد كان موسولينى قوياً نشطاً ولكنه كان أجوف ، أما جرونش فرجل متين ولكن لا لون له . ودعنا نتذكر أن جرونش كان وكيلا للوزارة فى حكومة موسولينى الأولى عام ١٩٢٢، ولكن أين موسولينى الآن ؟ لقد عاش العصفور (جرونش) ليتربع على عرش الطاووس (موسولينى) .

إن جرونش فى الثالثة والسبعين ، ولكنه يبدو أصغر من سنه . . وقد ولد فى بونتيدرا ، وهى قرية صغيرة بالقرب من فلورنسا فى ١٠ من سبتمبر عام ١٨٨٧ . وهو يحافظ على نفسه تماماً ، وما زال مغرماً بنعيم الحياة، مليئاً بالحيوية .وقدكان أبوه قصاباً (وكان أبو موسولينى

حدادا) وقد كبر وترعرع فى جو من الفقر المدقع (كما كان الدوتش أيضاً) . وكان دائماً كاثوليكيا متدينا . ثم اهتم بالسياسة بعد ذلك فى أيامه الأولى لأنه — كما يقول — لم يكن فقط نصيراً للفقراء ، بل كان أيضاً من الفقراء . وكان يقف موقفا يساريا ، وأثبت بسرعة أنه متيقظ تماماً للمناورات السياسية وكان جرونش دائماً يعمل من وراء الستار . . إنه رجل الدهاليز وليس رجل الشرفة .

وقد أفلح جيوفانى جرونش فى أن يشق طريقه فى جامعة بيزا ، وكان يعول نفسه بالعمل فى هيئة تحرير إحدى الجرائد وقد بدأ حياته مدرساً للعلوم الإنسانية ، وانضم إلى حزب الشعب وهو حزب الإصلاح الكاثوليكى الذى أسسه دون ليجى سترزو ، القسيس الصقلى المشهور ، ثم دخل جيوفانى البرلمان بعد ذلك بقليل . ثم ولاه موسولينى منصب وكيل وزارة الصناعة ، بعد الزحف على روما مباشرة (عام ١٩٢٢) . وعلى أية حال لم يكن جيوفانى فاشيا أو عضوا فى الحزب الفاشى . وقد استقال فى السنة التالية من منصبه ، احتجاجا على فظائع النظام الفاشى وانسحب كلية من الحياة العامة حوالى عشرين سنة .

أرغم جيوفانى على ترك منصبه كعضو فى هيئة تدريس جامعة بيزا ، ولم يزعجه الفاشيون أكثر من ذلك . ثم دخل ميدان العمل الحر ، فعمل بائعاً لشركة ورنيش وطلاء ، وأثرى من ذلك .. ثم عادت الحياة ثانية بدخـــول الحلفاء ايطاليا عام ١٩٤٢ ، وحينئذ أرسل اليه السيد / دى جاسبير احد مساعديه قبل الحكم النازى ، وهو زعيم

كاثوليكى داهية ، استطاع أن ينجو من العهد الفاشى باختفائه داخل كنيسة الفاتيكان ، وقدأصبح جيوفانى وزيرآللصناعة بعد ذلك بقليل.

وما أن جاء عام ١٩٤٦ حتى كان جيوفانى من أكبر أعوان دى جاسبير ، وأصبح زعيما للجناح اليسارى فى الحزب الديمقراطى المسيحى الذى برز من داخل حــــزب الشعب ، وقد أصبح فى عام ١٩٤٨ رئيساً لمجلس النواب وتم انتخابه رئيساً لمجلس الجمهورية فى ٢٩ أبريل عام ١٩٥٥ لمدة سبع سنوات. وقد كان مرشحاً مناسباً ، لأن الحزب الديمقراطى المسيحى كان يريد رجلا يساريا إلى المدى الذى يستطيع به أن يكسب أصوات الشيوعيين والاشتراكيين . وفى الحقيقة كان جرونش مؤيداً من الشيوعيين ومن الاشتراكيين أتباع ننى لأنهم لم يكونوا يريدون رجلا رجعياً .

وبذلك كان سنيور جرونش هو أول كاثوليكى متدين تولى رياسة لدولة فى تاريخ ايطاليا كله . فقد انتهت الملكية فى ايطاليا بعد الحرب بوقت قصير ، وكان الرئيسان السابقان لجرونش فى الرياسة ــ انريكو دى نيقولا رئيس الدولة المؤقت من عام ١٩٤٦ إلى ١٩٤٨ ولوجى اناودى رئيس الجمهورية فى الفترة من ٩٤٨ إلى ١٩٥٥ كانا معاديين لرجال الدين .

وقد تبادلت حديثاً ممتعاً مع السنيور جرونش فى مقره الرسمى بقصر كويرينال الذى كان مقراً للبابوات ومجلس سافوى (ولكن ليس فى نفس الوقت) ، وهو قصر فى منتهى الروعة والبهاء , وقد

قابلته فى غرفة ذهبية ، بشعره الأشيب وعينيه الزرقاوين ، وكان يلبس حلة رمادية ورباط عنق رمادى اللون ايضاً ، وصندله الأسود . وهو لايقوم إلا نادراً بمقابلات شخصية . ولم يبتسم إلا مرة واحدة خلال ساعة ، ذلك حينما سألته عن الأسباب التى جعلته سياسياً ؟ . . فأجاب قائلا ، بأن السياسة شي يجرىء فى دم الايطالى وهو فى سن مبكرة ولا يتركه أبداً . وسألته كيف تغيرت إيطاليا منذ الحرب ؟ فأعرب عن شعوره بأن للاجابة شقين .

الأول هو - ظهور حزب مسيحى ملهم ليحل محل الفاشية ، وفظائع الحرب .

وثانياً - أصبحت إيطاليا - بملايينها الخمسين - عضواً فى التحالف الاطلنطى ونداً للولايات المتحدة ، وأصبحت أيضاً عضواً عاملا فى حلف شمال الاطلنطى . (وقد أسرع إلى الاشارة بأنه ليس من الغريب أن تكون ايطاليا شريكا للغرب الديمقراطى ، فعلى آية حال ، حاربت ايطاليا مع الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى) .

وقد زار سنيور جرونش أمريكا فى أوائل أيام رياسته ، ثم ذهب إلى الاتحاد السوفيتى فى فبراير عام ١٩٦٠ ، وهذا شىء غير عادى أن يحدث من رئيس للدولة الايطالى ، وقد كان هناك منظر حيوى هو الذى أبرز الزيارة كلها ، فقد استدار السيد خروشوف فى حفل الاستقبال الذى أقامه السفير الايطالية فى موسكو تكريماً للرئيس جرونش ووزير خارجيته فى ذلك الوقت جيوسبى بيللا ، وتحدث أمام خمسمائة من الضيوف واقترح بطريقة مبتذلة أن يصبح سنيور جرونش شيوعياً .

فقد قال خروشوف : « إن نظامنا هو أحسن نظام ديمقراطى فى كل الأنظمة الديمقراطية الموجودة ، ففى ظل النظام الرأسمالى يعتبر الرجل الذى يملك دولارات أكثر هو الأكثر ذكاء، أما فى ظل النظام الاشتراكى، فان الرجل الذكى هو الرجل الذى يتمتع بذكاء أكثر.. فكر فى ذلك ثانية وسوف تصبح شيوعياً .. لابد وأن تفكر فى ذلك - سواء أردت أن تظل رئيسا للجمهورية منتميا إلى الحزب الديمقراطى المسيحى أو انقلبت شيوعيا - وعلى أية حال ، فمهما يكن قرارك فلن يقلل ذلك من احترامى لك .. ويجب أن نتطلع إلى السلام والصداقة بين شعبينا

وانتهى تبادل الأنخاب ، فاستدار السيد خروشوف نحو سنيور بيللا قائلا : « لقد طلبت من الرئيس أن يصبح شيوعياً ولكنى أفكر أن تكون أنت أيضا شيوعيا .

وعندئذ حدثت هذه المحادثة ذات الأهمية .

سنيور بيللا - إنه لمن الصعب على الرئيس أن يتقبل اقتراحك .

السيد خروشوف : ولكننى دائماً أقترح الأمور الصعبة ، وعلى أية حال ، أنا لا أحب الاقتراحات ، إنما أنا أدعوكم ، وأنا أريد صالحكم

سنيور جرونشى : إنى أريد أن أتقدم للرئيس خرشوف برغبة طيبة فى أن تمسه رحمة الله يوماً ما فيدخل الحزب الديمقراطى المسيحى

السيد خروشوف : اننى أنتمى إلى الحزب الذى يوفر للشعب أكبر نسبة من الرخاء ، فاذا فعلتم ذلك فإننى أتقبل دعوتكم .

سنيور جرونشي : انني اعتمد على ذلك .

السيد خروشوف : ولكن أخبرني أولا : منذ متى وجد الحزب الديمقراطي المسيحي في ايطاليا ؟

سنيور جرونشي : إنه لم يوجد منذ وقت طويل كالحزب الشيوعي

السيد خروشوف : دعنا نعقد مقارنة ، ماذا أعطى الحزب الديمقراطي المسيحي لإيطاليا ؟ هل رفع رمزكم ورايتكم فوق القمر ؟ !

سنيور جرونشي : حينما تمتلك المال تستطيع أن تشتري أي شيء مهما كان غالياً . وبذلك فلا وجه للمقارنة .

السيد خروشوف : إننا لا نبيع عقائدنا إلا اذا كانت جيدة فالعقائد ليست وجبة من « السلامة » ، والايطاليون قوم ذوو طباع حادة ، ويعتبرون الإشارة إلى « السلامة » من أفسد الأذواق .

والتقاليد الايطالية تفترض في رؤساء الجمهوريات سموهم عن السياسة ـ فهم رؤساء صوريون ـ ولكن جرونشي لم يلق بالا لهذا الرأي ، فهو دائب النشاط في مناوراته السياسية .. وكما ذكرنا من قبل أن أمنيته العزيزة هي أن يباعد بين الاشتراكيين أنصار نيني (الجناح اليساري) وبين المعسكر الشيوعي ويربطهم بالديمقراطيين المسيحيين .

ماذا تبق من الحزب الفاشي ؟

لم يتبق إلا القليل ..

وعلى أية حال فهناك حزب فاشي جديد يسيطر على ٥٪ من مجموع الأصوات وله أربعة وعشرون نائباً في البرلمان الحالي ويستطيع أن يسبب مضايقات صغيرة في المناسبات ، وفى الواقع يمنع القانون أن تكون « فاشياً » ولذلك فقد أطلق الحزب على نفسه اسم الحركة الاشتراكية الايطالية ويترأسه اجستو دى مارسانش الذى كان موظفاً فى حكومة موسولينى . وقد اشترك هذا الحزب كما اشرت الى ذلك من قبل فى ائتلاف تامبرونى التقصير .

وما زالت دونا راشيل موسولينى — وقد بلغت السبعين — على قيد الحياة . وأيضاً أولادها الأربعة من الدكتاتور الراحل — أيدا ، أرملة الكونت كيانو ، الذى أمر حماه (موسلينى) باعدامه فى المراحل الأخيرة من الحرب . وفيتوريو الذى يعيش فى الأرجنتين ورومانو وعمره الآن اثنان وثلاثون عاماً ، وهو رئيس فرقة جاز موسيقية وآنا ماريا , الابنة الصغرى .. وقد تزوجت آنا ماريا فى يونية عام ١٩٦٠ ، من ناندى بوكى وهو مهرج يعمل فى ناد ليلى ، وقد حضر الحفل معظم أقاربها وكذلك زعماء الحزب الفاشى الجديد . وقد أرسل البابا يوحنا الثالث عشر برقية تهنئة إلى العروسين ، ولكن الأمر لم يسبب كثيراً من الحماس . ويعلم الإيطاليون الذين عاصروا الحرب العالمية الثانية أن

عائله موسوليني لاتستعيد ذكريات جميلة ، وحتى الدوتشي نفسه تناسوه بعدم اكتراث .

وقد سمعت رئيس تحرير جريدة مشهور يقول : « ليست جريمة موسوليني فى أنه كتم الحريات، ولكن جريمته أنه لم يعمل شيئاً يستحق الذكر حينما كانت السلطة بين يديه . . كان يستطيع أن يحل المشكلة الزراعية، ويسترجع الجنوب ، ولكنه بدلا من ذلك سيطر عليه هتلر ، وأحلام حمقاء فى تأسيس امبراطورية ، لقد كان تشرشل على حق حينما اتهمه » بالأداة .

وليس هناك أى دليل على أن دولة الاتحادات التى ابتدعها موسوليني ما زالت قائمة ، ولكن ما زال هناك قليل من القوانين الفاشية المتنوعة موجودة فى الكتب . وهناك تناقض هام يستحق الذكر . ذلك أن الرجال الذين كانوا يديرون نظام الحكم الفاشى . أتموا تعليمهم تحت ظل النظام الديمقراطى الذى كان يسبقه ، والآن فإن معظم الرسميين الذين يعملون فى تطبيق الديمقراطية فى إيطاليا . تلقوا تعليمهم فى ظل النظام الفاشى ، ولكن ليس هناك من يريد أن يرى دكتاتوراً جديداً .

* * *

وهناك فى إيطاليا أيضاً حزب ملكى ، يكرس جهوده للدفاع عن مطالب الملك امبرتو الثانى . الذى عاش الخمس عشرة سنة الماضية فى منفاه فى البرتغال . ومما لاشك فيه أن هناك عدداً كبيراً من الإيطاليين من أنصار الملكية وخاصة فى صقلية . وفى الجنوب . . ويسيطر هذا

الحزب على ستة مقاعد فى مجلس الشيوخ (من ٢٥٠ مقعداً) . وعشرين مقعداً فى مجلس النواب . ولكن ليس له أى تأثير مباشر .

ومن الناحية العملية انتهى مجلس السافوى تماماً . وهناك نقطة هامة وهى أنه إذا استرد الملك امبرتو العرش فى ظروف لا نستطيع أن نتكهن بها . فإن أول عمل سيقوم به هو أن يتنصل من كل المظاهر المبالغ فيها التى يقوم بها أتباعه . وسيحكم حكماً يقترب من النظام الجمهورى . ولكن الفرصة التى أمامه ليصبح سيد إيطاليا تماما مثل الفرصة التى أمام زازا جابور لأن تصبح ملكة انجلترا .

بعض الجماعات ذات النفوذ

أولا : منظمة العمل الكاثوليكى ، وهى الساعد الأيمن للكنيسة ، وتعتبر قوة جبارة تقف وراء الحزب الديمقراطى المسيحى . ومن ثم فهى تساند الحكومة أيضاً وقد ظل يتزعمها العالم الطبيعى دكتور لوجى جيدا لعدة سنوات وهى أيضاً المنظمة التى تتحكم فى الأصوات ، ويتبع منظمة « العمل الكاثوليكى » ما يقرب من عشرين ألف « خلية » منتشرة فى المناطق الريفية والحضرية ، ويبلغ عدد أعضائها حوالى أربعة ملايين عضو . وهناك شخصية هامة هى جيوسبى كردينال سيرى أسقف جنوا ورئيس الأساقفة الإيطاليين وقد وصف لى على أنه أقوى رجل فى إيطاليا ، وذلك لأنه يدير حركة الداخلية للكنيسة وتصدر « التعليمات » من الفاتيكان ، وتصل إلى كاردينال سيرى ، الذى ينقلها إلى البابوات

الذين يتصلون بدورهم با لكنائس المحلية . ثم تبلغ هذه التعليمات «العمل الكاثوليكي » التي تقوم بإصدار أوامرها إلى الناخبين .

وليس هناك إلا قليل من الاتصالات المباشرة بين الفاتيكان والحكومة على المستوى الرسمي فلا يجلس البابا وسنيور جرونشي سويا ليتفقا على شيء بل إنهما لم يتقابلا أبداً في الحقيقة . ومن الواضح أن هناك أجنحة عديدة في فاتيكان اليوم وهناك أيضاً أحزاب مختلفة ، فهناك محافظو سيرى . وهناك جناح أكثر حرية ، وهو يرتكز في الكاردينال مونتيني أسقف ميلانو ، ومع أن الفاتيكان يعمل سياسياً خلال منظمة « العمل الكاثوليكي » التي هي السند الرئيسي للحكومة فإن الفاتيكان لايتصل دائماً مباشرة بالحكومة ، وهناك نقطة محل نزاع وهي التعليم ، والجناح الأيمن المتطرف من الكنيسة يشفق من زيادة سرعة انتشار التعليم ، لأن ذلك قد يؤدى إلى المروق والكفر ، وأنه إذا ما تولت نخبة متعلمة الحكم ، فقد يصبحون ضد رجال الدين ، بل ومنافسين للكنيسة ، وهناك مشكلة أخرى مشابهة ، وهي الإصلاح الاجتماعي . فيعتقد الرجعيون بأن إعانة الفقير لا بد وأن تأتى عن طريق الهبات الخيرية التي تقوم بجمعها الكنيسة ، وليس عن طريق العمل السياسي الذي تقوم به الدولة .

وسمعت أحد المتطرفين يشرح وجهة نظره قائلا : « اننا يجب أن نتمسك ، لسوء الحظ بالفقر لأنه يولد الجهل » .

فالرجعية تريد النمو على حساب الناخبين الجهلاء .

ثانياً : الشيوعيون . فالحزب الشيوعي الإيطالي ، كما هو معروف

جيداً . يعتبر أكبر حزب شيوعي فى العالم خارج الصين والاتحاد السوفييتى . وعلاوة على ذلك ، فانه يعتبر أكبر حزب فى إيطاليا بعد أعضائه الذين يزيدون عن المليونين ، ومقاعده المائة والأربعون فى مجلس النواب ، وقد حصل فى الانتخابات العامة الأخيرة على ٦ر٥ مليون صوت وأيضا فانه يعمل متعاوناً مع الاشتراكيين برئاسة نينى كما هو معروف ، الذى يسيطر على ٨ نائب وحوالى أربعة ملايين صوت ، ويسيطر الشيوعيون والاشتراكيون سويا على ٣٨ر٤٪ من مجموع أصوات الناخبين ، وبذلك يعتبر أكبر قوة يسارية متطرفة فى العالم الغربى .

وقد كانت معاقل الشيوعيين الرئيسية إلى وقت قصير مضى فى شمال ووسط إيطاليا منطقة الولايات المتحدة، وما أن انتشر الرخاء فى الشمال حتى اضمحل النفوذ الشيوعى إلى حد كبير ، وأصبح الحزب الآن يستمد قوته من مناطق الجنوب الاقطاعية حيث بدأت الصناعة تغزو هذه المناطق على نطاق واسع،ويأمل الشيوعيون أن يستفيدوا من ذلك ويستفيدوا أيضاً من طبقات الشعب المعدمة .

ولد بالميرو توجلياتى زعيم الحزب الشيوعى فى عام ١٨٩٣ وهو من مؤيدى نزعة ستالين وقد كان توجلياتى شخصية عظيمة فى الشيوعية الدولية منـــذ عام ٩١٩ . وهو اليوم سياسى محنك ، يتبع مبادىء خروشوف باحترام ، ويتبع الاتجاه « الديمقراطى » السليم وقلما حدث أن اشترك الشيوعيون فى الحكومة فى ايطاليا حتى عام ١٩٤٧ ، فقد ضمت الوزارات الأربعة الأولى التى شكلها دى جاسبيرى ،

أربعة أعضاء شيوعيين ، وكان توجلياتى نفسه وزيرا للعدل . وهناك زعيم شيوعى آخر هو لويجى لونجو نائب سكرتير الحزب ، وهناك أيضاً اجوستينو نوفيلا ، الذى يمثل نقابات العمال اليسارية .

بيد أن هناك سؤالا يجول فى الخواطر . كيف تكون ايطاليا دولة كاثوليكية وشيوعية فى نفس الوقت ؟ . من الواضح أن ملايين من الشعب ينتمى إلى الاثنين ، ويثبت هـــذا حقيقة أن ٩٩٫٦ ٪ من الشعب كاثوليكيون ، وأن حوالى ٢٥ ٪ منهم شيوعيون .

والسبب فى ذلك هو أن كثيراً من الايطاليين الكاثوليكيين ليسوا مؤمنين بالمعنى الحقيقى فإن ملايين منهم لم يذهبوا إلى الكنيسة طوال عمرهم إلا مرات قليلة . وليس هناك أى علاقة بين انتسابهم للدين وبين السياسة .

ويصل بعضهم إلى حـــد أن يعتقد أن الشيوعية تماثل مذهب « البروتستانت » أو بدعة دينية « داخل » الكنيسة ، مع أنه لا يمكن أن يعتقد بذلك أى كاثوليكى خالص الإيمان .

أما من جهة الشيوعيين فإنهم لا يعبأون أن يذهب أعضاؤهم إلى الكنيسة أو لا يذهبون . مع أن المفروض فيهم أنهم ملحدون .

وهنـاك حقيقة تثير الدهشة ، وتلك هى أنه نادراً ما يهاجم رجال الدين زعماء الشيوعيين الايطاليين شخصياً . فإن الفاتيكان خاصة لا يريد أن يفقد رسمياً ربع جمهور الناخبين ،

وليس الفقر هو السبب الرئيسى لوجود الشيوعية فى ايطاليا

كما يعتقد البعض . ففى الحقيقة نجـــد أن أكثر الايطاليين فقراً ، مثل فلاحى أبوليا وكالابريا ، عرضة لأن يكونوا فى حالة جمود من الناحية السياسية بل إن بعضهم من الرجعيين .

ولـكن الشيوعية انتشرت بسبب عوامل أخرى ، مثل سجل الشيوعيين الحافل فى المقاومة . وهناك سبب آخر لانتشار الشيوعية وهو الضيق العاطفى ـــ الاستياء من قوة الكنيسة ، ومبدأ أنه ليس هناك شيء يستحق الاهتمام فى هذه الحياة ، إنما الحياة الأخرى هى الأهم بالاضافة إلى الشعور السائد بين الشباب ـ المثقفين منهم خاصة ـــ ان السياسة المطلقة للجناح اليسارى وحدها تستطيع أن تجد العلاج لـكل مشاكل ايطاليا ، وتستطيع أن تستصلح الأراضى ، وتجمع الضرائب بأمانة ، وتخلص الدولة من امتيازات الاقطاعيين .

ثالثاً : الشركات الصناعية الكبيرة فى الشمال ـ فيات ، ومونت ـــ كاتينى ، والقوى الاقتصادية المشابهة ، التى تكون الاتحاد العام للصناعة .

وعلى أية حال ، فهذا الاتحاد لا يعمل فى الأوقات العادية كجماعة ذات نفوذ كبير .

وبدلا من ذلك فإن رجال الصناعة ـ فرادى ـــ لهم نفوذ قوى . فإن رجال الصناعة الكبرى المركزين فى ميلانو يسيطرون على حوالى ٨٠ ٪ من الصحف فى ايطاليا ، ومعظمهم يساند حزب الأحرار ، هذا الحزب المعتدل الذى يرجع إلى أيام كافور . وسكرتيره الشاب جيوفانى مالاجودى من ألمع الشخصيات الايطالية وأكثرها تعقلا :

ولكن حزب الأحرار لا يسيطر إلا على أربعة مقاعد فى مجلس الشيوخ ، وسبعة عشر مقعداً فى مجلس النواب .

وهناك شخصية بارزة فى عالم الصناعة وهو انريكوماتى مؤسس ورئيس شركة البترول الايطالية الحكومية ، وماتى المعادى للنازية، زعيم من زعماء الحزب الديمقراطى المسيحى ، يمثل نوعا جديداً من المديرين فى مجال الصناعة الذين يديرون أعمال الدولة ،

وهو أحد أعضاء الحزب الديمقراطى المسيحى القلائل الذين لعبوا دوراً بارزاً فى حركة المقاومة الايطالية . وقد ساعده فى هذا ابتداء حياته بعد ذلك من جديد وأصبح نائباً برلمانياً ، ثم عهد إليه القيام بتصفية مؤسسة كان قد أسسها موسولينى لاكتشاف البترول فى ايطاليا وتصنيعه .

ولكن لم تنجح هذه المؤسسة فى اكتشاف أى شىء غير أن ماتى قال : ربما كان موسولينى مجنوناً فى بعض الأمور ، ولكنه كان على حق فى هذه المسألة ، ورفض أن يترك المشروع ، وسرعان ما اكتشف منابع كبيرة للغاز الطبيعى فى وادى بو .

ثم دخل فى مجازفات البحث عن البترول فى الخليج الفارسى ، وعمليات بيع الجازولين فى بلاده ، ثم اشتغل فى الإدارات الالكترونية ، والاعمال الهندسية ، والصحف والاسكان ، ومعدات الصناعات الآلية ، والمطاط ، والأسمدة وأشياء أخرى كثيرة .. وقد اشترى أخيراً للدولة محطة للقوى الذرية (التى حصل عليها من انجلترا) ويقيمها الآن على

بعد ثلاثين ميلا من روما — وهى أول محطة ذرية « تستورد » فى التاريخ ، وقد قام أيضاً بعملية مبادلة ، حيث يستورد ثلاثة ملايين طن من البترول الروسى سنويا ولمدة الاربع سنوات القادمة فى مقابل بعض المنتجات الهندسية الايطالية وتملك الدولة كل العمليات التى يقوم بها ، وبذا فهو نوع فريد من الرجال .

وهناك جماعتان أخريان لهما نفوذ كبير لا بد من ذكرهما ، وهما : نقابات العمال فى الشمال وهم من الجناح الأيمن من الحزب الاشتراكى الجناح (الذى لا يتبع ننى) والذى يتزعمه جيوسيبى ساراجات ، والثانية . صغار الفلاحين ، ومعظمهم من الحزب الديمقراطى المسيحى وقد كان هناك تطور هام فى الزراعة وهو الانتقال من زراعة الحبوب إلى تربية الماشية ، فايطاليا كلها الآن تمتلىء بمناطق تربية الماشية وهى عملية دخلت حديثاً إليها .. ولا بد لنا بعد ذلك من كلمة عن الصحافة ، ذات التقاليد القوية .

فقد توقفت كثير من الصحف فى أوروبا عن الصدور منذ الحرب ولكن هناك صحيفتين بارزتين إيطاليتين لم تتوقفا عن الصدور يوما واحداً منذ فترة ما قبل الحرب وهما . «لاستامبا» التى تصدر فى تورينو و «كوريير ديلاسيرا » التى تصدر فى ميلانو ، وهى إحدى الجرائد العالمية فى العالم .

فانفانى وجماعته

تولى أما نتورى فانفانى رئيس الوزراء الجديد المنتمى إلى الجناح اليسارى من الحزب الديمقراطى المسيحى ، الوزارة مرتين من قبل — لمدة ١٢ يوما فى يناير عام ١٩٥٤ ، ولمدة ستة شهور فى عام ١٩٥٨ — ٩٥٩ ، وكان يتولى أيضاً وزارات العمل ، والزراعة ، والداخلية ، وفى رئاسته للوزارة السابقة ، كان يتولى منصب وزير الخارجية ، وهو يميل كثيراً إلى حلف شمال الأطلنطى وإلى الأمريكيين ، ويؤيد التكامل التام مع أوروبا ، ومن الناحية الداخلية فإنه دائماً يقف بجانب الطبقة العاملة فى الصناعة وطبقة الفلاحين .

ولد الدكتور فانفانى القصير القامة النشيط الحركة فى سان استفانو وهى قرية فى توسانيا عام ١٩٠٨ ، والتحق بجامعة كاثوليكية فى ميلانو وحصل على درجة فى الاقتصاد ، ثم أصبح أستاذا للتاريخ الاقتصادى وقد ألف كثيراً من الكتب المفيدة . وعلى عكس دى جاسبيرى وجونشى هرب من إيطاليا حينما بدأ الاحتلال الألمانى ، وعاش فى المنفى فى سويسرا حتى عام ١٩٤٥ ثم هيأت له منظمة « العمل الكاثوليكى » وهو أحد أعضائها الدائمين ، فرصة دخول الحياة السياسية ، وأصبح عضواً فى مجلس النواب منذ عام ١٩٤٨ .

وحينما زار مستر ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا إيطاليا فى خريف عام ١٩٦٠ طلب من الدكتور فانفانى سماع بعض الأغانى الإيطالية ، فما كان من فانفانى إلا أن سار إلى البيانو وابتدأ يغنى بأعلى صوته .

ومن بين أعضاء الحزب الديمقراطي المسيحي المجربين أنطونيو سيني ، جيوسيبي بيللا ، وماريو سيلبا وزير الداخلية النشيط الذي يطارد الشيوعيين ، والثلاثة من رؤساء الوزارات السابقين ، وأن سيني ، الذي يتولى وزارة الخارجية في حكومة فانفاني سرديني المولد ، وعمل فترات طويلة من عمره محاميا ومدرسا وسياسيا ، إنه في السبعين من عمره الآن . وكان يهتم كثيراً بالزراعة ، وهو يعتني عناية خاصة بشئون سردينيا . وجيوسيبي بيللا ، الذي كان رئيسا للوزراء ووزيراً للخارجية سابقا ، يتولى الآن منصب وزير الميزانية . ولد في شمال إيطاليا عام ١٩٠٢ وعمل أستاذا للمحاسبة لسنين طويلة ومثل الكثير من زملائه داخل الحزب الديمقراطي المسيحي عن منظمة « العمل الكاثوليكي ».

* * *

سألت بعض الأصدقاء في روما ماذا يحدث لو حدث انشقاق في حكومة فانفاني . وكانت الإجابة « لن يسيطر علينا دكتاتور آخر — رجل عسكري — إننا نستطيع أن نتقبل رجلا في رداء الكهنوت مثل شخص سالازار .

نبذة صغيرة عن البابا

إنه لمن الصعب أن نجد اختلافا بينا بين رجلين من رجال الكنيسة مثل هذا الاختلاف الموجود بين البابا الجديد يوحنا الثالث والعشرين وسلفه بيوس الثاني عشر . والبابا يوحنا رجل بدين ، متراخ ، يعشق الناس ، ولا يحب المظاهر وهو من أصل ريفي ذكي ولكنه ليس

مثقفا ثقافة عالية ، كما أنه فى حقيقته لا يبدى اهتماما خاصاً بالسياسة — كما لا يهتم بالنفوذ الشخصى — أما بيوس الثانى عشر فهو على نقيض ذلك تماما كان أرستقراطيا متحضرا لامع الثقافة ، غارقا فى السياسة حتى أذنيه ، ميالا إلى الوحدة ، نحيل الجسم ، وحادا كالسيف ، كما أنه كان شخصية سوفسطائية غريبة ، وكان يدير شئون الفاتيكان وحدا ، ويرسم سياسته بنفسه ، وكان يبدو وكأنه الملك ، ورئيس الجمهورية ، ورئيس الوزراء . وقد ولد البابا يوحنا الثالث والعشرين ، الذى كان يحمل اسم انجلو جيوسيبي دونكالى ، عام ١٨٨١ . ويجعلك ذلك تشعر بأنه جد مقدس ، وكان فى سن السابعة والسبعين حينما تولى العرش البابوى عام ١٩٥٧ ، وبذلك يكون أحد البابوات الكبار السن القلائل من بين ٢٦٢ بابا منذ عهد القديس بطرس .

وكان دونكالى أكبر إخوته الاثنى عشر ، ونشا اسم يوحنا نسبة إلى أبيه وبدأ دراسته للكهنوت عندما كان صغيراً ، وحصل على درجة فى علم اللاهوت فى روما ، ثم رسم قسا عام ١٩٠٤ ، وقد قضى بضع سنين فى الاعمال الادارية فى بيرجادو بالقرب من مسقط رأسه وقام بتدريس تاريخ الكنيسة ، وساعد فى تنظيم منظمة « العمل الكاثوليكى » فى القرى المجاورة ، وأصبح قسيساً برتبة سرجانت فى الهيئة الطبية التابعة للجيش الايطالى ابان الحرب العالمية الأولى ، وقد رقى بعد ذلك إلى رتبة ملازم .

وينفرد البابا يوحنا الثالث والعشرين عن جميع رؤساء الدين السابقين ، فى أنه قضى معظم أيام شبابه فى بلاد غير كاثوليكية ، أو فى بلاد بها أقلية

كاثوليكية . . فبعد اختياره أسقفا فى ١٩٢٥ سافر إلى بلغاريا كزائر رسولى ، وظل هناك حوالى عشر سنوات ثم أمضى حوالى تسع سنوات كنائب رسولى فى اليونان وتركيا . . ثم ذهب إلى باريس لمدة سبع سنوات ، حيث كان يشغل منصب القاصد الرسولى هناك ، وقد كان محبوبا . ومحترما من الكاثوليكيين والبرتستانت على السواء هناك .

ويعتقد معظم المراقبين المطلعين ، بأن البابا يوحنا يريد أن يقلل من ظهور النزعة الكاثوليكية واضحة فى السياسة .. أو كما يقولون «يقلل من تدخل الفاتيكان فى السياسة» . . ومما لا شك فيه أن للبابا نفوذا واسعاً ، ولكنه على عكس باكيلى يحب أن يوكل سلطاته إلى نائب له ، وهو أقل الرجال دكتاتورية . . وقد عين مالا يقل عن ثلاثة وعشرين كردينالا جديداً فى أول اجتماع يعقده لمجلس الكرادلة فى ديسمبر عام ١٩٥٨ ، وتم تعيين ثمانية عشر كردينالا جديداً منذ ذلك الوقت ، وكانت النتيجة أن مجلس الكرادلة يضم اليوم ستة وثمانين كردينالا ، وهو أكبر عدد منذ عام ١٥٨٦ .

وقد خفض البابا عـــدد الكتب التى تتناول موضوع الطهارة إلى النصف ، من حوالى ٥٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ ، وقد استقبل بحرارة رجالا قديرين ، من غير المذهب الكاثوليكى مثل ويلى براندت عمدة برلين الغربية الاشتراكى ، وهارولد ماكيلان رئيس وزراء بريطانيا . . وفى ديسمبر عام ١٩٦٠ عقد اجتماعا طويلا مع دكتور جيوفرى فرانسيس فيشر أسقف كانتربرى ، وكانت هذه أول مرة يتم فيها اجتماع بابا ورئيس الكنيسة الانجيلية منذ ٥٦٣ عاما .

ومن المفروض أن يمثل البابا يوحنا ، الذى كان بطريرك فينسيا بعد رجوعه من فرنسا ، الجناح « الفينيسى » للكنيسة الايطالية المقابل للجناح الرومانى (نسبة إلى روما) . . وكان الفينيسيون دائماً أكثر « صراحة » . ومما لا شك فيه أنه تم اختيار يوحنا الثالث والعشرين للبابوية لأنه كان رجلا مبجلا ، ومن الواضح أنه يمكن أن يطلق عليه لقب بابا « مؤقت » . . فبعد تزمت وصرامة باكيلى ، أرادت القوى الموجـــودة فى الفاتيكان فسحة من الوقت لتجميع نفسها . ولاشك فى أن أقوى كاردينال ساعد على اختيار يوحنا الثالث والعشرين للبابوية هو دومينيكو كاردينال تاردينى .

التغيرات والمشاكل

من الواضح أن هناك تغيراً كثيراً حدث فى إيطاليا بملايينها الخمسين فى ربع القرن الماضى ، وأعظم هذه التغيرات هو الاتجاه نحو التصنيع.. فبينما كانت إيطاليا قبل الحرب ٦٠ ./ زراعية و ٤٠ ./ صناعية ، أصبح العكس صحيحا تماما ، فما يزيد عن ٥٠ ./ من العمال الإيطاليين يعملون الآن فى الصناعة . . وعلاوة على ذلك فإن طبيعة الصناعة نفسها تغيرت ، فلم يصبح الاهتمام مركزا الآن على الحرف الصغيرة ، بل على المنتجات التى تحتاجها الجماهير .

وقد أدى هذا إلى ثورة حقيقية ، فأصبحت القرى القريبة من نابلى والتى كانت بعيدة تماما عن مدنية القرن العشرين مثل العشش التى كانت

إلى وقت قصير مضى على ضفاف النيل ، تملك الآن أجهزة التليفزيون والغسالات الكهربائية ، وأصبح المواطنون يتناولون اللحوم والسكر والقهوة ، وهى سلع لم تكن معروفة لهم منذ خمسة وعشرين عاما (وما زالت غير معروفة فى بعض المناطق) . . وظهرت إلى الوجود طبقة متوسطة مليئة بالحيوية والنشاط ، وأصبحت الطبقة العاملة فى الشمال أكثر رخاء مما كانت عليه من قبل .

ومن التغييرات الكبرى التى حدثت ، اختفاء الكثير من معالم الاعتزاز بالقومية بعد اختفاء النظام الفاشى ، وأصبحت إيطاليا أقل تهورا مما كانت ، وكان السبب فى ذلك هو تسوية النزاع حول مشكلة تريستا ، فلم تعد تثير هذه المشكلة الشعور الوطنى . . وأيضاً ساعدت عضوية إيطاليا فى مجموعة الأطلنطى على شعور الإيطاليين بالراحة والتضامن ، كما ساعد على ذلك أيضاً عضويتها فى السوق الأوروبية المشتركة التى أفادت إيطاليا فائدة اقتصادية كبيرة . . وأخيراً ، هناك تطور واضح فى الميادين الثقافية والفنية ، ويحق للإيطاليين أن يفخروا بأعمالهم الحديثة البارزة فى ميادين التصميم الصناعى ، وعالم الموضة ، والمعمار ، والسينما .

وهناك كلمة يجب أن نذكرها عن التحالف الاطلنطى . . حيث توجد سبع فرق إيطالية تحت تصرف حلف شمال الاطلنطى ، وقد ساندت الولايات المتحدة الأمريكية جهود الإيطاليين فى بناء قوتهم الدفاعية بمساعدات عسكرية مباشرة وصلت إلى ١٫٨ بليون دولار —

١٢٧ مليون دولار فى عام ١٩٦٠ فقط .. كما توجد قيادة رئيسية لحلف شمال الاطلنطى فى نابلى .

وقد تم تسليح إيطاليا بالصواريخ الأمريكية من طراز جوبيتر ، غير أن أمريكا ترفض تخزين رءوس الصواريخ الذرية فى أراض أجنبية كما ينص على ذلك القانون الأمريكى .. والغريب فى الموضوع أنى رأيت أدلة دولية على وجود حلف شمال الأطلنطى فى المناطق الريفية الإيطالية . مدن مثل بيزا أكثر من أى مدن أخرى فى كل أوروبا ، تستطيع أن ترى هنا جنودا هولنديين ، ونرويجيين ، وأمريكيين فى ملابسهم الرسمية . كما توجد قواعد أمريكية فى فيرونا ، وفسيتزا ، والجهورن ، وفى مناطق أخرى بالقرب من نابلى .

ومما لا شك فيه أن إيطاليا تتقدم نحو الازدهار ، فقد ارتفع الانتاج القومى الكلى حوالى ٨ ٪ فى السنة الماضية عنه فى عام ١٩٥٩ وهو حوالى ثلاثون بليون دولار ، زاد ثلاث مرات عما كان عليه عام ١٩٤٦ وتملك إيطاليا ثالث احتياطى ذهب فى العالم (صدق هذا أو لا تصدق) بعد الولايات المتحدة مباشرة ، ووصلت صادراتها فى الخمسة الشهور الأولى من عام ١٩٦١ إلى ٢ بليون دولار ، أكثر مما كانت عليه فى العام الماضى بمقدار ٤٦ ٪ .

ومع ذلك ما زالت إيطاليا بلداً فقيراً ، إذ أنه يوجد حوالى ١ر٧ مليون عاطل ، وبها مناطق شاسعة لم تلمسها يد التطور ، مع وجود تفاوت كبير جداً بين الأغنياء والفقراء . وقد وجد رسمياً أن مالا يقل

عن ١٢ ٪ من مجموع السكان « معدمون تماماً » وأن حوالى ٢ ٪ آخرون « فى حالة من الفقر تصل إلى ملايين لا يجدون الطعام الكافى حدود العوز التام » . . وهناك لهم ، وفى عملية مسح حديثة فى منطقة ريفية فى صقلية ، ثبت أن ٨٠ ٪ من السكان ليس عندهم مياه نقية أو مرافق صحية ، وأن ٤٠ ٪ من السكان أميون ، وتصل نسبة الوفيات بين الأطفال إلى ١٠٣ر٨ فى كل ألف من المواليد .

وفى الحقيقة ، تنقسم إيطاليا إلى بلدين . . فليس الاختلاف بين الشمال والجنوب مثل الاختلاف بين يوركشير وسسيكس . . ليس الشمال الإيطالى والجنوب بلدين مختلفين فقط ، بل يبدو كما لو كانا بلدين فى قارتين مختلفتين .. فبعد نابلى إيطاليا هى أفريقيا .. فى الواقع أن مشكلة الفقر الإيطالية هى مشكلة الجنوب .. كيف يوزع الدخل القومى حتى يحصل الجنوب على دخل أكبر .. وهناك مشروعات مختلفة فى طريقها إلى التنفيذ ، بما فى ذلك مشروعات استصلاح الأراضى .. ولكن الصعوبات كثيرة .. فلو أخذت الحكومة مبالغ كبيرة من الشمال لتعطيها للجنوب ، فإنها بذلك ستزيد خطر الشيوعية فى المنطقتين ، لأن الشمال سيضعف ، بل ربما يفتح انتشار الصناعة فى الجنوب الباب للتغلغل الشيوعى .

إن المشكلة الرئيسية فى إيطاليا هى الفقر ، والمشكلة الثانية سياسية : كيف تطبق فى بلد جديد وغير متحد كإيطاليا (التى أعلنت دولة مندمائة عام فقط) .. والسؤال بطريقة أخرى هو كيف نحول إيطاليا العصور الوسطى إلى دولة حديثة .. وإذا تقدمت الدولة بسرعة نحو الإصلاح فإنها

ستخاطر بقيام معارضة من اليمينيين ، وإذا سارت ببطء ، فسيتسبب ذلك فى معارضة اليساريين .. وسمعت نقطة كثيراً ما تذكر وهى أن إيطاليا ، مثل الدول الأخرى التى ليس لها تجربة فى الإصلاح ، عندها تقاليد قليلة عن المواطن الصالح .. فليس هناك وعى اجتماعى إلا فى أضيق الحدود .. إن الناس أولياء مخلصين لأنفسهم ، ولعائلاتهم ، ولمدنهم .. ولكنهم لا يحملون الكثير من الولاء نحو أمتهم ، فالذى يهمهم هو فرصتهم الخاصة وربحهم الخاص .

وبعد أن تحدثنا عن كل ذلك ، علينا أن نذكر كلمة أخرى صغيرة .. إن إيطاليا تواجه متاعب ، وقد تزداد هذه المتاعب بشكل خطير بمرور الوقت .. إن الدولة لا تتمتع بالاستقرار ، وما زالت أجزاء كبيرة من الشعب بعيدة عن أضواء المدينة ، ولكن إيطاليا — رغم ذلك — تعطيك الشعور بالدفء ، والسعادة . والمحبة .. إنها دولة باسمة .. إنها ألطف دولة من دول أوروبا تزورها أو تعيش فيها بصرف النظر عمن يحكمها .. كيف أو لماذا ؟

انقلاب فى تركيا

عندما ظهر كتاب ، فى داخل أوروبا ، لأول مرة فى سنة ١٩٣٦، كانت شخصية كمال أتاتورك غير العادية لا تزال تسيطر على تركيا . . لقد كان بمثابة الأب لأمة ولدت من جديد — فقد كان ذا نفس مريضة وقلب قاس ، وكان عملاقاً وطنياً — لقد التقط تركيا ككلب أجرب ثم شكلها تشكيلا جديداً .

إن كل إنسان يعرف أنه ألغى الطربوش . وأنهى تعدد الزوجات وحول المساجد إلى مخازن للحبوب ، وحرر المرأة وأنشأ عاصمة جديدة فى أنقرة (لتحل محل القسطنطينية) واستبدل الأبجدية التركية باللاتينية وكافح كلا من البريطانيين والروس ، ودفع الإغريق إلى البحر بلا رحمة ومات كمال فى سنة ١٩٣٨ . كنتيجة للانغماس فى الملذات. وقبل مرضه الأخير بأسابيع قليلة . قال لصديق «إذا استطعت أن أعيش خمس عشرة سنة أخرى ، فإن باستطاعتى أن أجعل من تركيا بلدا ديموقراطياً . وإذا مت فسوف يتطلب ذلك ثلاثة أجيال ، ولعله كان صادقا فيما قال

إن أتاتورك ، ذلك الفظ الغليظ القلب المستبد ، كان دائما مبتدعا وإذا عدنا إلى الوراء نجد أنه — على ما أعلم — قد فعل فى سنة ١٩٣٠ شيئاً فريدا فى حوليات الدكتاتورية . لقد تعمد إنشاء معارضة بتعيين حفنة من النواب فى البرلمان . . كلفهم بالتصويت ضده . . لقد كانوا خائفين ، ولكنهم كانوا سيشنقون إذا رفضوا القيام بالعمل الذى وكل إليهم . وهو مصير أشد سوءا ولقد أوقفت التجربة بعد قليل . ولكنها جديرة بالذكر لأنها تحدد الوقت الذى دخل فيه ميدان الحياة العامة . ذلك الرجل الذى أدار دفة الأمور فى تركيا بين سنتى ١٩٥٠ ، ١٩٦٠ فلقد كان مندريس واحداً من الجماعة الأصلية التى عينها كمال أتاتورك لتعارضه .

وفى العاشرة من نوفمبر سنة ١٩٣٨ ، آل الحكم بعد كمال أتاتورك إلى الجنرال عصمت اينونو ، وهو الآن رجل عجوز ولكنه لا يزال يلعب دوراً مفحما فى مجالس الأمة . ولقد كان لسنوات عديدة ساعد

أتاتورك الأيمن ، إذا أمكن أن نقول إنه كان لأتاتورك ساعدا أيمن وكان يسمى عصمت باشا . ثم عرف باسم إينونو عندما أصدر كمال مرسوما يقضي بأن يحمل كل تركى الاسم العائلى على الطريقة الغربية .

وكان نهر إينونو هو المكان الذى شهد اعظم انتصارات عصمت باشا الحربية إبان الحرب اليونانية فى الأناضول سنة ١٩٢١ .

وأدار إينونو دفة الأمور فى تركيا من سنة ١٩٣٨ إلى سنة ١٩٥٠. وقد كان — ولا يزال — شخصية خلابة . ومن صفاته المميزة أنه كأستاذه كمال مبتعد عن الناس : وكقاعدة عامة ، لم يستقبل اينونو أحداً مدة توليه الرئاسة ، حتى أعضاء الهيئات الدبلوماسية . وكان المكان الرئيسى لراحته هو يخته الذى كان أفخم اليخوت وأكبرها شهرة فى العالم فى ذلك الوقت . لقد تكلف ثلاثة ملايين ونصف مليون دولار ، وكان هدية من أتاتورك لاينونو .

وفى سنة ١٩٤٦ قرر إينونو أن تركيا ينبغى أن تجد الفرصة لتتذوق النظام الديمقراطى . وأذن للأمة فى التصويت فى انتخابات حرة تقريباً . تخاصم فيها حزبان . حزب الشعب الجمهورى ، الذى كان الحزب الوحيد فى البلاد أيام أتاتورك ، وحزب معارض ، وهو الحزب الديمقراطى الذى قام بعد وفاة أتاتورك ، وكانت النكتة تقول « إن حزب الشعب قد صوت له أنصاره علنا ، ثم حسبت أصواتهم سراً ، أما الحزب الديموقراطى فقد صوت له أنصاره سراً، ثم حسبت أصواتهم علنا ! » وقد سجلت انتخابات سنة ١٩٤٦ تقدما محسوساً . فمن بين ٤٦٨ مقعدا من مقاعد الهيئة التشريعية. حصل الديموقراطيون المعارضون

على ستين مقعداً ، وكان يتزعمهم جلال بايار وعدنان مندريس ، ذلك الرجل الذى اختاره أتاتورك ليحترف معارضته قبل ذلك بسنوات .

وبدأت رياح جديدة تهب على تركيا بعد سنة ١٩٤٦ . لقد فتح الباب (للديموقراطية) وأصبح المواطنون وقد تذوقوا الديموقراطية يطلبون المزيد منها . وبعد حكم دام جيلا : أخذ حزب الشعب الجمهورى فى الضعف ، بينما أخذ الديمقراطيون يزدادون قوة . وجاءت فى سنة ١٩٥٠ انتخابات جديدة ، فازوا فيها بجدارة — إذ ظفروا بـ ٤١٥ مقعداً فى مقابل ١٧٥ ظفر بها خصومهم .

وكان من المدهش أن إينونو الموقر قد قبل هذا القرار بهدوء واتزان وطنى مع أن هذا كان يعنى نهاية سنى حكمه ، ولم يلبث أن اعتزل الحياة السياسية وانتهى عهد أتاتورك واستولى الديمقراطيون المعارضون على الحكم ، وأصبح بايار زعيم الحزب . رئيسا للجمهورية ، بينما ولى مندريس رئاسة الوزارة .

ومن الغريب - كما قد يبدو - أن مندريس لم يشغل قط فيما مضى وظيفة عامة ، مع أنه كان نائباً . ولا بد أن يكون واحدا من الرجال القلائل فى التاريخ الأوروبى المعاصر ، الذين ارتفعوا بالوسائل الدستورية من لا شىء إلى رئاسة الوزراء بين يوم وليلة .

إنه إنسان مثير للاهتمام . وأهم ما يميزه من صفات ، حيويته الدافقة ، وتفهمه للتنظيم السياسى ، ومزيد من الثقة بالنفس، والطموح لقد ولد مندريس فى سنة ١٨٩٩ لأسرة غنية من ملاك الأراضى .

ومات أبوه وهو صغير ، فكفله أجداده . ودرس فى مدرسة إرسالية أمريكية فى أزمير .

وفى سنة ١٩١٦ ، التحق بالجيش التركى . وحارب البريطانيين فى المعارك الصحراوية التى دارت أثناء الحرب العالمية الأولى ، وبرز فى الأعمال العدائية الوحشية التى وجهت ضد اليونان .

وعندما تولى السلطة سنة ٩٥٠ أدار دفة الأمور فى تركيا بثقة ومهارة ونشاط مدة عشر سنوات، لقد كان من المؤيدين المتحمسين لمنظمة حلف شمال الأطلنطى . وأصبح أكثر الرؤساء فى الشرق الأوسط حظا من الحماية الأمريكية .

وكان الشىء الذى هوى به هو الإغراق فى الملذات لقد كان يريد أن يعرف كبناء عظيم . وقد عمل حتما بجد لإعلاء شأن الأمة ولكن مشروعاته فى استانبول وفى غيرها من البلدان تكلفت مقادير باهظة من المال وأصاب البلاد تضخم مالى هدام وعندما سقط ، بلغ دين تركيا العام ١ر٣ بليونا من الدولارات .

وسنذكر باختصار قصة الانقلاب الذى أطاح بعدنان مندريس .

لقد بدأت المعارضة فى عهده فى سنتى ١٩٥٩ - ١٩٦٠ . وفكر فى قمعها بوسائل غير حكيمة ، فلقد حدث أن ذهب الرئيس السابق اينونو إلى مؤخرة المدينة ليلقى خطابا سياسياً ، فما كان من مندريس إلا أن أرسل فرقا من الجيش لتعطيل موكبه . وقد كان هذا السلوك مبعث استياء شديد لأنه كان إهانة لاينونو ، ذلك الرجل المسن ذو الستة والسبعين عاما ، الذى يعتبر أعظم تركى على قيد الحياة . ولأنه أقحم الجيش فى الشئون السياسية ولذلك فقد هاج الشعب وماج .

وفى منتصف إبريل سنة ١٩٦٠ عطل مندريس كل نشاط سياسى لمدة ثلاثة أشهر ، مما بدأ نذيرا بالانتكاس إلى الدكتاتورية وأقام لجنة خاصة لبحث المعارضة . وصودرت الجرائد ، وسجن المحررون وفصل أساتذة الجامعات .

ونتيجة لهذا قامت أعمال شغب عنيفة فى الثامن والعشرين من شهر أبريل وفى الخامس من مايو هاجمت جموع الطلبة مندريس نفسه فى أنقرة وطالبوه بالاستقالة ، فصرخ متحدياً : « اقتلونى . اقتلونى » ..

وفى التاسع من مايو حدثت حادثة لم يكن مغزاها قد اتضح تماماً فى ذلك الوقت ، فقد اعتزل الجنرال جمال جورسيل منصبه كقائد عام للجيش التركى ، وفى الساعات الأولى من اليوم السابع والعشرين من مايو سنة ١٩٦٠ قام الجيش بانقلاب سلمى هادىء . وقبض على بايار ومندريس وأعضاء الوزارة جميعاً ، وعلى اثنى عشر من كبار ضباط الجيش . وما لا يقل عن أربعمائة من النواب الديمقراطيين فى البرلمان . وأصبح الجنرال جورسيل قائماً بأعمال رئيس الوزراء . وأقام على الفور حكومة مدنية كبيرة ، ولكنه لم يلبث أن أصبح واضحاً أن الجيش هو الذى يحكم من وراء الستار ومن الواضح أن الرئيس السابق عصمت أينونو لم يكن له دخل فى كل هذا ولم يكن له سابق علم بهذا الانقلاب .

ومع أن حركة الجيش كانت تعارض بمرارة عهد مندريس وقد أصر الساسة المحنكون على أن لا يحاول حزب الشعب الجمهورى العودة إلى الحكم إلا بالطرق الدستورية .

وكان هـذا هو ثالث انقلاب قام به الجيش منذ ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ . ومع هذا فلم يقم هذا الانقلاب نتيجة لتذمر عسكرى .. وعندما قرر الجيش أن مندريس يجب أن يعتزل الحكم لم يجد مندريس مفراً من الاعتزال ..

ولكن ثمة عوامل أخرى لعبت دورها .. ومن هذه العوامل تلك الحالة من الضجر من جانب الساسة الذين كانوا يرغبون فى تولى الحكم والظفر بالسلطة — وكذلك ما قام به المحررون والمدرسون والطلاب من تهيئة العقول للثورة .

وثمة عامل آخر هو موقف المواطنين من أهل المدن إزاء الفلاحين فتركيا دولة زراعية ولكن عمال الزراعة لم يظفروا بحقوقهم كاملة منذ البداية . . . وأراد مندريس أن يصلح من حال الفلاحين ، وعمل على استغلال القوى الاقتصادية فى المدن لصالح الفلاحين الفقراء ، مما أدى إلى استياء أهل المدن .

وثمة مصدر آخر من مصادر الاستياء هو الفساد الذى كان منتشراً والنفوذ الأمريكى فى تركيا . . فلقد هوجم مندريس لكونه ألعوبة فى يد الأمريكان ومنظمة حلف شمال الأطلنطى .

ومضى المؤلف يقول :

إن الجنرال جورسيل ، الذى نصب نفسه رئيساً للدولة قد ولد سنة ١٨٩٥ فى بلدة « أرزوروم » على مقربة من الحدود السوفييتية ، وعاش رجلا عسكريا طيلة حياته .

لقد حارب البريطانيين فى الدردنيل أثناء الحرب العالمية الأولى ، وعين ملازما أول سنة ١٩١٤ ، ولكنه لم يرق إلى رتبة قائد اللواء إلا فى شهر أغسطس عام ١٩٤٦ وحتى وقت الانقلاب عام ١٩٦٠ لم يكن معروفا فى غير الدوائر العسكرية . وقد وصفه زملاؤه الضباط بأنه بطىء فى الحديث ، وكسول بعض الشىء ولكنه مواطن عركته الأيام بدرجة كبيرة .

والمجلس الذى يرأسه جورسيل ، والذى يسمى نفسه لجنة الاتحاد القومى ، ينقسم إلى جناحين : جناح معتدل ، وآخر متطرف .

لقد كان يضم فى البداية ثمانية وثلاثين عضواً . ثم نقص العدد أخيراً إلى أربعة وعشرين ، وهو تطور له عواقب خطيرة .

فنى الثالث عشر من شهر نوفمبر عام ١٩٦٠ ، أعلن جورسيل أنه فصل أربعة عشر عضواً بحجة أنهم يهددون المصلحة القومية . وأشهر هؤلاء المفصولين هو الكولونيل السابان تيركس ، الذى كان فى واقع الأمر المؤسس الحقيقى للانقلاب — والرجل الذى دبره ثم أقنع الجنرال جورسيل بأن يكون طليعته .

إن جورسيل وهو رجل خجول فى المركز (لا إلى اليمين ولا إلى اليسار) لم يكن يريد أن تدفعه جماعة تيركس إلى اليسار .

لقد ألغى الجنرال جورسيل كل نشاط سياسى فى تركيا فى الوقت الحاضر . . وهذا ما حاول مندريس أن يفعله ، ولكنه وعد مراراً باستئناف النظم الديمقراطية بأسرع ما يمكن ، وبعقد انتخابات حرة

فى أقرب فرصة وبإعادة تأسيس حكومة مدنية كاملة . ولكن من الواضح أن الموقف الآن فى تركيا موقف ثورى .

ومن الشخصيات الجديرة بالذكر الجنرال جمال مادانوجلو الذى لا يزال عضواً بارزاً فى لجنة الاتحاد القومى معه ، إنه وثيق الصلة بـ « تيركس » .

وثمة رجل آخر هو سليم ساربر ، ذلك الدبلوماسى البارز الذى أصبح وزيراً للخارجية بدلا من فطين رستو زورلو الذى كان — بصفة خاصة — رجلا مكروها ويعتبر « ساربر » صديقاً مخلصاً للولايات المتحدة .

لقد كان سفيراً ناجحاً لتركيا فى روما ، وفى هيئة الأمم ، ومنظمة حلف شمال الأطلنطى قبل أن يتولى منصبه الحالى ، وإذا اعتزل هذا الرجل منصبه ، فسوف يعنى هذا أن الثورة التركية قد أصبحت معادية لأمريكا . .

وفى نوفمبر عام ١٩٦٠ حوكم بايار ومندريس ومئات عديدة من أنصارهم وبلغ عدد المعتقلين فى عهد جورسيل ١٠٨٧ من رجال السياسة وكشفت المحاكمات الأولى عن مأساة وهمية كبيرة هزت استانبول .

فقد اتهم بايار ، الذى يبلغ السادسة والسبعين بالفساد . . إذ تلقى كلباً أفغانياً هدية من الدولة الأفغانية ، ثم باعه لحديقة حيوان أنقرة بـ ٢٢٠٠ دولار .

واتهم مندريس ، كما جاء فى سجلات المحاكمات ، بمخالفات مالية عديدة شملت ملايين الدولارات ، وقيل إنه أمر أخصائياً فى أمراض النساء فى استانبول بقتل رضيع لم يكتمل نموه ولد من عشيقته ، إيهان إيدان ، المغنية السابقة فى أوبرا أنقرة ، وكانت خليلة لمندريس مدة تسع سنوات .

ولقد برىء كل من بايار ومندريس من هذه التهم الخاصة ، ولكنهما ، حتى وقت كتابة هذه السطور لا يزالان يواجهان عقوبة الإعدام جزاء جرائم مزعومة ، أشد خطراً من الناحية السياسية ، مثل التآمر ضد مصلحة الدولة .

* * *

وتركيا كما يتضح لأى إنسان ينظر إلى الخريطة . نقطة ارتكاز جوهرية فى نظام التحالف الدفاعى . . إنها القنطرة بين أوروبا وآسيا ، بين البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأسود ، وهى الدولة الوحيدة التى تعتبر عضواً فى كل من منظمة حلف شمال الأطلنطى ومنظمة الحلف المركزى ، الحلف الذى يربط تركيا وباكستان وإيران وبريطانيا فى تنظيم الأمن المتبادل . و « أنقرة » الآن هى مقر منظمة الحلف المركزى الذى كان يعرف سابقاً بحلف بغداد وكانت العراق فى يوم ما عضواً رئيسياً فيه .

وتحتفظ الولايات المتحدة بقاعدة هامة فى تركيا ، مزودة بالقذائف وبمحطة للرادار .

ويبلغ المستخدمون الأمريكيون في تركيا عدداً لايقل عن ١٤٦٤٢ شخصاً . منهم ١٢٨٧٦ من العسكريين (بما فى ذلك من يعولونهم) .

والجيش التركى جيش قوى وهو مزود بأحدث الأسلحة ومدرب تدريباً حسناً ، ويبلغ عدده ٤٧٠٠٠٠ رجل ، وهو بهذا أكبر قوة أوروبية وطنية مرتبطة بمنظمة حلف شمال الأطلنطى ، وقد أعدا الجيش التركى ، إلى حد كبير ، على أساس من المعونة الأمريكية السخية ، مع أن الأتراك دائماً شديدو المراس فى الميادين الحربية (بمعونة وبغير معونة) ولكن الولايات المتحدة ، منذ عام ١٩٤٧ ، قد أمدت تركيا بثلاثة بلايين من الدولارات ، أنفق منها مليونان على الأغراض الحربية .

ومن الأسباب التى جعلت تركيا ، لسنوات عديدة ، حليفاً طيباً هو خوفها التقليدى وكراهيتها لروسيا .

إن العلاقات الرسمية بين تركيا والاتحاد السوفيتى علاقة سليمة جداً ولكن معظم الأتراك يعتقدون أن الاتحاد السوفيتى ، وكل ما يؤيده ، إنما هو لعنة ، وقد حل الحزب الشيوعى منذ عام ١٩٢٤ . ولم يعد له نفوذ ، ولقد نقضت الولايات المتحدة بشدة لإفراطها فى معونة الأتراك ففى الثالث من شهر مايو عام ١٩٦٠ كتبت الجريدة الإيطالية الكبيرة « كورييرا دلاسيرا » تقول : —

إن الذى يبقى على حكومة مندريس فى الحكم هو المعونة الأمريكية . . ومهما كانت المعونة الأمريكية فى محلها . . ومهما كانت

تستحقها ، فإن ثمة حدا ينبغي أن يقف عنده أشد الناس تحالفاً . وهذا الحد يبدأ عندما تكبت الحكومة التي تتلقى المعونة حريات شعبها . لقد قاست الولايات المتحدة أخيراً من تجربتين خطيرتين ، واحدة فى كوبا وأخرى فى كوريا فبمساعدتها لباتيستا . فقدت الولايات المتحدة صداقة الشعب الكوبى ، وفى جمهورية كوريا لم تتخل الولايات المتحدة عن تأييد سنجمان رى إلا فى اللحظة الأخيرة ، وفى اليوم الواحد والثلاثين من شهر مايو عام ١٩٦٠ كتب جو الكس موريس فى جريدة هيرالد تريبيون يقول : —

إن الثورة التى أطاحت يوم الجمعة الماضى بحكم عدنان مندريس الذى استمر عشر سنوات يمكن اعتبارها ـ هى وكوريا ـ كحالين قامت فيهما الولايات المتحدة والغرب بتأييد وتمويل حكومته لسبب واحد هو أنها فى جانبنا » .

وليس ثمة ـ حتى الآن ـ دليل على أن لجنة الاتحاد القومى الجديدة فى تركيا قد حولت سياسة تركيا بعيداً عن تأييد منظمة حلف شمال الأطلنطى والولايات المتحدة ، ولكننا نعيد ما قلناه من قبل من أن تركيا فى حركة ثورية ولا أحد يستطيع أن يعرف ما قد يحدث أو لا يحدث غداً .

لقد أعلن الجنرال جورسيل بعد أن ولى السلطة مباشرة أنه لا يفكر فى إجراء أى تغيير فى سياسة تركيا إزاء الولايات المتحدة ، ولكن من الصعب أن نظن أنه يعتمد عليه كمندريس .

إن من حسن حظ الحلفاء الغربيين أن الأتراك يشعرون بعداوة شديدة للاتحاد السوفييتى ، والدرس الذى يمكن أن نستخرجه من كل هذا هو أنه من الخطر دائماً على دولة ديمقراطية كالولايات المتحدة أن ترتبط ارتباطا وثيقاً بدكتاتور أو شبه دكتاتور مهما بدا ذلك .

إن الشعوب هى التى لها الكلمة فى آخر الأمر ، وإن عهداً يقلل من شأن المواطنين لا ينبغى أن يظفر بأى تأييد .

١٤ — انجلترا .. أخطر بلدان العالم

فى سنة ١٩٣٦ كان ستانلى بولدوين ، ذلك الرجل الناعس العنيد ، رئيساً لمجلس وزراء انجلترا . وكان وزير ماليته نيفيل تشامبرلين الذى وصف ذات مرة بأنه « محاسب دقيق فى سنة معسرة » .. كان هذان الرجلان يتزعمان حكومة سميت « قومية » . وكان رمزى ماكدونالد الزعيم الاشتراكى — الداهية المرن — رئيساً لمجلس اللوردات . أما ونستون تشرشل فقد كان معتزلا العمل منذ عام ١٩٢٩ ، وكانت الفرصة أمامه ضعيفة فى عودته فى يوم من الأيام إلى منصب هام .. ومع ذلك فقد كتبت أقول وقتذاك : « إن معظم الناس يجمعون على أنه سيظهر فى خضم ضخم من الأحداث كزعيم وطنى لبريطانيا » .. ولم ينتظروا طويلا حتى تحقق ذلك .

وكان هارولد ماكميلان ، فى تلك الأيام البعيدة ، يجلس مستترا فى المقاعد الخلفية لا يلحظ وجوده أحد إلا بين الحين والحين عندما

تحدث انحرافات تتصف ببعض الشذوذ فى منهاج المحافظين الصارم ، وكان المرحوم أنورين بيفان شخصية معروفة ، ولكن ما كان ليتنبأ إلا القليلون لهذا الشاب المتحمس السيء — كما كان يسمى وقتذاك — والذى ظهر مع الحركة العمالية بأنه سيصبح أقوى وزير صحة فى تاريخ بريطانيا ، كما أصبح قبل وفاته الأليمة قوة جبارة خـــيرة تعمل على تضامن حزب العمال .

أما هيو جيتسيكل ، فلم يكن معروفا على الإطلاق فى عالم السياسة فى سنة ١٩٣٦ ، وكان وقتذاك لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره وكان الرجال البارزون اليوم فى كلا جانبى مجلس العموم من أمثال « أ . بتلر ، دنكان سانديز . بيتر ثورينكروفت ، إيرل هـــوم (وتنطق هيوم) ، سلوين لويد ، هارولد ويلسون ، مايكل فولت ، ريتشارد ه . س كروسمان » ..

كان هؤلاء لا يزالون فى دور التكوين وغير مستعدين لخوض معترك السياسة .

واليوم أين عمالقة سنة ١٩٣٦ ؟ . . أين أولئك العمالقة الذين كانوا يهيمنون على الهويت هول فى تلك الأيام التى سبقت الحرب مباشرة ؟

فقد مات الفريد دف كوبر ، ذلك الرجل الشاعر اللاذع .. كما مات لورد هاليفاكس وسير ساموبل هور وسير جون سيمون الذى كتب عنه أنه كان فى لعبة الجولف يضرب الكرة حول البروز ليصيب الهدف .

أما من حزب العمال فقد مات سير ستافورد كريبس وأرنست بيفن ، وقد لقى أنتونى إيدن مصرعه فى معركة السويس سنة ١٩٥٦ رغم بقائه على قيد الحياة حتى الآن .

وكان من أهم المشاكل التى حدثت فى انجلترا فى أوائل سنة ١٩٣٦ أزمة تنازل الملك عن العرش التى أثارت كثيراً من المشاعر ، وقد أحاط بها يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة قلق متلهف وتوتر لا يحتمل ، حتى إنها لن تفارق ذاكرة الذين عاشوا خلالها .. ثم حدثت بعد ذلك أزمة ميونخ ، ثم الحرب الشاملة التى دامت ثمانية وستين شهراً ، ثم حكومات العمال برئاسة مستر اتلى الذى أصبح أحد شيوخ الساسة المصقولين المحنكين ، ثم بزوغ نجم ونستون تشرشل وارتقاؤه سلم المجد .

وفى سنة ١٩٣٦ كانت هناك ثلاثة موضوعات تشغل المرتبة الأولى من الأهمية ، وهى : هتلر والبطالة والهند . . وقد أصبح هتلر الآن حفنة من الرماد ، كما ذابت مشكلة البطالة فى خضم التوسع الصناعى المعاصر ، وأصبحت الهند دولة حرة مستقلة .

من الذى يطرأ على ذهنه عرضا الآن أن مستر تشرشل قد أمضى جزءاً كبيراً من العشر سنوات التى قضاها بعيداً عن منصب الحكم (منذ ٩٢٩ حتى ١٩٣٩) ظل خلالها فى البرارى يحارب فى ثبات وإصرار ضد استقلال الهند ؟ وكانت فكرته هذه هى أحد أوهامه الغريبة الشاذة . . بيد أنه أمضى نفس هذه الفترة من الزمن محاولا بفصاحته القوية القاسية أن يبصر مواطنيه بالتهديد النازى المدمر ، كما كرس نفسه كذلك لتأليف الكتب القيمة ، وهى أكبر الأعمال لذة .

كيف تغيرت انجلترا

وهناك على مستوى أقل ، وقد لا يكون أقل بكثير مما سبق جميع أوجه الاختلاف بين بريطانيا العظمى فى سنة ١٩٣٦ وبين بريطانيا العظمى الآن (التى يبلغ عدد سكانها ٥١٫٦٨٠٫٠٠٠) . . فالساسة الآن يشيرون إلى زملائهم فى التليفزيون بأسمائهم الأولى . كما أصبحت الشوارع خالية من الساقطات . وكذلك ألغت جامعة كمبردج اللغة اللاتينية كشرط من شروط الالتحاق بها (وهكذا فعلت اكسفورد مع طلاب القسم العلمى) . . كما تدهورت فى رأيى – على الأقل – مستويات الصحافة الشعبية إلى حد كبير .

وقد أصبح فى مجلس اللوردات أعضاء مدى الحياة تم اختيارهم على أساس بعيد عن الحزبية ، ولم يوضع هذا الإصلاح موضع التنفيذ لتذليل مهمة رفع الناس إلى أعلى الدرج ولتغطية موقف الفاشلين فى مجلس العموم فحسب ، لبعث المزيد من الحيوية والنشاط فى اللوردات والعمل على جعلهم أكثر اتصالا بحياة الأمة .. وكذلك إذا كان علينا أن نصدق الصحف ، فإن طالبات جامعة أكسفورد قد يتقدمن بطلب بوالص تأمين ضد الحمل ، كما تناقصت نقط الخلاف بين الحزبين "السياسيين الكبيرين عما كانت عليه قبل ذلك . .

وهناك تقدم آخر مهم ، فقد رفعت سن الانتهاء من التعليم الالزامى من الرابعة عشرة إلى الخامسة عشرة . وكذلك فإن الاستعراضات

العارية التى تقوم فى جميع أنحاء وست اند فى لندن لشهود من أعضاء التوادى تحقق أرباحا تبلغ خمسة ملايين من الجنيهات فى السنة أو أكثر وكما أصبح حديث الشباب فى هذا البلد يكشف عن نغمة واضحة من الاستهتار نحو ذلك الكيان الغامض المعروف باسم كنيسة انجلترا .. أما غضب الشباب الساخط فمرجعه قلة دواعى الغضب .

كما سمح للسائحين بالاعتداء على الحدود المقدسة لأى بيت ريفى تقريباً فى انجلترا بعد دفع رسوم صغيرة ، وقد أمكن تنفيذ ذلك بواسطة « المؤسسة القومية » كما يحصل أصحاب البيوتات الارستقراطية القديمة على مساعدات مالية من الدولة فى مقابل السماح للسائحين بمشاهدتها ، وهذا بالإضافة إلى رسم الدخول الذى يجمعونه منهم ، مما يمكن أن يدر عليهم ربحا وفيراً وتنتقل ملكية هذه البيوت إلى الدولة بعد وفاة أصحابها وهناك مئات الألوف من السائحين الذين يدفعون رسماً على كل طرقة باب لكل فرد ليختلسوا نظرة إلى نول وهاتفلد وكليفندن أو أى تراث قديم فاخر .

وثمة شىء آخر مهم وهو التوتر العنصرى الذى لم يكن معروفا على حقيقته قبل الحرب .. لا لشىء إلا لقلة وجود طوائف الزنوج . . أما الآن فقد استقرت فى انجلترا أخيراً أعداد ضخمة من أهالى جزيرة جاميكا وجزر الهند الغربية الأخرى يبلغ مجموعهم مائة ألف تقريباً كما يوجد كذلك خمسةوخمسون ألفاً من الباكستانيين والهنودوالأفريقيين وقد وقعت اضطرابات عنصرية مؤسفة ، كان أعنفها ما حدث سنة ١٩٥٨ فى نوتنجهل حيث هو أحد أحياء لندن (كذلك فى فرنسا

فان الاضطهاد العنصرى الذى لم يكن معروفاً هناك إلى عهد قريب قد بدأ يثبت وجوده أخيراً . ولكن الزنوج هناك ليسوا هدفا لهذا الاضطهاد . بل الهدف يتمثل فى الجزائريين والعرب والأجناس الملونة الأخرى .

وثمة شىء آخر فى انجلترا ألا وهو الهجرة خارج البلاد . . فى سنة ١٩٥٧ ؛ هاجر حوالى مائتان وثلاثون ألفاً من البريطانيين إلى الخارج ، وقد تناقص هذا العدد الآن إلى حوالى مائة وأربعين ألفاً سنوياً فى المتوسط .. ويذهب معظم المهاجرين إلى كندا أو إلى أى مكان آخر فى الكومنولث .. وكذلك فهناك فى انجلترا ذلك النقاش الحاد المدوى الذى يطرق آذان الجميع حول موضوع كان الحديث فيه همساً بحكم التقاليد . ألا وهو الشذوذ الجنسى ، ذلك المرض الذى اتسع انتشاره فى انجلترا .

وقد وصل أخيرا إلى مجلة نيوستيتسمان خطاب ممهور بأسماء ثلاثة أشخاص بدوا كما يلى :— « نحن ثلاثة من المصابين بالشذوذ الجنسى نكتب هذه الرسالة مدفوعين بشعورنا القوى بأن ماتم عمله حتى الآن لا يكفى لتبصير الرأى العام بموضوع هام طال السكوت عليه » .

وقد أوصى فى تقرير ولفندن سنة ١٩٥٧ بأن (السلوك الجنسى الشاذ الذى يحدث بين البالغين برضاهم ، وبعيداً عن الأنظار ، لا يجب أن يعتبر بعد ذلك مخالفة جنائية) .. وقد بذلت محاولات لوضع هذا

الاقتراح ضمن القوانين واللوائح فى مجلس العموم فى يونيه سنة ١٩٦٠ ولكنها دحضت تماماً .

وهناك مظاهر أخرى واضحة لهذا التغيير ، تتطلب المزيد من التفصيل .

فلدينا أولا السيولة الاجتماعية . . فالقول بأن الفروق الطبقية لم يعد لها وجود فى انجلترا مبالغة جسيمة . فالواقع أنها لا تزال قائمة على صورة أشد وضوحا وأكثر عمقاً فى نواح معينة ، منها فى أى بلد آخر فى العالم ، ولكننا إذا تكلمنا بصفة عامة فان الفروق الطبقية فى أى مكان فى العالم تقريباً ليست بالأهمية التى كانت عليها قبل الحرب ، فقد أصبح البنيان الاجتماعى أقل صلابة بكثير مما كان عليه قبل ذلك . . كما ازدادت مرونته وقل التعسف فى ثبات نظامه إلى حد كبير .

وقد ذهب إلى غير عودة ذلك الزمن الذى كان من الممكن أن تستغل فيه الوظائف السياسية فى داخل انجلترا وفى مستعمراتها دون الاشارة إلى الخبرة السابقة أو الجدارة تماماً .. كما مضى فى أمريكا الى غير عودة أيضاً ذلك الوقت الذى قال فيه كومودور فاندربلت كلمته المشهورة : فليذهب الشعب إلى الجحيم .

ولأضرب مثلا واحداً لذلك التفسير الطبقى الذى طرأ على المجتمع ففى الثلاثينيات كان حوالى ٦٥٪ من مجموع طلبة أكسفورد وكمبردج قد سبقتهم فى الدراسة فى هاتين الجامعتين آباؤهم واخوانهم الكبار وأقرباؤهم الآخرون .. أما اليوم فقد انعكست هذه النسبة .

وثمة تغير آخر حدث فى انجلترا ، ففى الماضى كانت الفرصة ضعيفة أمام الشباب فى الالتحاق بوظيفة فى وزارة الخارجية . ما لم يكن ديه دخل خاص

أما اليوم فقــــد يكون ذلك من العوامل المساعدة للمتقدمين لهذه الوظائف ولـكننى واثق من أنه بالطبع ليس شرطاً ضرورياً .

وكذلك فإن الأوضاع الاجتماعية قد تغيرت إلى حد كبير فى المناطق الصناعية والريفية . فلو كان الابن قبل الحرب لأب من عمال مناجم الفحم ، أو عمال النسيج فليس أمامه من فرص الحياة إلا ترسم خطى أبيه فى عمله .

ولم يكن يظهر من بيئتهم غير الموهوبين على صورة فذة . والمطبوعين على العدوان وسعداء الحظ .

أما اليوم فإن عدداً لا يحصى من الشبان والفتيات يخرجون من بيئاتهم إلى العالم الخارجى فى سهولة ويسر

وكذلك فى العصر الفيكتورى كان القروى الذى لا يجذب قبعته فى حركة آلية تحية لصاحب الأرض بطريقة لا تنطوى على الاحترام فحسب ، بل على الذلة والخنوع يطرد من قريته .

أما اليوم فقد يحـــترم أهل الريف حكامهم ، بل ويحبونهم . لـكن لا يشعر إلا الأقل منهم بذلك الشعور الطبقى على صورة ملحوظة ، كما أنهم لا يخضعون لهم فى ذلة وانـكسار .

ويبدو أن هناك ثلاثة عوامل ساعدت على هذه المرونة فى المجتمع الانجليزى المعاصر .

وأحد هذه العوامل بلاشك هو التعليم ، فقد ساد الجامعات الكبرى الطابع الديمقراطى ، وأصبحت المدارس العامة (مثل أتسون ونشستر وهارو وغيرها) تقدم المنح الدراسية لأبناء الطبقة العاملة رغم أنها ما زالت تكتظ بأبناء الطبقة الارستقراطية ، ولها تأثير كبير فى الأوساط الهامة .

والعامل الثانى هو التليفزيون ، ولما كانت محطات التلفزيون قليلة واختيار البرامج محدود ، فإن هذا العامل يمكن أن يجعل من مجتمعنا مجتمعاً متجانساً .

والعامل الثالث وهو أكثرها أهمية فهو المال . . فقد غيرت البطالة انجلترا تغييراً ملحوظاً . فقد أصبح الفقراء أكثر ثراء مما كانوا ولا شك فى أن الأغنياء أصبحوا أقل ثراء وقد ارتفعت ضريبة التركات (التى فرضتها حكومة المحافظين لأول مرة منذ عدة سنوات مضت) حيث ارتفعت إلى ٨٠ ٪ بالنسبة للتركات التى تصل قيمتها إلى مليون جنيه .

ولا شك فى أن أية ضريبة — حتى ضريبة الدخل نفسها التى يبلغ حدها الأقصى ١٧ شلناً و٩ بنسات لا يمكن أن يكون لها نفس الأثر — ويبلغ عدد الذين يزيد دخلهم السنوى عن ٦٫٠٠٠ جنيه حوالى ٨٠٠ شخص فقط ، ولك الحرية فى أن تصدق أو لا تصدق أن ١٧٫٦٠٠

شخص فقط يحتفظون لديهم بأكثر من أربعة آلاف جنيه . ويعيش معظم الأغنياء على رأسمالهم .

وتعتمد هذه الطبقة ، بمرور الزمن . على عوامل الوراثة ، ولكن وراثة بلا مال تؤدى إلى (فى المدى الطويل) اختفاء هذه الطبقة .

وثانياً كان يبدو لى أثناء زيارتى لانجلترا فى عام ١٩٥٨ وللمرة الثانية فى عام ١٩٦٠ أن احترام الناس للعائلة المالكة قد قل بصفة عامة . ولا شك أن هـــذه المسألة حساسة إذ أننى أقصد بذلك أن الغالبية العظمى من الشعب أصبحوا لا يحبون المليكة ولا يبجلونها ، فهى محبوبة ومبجلة .

ولكننى أقصد القول بأن نظرة الناس إلى النظام الملكى تختلف كل الاختلاف عن نظرتهم فى السنوات الماضية .

وقد أبدى بعض الكتاب المحافظين والعمال على حد سواء مثل لورد ألترنشام ومالكولم مجيردج تعليقات قوية عارضوا فيها الامتيازات الملكية . .

وقد أثار زواج الأميرة مارجريت لغطاً شديداً ولاسيما على موائد الطعام فى بيوت الصفوة وبأسلوب ما كان ليفكر فيه أحد منذ جيل مضى .

ونشرت صحيفة « نيوستيتسمان » مقالا عن العروس . ولم يكن هذا المقال ينم عن العداء ، ولكنه كان لا ينطوى على الاحترام ، وكان يتعرض لها المقال لا باعتبارها فرداً من أفراد الأسرة المالكة

ولكن باعتبارها شخصاً عادياً له هفواته ونقاط ضعفه .

وجاء فى المقال مثلا : « أنها لا تملك . . . إلا القليل من موارد الثروة الحقيقية التى تواجه بها الحياة .

وقد تساءل بعض أعضاء حزب العمال عن المبالغ التى خصصت لتزيين شوارع لندن احتفالا بهذا العرس) البالغ قدرها ٢٥٫٠٠٠ جنيه) ونفقات شهر العسل على ظهر اليخت الملكى « بريتانيا » (البالغ قدرها ٤٠٫٠٠٠ جنيه) وعلى أية حال لايفكر غير القليل من المواطنين البريطانيين فى النفقات التى تكبدها لهم الأسرة المالكة .

والواقع أن الجميع — تقريباً — يفرحون كثيراً للاحتفالات العامة التى تقام فى بعض المناسبات مثل زواج أحد أفراد الأسرة المالكة . وقد صرح أحد رجال الأعمال يوما بقوله : « إننا ندفع لهؤلاء الناس (الأسرة المالكة) ٦٠٠٫٠٠٠ جنيه سنوياً وأقل ما نتوقعه منهم هو استعراض حسن مقابل هذا المبلغ » .

وقد وضع الكاتب المسرحى اللامع جون أزبورن قصيدة عنوانها : « رسالة إلى الذين يعوقون التقدم » ونشرت هذه القصيدة فى مجلة « تريبيون » الأسبوعية اليسارية فى عددها الصادر فى ١٢ من مايو عام ١٩٦٠ وهو يتهكم فيها على الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة الزواج الملكى بحيث أننى لا أعتقد انه كان من الممكن أن تنشر هذه القصيدة فى انجلترا منذ أعوام قليلة .

ويبدو أن قصر بكنجهام أصبح يدرك بوضوح التغيرات الهائلة

التى طرأت على الرأى العام بالنسبة للقصر الملكى .

وفى صيف عام ١٩٦٠ وقع حادث فريد فقد حضرت الملكة ودون ادنبره حفل استقبال أقامه لورد أستور فى هيفر وكان يتعمد اجتماعهما ببعض الصحفيين .

ثالثاً : الرخاء . . فقد فاز هارولد ماكميلان فى الانتخابات الماضية بسبب شعاره : « انكم لم تمروا بمثل هذا الرخاء من قبل » .

وقد كان عام ١٩٦٠ أفضل من عام ١٩٥٩ : بل ربما كان يمثل أفضل فترة مر بها تاريخ بريطانيا الحديث .

فقد اندفعت بريطانيا — كما فعلت فرنسا وألمانيا من قبل — نحو عهد الاقتصاد الاستهلاكى ، إذ يبدو أن كل شخص يمتلك مالا وهو لا يحتفظ بهذا المال بل ينفقه .

ولذلك ارتفعت الأجور ولم تصل قدرة الطبقة العاملة على الانفاق إلى المستوى الذى بلغته ، هذا فضلا عن التحكم فى التضخم .

وثمة نقطة هامة أخرى وهى الدخل الكبير نسبياً الذى يمكن أن يحصل عليه الشباب ، فالصبى الذى لايزال يذهب إلى المدرسة يستطيع أن يكسب حوالى ثمانية جنيهات أو أكثر فى الأسبوع من أول عمل يقوم به دون أن تكون له أية خبرة .

ويتعرض الشاب الذى هو فى أواخر فترة المراهقة لاحتقار زملائه إذا لم يكن حسن الهندام .

ولعلنا لا ننسى أن هؤلاء الصغار قد عاشوا حياتهم فى فترة كانت توزع فيها المواد الغذائية بالبطاقات .. أى أنهم قاسوا من شظف العيش وذاقوا الحرمان وقضوا جزءاً كبيراً من حياتهم وهم لا ينعمون إلا بالحد الأدنى من الأحذية واللحوم والدراجات وأجهزة الارسال وأصبحوا اليوم ينعمون بالرخاء .

ويؤدى الثراء عادة إلى الرخاء ، ولذلك فإن بريطانيا أصبحت دولة متراخية اليوم ، غير أن الثراء يدفع أيضاً إلى الانتقال . . وثمة ظاهرة هامة أخرى وهى ارتفاع نسبة الشراء بالتقسيط والشراء عن طريق دفع الإيجار كقسط من ثمن البيع . ويؤدى هذا التطور إلى وصول السلع المختلفة إلى يد كل إنسان تقريباً . وهذا سبب آخر من الأسباب التى أدت إلى تساوى الطبقات . وقد قال لى أحد الأصدقاء : إن الشخص الواحد لا يستطيع أن يقود سوى سيارة واحدة فى وقت واحد (بغض النظر عما يملكه من السيارات) ويستطيع العامل فى أى جراج أن يذرع الطريق بسيارته الفورد المستعملة جنباً إلى جنب مع أى دوق يجلس فى سيارته « الجاجوار » وتستطيع أية عائلة تسكن فى حى هوايت شابل أن تشترى بالتقسيط جهازاً للتدفئة وربما كان تنعمها بقدر من الراحة الجسمانية أكبر مما ينعم به الدوق لأن الدوق نفسه لا يستطيع أن يحصل على عدد من أجهزة التدفئة كاف لتدفئة قصر يضم ١٥٠ حجرة .

وثمة نقطة تنطوى على مغزى هام ، رغم أنها ليست عظيمة الأهمية وهى تتصل بموضوع السيارات ، فعندما صممت برامج الإسكان وتم بناء

المنازل (وقد شملت هذه البرامج كل مدينة وقرية فى انجلترا) لم يكن يتصور أحـــد العصر الجديد الذى انبلج فجره ، ولذلك لم تكن التصميمات تضمن إقامة جاراجات للسيارات . . ولم يكن يحلم أحد بأن يتمكن العامل العادى من شراء سيارة ، ومن ثم فإنه لن يحتاج إلى جراج ولذلك فإن أحدث الأحياء السكنية فى انجلترا تزدحم بالسيارات التى تسد الشوارع والطرقات المحلية والريفية . . وتمثل الطرق مشكلة كبيرة فى انجلترا وتعانى البلاد أيضاً من مشكلة السيطرة على حركة المرور (وكان يجب أن تثير الطرق مشكلة فى فرنسا ولكن هذا لم يحدث إذ أن فرنسا بها كثير من الطرق الفرعية ، غير أن هذه الظاهرة غير متوفرة فى إيطاليا وألمانيا) .

ويطلق على مستر ماكيلان أسماء مختلفة فى الصحف .. وربما كانت هذه الظاهرة ترجع إلى شعبيته وتنتشر هذه الأسماء حتى بين الذين ينتقدونه بشدة . فقد أطلق عليه مثلا « ماك العجيب » و « ماك البارع » و «ماك السيد» و « ماك اللطيف » و « ماك الشهيد » و «ماك الخيالى» و« ماك الوطنى » (وأطلق عليه هذا الاسم أثناء أزمة قناة السويس) و « ماك ماهر » و « ماك السريع » و « ماك جيكل » و « سوبر ماك » و « ثارماك » (أى المهندس الكبير بعد نشوب أزمة غريبة حول طريق اسمه « ممر بريستون »). وأكرر قولى السابق بأن الطرق وأزمة المرور وركن العربات فى الشوارع من المشاكل الهامة فى انجلترا .

والرخاء البريطانى وهو رخاء حقيقى وكبير ، ولكن لا يعنى ذلك انعدام القلق فى المجال الاقتصادى . . فقد سبق أن قلت : إن البطالة قد

انخفضت إلى حد كبير ، ولكن لايزال يوجد بعض العاطلين العنيدين في المناطق الصناعية الشمالية وفي اسكتلنده ، وتبلغ نسبة العاطلين إلى مجموع أفراد القوة العاملة حوالى ١٫٥٪ غير أن الفرق بين عامى ١٩٦٠ و ١٩٢٠ واضح وبين مثل الفرق بين النهار والليل ، ففى ثلاثينيات هذا القرن بلغت البطالة أقصاها وكانت أشد المشاكل خطورة . بل لم يكن لها حل وكانت تهدد بخنق الاقتصاد بأكمله .

أما السبب الرئيسي الثانى للقلق فهو يتعلق بالواردات فبريطانيا دولة تجارية ، ولذلك فهى تعتمد إلى كبير على الاستيراد (فهى تستورد حوالى نصف كمية السلع الاستهلاكية التى تحتاج إليها) ولو لم تفعل ذلك لمات الناس جوعاً . ولكن لا بد من دفع قيمة الواردات . ورغم أن الصادرات لا تزال ثابتة فى مستواها فإن الواردات قد ارتفعت إلى للضعف سريعاً وازداد العجز فى الميزان التجارى كثيراً عن مستواه فى أية فترة منذ عام ١٩٥٧ وبلغ أخيراً مئات الملايين من الدولارات .. وربما كان السبب فى ذلك هو الرخاء أى زيادة طلب البريطانيين على السلع الاستهلاكية البريطانية ومعنى ذلك أن المنتجات التى كانت تصدر إلى الخارج فى الأوقات العادية أصبحت تستهلك محليا ، ولكى تمنع الحكومة هذه الظاهرة فإنها اتخذت خطوات عديدة مثل رفع معدل الفائدة فى البنوك وضغط الائتمان ومحاولة تقييد عمليات البيع بالتقسيط بقيود مباشرة .

رابعاً: التأميم ودولة الخدمات .. إن حوالى ١/٥ الصناعة البريطانية الآن يتبع القطاع العام . . ولم يتم تأميم معظم الصناعات الانتاجية التى تعتمد عليها التجارة فى بريطانيا إلى حد كبير، ويحتمل ألا تؤمم هذه الصناعات أبدا . . وقد أممت الوزارة العمالية صناعة الصلب ثم ألغى التأميم ثانية فى عهد وزارة المحافظين. ولا تزال الدولة تملك حوالى ١/٧ صناعة الصلب . . أما قائمة الصناعات والخدمات الأخرى التى لا تزال مؤممة وفى القطاع العام فهى طويلة ومنها محطة الاذاعة البريطانية التى أممت فى عام ١٩٢٧ والسكك الحديدية ومعظم شركات الطيران المدنى (وليس كلها) وبعض شركات النقل البرى (وليس كلها) وبنك انجلترا (عام ١٩٤٥) وصناعة الفحم العظيمة الأهمية (١٩٤٧) والغاز والكهرباء والمواصلات السلكية واللاسلكية وخدمات البريد والبرق.

ولا بد من أن نذكر فى هذا المجال أيضاً تمويل عمليات الإسكان ومشروع التأمين الوطنى الذى يتيح الضمان الاجتماعى على أساس متقدم وشامل، والخدمات الصحية التى تقدمها الدولة وقد اقترح هذا البرنامج الصحى المحافظون لا العمال وكانت حكومة أتلى الأولى هى التى وضعته فى حيز التنفيذ، أما اليوم فان الخدمات الصحية لا تقدم بشكل فعال فحسب . . بل إنها موضع تقدير المواطنين بجميع فئاتهم، وتدفع وزارة الخزانة حوالى ٦٥ ٪ من نفقاتها .

والواقع أن المواطن البريطانى فى الظروف العادية لا يدفع إلا مبلغاً أسميا للطبيب الباطنى أو لطبيب الأسنان أو للدواء مدى حياته كلها من المهد إلى اللحد . هذه الحقيقة قد لعبت دوراً مقنعا فى الانتعاش الحالى

وفى زيادة القوة الشرائية القومية . وذلك لسبب بديهى وهو أن الجزء الذى كان فيما سبق مخصصاً فى ميزانية كل أسرة للعناية الطبية يمكن أن ينفق الآن على حوائج أخرى إبتداء من لحم الخنزير فى طعام الافطار إلى مسجل الصوت . فقد استبعد تماماً الآن باب من أبواب الانفاق الرهيبة التى يستنزفها المرض الطويل الممض وهو ليس أمراً محبباً فى حد ذاته فحسب ، بل إنه يطلق اليد للتصرف فى قدر كبير من المال فى وجوه أخرى نافعة ، تلك نقطة واضحة ولكنها لا تدرك دائماً . وثمة نقطة أخرى ترتبت على توفر الخدمات الصحية القومية ، وهى أن المواطنين لا يترددون فى زيارة الطبيب عند مبدأ ظهور أعراض المرض مما أدى إلى إنقاذ حياة الكثيرين .

إن حكومة ماكميلان حكومة محافظة بلاشك ، ولكنها فى نظر الأمريكيين تنحرف قليلا نحو اليسار فى معظم الموضوعات . والواقع « الماكميليين » قد أطلق عليهم الأعضاء الثوريون اسم « المحافظين اليساريين » كما يطلقون عليهم أيضاً عبارة أخرى محببة وهى : المحافظون القرمزيون » والأصل فى سياسة ماكميلان هو ممارستها كالشطرنج ، فهو يتمسك بمركز منيع فى الوسط مهما كان الثمن . ولكى يصل رئيس الوزراء إلى تحقيق هذا الهدف يتحتم عليه أن يحصل على قدر معين من مؤازرة اليسار ، وقد ظن بعض المراقبين بعد الانتصار الثالث الواضح الصريح لحزب المحافظين سنة ١٩٥٩ أن ماكميلان سوف ينتقل إلى صفوف اليمين حتى ولو كان ذلك لأنه أحد أعضاء حزب المحافظين ، وهو بالطبع

الطريق المأمون من الناحية السياسية ، ومع ذلك فهو لا يزال متمسكا بمركزه الذى يميل قليلا إلى اليسار .

وهذا هو ما يثير غضب حزب العمال ويجعل من الصعب على العماليين أن يقودوا حملة انتخابية ناجحة ،فقد أخمد الثوريون حماسهم.وبالإضافة إلى ذلك فقد انقسم حزب العمال على نفسه انقساما شديداً فى موضوعين هما : التوسع فى تأميم الصناعة ، والدفاع .

وقد اضطر مستر جيتسكل وهو من أكثر الأعضاء علما وذكاء ووطنية إلى استنفاد وقت أطول وحيوية أكثر فى محاربة جناح من أنصار حزبه عما يتطلبه من ذلك فى مواجهة ماكميلان وحكومته .

خامساً - وأخيراً - إن بريطانيا لم تعد دولة عظمى . فهى من غير شك فى قمة الصف الثانى من الدول ، ولكنها ليست فى مستوى الاتحاد السوفييتى أو الولايات المتحدة . . وربما كان هذا التغيير بالنسبة لكل ما ذكر فى هذا الفصل هو أكثرها عمقاً وأجدرها بالملاحظة حيث إن بريطانيا ظلت ما يقرب من مائة عام الدولة العظمى فى العالم بلا منازع وليس من الهين مطلقاً على دولة عظمى أن تتنازل عن مكانتها . وفوق ذلك فإن الإمبراطورية البريطانية ككتلة منفصلة عن الكومنولث قد اختفت من الوجود وهو تطور من الأهمية ، بحيث يتحتم علينا أن نبحثه بمزيد من التفصيل .

أفول نجم الإمبراطورية

لقد ألقى مستر ونستون تشرشل — كما كان يلقب وقتذاك — فى ١٠ من نوفمبر سنة ١٩٤٢ خطبة مشهورة فى مانشن هاوس قال فيها متحديا بطريقته القوية الغلابة : انه لم يصبح رئيساً للوزراء ليشرف على تصفية الإمبراطورية البريطانية ، ولكن اليوم وبعد مرور فترة من الزمن لا تتجاوز العشرين عاما على هذا التاريخ قد تحققت بالضبط هذه الظاهرة نتيجة لتطور من أغرب تطورات التاريخ — كما سبق أن ذكرت فى مكان آخر من هذا الكتاب — إذ أن تصفية الإمبراطورية ذلك الاحتمال الذى رثى له تشرشل فى مرارة وألم ، والذى لم يتصور إمكان حدوثه فى لحظة من اللحظات قد أوشك أن يكون حقيقة واقعة.

فمنذ الحرب ، تحررت ، المحميات البريطانية التالية التى كان يشار إليها فى فخر وكبرياء باللون الأحمر فى خريطة كل طالب .

آسيا	عدد السكان	المساحة بالأميال المربعة
الهند	٤٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠	١ر٢٩٦ر٦٤٠
باكستان	٨٦ر١٧٦ر٠٠٠	٣٦٤ر٧٣٧
بورما	٢٠ر٨٥٦ر٠٠٠	٢٦١ر٧٨٩
سيلان	٩ر٣٦١ر٠٠٠	٢٥ر٣٣٢
إسرائيل	٢ر٠٦٢ر٩٠٠	٨ر٠٤٨
الأردن	١ر٦٠٠ر٠٠٠	٣٧ر٠٠٠
جنوب شرقى آسيا		
الملايو	٦ر٦٩٨ر٠٠٠	٥٠ر٦٨٠
حوض البحر الأبيض		
قبرص	٥٤٩ر٠٠٠	٣ر٥٧٢
أوروبا		
ايرلندا	٢ر٨٠٠ر٠٠٠	٢٦ر٦٠٠
أفريقيا		
مصر	٢٥ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٨٦ر١١٠
السودان المصرى الانجليزى	١٠ر٢٢٥ر٩١٢	٩٦٧ر٥٠٠
غانا (ساحل الذهب سابقا)	٤ر٩٠٠ر٠٠٠	٩٢ر٠٠٠
نيجيريا	٣٤ر٦٠٠ر٠٠٠	٣٧٧٣ر٢٥٠
الصومال البريطانى	٦٠٠ر٠٠٠	٦٨ر٠٠٠
المجموع	٦٢٥ر٤١٩ر٨١٢	٤ر١٠٢ر٣٧٦

ويجدر بنا أن نتحدث الآن فى إيجاز عما حدث . . فمصر قد أصبحت من الناحية القانونية دولة ذات سيادة منذ عام ١٩٣٦ . ولكن بريطانيا ضيقت الخناق عليها ، وقد استعادت بريطانيا سلطانها هناك أثناء الحرب بشروط غامضة مبهمة . . ثم أعيدت السويس إلى الحكم المصرى سنة ١٩٥٠ . . وكذلك السودان المصرى الانجليزى فإنه لم يكن فى يوم من الأيام من الناحية الرسمية جزءاً من الامبراطورية البريطانية . . ولكنه كان من جميع النواحى الأخرى مقاطعة بريطانية (بل مقاطعة نموذجية أيضاً) إلى أن تم التوقيع على الاتفاقية السودانية بين بريطانيا ومصر فى ١٢ من فبراير سنة ١٩٥٣ .

وثمة نقطة أخرى ذات وزن خاص : هى أن معظم الدول التى تحررت أخيرا ما زالت تحتفظ بروابط وثيقة ببريطانيا من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، كما أنها من الأعضاء المخلصين فى الكومنولث الذى تمخضت عنه الامبراطورية البريطانية هذا على الرغم من أن تلك الدول قد أصبحت بلا منازع دولا ذات سيادة ، وقد جاء ذلك كله نتيجة للتطور الدستورى الذى لا عنف فيه ولا شدة ، كما جاء نتيجة لبعد النظر الذى طبع عليه الحكم البريطانى . فلم يعد علم الاتحاد يرفرف فوق هذه الدول ، ولم يعد لها حكام بريطانيون ولكنها مازالت تربطها بلندن ومعظم الدول الأخرى الأعضاء فى الكومنولث وشائج ودية وثيقة . يستثنى من ذلك بورما التى انسحبت فى صراحة ووضوح من الكومنولث وكذلك فعلت ايرلندا . . وأكرر فأقول إن كم هذا أعنى إطلاق الحرية لأكثر من ٦٠٠ مليون من البشر — كان مثارا للدهشة ، لا لشىء

إلا لأنه قد حدث بسرعة مذهلة . وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الحركة لم تنته بعد بأى حال من الأحوال، فلاشك أن تحلل الامبراطورية يأخذ مجراه بسرعة متزايدة . فهناك سيراليون على الساحل الغربى من أفريقيا ، توشك هى الأخرى أن تتحرر ، وتنجانيقا على الساحل الشرقى والتى يحتمل أن تستكمل حكمها الذاتى الكامل فى خلال سنتين ويكاد يكون من المؤكد أن تتبعها كينيا وأوغندا .. أما الاتحاد الأفريقى الأوسط (الذى يتألف من جنوب روديسيا وشمال روديسيا ونياسالاند) فقد مزقته الأزمة المستمرة . فالحكام البيض (الذين يعتبرون قوميين تماما كالسود) يريدون وضعا استقلاليا كاملا داخل الكومنولث ، والأفريقيون فى نياسالاند لم يعد من الممكن التحكم فيهم داخل الإطار الهش المشلول لهذا الاتحاد . . وفى الجانب الآخر من العالم يتقدم اتحاد جزر الهند الغربية فى خطى متعثرة بعض الشىء نحو حكم ذاتى كامل ولنلق نظرة على بعض القواعد مثل سنغافورة التى اختلق بها البريطانيون الدهاة وضعا جديدا لا مثيل له ، ومالطة فى حوض البحر الأبيض حيث يزداد الشعور القومى فى عنف وشدة .

وأخيرا زنزيبار فى المحيط الهندى حيث أخذت القومية فى التعبير عن نفسها فى إصرار وإلحاح ، وقد تفاقم الموقف بواسطة الدعاية والتسلل السياسى من الصينيين والشيوعيين . وخلاصة قصة الاستعمار من مزارع الملايو إلى صحارى نيجيريا الشمالية — تلك الأبعاد التى لا مثيل لها والتى تقارب بعد القمر عن الأرض — ومن جزر البحر الكاريبى الغنية والتى تقع على مقربة من الولايات المتحدة إلى مرتفعات تنجانيقا الجافة

الوعرة — خلاصة هذه القصة هى : « إلى الزوال . . ! إلى الزوال . . ! ثم إلى الزوال التام » .

ما الذى أدى إلى هـــذا التطور ؟ . إلى هذا التخلى عما يوشك أن يكون ربع العالم ؟ هناك أسباب واضحة كما سبق أن قلت فى كتابى « داخل أفريقيا » — تبدأ من دورو ويلسون الذى أعلن فى باريس سنة ١٩١٩ مبدأ حق الأمم الصغيرة فى تقرير مصيرها إلى الاعتبارات المعنوية فى عالم الأخلاق ، بأن الاستعمار خطأ من الناحية الاخلاقية ولا يمكن العمل به ، وقديم قدم النخاسة .. وكذلك أجبر البريطانيون على الجلاء فى كثير من المناطق . فقد تخلوا عن معظم أراضيهم الشاسعة بسبب بسيط بدائى هو أن المجتمع المتخلف حالما يبصر بالحضارة الحديثة يصبح من المستحيل كبت الشعور القومى فيه إلا بنفقات مالية باهظة وجنود وأسلحة ودماء . ولكن هناك عوامل أخرى أيضاً . فهل بريطانيا — وحدها بين الدول المستعمرة — لديها هدف واضح ، وهو التدريب المنتظم التدريجى لمستعمراتها حتى تحكم نفسها فى النهاية . . ولا أقصد من ذلك أن أسرف فى ابراز العوامل المثالية .

إن لفظ « فى النهاية » هو كلمة السر ، فلم يتوقع أحد أن يأتى فيضان الحكم الذاتى بهذا الاندفاع ، وثمة عامل آخر وهو ذلك المبدأ البريطانى القديم المحبب والذى عبر عنه مرة ارنست بيفن وزير الخارجية الراحل بقوله « اعط . . . . وابق » وهذا معناه أن البريطانيين كانوا يأملون بخروجهم فى الوقت المناسب وبتحقيق الآمال القومية للشعوب المستعمرة

عاجلا لا آجلا أن يبقوا فى ذكاء وكياسة على سيطرتهم السياسية ومصلحتهم الاقتصادية .. ومع ذلك فان هذا المبدأ لم تثبت صحته فى كل الحالات . . فلا شك مثلا أن بريطانيا لا تسيطر على الهند التى يتزعمها نهرو، بيد أن العلاقات البريطانية مع الهند قد تحسنت كثيراً وأصبحت أقل عنفاً وأجدى بكثير مما كانت عليه قبل الحرب كما انتعشت فعلا التجارة البريطانية مع الهند انتعاشاً كبيراً .

ولكن فلنسأل هذا السؤال الذى يتردد فى الأذهان ألا وهو « هل الشعوب المتخلفة مستعدة حقيقة للحكم الذاتى ؟ . . ألا يجب أن تظل الوصاية عليها أكثر من ذلك »؟ . . ان الكثير منها بالطبع ليس على استعداد لذلك (ولننظر إلى الكونغو مثلا) كما أن معظمها لا يزال فى حاجة إلى التوجه السياسى وإلى المعونة الاقتصادية ، ومع ذلك فان موضوع الجدارة لا يمت إلى ما نحن فيه بصلة ما . فقد فات أوانه . ولم تعد له علاقة بالموقف الحاضر . فسواء أكانت الشعوب المستعمرة مستعدة للاستقلال أم لا من وجهة النظر المثالية فنيتها الحصون عليه، ولن تستطيع قوة أن توقفها عن تحقيقه. والمشكلة الحقيقية هى كيف تستمر الوصاية عليها بعد الاستقلال انها بايجاز تنحصر فى كيفية منح الدول الحديثة الاستقلال والتى قد تحمل لمستعمريها القدامى قدرا كبيرا من الحقد الثقة فى حسن نية العالم الغربى الديمقراطى ومقدرته وسعة أفقه . وإذا لم يتم ذلك فان البديل الوحيد له هو الفوضى والانهيار أو الشيوعية أو ربما الثلاثة معاً .

والرجل المسئول مسئولية ايجابية عن تلك العملية الضخمة وهى عملية تصفية بقايا الامبراطورية البريطانية واذا بتها هوايان نورمان ماكلويد ذلك الشاب الاسكتلندى الشهير الذى تولى وزارة المستعمرات منذ عام ١٩٥٩ . . ومستر ماكلويد مواطن قدير مرح ذو عقل راجح لامع كالعملة الفضية الجديدة واثق من نفسه صعب المراس بأحسن ما فى هذه الكلمة من معنى . وقد تقدم الصفوف لأول مرة عندما هاجم أنورين بيفان تلك الشخصية العظيمة فى نقاش حول الشئون الصحية ، ورغم أن بيفان الذى يعتبر أقوى مناظر فى المجلس بعد تشرشل كان يصدر عن حجج متفق عليها إلا أن ماكلويد الشاب قد هزمه هزيمة منكرة .

وهو من سلالة اسكتلندية كما أنه ينحدر من آل ماكلويد الذين عاشوا فى جزيرة لويس، كان والده طبيباً وهو ينتمى إلى الطبقة الوسطى. وقد تلقى تعليمه فى مدرسة فيتس وهى مدرسة خاصة ذائعة الصيت فى أدنبرة (رغم أنه ولد فى انجلترا) ثم أتم دراسته فى جامعة كمبردج . وقد روى لى أن البريدج والمسرح كانت هى هواياته الرئيسية فى جامعة كمبردج كما كان يحب التمثيل ، أما من الناحية السياسية فقد كان حسب قوله «قرمزيا إلى حد ما » فى شبابه ، أما أبوه فقد كان ينتمى إلى حزب الأحرار . ثم جاءت الحرب وأصيب ماكلويد فى فرنسا بجرح أليم فى ساقه .. وعين مدرساً فى إحدى الكليات وأصبح « ميجور» ثم نزل فى نورماندى بفرقته فى يوم « القيامة » وكان من الضباط المحاربين فى هذه المنطقة المجاورة للشاطىء وقد اشترك فى عمليات حربية كثيرة حتى انتهاء الحرب وبعد ذلك ظل يعمل فى الترويج .

وبعد انتهاء الحرب ظل ماكلويد يشغل وقته بلعب البريدج والشطرنج وقد كان من المهارة بحيث أصبح بطل انجلترا فى البريدج وظل يعمل مراسلا للبريدج لصحيفة « صنداى تايمز » وقد ألف كتابا بعنوان البريدج لعبة سهلة « ونشر الكتاب فى عام ١٩٥٢ ، وكان فى نفس الوقت مولعا بالسياسة، ولذلك فانه قرر أن يصبح من المحافظين.. وحصل على منصب هام فى هـــذا الحزب ، وعين رئيساً لقسم ابحاث الشئون الداخلية للحزب وانتخب ماكلويد عضوا فى مجلس العموم عام ١٩٥٠. وارتفع نجمه سريعاً ، وفى خلال عامين أصبح وزيراً للصحة ، ولاشك فى أن هذا سجل لم يوات أحداً من قبل ، وفى عام ١٩٥٥ عين وزيراً للعمل والخدمات الوطنية ، ثم وزيراً للمستعمرات فى ١٩٥٩ والواقع أنه لم يكن يلتفت كثيراً إلى شئون المستعمرات بل إنه لم يشترك فى أية مناقشة للسياسة الاستعمارية حتى ذلك الوقت الذى عينه فيه ماكميلان فى هذا المنصب .

ولا يختلف اثنان فى أن ماكلويد رجل ذو مستقبل باهر ، وكان يحتمل أن يتولى وزارة الخارجية فى التعديل الوزارى الذى حدث فى صيف عام ١٩٦٠ ، ولكن ربما شعر ماكميلان بأن نجمه يرتفع بسرعة مذهلة وأنه مازال أمامه الكثير من الواجبات التى يجب القيام بها فى شئون المستعمرات ، غير ان الامل كبير فى أن يتولى رئاسة الوزارة فى يوم من الأيام ، على الرغم من أن رئيس الوزارة الذى قد يحل محل ماكميلان بعد اعتزاله السياسة سيكون أكبر منه سنا مثل بتلر .. وجدير بالذكر

ان ماكلويد لايتعدى السابعة والاربعين، أى أنه ما زال يعد من الناحية العملية طفلا بين الساسة البريطانيين ، ولذلك يجب عليه أن ينتظر قليلا، وعندما أصبح وزيراً للصحة فى سن التاسعة والثلاثين ، أى أنه كان فى ذلك الوقت من أصغر الوزراء فى تاريخ انجلترا ، احتج البعض إلى تشرشل وقالوا له « ان ماكلويد صغير جداً على ذلك المنصب» غير أن رد تشرشل على هذا التعليق كان كما يلى «إنه كف.ء جداً بالنسبة لعمره».

كيف لم تتغير انجلترا

نستطيع أن نذكر فى هذا بعض الأمثلة البسيطة . فكما أن نظام البوابين سيظل قائما بالرغم من قيام أى تغيير فى فرنسا ، فإن فنادق لندن ومحلاتها ستظل تحتفظ إلى يوم القيامة أو ما بعدها بالوسطاء ذوى الشوارب المدببة اللامعة الذين يرتدون ملابسهم الأنيقة ويضعون الميداليات التى تثبت خدمتهم الطويلة ، بل إننا نعتقد اعتقادا راسخا أنه لن تعلق ذرة واحدة من التراب على جانبى عربات الرولزرويز . . وهناك عوامل أخرى ثابتة لا يمكن أن تتغير مثل أغصان اللبلاب التى تتدلى على جدران المنازل فى القرى ، وحرية الخطابة فى « هايدبارك » ، والرسائل التى يبعث بها القراء إلى صحيفة التايمز ، والتقاليد الشديدة المتبعة فى المحاكم ، وأشكال الكاتدرائيات والنساء الطويلات اللاتى يولعن بالصيد واطلاق النيران ، ولا شك فى أن البريطانيين لم يختلفوا أبدا فى أن السياسة هى العمل الأول فى البلاد ، وسيظلون دائما يحترمون الوظائف العامه وينتجون رجالا موهوبين يميلون إلى الشذوذ ، ومثاله

ذلك المارشال مونتجمرى الذى قال فى خلال زيارة لكثير من معاقل الشيوعية « إن المكان الوحيد الذى تسمع فيه أحاديث الحرب هو العالم الغربى » .

ولكن يجب أيضا أن نذكر شيئاً على جانب كبير من الأهمية ، وقد صرح لى أحد الشبان البريطانيين بأن انجلترا ما زالت دولة تحتفظ بضميرها بشرط عدم تدخل الضمير ، طالما كان يتمتع بقدر معقول من الرفاهية الاقتصادية ، وما من دولة فى العالم تفخر بحرياتها المدنية مثل بريطانيا ، ربما كانت هى الدولة الوحيدة التى تستطيع أن تدخل الحرب نيابة عن دولة أخرى فقد دخلت الحرب العالمية الأولى نيابة عن بلجيكا وفى الحرب العالمية الثانية نيابة عن بولندا على الرغم من قيام بواعث أخرى بدورها فى هذين الحادثين . وتعتبر بريطانيا دولة ثابتة فى افكارها وهى لا تزال تحترم انشقاق البعض عن الكنيسة التقليدية ، ولا تزال أيضا تحتفظ بقدرتها على الاحتجاج فى مجال السياسة ، ولا تزال تؤمن بالحق والصواب .

١٥ — الدفاع ونزع الأسلحة الذرية

هناك موضوعان هامان يشغلان انجلترا فى الوقت الحاضر وهما أولا الدفاع بما فى ذلك حلف شمال الأطلنطى ، ومشكلة نزع الأسلحة الذرية الغربية ..

وثانياً السوق المشتركة . . وكلاهما من المسائل العامة التى تشغل أوروبا كلها ، كما أنهما يدلان على الاختلافات الواضحة بين أوروبا فيما قبل الحرب الأخيرة وأوروبا اليوم . والواقع أن حلف شمال الأطلنطى والسوق المشتركة لا تقلان أهمية عن أية تغييرات أخرى حدثت فى هذه القارة فى الربع قرن الأخير .

إن الدفاع مشكلة عسيرة الحل فى انجلترا . ونبدأ حديثنا الآن بالمقدمة التالية وهى أنه ليس من الممكن الدفاع عن هذه الدولة فى عصر الصواريخ .. إذ كنا ننظر إلى الموضوع نظرة مجردة . وإذ أن بريطانيا هدف سهل كما أنه ليس هناك أية دولة هامة فى العالم أكثر تعرضاً للهجوم الذرى من بريطانيا ، إذ أنها صغيرة المساحة ومكتظة بالسكان (٧٠ ٪ من سكانها يعيشون فى ثلاث مناطق حضرية كبرى) كما أنها قريبة جدا من قواعد الصواريخ السوفيتية فى ألمانيا الشرقية ، ويقدر البعض أن تحطيم بريطانيا كلية لن يتطلب إلا إلقاء عدد من القنابل قوتها ٦٠ مليون طن . ولا ريب فى أن كل هذه الحقائق قد كانت لها نتائجها وعواقبها على الوعى القومى. فقد يعيش السائح شهوراً فى إيطاليا

مثلا دون أن يسمع كلمة واحدة عن الحرب الذرية أو القنابل ، بل إن هذه الأشياء لا تخطر على بال أحد ، وعكس ذلك تماماً ما يحدث فى انجلترا ، فلا يخشى البريطانيون الاتحاد السوفيتى فحسب ، بل إنهم يخشون قوة أمريكا العسكرية ، والصين أيضاً . . فقد تناولت طعام الغذاء فى مجلس العموم مع أحد أصدقائى وبعد الانتهاء من تناول الطعام لوح لى صديق بيده مودعاً :

« آمل أن أراك ثانية فى القريب العاجل ، أى إذا لم يحصل الصينيون على القنابل ويلقونها علينا صباح غد » .

وعلى الرغم من انتشار الرعب من الدمار الناجم عن الحرب الذرية فى انجلترا فإن الحكومة ليست على استعداد لإنفاق الأموال اللازمة لتجنب هذه الحرب . وهى أيضاً غير قادرة على القيام بذلك . ويبلغ إجمالى ميزانية الدفاع فى بريطانيا حوالى ١٫٦٠٠ مليون جنيه أو بالأحرى ١٠ ٪ من ميزانية الدفاع الأمريكية . وتنفق الولايات المتحدة الآن على أبحاث الصواريخ وحدها أكثر مما تنفقه بريطانيا على جميع الأسلحة العسكرية البرية والبحرية والجوية . وبريطانيا مضطرة بالطبع إلى الانفاق على الأسلحة التقليدية والذرية أيضاً . . والحال كذلك أيضاً بالنسبة للولايات المتحدة . ولكن نظراً لموقع بريطانيا الجغرافى الخاص فإنها تعطى الأولوية للأسلحة التقليدية ، أى للدبابات والأسلحة التى يستخدمها المشاة فى الحروب المحدودة النطاق . . وينتهى التجنيد فى بريطانيا فى عام ٩٦ .

وفى ابريل عام ١٩٦٠ نشبت أزمة حول السلاح غير التقليدى الجديد وهو « الصاروخ المتوسط المدى » الذى يكفى مداه لضرب الأهداف الهامة فى الفلك السوفيتى . ولكن لم يكن من الممكن إطلاق هذا الصاروخ إلا من قاعدة ثابتة ، واتضح أن هذه الصواريخ ستصبح عديمة القيمة تماما بمجرد أن تبدأ فى العمل ، فمن المعتقد أن الصواريخ السوفيتية القصيرة المدى تستطيع تدمير قواعد الصواريخ الثابتة والصواريخ المتوسطة المدى نفسها قبل انطلاق هذه الصواريخ من الأرض . وثمة نقطة ضعف أخرى وهى أن هذه الصواريخ تستخدم الوقود السائل . . ولكن عقدت آمال كبيرة على هذا السلاح رغم أن نفقات الأعمال التمهيدية كانت تبلغ حوالى ٦٥ مليون جنيه ، وهذا مبلغ كبير بالنسبة لانجلترا .

وسوف تبلغ تكاليف استكمال المشروع مايتراوح بين ٥٠٠ مليون جنيه و ٦٠٠ مليون جنيه وقد ثارت ثائرة الناس بعد البيان الذى ألقاه هارولد والدواتكينسون وزير الدفاع فى مجلس العموم البريطانى والذى قال فيه إنه لا بد من صرف النظر عن المشروع . وقال جورج براون أخصائى حزب العمال فى شئون الدفاع إن هذا هو « أكبر انهيار وزارى فى العصر الحديث » وقيل إن هذا الموضوع كان عبارة عن « نهاية » لمحاولة بريطانيا اتخاذ سياسة رادعة مستقلة . ولكن حكومة ماكيلان تمكنت من تحمل هذه العاصفة الشديدة التى هددتها .

ولعل عبارة « سياسة رادعة مستقلة » هى مفتاح لكثير من المشاكل ، فهى تعنى باختصار ، القدرة على الانتقام بواسطة الأسلحة

الذرية — سواء أكان الحلفاء يؤيدون انجلترا أم لا ، ولم يكن صحيحاً طبعا القول بأن الصواريخ المتوسطة المدى كانت ستعتبر الرادع الوحيد الذى تمتلكه بريطانيا ، فهى دولة نامية إلى حد بعيد ، وهى تمتلك الكثير من المنشآت الذرية ، كما أنها تنتج القنابل الذرية والهيدروجينية . وأهم ما فى الموضوع هو إنقاذها . . وفى السلاح الجوى الملكى قوة صغيرة من قاذفات القنابل القصيرة المدى ، وهى توازن القيادة الجوية الاستراتيجية فى الولايات المتحدة التى تتألف من الطائرات طراز مقاتلات « ف » التى تحمل الأسلحة ذات الرؤوس الذرية وهذا فى الوقت الحاضر هو الرادع الذرى المستقل الوحيد الذى تمتلكه بريطانيا . ولا قيمة — طبعا — لهذه القوة بمقارنتها بقوة الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى ومعداتهما .

والواقع أن كلمة « رادع » مليئة بالأخطاء .. فهل تستطيع أية دولة أن تصبح من الدول الكبرى فى العصر الحديث ما لم تملك رادعا ذريا وفى نفس الوقت تكون مستقلة عن غيرها من الدول .

وتدور الآن فى بريطانيا مناقشة كبرى حول هذا الموضوع ، ويؤيد الحزب طبعا سياسة الردع، بينما توجد عناصر قوية فى حزب العمال تتركز فى نقابات العمال تعارض بشدة هذه السياسة ، وهى تدعو إلى نزع الأسلحة الذرية من جانب واحد . وهذا ما سنتعرض له الآن .

ويعتبر موضوع الرادع موضوعا شائكا فضلا عن الانقسام الخطير الذى يحدثه فى صفوف حزب العمال . وبعد أن ذهب مشروع

الصواريخ المتوسطة المدى أدراج الرياح وأصبحت المقاتلات طراز. غير ملائمة فما هو الرادع البريطانى إذن ؟ أو بعبارة أخرى (كما قال مستر واتكنسون) ما هى مساهمة بريطانيا المستقلة فى القوة الرادعة التى يمتلكها الغرب بصفة عامة ؟ ، وكيف يمكن الدفاع عن بريطانيا نفسها لو حدث أى انقسام فى التحالف الانجلو أمريكى أو لو افترضنا إخراج أية حكومة فى المستقبل لبريطانيا من حلف شمال الأطلنطى ؟

ويدل الموقف الحالى بوضوح على أن القوةالرادعة البريطانية لا بد من أن تقوم على أساس استمرار ارتباط بريطانيا الوثيق بالولايات المتحدة ، وهناك مشروع بشراء بريطانيا للصواريخ التى تنطلق من الجو إلى الأرض والمسماة « سكايبولت » ، والطائرات التى تستخدم هذا النوع من الصواريخ تستطيع أن تطلق الصاروخ وهى على بعد ١٠٠٠ ميل من الهدف ثم تعود ثانية إلى قاعدتها دون أن يصيبها أى ضرر ، غير أن هذا النوع من الصواريخ لا وجود له إلا على الورق فقط ، ولن يكون من المستطاع إنتاجه قبل عام ١٩٦٤ أو ما بعد ذلك ، وعلى أى حال من الأحوال فقد وضعت الخطط التفصيلية «لتكامل» مشروعات إنتاج هذه الصواريخ فى المستقبل فى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وقد تحمل النماذج المتطورة من مقاتلات «ف» هذا النوع من الصواريخ على الرغم من عدم اتفاق جميع الخبراء حول هذا الموضوع ، ثم إن بريطانيا قد تشرع فى إنتاج غواصات ذرية قادرة على حمل الصواريخ طراز « بولاريس » أو قد تستخدم هذا النوع من أنواع الصواريخ بطرق أخرى ، والوقود الصلب الذى تستخدمه الصواريخ المتوسطة

المدى، والذى توصلت إليه البحرية الأمريكية ، غير أن التكاليف التى يتطلبها تنفيذ البرنامج الكامل — لا لإنتاج صواريخ بولاريس — باهظة ، وقد لا يمكن تحملها .

فى ابريل من عام ١٩٦٠ خرج حوالى ٢٠٠٠٠ ألف مواطن بريطانى من قرية « أولدستون » وهى المنطقة التى تجرى فيها الأبحاث الذرية وساروا نحو لندن التى تبعد حوالى ٥٥ ميلا من هذه القرية . وكان هؤلاء المتظاهرون فرحين ومنظمين، وكانوا يحملون لافتات كتب عليها « أوقفوا صنع القنابل الذرية ، ولا أحد يمكنه أن يتجاهلنا الآن » ووصل المتظاهرون لندن يوم الاثنين التالى لعيد القيامة، وكانوا يؤلفون من بينهم طابوراً طوله أربعة أميال ونصف ميل . إذ ازداد عددهم كثيراً بانضمام كثير من المتحمسين فى الطريق وقاموا جميعاً بمظاهرة ضخمة فى ميدان الطرف الأغر، اشترك فيها عدد من المواطنين يتراوح بين ٧٥ ألف إلى ١٠٠ ألف شخص .

وكان زعيم المتظاهرين القس ل . جون كولنز وهو من كبار رجال « الكنيسة الإنجيلية » .

وكانت هذه المظاهرة الثالثة من بين المظاهرات التى تدعو إلى السلام ، والتى تحمل لا فتات تدعو إلى نزع الأسلحة الذرية من الجانب الواحد أما المظاهرة الأولى فإنها قوبلت على أنها لون من ألوان الفكاهة بينما كانت المظاهرة الثانية تجمع بين المثالية والشذوذ البريطانيين .

أما هذه المظاهرة الثالثة فكان لا بد من الاهتمام بها ، وذلك أولا

لأنها كانت منظمة ، ولأنها كانت تضم عدداً كبيراً من الناس ، وثانياً لأن المتظاهرين لم يكونوا يمثلون المثقفين من اليساريين أى العماليين المعارضين لجيتسكيل أو الشيوعيين أو المسالمين أو الموظفين بل اشترك فى المظاهرة عدد من العمال الفنيين المهمين وممثلى المهن المختلفة وبعض الشخصيات ذات النشاط الاكاديمى الهام ، وكان من بين المشتركين فى هذه المظاهرة بعض الشخصيات الهامة مثـــل برتراند راسل و ج . ب سريستلى والقائد سيرستيفن كينج هول والبروفيسور ا . ج . ب . تيلور .

وأصبحت حركة مؤيدى مظاهرات أولدرماستون التى أطلق عليها رسمياً حملة نزع السلاح الذرى » ــ أصبحت من أقوى الجماعات صاحبة النفوذ فى انجلترا .

وقد سمعت أنها كانت المناسبة الوحيدة فى انجلترا التى جمعت خمسين ألف متظاهر فى الشوارع فى يوم واحد . وقد تمخضت هذه الحركة عن أثر سياسى هام وهو أنهـا كادت تقضى على وحدة حزب العمال .

فقد ظل هيوجيتسكيل عاما بأكمله يقاتل هؤلاء الناس الذين يؤمنون بالسياسة المستقلة على الرغم من أنهم يضمون ما يزيد على ربع أو ربمـا ثلث مجموع أصوات العمال .

ويرجع سبب ذلك إلى أن عدداً من أعضاء البرلمان المبرزين

فى حزب العمال وزعماء نقابات العمال أمثال فرنك كسفرينز قد اتبعوا هذه السياسة .

وهكذا بدأت نقابات العمال تميل إلى سياسة كسفرينز وبلغ عددها جميعاً حوالى ٢٣ نقابة . وكانت تأمل أن تجعل من هذه السياسة مبدأ من مبادىء الحزب الرسمية .

ولكن كيف يمكن أن يؤيد هـــذه السياسة أى انجليزى مسئول أو وطنى ؟ وكيف يطالب بوقف إنتاج جميع أنواع الأسلحة الذرية فى بريطانيا بغض النظر عما يترتب على ذلك من النتائج ؟ .

وكيف يمكنهم أن يحرموا المملكة المتحدة من كل قدرتها على الدفاع عن نفسها إلا بالأسلحة التقليدية فى تلك الفترة التى يتأجج فيها العالم ؟ والافتراض الأساسى الذى يقيم عليه هؤلاء الأشخاص حجتهم هو أن انجلترا ستزداد قوة وأنها لن تضعف أبداً إذا توقفت عن إنتاج الأسلحة الذرية ودمرت جميع القنابل الذرية والهيدروجينية وانسحبت من حلف شمال الأطلنطى وأوقفت العمل فى القواعد الأمريكية .

ويدللون على أنه لو تزعمت بريطانيا حركة نزع الأسلحة الذرية ولم تحتفظ بأية أسلحة ذرية . وتخلصت من ارتباطها بحلف شمال الاطلنطى وكذلك الولايات المتحدة فلن يفكر الاتحاد السوفييتى فى مهاجمتها ، حيث لا يوجد أى سبب من أسباب النزاع بين هذين البلدين أى أن « أفضل سبيل إلى المحافظة على الأمن والاستقرار ، هو الضعف الكامل » .

ويعتقد أتباع جيتسكل من جانبهم أن هذه سياسة جنون مطبق أو ما هو أسوأ من ذلك . وثمة نقطة مثيرة للاهتمام وهى ان أنورين بيفان الراحل قد أيد بشدة وجهة نظر جيتسكل فى هـذا الموضوع ، ولو أنه امتد به الأجل لـكان ذا قيمة لا تقدر لزعامة حزب العمال الرسمية فى هذه المعركة .

وقد قال بيفان: إن نزع الأسلحة النووية من طرف واحد معناه أن يذهب أى وزير مفوض بريطانى لحضور أى مؤتمر دولى فى المستقبل « عارياً » .

وقد روى لى أحد أعضاء حزب العمال فى البرلمان وهو يمتاز بنظرته الموضوعية للأمور كما أنه يعارض نزع الأسلحة النووية بعنف وشدة أن أنصار نزع السلاح من طرف واحـــد يتألفون من ست مجموعات رئيسية وهى .

ا ــ مثاليون صادقون .

ب ــ « الواقعيون » من دعاة السلام وتضم هذه المجموعة كثيراً من رجال الكنيسة الذين يريدون تحييد بريطانيا .

جـ ــ الشيوعيون ومريدوهم .

د ــ الفارون من الواقع الذين لا حل لديهم للأزمات المستحكمة إلا وضع رؤوسهم فى الرمال كالنعام .

هـ ــ المعارضون للسياسة الأمريكية .

و ــ الخائفون من إعادة تسليح ألمانيا الغربية . إذ أن هناك جزءاً

كبيراً من الرأى العام البريطانى لا يزال يكره ألمانيا ويخشاها . ويرى هؤلاء أن ألمانيا يجب أن يحال بينها وبين إنتاج أسلحتها الذرية الخاصة فهناك دول أربع فقط فى العالم اليوم تستطيع أن تصنع الأسلحة الذرية وهى — الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا . (وقد تصبح الصين الحمراء بالطبع فى أية لحظة من اللحظات خامسة هذه الدول) . وحجة أنصار نزع السلاح من طرف واحد هى أن ألمانيا الغربية بصنعها للاسلحة النووية الخاصة بها سوف تجعل دولا أخرى أصغر تحذو حذوها وسوف نجد أنفسنا بعد فترة وجيزة فى موقف يستطيع فيه أى رجل تافه معتوه فى أية دولة تافهة ولتكن براجواى مثلا — أن يستغل عرضاً حربا ذرية شاملة تحول العالم كله إلى كومة من الرماد .

والوسيلة الوحيدة للحيلولة دون ذلك (كما يقول أنصار نزع السلاح من طرف واحد) هى أن تتزعم الحركة دولة كبرى مثل بريطانيا وتتنازل عن الأسلحة النووية بمحض إرادتها على أمل أن تكون قدوة لغيرها من الدول الأخرى أولا . وأن تمهد الطريق لنزع السلاح بوجه عام بمقتضى اتفاق دولى ثانيا .

ويؤمن بعض زعماء حزب العمال مثل مايكل فوت وهو رجل قوى ذو نظر ثاقب بأن نزع الأسلحة النووية من طرف واحد سوف يحقق لهم — بعد أربع أو خمس سنين وذلك إذا كتب للعالم البقاء — نصراً حتمياً يستطيعون به أن يفوزوا فى الانتخابات العامة القادمة . وأن يكتسحوا ماكميلان ويسقطوه عن مقاعد الحكم . فانجلترا دولة لا يمكن مطلقاً

أن يتجاهل الإنسان قوة المثالية الكامنة فيها مهما كانت غرابة هذه المثل ، تلك القوة التى قد تتفجر فوق السطح فى أية لحظة من اللحظات وزد على ذلك ما تلقاه الفكرة الأساسية من المذهب الحيادى من عطف وإعجاب شديد عند الكثيرين، ولاحاجة بنا أن نقول إن انتصار حزب العمال على أساس تعهده بنزع الأسلحة النووية من طرف واحد سوف يوقع الولايات المتحدة فى مشاكل قاسية .

فقد يعنى ذلك نهاية منظمة حلف شمال الأطلنطى ، وكذلك مركز أمريكا الدفاعى فى انجلترا . وربما فى أوروبا كلها . كما أن كثيرا من أنصار نزع السلاح — من طرف واحد — اليساريين يخشون القواعد الأمريكية فى انجلترا بل ويكرهونها كراهيتهم للقنبلة الذرية تقريباً .

ومن أهم ما وقع كرد فعل لحادث الطائرة رب ٤٧ فى يولية ١٩٦٠ وهى إحدى طائرات الاستكشاف الأمريكية التى أسقطها الروس فى مياه القطب الشمالى أن قام أنصار حملة نزع الأسلحة النووية بتنظيم مظاهرة صامتة إلى برايز نورتون وهى القاعدة الأمريكية فى مقاطعة أوكسفورد التى انطلقت منها الطائرة المشئومة . والحادث ليس خطيرا فى حد ذاته ولكنه أظهر من جديد أن القواعد الأمريكية فى بريطانيا يمكن استغلالها كمسألة داخلية تتعلق ببريطانيا ذاتها .

وعلى إثر هذا حاولت جموع غاضبة من الشعب فى كوفنترى أن تفض اجتماعاً عاماً كان يخطب فيه الجنرال لوريس نورستاد القائد العام الأمريكى فى أوروبا .

ثم قامت مظاهرات عنيفة فى أسكو تلندا عندما أعلن أن هولى لوتش فى مدينة فيرث أوف كلايد بالقرب من جلاسجو سوف تصبح قاعدة الغوصات الأمريكية المجهزة بصاروخ بولاريس .

وقد لوح المتظاهرون فى جلاسجو ولندن بلافتات كتب عليها أيها الأمريكيون — خذوا صواريخكم إلى بلادكم .

ويقول أنصار نزع السلاح من طرف واحد بإيجاز « لماذا يتحتم على بريطانيا أن تتعرض لخطر الدمار بسبب خلاف بين روسيا والولايات المتحدة ؟ فلنكن محايدين

ومن الناحية الأخرى فليس هناك من مبرر يجعلنا نفترض احتمال نجاح مذهب الحياد فى انجلترا .

أما اليوم فالقوات الأمريكية الموجودة فى انجلترا فى مستويات ثلاث : أولها قاذفات القنابل بعيدة المدى التابعة للقيادة الجوية الاستراتيجية : وهى قوة أمريكية خالصة، وليس لها علاقة مطلقاً بمنظمة حلف شمالى الأطلنطى .

ومع ذلك فإن القيادة العليا للقوات المتحالفة لا تحتفظ بالكثير من قاذفات القنابل العاملة فى القواعد الموجودة فى الأراضى البريطانية التى تعتبر مكشوفة إلى حد كبير ، وهذه القواعد تستخدم غالباً لطائرات التدريب . وعلى الولايات المتحدة من الناحية النظرية أن تحصل على إذن من الحكومة البريطانية قبل إطلاق أية طائرات تابعة للقيادة العليا للقوات المتحالفة من القواعد البريطانية فى حالة نشوب الحرب .

والمستوى الثانى : هو قاذفات القنابل المقاتلة التكتيكية التابعة لمنظمة حلف شمال الأطلنطى . وهى من الناحية النظرية تحت قيادة القائد الأعلى للقوات المتحالفة، وهو فى الوقت الحاضر الجنرال نورستاد الموجود فى مركز القيادة بالقرب من باريس وكان مركز هـــذه الفرق أولا فى فرنسا ولكنها نقلت إلى بريطانيا والمانيا الغربية عندما رفض الجنرال ديجول أن يسمح لهـا بأن تظل فى الأراضى الفرنسية أكثر من ذلك . والسبب فى ذلك إن هذه القوات كانت تدرب على حمل أسلحة ذات رؤوس ذرية التى تفرض الولايات المتحدة سلطانها عليها وديجول كما نعرف جيداً لا يقر وجود أكراس من الأسلحة الذرية أو حاملات الأسلحة النووية التى لاتخضع فى النهاية للاشراف الفرنسى فى الأراضى الفرنسية .

والمستوى الثالث هو مواقع الصاروخ « ثور » إذ يوجد على طول الساحل الشرقى لبريطانيا عدد من هذه الصواريخ يبلغ حوالى ستين صاروخا من الصواريخ الموجهة التى توصلت اليها القوات الجوية فى الولايات المتحدة . وهذه الصواريخ فى حالة استعداد دائم كما أنها موجهة بالطبع إلى مختلف الأهداف الرئيسية فى روسيا والدول التى تدور فى فلكها. وهذه الاسلحة (التى يتراوح مداها بين ١٥٠٠ ميلا إلى ١٨٠٠ ميلا) . تخضع لنظام خاص ذى إشراف مزدوج وهى تعمل فى ظل نظام يسمى الفيتو المزدوج ، فسلاح الطيران الملكى يختص بتشغيل الأجهزة، ذاتها. ولكن السيطرة على الرؤوس الذرية نفسها هو إختصاص أمريكا وحدها . ولإطلاق صاروخ ثور لا بد من وجود رجلين.

أحدهما ضابط بريطانى وآخر أمريكى لتحريك مفاتيح معينة . ويحمل كل منهما المفتاح المحرك حول رقبته . وقد ظهرت فى مجلة فرنسية أخيراً صورة تشيع الذعر فى النفوس إلى حد ما للوحة الموجهة للصاروخ ثور وقد كتب على أحد أزرارها « الحرب — السلم » وقد التقطت هذه الصورة ونشرت على الصفحة الأولى من السنداى تايمز فى لندن، ثم ظهرت فى مجلة التايم فى الولايات المتحدة وحالما يوضع المفتاحان فى ثقبيهما الصحيحين وبعد مضى ١٤ دقيقة فقط ينطلق الصاروخ «ثور» والواقع أن ظهور صورة فوتوغرافية لهذا الصاروخ المعقد والحساس فى الصحف الأوربية أغضب المراقبين الأمريكيين، وأثار بعض الحادثات فى جو من التوتر فى انجلترا . وكان الناس يفكرون فى أنه قد يحدث يوما أن يضغط شخص ما فى يوم من الأيام على هذا الزرار خطأ فينطلق الصاروخ رغم جهاز الضبط الثنائى المعقد .

وبعد حادث الطائرة ر ب — ٤٧ واجه ماكميلان سيلا من الأسئلة الشديدة والمعادية له فى مجلس العموم . وكان أعضاء حزب العمال يريدون أن يعرفوا ما إذا كانت الحكومة البريطانية قد علمت مقدما عن الطائرة الاستكشافية الامريكية التى قامت من « برايز نورتون » غير أن الحكومة لم يكن لديها علم بذلك . وانتهى الأمر بأن وعدت الولايات المتحدة وعداً حازما بابلاغ المملكة المتحدة مقدما بأن طائرة استكشافية يقودها طيارون أمريكيون إذا كانت هذه الطائرة ستقوم من الأراضى البريطانية .

وتتضمن القواعد والمخازن الامريكية فى انجلترا المنشآت المقامة

ى شلفستون وبرونتنجثورب وهيفورد العليا . ومقر القيادة فى هاى ويكومب وبرايز نورتون وفيرفورد وجرينهام كومن وبلاكبوس (حيث ترابط البحرية الامريكية) والكوبنورى ومولزويرث وسكالثورب وليكنهيث وهيلدنهول وبينتونرز وودبريدج ويذرزفيلد ورويسيلب الجنوبية . والمعروف لكل إنسان أن القواعد الامريكية قد أقيمت فى بريطانيا منذ البداية — بناء على تعاونها الوثيق — فى أثناء الحرب العالمية الثانية . وقد أغلقت هذه القواعد والمنشآت عقب الحرب ، ولكنها عادت إلى العمل ثانية فى عام ١٩١٨ رداً على سياسة الاتحاد السوفيتى أثناء الأزمة التى قامت عند حصار برلين ، وجدير بالذكر أن هذا قد حدث عندما كانت حكومة العمال تتولى الحكم . هذا كما أن بريطانيا قد اتخذت قرارها بانتاج القنابل الذرية والهيدروجينية فى عهد مستر أتلى . وربما كانت أمريكا تشك فى الفئة التى تنادى بنزع الاسلحة الذرية فى حزب العمال رغم الضوضاء التى كانت تثيرها ، غير أن زعماء الحزب الرسميين كانوا دائما يؤيدون حلف شمال الاطلنطى وينحازون إلى أمريكا .

يبلغ عدد أفراد القوات الامريكية فى بريطانيا اليوم حوالى ٥٠٠٠٠ معظمهم تابعون للقوات الجوية . ويبلغ عدد العسكريين فى الدول الاوروبية الأخرى حوالى ١٠٠٠٠ شخص فى أسبانيا (معظمهم فى القوات الجوية وبعضهم فى البحرية) و ٤٠٠٠٠ فى فرنسا معظمهم من القوات البرية و ١٠٠٠٠ فى ايطاليا (من الجيش والقوات الجوية) و ١٠٠٠٠ فى أيسلنده وجرينلاند و ١٩٠٠٠٠ فى ألمانيا الغربية (من

الجيش السابع والقوات الجوية) وبالإضافة إلى ذلك يوجد الاسطول السادس فى مياه البحر الأبيض المتوسط وهو يضم عدداً من الجنود يتراوح بين ٢٥٠٠٠٠ و ٣٥٠٠٠٠ ـ وهذه فى غاية الأهمية . . وهكذا فان العدد الإجمالى لأفراد القوات العسكرية فى أوربا يبلغ حوالى ٣٣٠ الف شخص ، وتوجد بايطاليا وتركيا قواعد الصواريخ جوبيتر كما يوجد بايطاليا أيضا صواريخ قصيرة المدى بها رؤوس ذرية .

نبوءة

قالت لى صديقتى الراحلة آن اوهير ماكورميك التى لم أفتقد أبداً صحفيا أعز منها ــ قالت لى فى يوم النصر إنها تعتقد أن الحرب العالمية الثانية قدمت درسين أولهما أنه لن يهاجم أحد روسيا برياً للمرة الثانية وثانيهما أن البريطانيين لن يدخلوا الحرب مرة أخرى .

إن النبوءات لاتصدق فى كثير من الأحيان، ولكن يجب علينا أن نتذكر هذه الملاحظة السابقة .

ماكميلان

عندما أصبح ماكميلان رئيساً للوزارة فى يناير عام ١٩٥٧ كان نفوذ بريطانيا وحظها قد وصلا إلى الحضيض فى خلال جيل بأكمله ، وكانت هذه الحقيقة تثير دهشة جميع الناس فى المملكة المتحدة باستثناء نفسه ، إن تجربة قناة السويس الفاشلة بالنسبة لبريطانيا قسمت الرأى العام البريطانى وساءت العلاقات بين انجلترا وأمريكا إلى درجة لم تحدث منذ عام ١٧٧٦ أو حوالى ذلك الوقت ، وكان الكومنولث قلقاً ومضطرباً كما كانت الروح المعنوية فى الداخل مزعزعة ، وخاب أمل حزب المحافظين وأصبح بلا زعيم وثبطت همته .

أما التطورات التى حدثت بعد مضى ٣٨ شهراً فهى تطورات ظاهرية . إن حرب السويس قد تركت ندبا كبيراً فى جبين انجلترا رغم أن الجرح قد التأم ، وعادت العلاقات الطيبة الحسنة بين لندن وواشنطن وأصبحت بريطانيا تمتلك أكبر رصيد من الذهب فى تاريخها ، وأصبح موريس هارولد ماكميلان ـ رئيس الوزراء ووزير الخزانة ـ زعيم حزب المحافظين بلا منافس وأصبح يعتبر شخصية شعبية تحظى باحترام الناس بصفة عامة وبلغ أقصى مراتب القوة .

ذكرت فى فصل سابق بعض الأسماء التى تطلق على رئيس الوزراء

وكان يعرف من خمس سنوات باسم « مستر ما كوثبول » . (أى ماك كرة اللعب) وأصبحت الصحف تسميه ماك النشيط .

إن ما كميلان شخصية معقدة وهو من أصل اسكتلندى وأمريكى وهو آخر من يدعى أن الانتعاش الحالى فى مركز بريطانيا يرجع إليه دون أى شخص آخر ولكنه فى الحقيقة ساهم كثيراً فيه ، وهو رمز إلى الروح الجديدة فى حزب المحافظين وقد مر بتطور يختلف عن ذلك التطور الذى مرت به البلاد ، فقد كان النجاح سبباً فى انبعاث الثقة فى نفسه .

وعندما أصبح ما كميلان رئيساً للوزارة لم يكن سوى ظل لكتلة الشعب الكبرى وكان فى الحقيقة ظلا غريباً وعتيقاً ، بل ومثيراً للضحك أيضاً بشاربه المتدلى على شفتيه وكان يبو وكأنه مشلول الحركة نتيجة لعدم الثقة أو لبطئه .. ولم يكتسب ما كميلان هذه الحيوية التى يتسم بها اليوم بين ليلة وضحاها ، فقد كانت الأشهر الأولى له فى رياسة الوزارة ثقيلة وبطيئة بالنسبة له وبالنسبة للمحيطين به الذين كانوا يائسين لعجزه عن الاتصال بالجماهير . غير أن الانتخابات التى أجريت منذ وقت غير بعيد أظهرت أنه أبعد رئيس وزراء إلى الشعب فى بريطانيا بعد نيفل تشامبرلين .

ورغم أن ما كميلان محافظ أصيل فى معظم غرائزه وزعيم حزب الثورى الا أنه ليس توريا متعصباً على الاطلاق ، لقد قضى أكثر من عشرين سنة ثائراً ضد مبادىء الحزب الجامدة وداعياً إلى المبادىء

الاشتراكية حتى لقب مرة باليسارى الخطير ، فليس هناك مستقبل كبير أمام أى سياسى بريطانى فى هذه الأيام مالم يظهر عطفاً ولو لفظيا على الأقل على مبادىء دولة الخدمات ، ومما ساعد مساعدة فعالة على ظهور ماكميلان يقظة ضميره ومثاليته « وصبغته المحافظة القرمزية » ، بالإضافة إلى بعض العوامل الأخرى مثل لباقته ومهارته ، وقد سألت أحد أصدقائه الحميمين عما أدى إلى ذلك التغير البطىء الواضح فى رئيس الوزراء وتحوله من فرد عادى إلى شخصية هامة ، فكان جوابه كما يلى :

« الواقع أن ماكميلان لم يكن فرداً عاديا فى يوم من الأيام . لقد اشتغل بالحياة العامة فترة من الزمن تزيد على ثلاثين عاما بكثير . حقاً إنه كان غير معروف نسبياً ولكنه لم يكن فرداً عاديا ، وعندما أصبح رئيساً للوزراء أراد أن يستريح فترة ويدرس اتجاهاته ، وكان يعلم أن واجبات معينة تتطلب المعالجةوعليه أن يعالجها « لقدحدث نفسه قائلا « لو كنت على شىء من الجرأة فسوف يظهر ذلك مع مرور الزمن » ، ثم بدأ يقوم بأعمال جريئة واسعة الأفق . وبدأ الناس يدركون أن هناك رجلا ذا حيوية وكفاية وذكاء على صورة فذة » .

وفى مايو سنة ١٩٥٨ ظهر ماكميلان فى برنامج تلفزيونى لادوارد مارو بعنوان « شاهده الآن » وقد ظل رئيس الوزراء شهوراً عديدة يعارض فكرة الظهور فى التلفزيون ، فقد كان يكره المقابلات ويكره كذلك سماع الراديو ، فهو لا يضع فى منزله الريفى راديو أو تليفزيون ولا يوجد كذلك تليفزيون فى دوننج استريت

ثم حدث بعد ذلك أن استيقظ ذات صباح فوجد نفسه نجماً تليفزيونيا فشاهد ملايين الناس فى انجلترا والولايات المتحدة لأول مرة شخصيته الجادة التى عجز الوصف عن تصويرها ، كما لاحظوا آراءه المجددة وصراحته وتواضعه وهدوءه ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن ماردا قد « صنع » ماكميلان ولكنه أعطاه دفعة قوية إلى الأمام فى محيط العلاقات العامة . وقد علق رئيس الوزراء على هذا البرنامج معبراً عن رضاه ودهشته قائلا إنه يستحق خمسة انتخابات فرعية .

الخطوط العريضة للوصول إلى تولى السلطة

يمكن توضيح الخطوط العريضة لحياة ماكميلان السياسية عن طريق سرد بعض التأثيرات التى ساعدت على تكوينه .

أولا ذلك الإطار الاسكتلندى الذى عاش فيه . . فقد كان جده لأبيه مزارعا مستأجراً فى جزيرة أران ، أما جده دانيل فقد نشأ فى فقر مدقع ، ولكنه كان مغامراً ، فرحل جنوبا إلى انجلترا حيث أصبح بائع كتب، ثم اشترك مع أخ له فى افتتاح مكتبة فى كمبردج ، ثم انتقل فى النهاية إلى لندن حيث أسس سنة ١٨٤٣ دار النشر المشهورة «ماكميلان» التى لاتزال للآن من أعظم دور النشر فى العالم .. ثم انضم موريس والد رئيس الوزراء . إلى مؤسسة الأسرة بعد أن درس الموسيقى واشتغل بالتدريس ، وكان هذا الرجل إلى حد ما معتزلا العالم ، خجولا ، منطويا على نفسه متدينا .

وكانت أم هارولد ماكميلان أمريكية تدعى هيلين بلز (نلى) وهي ابنة طبيب فى كنتاكى ، مارس الطب سنوات عديدة فى مدينة صغيرة فى ولاية أنديانا وهى امرأة ذات شخصية جذابة ملهمة تدفع على العمل ، تزوجت وهى فى الثامنة عشرة من فنان يدعى جون بيليسلن هيل سنة ١٨٧٤ ، ولكنه توفى بعد شهور قليلة من زواجه ، ثم رحلت نلى إلى باريس لدراسة الموسيقى ، وهو عمل فيه كثير من المغامرة لامرأة شابة فى ذلك الوقت ، وهناك التقت بموريس ماكميلان وتزوجا سنة ١٨٨٣ ، وولد هارولد ابنهما الثالث سنة ١٨٩٤ .

لقد كان رئيس الوزراء يجلها دائماً ويحترمها احتراما عميقا . وقد روى لى أثناء حديثه معى فى داونتج استريت منذ زمن غير بعيد أنها كانت إلى حد كبير لها التأثير على حياته . وكانت مثل والدة روزفلت، تسرف فى حب ابنها . . ولكنها لم تحاول أن تخرجه من أوهامه . فقد أرادت له أن يكون طموحا كما أرادت له أن يكون ناجحاً فى حياته ، مهما تعود على الظهور بمظهر التراخى والوهن . وليس من المؤكد أنها عند وفاتها فى سنة ١٩٢٧ كانت تستطيع أن تخمن فيما إذا كان ابنها سيصبح رئيساً للوزارة فى يوم من الأيام . . وثمة نقطة هامة وهى أن نلى كانت من العاطفين المتحمسين على فرنسا وقد أجبر هارولد على تعلم اللغة الفرنسية فى طفولته قبل أن يتعلم الانجليزية ، وقد أصبح مغرما بالاشياء الفرنسية منذ هذا الوقت .

وقد نجا ماكميلان من الموت بمعجزة فى حادث طائرة فى شمال افريقيا

سنة ١٩٤٣ ، فقد أفاق ليجد نفسه فى مستشفى مصابا بحروق خطيرة دون أن يذكر شيئاً عما حدث له . وكانت كلماته الأولى التى نطق بها هى « أخبروا والدتى بأنى على قيد الحيـاة وفى صحة جيدة » . وكانت أمه فى هذا الوقت قد مضى على وفاتها ست سنوات .

ويتحدث كثير من الكتاب الذين لا يتصفون بالدقة عن «استقراطية» ماكميلان كما لو كان تشرشل أو ساليسبرى . لا شك أن زيجته كانت بالغة الارستقراطية . فهو ينحدر من سلالة اسكتاندية ريفية مختلطة بدم الطبقة الوسطى الأمريكية كما أنه فى معظمه وليد ما كان يسمى بحق « الطليعة التجارية » .

وثانى التأثيرات هو تعليمه : ربما كان ماكميلان أحسن رؤساء الوزارات تعلما منذ بلفور أو آسكويث أى منذ خمسين عاما رغم أنه ليس فى مستواهما كمفكر. وقد تلقى تعليمه فى ايتون وكلية باليول وأوكسفورد وكان مغرما باللغات القديمة فقد كان طالباً نجيباً (ولو أنه كسول إلى حد ما) وقد حدث مرة أثناء الحرب العـالمية الأولى ان اصيب بجروح خطيرة فانفصل عن فرقته ثم عثر عليه رجاله فى احدى الحفر التى أحدثتها القنابل وهو يقرأ آسكيلس باللغة اليونانية .

وهو لا يزال إلى اليوم متشبثاً بقراءاته . فقد كان يتسلى بقراءة كتاب فورد عن تاريخ انجلترا وهو يتألف من أربعة عشر مجلداً عند عودته أخيراً من استراليا بعد الانتهاء من جولته التى قام بها حول جميع

دول الكومنولث وهى أول جولة يقوم بها رئيس وزراء حول هذه الدول . وعندما قابله جون هاى هوتينى السفير الأمريكى السابق فى بلاط سانت جيمس لأول مرة كان مشغولا بقراءة تاريخ كاى دورساى باللغة الفرنسية . وقد سأله زميل له بعد أن شعر بالاجهاد على أثر جلسة طويلة لمجلس الوزراء عما ينتوى أن يفعله ليسترخى ويستريح . فكان جوابه الذى يشوبه شىء من التحدى هو « سوف أقرأ قصة جيدة ! »

ومع ذلك فان رئيس الوزراء فى الواقع لا يقرأ كثيراً من القصص هذه الأيام رغم أنه يدمن — كما كان دائماً — قراءة كتابات تزولوب. وقد روى لى أنه يتحول شيئاً فشيئاً نحو قراءة كتب التاريخ وتراجم الحياة . وهو يحب سير الحياة الطويلة الحافلة المليئة بالوثائق ولاسيما عن العظماء والبارزين فى تاريخ بريطانيا . فهذه السير تروى له قصصاً كاملة وتعينه على أن يقرر رأيه فى المشاكل التى تعترضه وقد كان يقرأ تاريخ حياة المرستون فى اليوم الذى التقيت به .

وهو يحب اللغة اللاتينية ولذلك فانه يثير دهشة الناس أحياناً حينما يروى نكتة باللاتينية أو يتلاعب بالألفاظ اللاتينية فى المذكرات الرسمية .

ثالثاً الحرب العالمية الأولى . ترك ماكميلان فى شبابه كلية باليول ليتولى احدى المهمات فى حرس جريناديه وظل يعمل فى فرنسا سبع سنوات وقد أصيب ثلاث مرات وقد اقعده جرحه الأخير — وكان عبارة عن شرخ فى الحوض — فى الفراش ٢٠ شهراً .وكان اصدقاؤه

يظنون أنه لن يستطيع أن يسير بعدئذ وقد اضطر إلى أن يعيش فى تأمل وتفكير طيلة هذه الفترة التى كانت بمثابة فجوة كبيرة فى حياته . وقد أظهر كفاءة فى عمله، ولكن لم تكن تظهر انباؤه . ويبدو أنه فى شبابه لم يترك أثراً كبيراً فى اقرانه سواء فى المدرسة أو فى الجيش . ونادراً ما يشار اليه فى ذكريات تلك الفترة حتى من جانب الذين يعرفونه جيداً .

رابعاً الزواج . سافر ماكميلان إلى كندا فى عام ١٩٢٠ ليقوم بمساعدة الحاكم العام وكان فى ذلك الوقت هو الدوق التاسع لديفونشير وتزوج ابنة ليدى دوروتى ايفلين كيفينيش .. وكان ذلك حادثاً هاماً فى حياته فقد دخل على الفور فى دائرة النبلاء وقد حضرت حفل قرانه الملكة الأرملة الكسندرا وحضره أيضاً توماس هاردى وقد بعث ذلك السرور فى نفسه

والمعروف أن أفراد أسرة ديفونشير ظلوا أجيالا كثيرة يحتلون مراكز رفيعة فى الحياة الاجتماعية والسياسية وفى البلاط الملكى ، ولذلك عندما دخل ماكميلان معترك السياسة وجد أنه يمت بصلة القرابة — نتيجة لزواجه هذا — لعدد من أعضاء مجلس العموم لا يقل عن ١٦ عضواً . وقد تبين فيما بعد أنه يمت بصلة الدم إلى سبعة من بين التسعة عشر عضواً فى مجلس الوزراء وما يقابل عن ٣٠ شخصاً من العدد الإجمالى للأعضاء فى الوزارة البالغ عددهم ٨٥ عضواً (يختلف معنى لفظ « مجلس الوزراء » و « الوزارة » فى اللغة الإنجليزية فمجلس الوزراء هو قلب الوزارة الصغير . وقد يرقى أحد الأشخاص

ويصبح « وزيراً » أى عضواً فى « الوزارة » ولكنه لا يكون عضواً فى « مجلس الوزراء ») .

وقد تطور موقف ماكميلان فيما يتعلق بأقاربه سريعاً وبعد التعديل الوزارى الذى حدث فى نوفمبر من عام ١٩٦٠ أصبح زوج ابنته جوليان أمرى وزيراً للدولة لشئون الطيران وابن عم ليدى دوروثى الدوق الحادى عشر لديفونشير نائب السكرتير البرلمانى فى مكتب علاقات الكومنولث ، وأصبح يمت بصلة القرابة إلى رئيس الوزراء أو زوجته ما لا يقل عن ثلاثة آخرين فى مناصب وزارية ..

ودافيد أورمسباى جور وزير الدولة للشئون الخارجية القدير هو صهر موريس ماكميلان الولد الوحيد لرئيس الوزراء الذى هو عضو فى مجلس العموم . وعندما أعلنت هذه التعيينات علق هيوجيتسكيل زعيم المعارضة على ذلك فى تهكم قائلاً : « إن رئيس الوزراء رفض بشدة أن يسمح بالتمييز غير العادل بين أقاربه » ..

وأشارت صحيفة نيوستيسمان فى تعليق شديد اللهجة لها (فى عددها الصادر فى ١ من ديسمبر عام ١٩٦٠) إلى أن وزارة ماكميلان بها دوق وماركيزة وستة أعضاء يحملون لقب ايرل واثنان يحملان لقب فايكونت وما لا يقل عن سبعة بارونات .

ويجمل القول أن الليدى دوروثى ماكميلان لم تكن مهتمة بالسياسة أبداً وهى تميل إلى فلاحة الحدائق.. ولماكميلان أربعة أبناء و١٢ حفيداً

وهما يرعونهم جميعاً ، ولذلك فإن منزل الأسرة فى مسبكى به طابق بأكمله كله حجرات للأطفال .

خامساً — العمل — اشترك ماكميلان فى أعمال النشر التى تطور بها النشر فى عام ١٩٣٤ وظل هو وأخوه الكبير دانييل يديران معاً الشركة . وباعتباره ناشراً فإنه التفت إلى الناحية العملية أكثر منها إلى التحرير ولكنه مع ذلك كان له نشاط أدبى أيضاً . ومن قراراته الجريئة قراره نشر قصة « الحمل الأسود والصقر الرمادى » بقلم ريبيكا ويست التى تقع فى ١٠٠٠ صفحة فى فترة كانت تشكو فيها بريطانيا من الورق ..

وثمة قرار هام آخر اتخذه ماكميلان (وإن لم يكن هو شخصياً قد اتخذه) بنشر قصة « ذهب مع الريح » فى مجلد واحد طبع منه ثلاثة آلاف نسخة إذ لم يكن البريطانيون يعتقدون أن هذه القصة ستباع .

وقد جنى ماكميلان ثروة طائلة من النشر وكان يعد مليونيراً لمدة عشرين عاماً بسبب الشركة الهائلة التى آلت إليه وبسبب الأرباح الطائلة التى حققتها جهوده . وقد خلفه فى إدارة الشركة ابنه موريس الذى بدأ يشتغل فى مجال السياسة .

وتضم قائمة المؤلفين الذين نشرت كتبهم شركة ماكميلان فى خلال حياتها أسماء لامعة مثل هنرى جيمس وشو وويلز وكيبلنج وييتس ومجموعة أخرى من أبرز الأسماء التى نشرت كتبهم فى كتب ماكميلان .

وكانت الشركة بصفة عامة تميل إلى الشعراء والاقتصاديين والمؤرخين اليساريين أمثال ج . م . كينز . وهذا ما يدعو إلى الدهشة حقاً . ومن أحسن كتبها التى ذاعت كتاب كينز بعنوان : « الآثار الاقتصادية للسلام » لكينز . وكتاب تاريخ العالم للمؤرخ المعروف ﻫ . ج ويلز .

سادساً — السياسة والشئون العامة . شعر ماكيلان بأنه — باعتباره بريطانيا تقليديا — أن من واجبه أن يفى بالتزاماته نحو مجتمعه . وكان يريد إلى جانب ذلك أن يتقدم فكان من الطبيعى أن يدخل معترك السياسة ورشح نفسه عن « ستوكتون » وهى دائرة صناعية تشتهر ببناء السفن فى عام ١٩٢٣ أى بعد عودته من كندا مباشرة وخسر جولته الأولى بثلاث وسبعين صوتاً . ولكنه رشح نفسه ثانية فى العام التالى ونجح نجاحاً باهراً وأصبح عضواً فى مجلس العموم .

وقد تعلم الكثير من ستوكتون ولاسيما فى خلال سنوات الأزمة الاقتصادية . وانتقل فيما بعد إلى دائرة أكثر أمناً وهى بروملى . وكانت البطالة تعتبر من المشاكل العسيرة التى تواجهها . وواجه ماكيلان رجل الشارع لأول مرة فى حياته . وفى منتصف العقد الرابع ألف كتاباً بعنوان : « الطريق الوسط » وكان هذا الكتاب بمثابة دعوة إلى اتباع انجلترا « مشروع جديد » مثل مشروع روزفلت المعروف . . وهكذا أثار ماكيلان سخط المحافظين المتزمتين . وقد رد الصاع صاعين . وما زالت بعض عباراته وملاحظاته التى انتقد فيها الزعماء المحافظين فى ذلك الوقت تردد حتى الآن .

وأطلق على بنك انجلترا اسم « الاستعداد الدائم » كما تحدث باحتقار عن « ملهى الرأسمالية » و « أرستقراطية مدبرى المكائد الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة ومشجعى نظام الشركات » وقال : إن أعضاء الصفوف الأولى حزب المحافظين « أكوام مهملة » بل لقد تطور الأمر إلى تصويته ضد حزبه فى مسألة تتعلق بمساعدة المتعطلين كما انضم إلى جانب أحد الاشتراكيين ضد زملائه من أعضاء حزب المحافظين ..

وقد نادى فى وقت معين بقيام ائتلاف مع حزب العمال كما تحدث عن إقامة اندماج بين « الاشتراكية والرأسمالية » : وكان يبغض حكومة السراة الجشعة وأراد أن يكون هناك حد أدنى معقول لمستوى معيشة الجميع .

وفى ذلك الوقت أخذت الشئون الخارجية تحتل مكان الصدارة فى السياسة البريطانية وقد اتخذ ماكيلان لنفسه سياسة مستقلة وذلك أثناء فترة حكم تشمبرلين وبالدوين ، فقد رفض « سطوة الحزب » التى أرادت له أن يستقيل من الحزب مؤقتاً، وذلك لأنه عضد اتخاذ تدابير عقابية ضد إيطاليا أثناء حرب الحبشة كما عارض بشدة — وإن كان ذلك بأدب — سياسة ميونيخ واجراءات التهدئة .

وقد ظل ماكيلان فى « الغابة الموحشة » سنين طويلة حيث كان يتعرض للوم زعماء المحافظين ، ولم يحصل على منصب وزارى إلا فى عام ١٩٤٠ وكان عمره فى ذلك الحين ٤٦ عاما . وجاءت تباشير النصر على عجل فقد أصبح ونستون تشرشل رئيسا للوزارة وأرسل ماكيلان

فى عام ١٩٤٢ إلى مدينة الجزائر « كوزير مقيم » . . وهناك كون صداقات مع رجلين كان من حسن حظه أن اشترك معهما فى العمل بعد ذلك وهما دوايت أيزنهاور وشارل ديجول . وكان من أسباب تعيين تشرشل له فى هذا المنصب أنه كان من أتباعه المقربين ولأنه كان يتقن اللغة الفرنسية . . وهكذا كان لتربيته الأولى أثرها ثم أصبح ماكميلان بعد ذلك وزيرا للدولة لشئون الطيران ثم وزيراً للاسكان وكان هذا منصبا قليل الأهمية بالنسبة له ولكنه أدى واجبه بإخلاص وأحرز نجاحا ملحوظا . وقد أعقبت ذلك فترات كان فيها وزيراً للدفاع لمدة ستة أشهر فى عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٥ ثم وزيراً للخارجية من شهر أبريل حتى شهر ديسمبر من عام ١٩٥٥ ، ثم وزيراً للخزانة من شهر ديسمبر عام ١٩٥٥ حتى شهر يناير عام ١٩٥٧ ، وقد قضى فى كل هذه المناصب فترات قصيرة لم يستطع أن يقوم خلالها بأى شىء يستحق الذكر اللهم إلا المجهود الذى بذله فى وزارة الاسكان فكانت جهوده فى وزارة الخارجية مخيبة الآمال كما أنه لم يفعل شيئاً ذا بال فى وزارة الخزانة .

فكيف أمكن لهارولد ماكميلان إذن أن يصبح رئيسا للوزارة فى يناير عام ١٩٥٧ عندما استقال ايدن ؟ . .

إن التفاصيل الدقيقة لهذه المسألة ستشغل بال المؤرخين لمدة طويلة ولا يمكن معالجة هذه المسألة المعقدة فى حيز محدود كهذا . . ولقد رشح تشرشل واللورد سالسبورى — الذى كان له مكان « لاشيب المرموق » فى حزب المحافظين — ماكميلان ضد رتشارد بتلر منافسه

الرئيسي فاعتقد عامة أعضاء حزب المحافظين أن اختيار ماكميلان أكثر سلامة لهم كما أنه أشد عزما وقوة مع أن الكثيرين كانوا يرون فيه شخصية غريبة وشاذة . .

وقد أثار الدور الذى لعبه ماكميلان فى هزيمة السويس جدلا مرا .

أولا : لأنه أيد بشدة خطة أيدن المدمرة لغزو السويس بقوة السلاح . .

وثانياً : لأنه كان أشد الوزراء تحمساً للانسحاب عندما رأى أن المغامرة العسكرية فى السويس قد منيت بالخيبة والفشل . . ويقول أصدقاؤه إن الدافع الرئيسى وراء ذلك لم يكن قلقه من رد الفعل الذى أحدثته هذه الحملة فى أمريكا وروسيا ودول الكومنولث بل خوفه من تأثر الاسترلينى وكان من شأنه كوزير للمالية أن يقدر تلك الاعتبارات جيدا .

وقد وصف أحد المراقبين المتهكمين ذلك الوضع وذلك بعد انتهاء الأزمة بقوله :

« ينبغى علينا أن نتخذ زعيما وخاصة إذا كان يستطيع أن يتزعمنا فى كلا الطريقين . . وقد قادنا ماكميلان إلى حرب السويس كما قادنا فى الانسحاب منها » .

شخصية ماكميلان :

إن ماكميلان رجل طويل القامة أطول مما يتضح من صورة ويبلغ طوله حوالى ستة أقدام وبوصة واحدة . ولقد اتخذ مظهراً ملتويا لبضع

سنين وتفكه البعض بأن ايدن كالأرنب الذى يحاول أن يظهر بمظهر الرجال بينما ماكميلان رجل يحاول أن يتخذ مظهر الأرنب » .

وماكميلان ذو أذرع طويلة كما أن طريقة مصافحته للغير رقيقة وناعمة، ومن خصائصه أن خطه صغير جداً واذا يتعب سكرتيريه فى حل رموز كتابته . ويتميز بوجه قوى الملاحظة وبشعر رمادى طويل يمشطه إلى الخلف على طراز « لومبادور » كما أن له عينين سوداوين براقتين وحواجب كثة تنحدر إلى الجوانب الخارجية لعينيه حتى إنه كان يسمى أحياناً « بالأعجوبة المحجبة » .

كما أن تصرفاته حسنة بلا تكلف ، كما أنها لطيفة ومتسامحة، وقد أخبرنى أحد وزرائه أن المصدر الوحيد لقوة ماكميلان هو هدوءه وعدم تراخيه . ويشتهر ماكميلان بأنه أسوأ رجل جلس فى داوننج ستريت من ناحية الملبس وهو يكره الذهاب لشراء حاجياته كما كان يفعل فرانكلين روزفلت كما أنه يعشق لبس الجاكتات الصوف التى يرجع طرازها الى ثلاثين سنة خلت وقيل إن نظرته للملابس «مريعة» فلم يشتر بدلا جديدة منذ عدة سنوات كما نجد أنه لا يلبس الصديرى الذى يعتبر لبسه مألوفا فى الأوساط الرسمية البريطانية بل يلبس بدلا من السويتر الذى قد ينسى أن يوثق عراه . ويفضل ماكميلان أن يلبس قلنسوة من الصوف على أن يستعمل القبعة الشىء الذى كان ينبذه ديزرائيلى أو شرلوك هولمز .

ويتمتع ماكميلان بصحة طيبة وينام جيداً ومع أنه شخص حساس إلا أنه لا يبدو عصبيا فى معظم أحواله . . ويقرأ ماكميلان

لمدة ساعة قبل النوم كل ليلة مهما كان الوقت متأخراً . ونادراً ما يقوم بأية إجازة حتى أنه لا يقضى خارج عمله خلال الثمانية عشرشهراً الأولى فى مدة رئاسته للوزارة سوى سبعة عشر يوما كما أنه لا يهتم بالرياضة على عكس الانجليز من أفراد طبقته، بيد أنه يحب النزهة خارج المنزل وبين الأشجار ويهوى الصيد الذى يؤديه بسهولة بيده اليسرى .

يعتقد البعض أن ماكميلان تعلوه كآبة ، بيد أنه لا يتسم بالثورة والهياج ، وله سحر هادىء ومع ذلك فلديه إحساس قوى بالفكاهة ، ويحب قول النكات التى يكون بعضها لاذعا ، ولكن كلمة « الخجل » التى يطلقها البعض على ماكميلان تحتاج إلى تعريف خاص بالنسبة له ، فهو يكره الاتصال بأولئك الذين لا يعرفهم جيداً بيد أن هذا الخجل يزول عندما يكون بين زملائه ومعارفه ، وهو يعشق قراءة الكتب والثرثرة . كما يحب أسرته، فضلا عن ميله للمحادثة ، فهو متحدث لبق سريع البديهة .

وكان يذهب أحياناً إلى حفلات الكوكتيل قبل أن يصبح رئيساً للوزارة وكان يقف فى ركن بعيد بأدب تغلب عليه الكآبة حتى يأتى شخص يميل إليه . وقد يلتقى بأحد أصدقائه القدامى فى أحد الأندية وقد لا يفطن إلى وجوده إذا كان مستغرقا فى أفكاره .

وعلى أية حال فإن ماكميلان يؤمن بقدر معين من الرسميات والخصوصيات ، فقد ظل أحد أعضاء وزارته مقرباً لديه لبضع سنين ، وكان يحبه ويشترك معه فى العمل يومياً ، ومع ذلك لم يدعه إلى منزله

فى « بيرش جروف » التى تبعد عن لندن بمقدار ٣٨ ميلا .

ولم يكن مقربا لديه من أعضاء وزارته سوى وزيرين وبعض أعضاء سكرتاريته ، كما أن بين زملائه الذين يحبهم ويعتمد عليهم لورد ميلز وزير القوى السابق ومدير المدفوعات الحالى وأدوارد هيث حامل أختام الملك الحالى .

ويقول البعض عن ماكميلان إنه ممثـــل ، وإن حياته سلسلة من المواقف المصطنعة .

والواقع أن ماكميلان اعتاد على استخدام التهكم لكى ينقذ نفسه من الشعور بخيبة الأمل ، غير أنه ليس متهكما كما يحاول هو أن يبدو دائماً . بيد أن هـــذا التهكم قد أصبح جزءاً لا يتجزأ من شخصيته ، ويبدو أن هناك شيئاً غير حقيقى فى تصرفاته وكأنه ليس مخلوقا من لحم ودم كسائر البشر ، فيبدو كما كان مقنعاً .

وقد قال لى أحد الساسة « إن كل ما أريده فى حياتى هو أن أقضى أسبوعا مع رئيس الوزراء وحده . . عندئذ سأعرف ما يفكر فيه » .

وقال أحد أعضاء حزب العمال البارزين عندما سأله البعض عن صفة ماكميلان : إن الصفة البارزة لماكميلان هى « العظمة » .

وقال عضو آخر إن سمته البارزة هى « التكبر » ويذهب البعض إلى أبعد من ذلك إذ أنهم يعتقدون أن عيبه الرئيسى هو الافتقار إلى الاقتناع الداخلى العميق ، وأنه يجنح إلى العزلة كما أنه يتسم بالمهارة الفائقة ويبدو ماكميلان من جانبه فظا فى معاملته لأعضاء حزب العمال.

وهذه ليست سياسة سليمة ، لأنها تقسم البلاد ، كما أن عدم إحترام المعارضة هو فى حد ذاته احتقار لمجلس العموم الذى يعتبر رمزاً وموئلا لخير ماتمتاز به الديمقراطية البريطانية .

رئيس الوزراء أثناء العمل

من الملحوظ أن ماكميلان ليس له مكتب فى مقر عمله فى داوننج ستريت ، وهو يؤدى عمله على منضدة مستطيلة . يستطيع ما يقرب من عشرين رجلا أن يجلسوا عليها ، وذلك فى الطابق الأرضى من مبنى الوزارة ، ولماكميلان فى الطابق العلوى حجرة مكتب أخرى .

ولكن محتويات هذه الحجرة ليست مما ينتظر من رئيس للوزارة أن يستعمله .. وقد سألته عما يفعل كرئيس للوزارة بكل هذه الأوراق إذ أنه ليست هناك أدراج أو أماكن للارشيف فأجاب بابتسامة خفيفة : « إن هذه الأشياء توضع فى الصناديق » .

إن مبنى داوننج ستريت صغير ولا يتألف سكرتارية رئيس الوزراء إلا من سبعة أو ثمانية أشخاص ، معظمهم موظفات شابات .

وقد ذهل ماكميلان من ضخامة مبنى رياسة الجمهورية الأمريكية أثناء زيارته الأخيرة لواشنطن . . والحقيقة أن الاجراءات البريطانية أقل تعقيداً من الاجراءات الأمريكية .

والجو فى مبنى رياسة الوزارة غير رسمى إلى درجة مذهلة ، وكل ما تشهده هو رجل البوليس الواقف أمام الباب ، وفيما عدا ذلك

فليس هناك أية احتياطيات أخرى يمكن أن تلحظها عند دخولك للمبنى .

وليس هناك أية اجراءات الأمن وعادة ما يكون رئيس الوزراء رسمياً أثناء اجتماعات مجلس الوزراء التى تعقد مرتين فى الأسبوع بانتظام . .

ولكنه فى غير هذه المناسبة يكون هادئاً وطبيعياً . وقلما يدق ماكميلان جرس مكتبه طالباً أى موظف ، ولكنه يطوف بين حجرات المبنى الذى يجمع الموظفين مثل الدجاجة التى تبحث عن فراخها، ثم يقول لأحد الموظفين : « إننى أجد بعض الصعوبة فى هذه المذكرة — أرجو أن تساعدنى على كتابتها .

ويوجد فوق الباب الذى يؤدى إلى مكتب السكرتير الخاص لمجلس الوزراء ملحوظة بخط يد رئيس الوزراء نفسه هى : « المناقشة الهادئة تفك كل عقدة » وهى مأخوذة من أوبريت « ملاحو الجندول » لجيلبرت وسوليفان ، وقد وضع ماكميلان هذه اللافتة بيده حتى تكون مبدأ يسير عليه جميع الموظفين . وقد ضاق الحال يوما بتوماس هيوز المؤلف القصصى المعروف فذهب منذ سنوات مضت إلى شركة ماكميلان يطلب وظيفة . فكان ردوالد هارولد ماكميلان يقضى بشروط معينة ، منها : أن الشركة تتوقع من كل موظف أن « يقوم بعمله اليومى فى نفس اليوم » .

وتطرق نفس المبدأ فى داوننج ستريت اليوم ، ودائماً ما يردد

رئيس الوزراء هذا المبدأ كلما استمع إليه أحد .

وقد سألته عما إذا كان يحب منصبه كرئيس للوزراء فأجاب بالإيجاب وبأسلوب تأكيدى . وهو يتخذ موقفاً فلسفياً من تفسير التاريخ ، وقد سألته كيف استطاع أن يتحمل العبء بنفسه ؟ فأشار إلى أن هناك الكثيرين الذين يستطيعون أن يحملوا العبء عنه ، وكان فى ذلك طبعاً يمدح سكرتيره القدير .

والواقع أن ماكميلان يتخذالقرارات بسهولة دون موازنة للعواقب غير الملائمة أو المحيرة وهو زعيم قدير . ويقول لأصدقائه كثيراً : « إذا اتخذتم جميع قراراتكم بطريقة جدية فإنكم لن تتخذوا أى قرار » .

وأفضل الجمل التى يرددها كثيراً . « فلنعيد النظر فى ذلك » وهو لا يعمل أبداً فى عجلة .

ويحصل كل مساء على صندوق مليء بالخطابات ، ويأخذ فى قراءتها بعد العشاء ، وهو جالس مع أسرته فى بعض الأحيان . ويفتح معظم الوزراء المظروفات فى حضور مجموعة من السكرتاريين تتلقى التعليمات أما ماكميلان فيفضل القيام بهذا العمل بمفرده . . وهو يضع ملحوظة بالمداد الأحمر على كل ورقة يقرأها (وجدير بالذكر أن رئيس الوزراء فقط هو الذى يستخدم الحبر الأحمر فى مستندات مجلس الوزراء) وتنطوى هذه الملحوظة على الأوامر التى يريد إصدارها . ويكتب أحيانا عدداً كبيرا من الملحوظات كل ليلة قد يصل إلى ألف كلمة .

وقد دخلت مكتب رئيس الوزراء للاجتماع به فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وقيل لى إن اجتماعى سيستغرق خمس عشرة دقيقة . ولكننى خرجت من داوننج ستريت حوالى الساعة الخامسة ، أى بعد مضى ساعتين ، وعندما دخلت حجرة المجلس التى ترتبط بكثير من الأحداث التاريخية ، سار مستر ماكميلان نحوى وعرض على شمعدانا فضيا كان قد وصله قبل دخولى مباشرة . وكان هـــذا الشمعدان خاصا بخمسة رؤساء وزارات . هم : والبول وبيت الصغير وبيل ودزرائيلى ولورد روزبيرى .

وقد تحدث معى فى البداية عن التاريخ البريطانى وماضى بريطانيا ولم يشر إلى جهوده كرئيس للوزارة . ومن بين الأشياء التى ذكرها لى أنه قطع حوالى ٨٠ الف ميل فى رحلات قام بها خلال ١٨ شهراً لاشك أن هذه مسافة كبيرة لرجل فى سنه . وقد اصطحبنى إلى الحديقة وروى لى قصة عن مستر جلاد ستون وطاف بى فى أنحاء مبنى رئاسة الوزارة والمبنى المجاور له الذى يقيم فيه وزير الخزانة ذاكرا لى كثيرا من الأحداث التى تقترن بمختلف الأشياء ، صعدنا إلى وزارة الخزانة فى مبنى مجاور كان قد اجتمع فيه الملك بمجلس الوزراء وهو جالس .

وتحدث إلى ماكميلان عن صعوبة تسجيل الملاحظات الدقيقة فى حديث تليفونى وقد يرجع ذلك إلى أنك لا ترى الشخص الذى تتحدث

اليه ثم انتقل إلى الحديث عن الصحف فى لندن ومن سياسة روسيا فى وسط آسيا قبل الحرب العالمية الأولى وعن الكثير من الأمور المتعلقة بروسيا بما فى ذلك تفاصيل مرحلته التى قام بها فى عام ١٩٢٩ كسائح وعن وجه دزرائيلى الرائع . وعن النطق الصحيح للاسماء البولندية وعن السرور الذى يشعر به عند قراءة الكتب القديمة بدلا من المخاطرة بقراءة كتاب جديد ، وعن أسكويت ولويد جورج ونهرو وأدناور والآب نوكس وليتون ستراتشى وعن انجلترا فى السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى وعن روعة انجلترا التى كانت تتميز بها هذه الايام المجيدة الغابرة وكيف أن جيلا بأكمله قدضاع وتمت التضحية به .

وفى النهاية سألته عما يؤمن به أكثر من أى شىء آخر. وقد وجهت هذا السؤال إلى كثير من الشخصيات البارزة من قبل وحصلت على إجابات حية مختلفة . وربما كان من المنتظر أن يجيب رئيس الوزراء بأنها انجلترا أو التحالف الانجلو ـ أمريكى أو التطور أو روتين الحياة الارستقراطية القديمة أو الشعب، ولكنه أجاب بقوله « الله » .

الخلاصة

إن مستر ماكميلان — مثل غيره من رؤساء الوزارات — إنسان معقد، غير أنه يتميز بصفة أساسية وهى أن طريقة معالجته للمشاكل دائما مباشرة ومبتكرة . وتخطر ببالى ثلاثة أشياء .

أولا — أن رئيس الوزراء أصبح مقتنعا فى أوائل عام ١٩٥٩ بأن الموقف الدولى يتدهور بشكل جدى بحيث إنه لابد من عمل شىء للقضاء على كل احتمال فى نشوب صراع مكشوف ، ولذلك فانه قرر الذهاب إلى موسكو شخصيا وبحث الأمور ودرس احتمال التفاهم مع مستر خروشوف .

ثانياً — أنه قام برحلة فى أنحاء افريقيا طولها ١٨ ألف ميل فى شهر يناير من عام ١٩٦٠ زار خلالها جنوب افريقيا والقى خطبة من أروع الخطب التى القاها فى حياته أشار فيها إلى قوة الضمير الوطنى الأفريقى متقبلا هذه القوة على أنها حقيقة طبيعية وأنه قد تهب «رياح التغير» فى أنحاء القارة على الرغم من أنه كان يعرف أن هذه العبارة قد تثير تبرم المستمعين .

ثالثاً — أنه حاول — بعد إنهيار مؤتمر الاقطاب المنعقد فى جنيف عام ١٩٦٠ — أن يخفف الضغط الشديد الواقع على روسيا بينما كان خروشوف مثيراً للغاية فى حديثه عن حادث الطائرة رب — ٤٧ وعن الكونغو ونزع السلاح . وقد جلس ماكميلان وكتب اليه رسالة شخصية قال له فيها العبارة التالية : «انى ببساطة لا أفهم ما هو غرضك اليوم » . والواقع أنه لم تصل إلى الزعيم الروسى أية رسالة عن الشئون السياسية الكبرى بهذه العبارات الشخصية وغير الرسمية . وقد كان لها أثر سريع .

وهناك أشياء سلبية يمكن أن تقال عن مستر ماكميلان ، ولكن لا أحد يشك فى أنه رجل حسن النية وعميق .

الهيئة الجامدة والمعارضة

عشت فى انجلترا حوالى ستة أشهر فى عام ١٩٥٨ ، ولكننى لا أذكر أنى سمعت كلمة « الهيئة الجامدة » ولكن عندما عدت إلى لندن فى عام ١٩٦٠ كان هذا اللفظ على كل لسان . والواقع أن هنرى فيرلى الصحفى والمعلق التلفزيونى المثير ، هو الذى اختلقها فى مقال له بمجلة « سيكتاتور » منذ بضعة سنوات ، غير ان الفكرة التى أراد مستر فيرلى أن يحددها ليست بجديدة على انجلترا ، إذ أننى كنت أشعر بنفس الفكرة عند محاولتى القيام بتحليل الهيئة التى تقوم بحكم بريطانيا فأطلقت عليها الدائرة المعلقة فى عام ١٩٣٦ ، ولم أكن أنا الوحيد الذى توصل إلى ذلك . ومن بين الأشخاص الجامدين الذين أدخلتهم فى هذه الحلقة ستانلى بولدوين ولورد تيرل ، وجوفرى دوسون ، الذى يكتب فى التايمز ، ولورد سالزبورى (ولورد سالزبورى الحالى) ومونتاجيو نورمان ، الذى كان يعمل محافظا لبنك انجلترا حينئذ ، ولورد ديربى والسيد موريس هانكى .

ولكننى أضفت إلى ذلك أنه لا يمكن أن يتفق مراقبان معاً على جميع الأسماء السابقة الذكر باستثناء بولدوين . ويجب ألا يحاول أحد أن يحدق أن الطبقات الحاكمة فى المملكة المتحدة تؤلف هيئة تستطيع أن تجتمع فى حجرة واحـــدة ، وتنتخب من بينها رئيساً أو تقوم بالوظائف الهامة ، فليس فى انجلترا أقلية حاكمة قوية ومترابطة مثل تلك

الأقلية التى كانت ممثلة فى فرنسا قبل الحرب فى مديرى بنك فرنسا .
وإننى أكرر الآن ما سبق أن كتبته فى عام ١٩٣٦ من أن قوة الطبقات الحاكمة فى بريطانيا هى ليونتها . فقد ينتمى أحد الأشخاص إلى أقدم الأسر فى الجزر البريطانى ، ولكنك مع ذلك لا تدخل هذه « الحلقة » فليست العقول أو الثروة أو المركز المعيار الوحيد للدخول فى هذه . بل إنها جميعاً تساعد على ذلك .

والآن كيف يمكن أن نعرف « الدائرة المغلقة » ؟ . . ومن الذى يحكم انجلترا ؟ . . إن تعريف مستر فيرلى يؤكد بقاء الرغبة فى استمرار الأشكال والصور القديمة ، مع احترام أوامر المجتمع المحافظ وامتيازاته وأسراره ، وهو يضيف إلى ذلك قوله :

إن « الهيئة الجامدة » ليست هى « الصفوة التى بيدها السلطة » فعلى سبيل المثال يستطيع صاحب إحدى الصحف أن يباشر نفوذاً كبيراً ولكنه قد لا يدخل فى « الهيئة الجامدة » . (وهذا تعريف للهيئة الحاكمة) وإننى أشك فى أن يستطيع أى عضو من أعضاء حزب العمال أن يعتبر نفسه عضوا حقيقياً فى « والهيئة الجامدة » حتى وإن تولى منصباً رسمياً . ويجب ألا يخفى عنا عامل الدين ، فجميع أعضاء هذه « الهيئة الجامدة » يدينون بالولاء — على الأقل — رسميا إلى الكنيسة الإنجليكانية . . ولا أعتقد أنها تضم أى عضو يهودى . وهى أبعد منالا بالنسبة للكاثوليك . وعلى الرغم من أن عدد الأعضاء اليهود فى مجلس العموم يبلغ ٢٢ عضوا (من بين العدد الإجمالى البالغ ٦٣٠) .

فإن عضوين فقط منهم من المحافظين . . ويعيش فى انجلترا حـــوالى خمسة ملايين من الكاثوليك ، ولكن لا يمثلهم فى مجلس العموم سوى خمسة وعشرون عضواً من بينهم ١٤ عضواً محافظاً ، ١١ من حزب العمال .

ولا تتوقف العضوية فى « الهيئة الجامدة » هذه على الطبقات أو حتى المال ، لأن الطبقات ليست بالأهمية التى قد يظنها المرء ، فلو ارتفع طفل فقير من الأحراش وأصبح خطيباً فى مجلس العموم أو سكرتيراً لمجلس الوزراء ، فإنه يصبح عضواً ، مهما كان أصله وضيعاً وعلى العكس من ذلك فقد لا يدخل أغنى الأفراد من ذوى الدماء الزرقاء فى المدينة . وقد يعتبر أحد الشعراء مثل جون بتجامين عضواً هاماً فى « الهيئة الجامدة » التى ترحب أيضاً بالأساتذة والمدرسين الذى يشتغلون فى إحدى كليات جامعتى أكسفورد أو كامبردج ، فالمعاهد العليا أكثر أهمية من الأشخاص . . ولكن بعض الأشخاص يظلون أعضاء فى « الهيئة الجامدة » لمدى الحياة إذا فقدوا سلطتهم السياسية مثل سالزبورى الحالى .

وثمة نقطة أخرى هامة وهى أن كل من يدخل « الهيئة الجامدة » لا بد من أن يكون قد نجح فى مجاله بغض النظر عن نوع هذا المجال حتى وإن لم يكن ثريا . وهى فى الحقيقة هيئة تضم أولئك الأشخاص الذين وصلوا .

والواقع أننى رغم مدى عدم ذكرى للأسماء ، فإننى أدفع نفسى إلى

مخاطرة التعرض لمجادلات عنيفة واللوم عند ذكرى الأشخاص الذين يصبحون أعضاء فى هذه الهيئة المقدسة بحكم وظائفهم . أولا : رئيس الوزارة . وثانياً : وكيل وزارة الخزانة الدائم ، الذى يعتبر رئيساً للموظفين الحكوميين .

وقد لا يصبح عضواً فيها وزير الخارجية العصبى أو وزير الخزانة غـــير المعروف ولكن من المستحيل أن يستبعد منها رئيس الموظفين الحكوميين . ثالثا : كبير أساقفة كانتربورى ، وكبير أساقفة يورك أيضاً ، ورابعا محافظ بنك انجلترا .

وبعد هذه المناصب تصبح العضوية فيها أوسع نطاقاً . . وعادة ما يدرك معظم الناس فيها رئيس تحرير صحيفة « التايمز » ومدير هيئة الإذاعة البريطانية والسكرتير الخاص للملك أو للملكة وبعض رجال الدين و ٥٠ من خريجى أكسفورد ذوى العلم ، وعادة ما يكون لكبار رجال الاقتصاد أهلية الانضمام إليها على الرغم من أنه ليس هناك أى اقتصادى الآن فى مرتبة السير جرزياً سنامب قبل الحرب .

ولكن يجب أن يكون الشخص على حذر لأن هذه الشخصيات الرفيعة لا تجتمع معا فى حجرة واحدة ولا تحتسى بعض المشروبات أو ترسم السياسة سوياً ، فمن المحال أن يحدث هذا ، فكثير من أجنحة الهيئة الجامدة لا تحب الأجنحة الأخرى ، وهى لا تتصل بغيرها من الأجنحة . إن جو الغموض يشوبها جميعاً فى انجلترا التى أصبحت لغزا غريباً . ولقد دهشت عند ما قال لى أحد النقاد : إن الانتخابات التى أجريت

أخيراً لتعيين مستشار لجامعة أكسفورد والتى فاز فيها مستر ماكميلان على السير أوليفر فرانكس السفير البريطانى السابق فى واشنطن كانت تعتبر هزيمة « للهيئة الجامدة » لا انتصاراً ، ولكن مستر ماكميلان نفسه هو طبعاً رئيس « الهيئة الجامدة » وقلبها ، فكيف يمكن أن يعتبر فوزه فى الانتخاب بإحرازه لعدد أكبر بقليل من الاصوات التى حصل عليها منافسه هزيمة ؟ . .

ولكن يبدو أن الرد على هذا السؤال هو أن المدرسين والأساتذة فى أكسفورد يمثلون عنصرا نادرا فى « الهيئة الجامدة » وأنهم كانوا يريدون أن يحصل فرانكس — وهو أحدهم — على هـــذا المنصب دون أى شخص غريب عليهم مثل ماكميلان .

وهناك أحداث معينة هامة تصبح ذات أهمية كبرى فى تطور « الهيئة الجامدة » وهى تقوم بدورها على هذه الأحداث ومن هذه الأحداث أزمة التنازل عن العرش فى عام ١٩٣٦ فقد كانت « الهيئة الجامدة » ـ الممثلة فى شخص مستر بولدوين ، وكبير أساقفه كانتربورى تفضل تنازل إدوارد الثامن عن العرش على تقبلهم لمسز سمبسون ملكة عليهم . وهكذا تنازل إدوارد عن العرش .

وثمة حادث هام آخر هو أزمة السويس ، فقد تعرضت « الهيئة الجامدة » لهزات عنيفة فى ذلك الوقت ، ولكنها صمدت أمام جميع الأحداث وقد التقيت ببعض الأعضاء البارزين فى « الهيئة الجامدة » الذين يميلون إلى الجدل ويرحبون بالهزيمة فى بعض الأحيان على الطريقة البريطانية

الغربية . . والنظرية التى يقيمون عليها حجتهم هى أنه من صالح الهيئة الجامدة أن تدرك أنها لا تهيمن تماما على السلطة حتى وإن كانت تحكم البلاد .

« باقة » من المحافظين

لا شك فى أن ر. ا. بتلر هو الشخصية الثانية فى الأهمية بعد ماكميلان ، ويميل الكثيرون إلى ماكلويد الذى تعرضنا له فى فصل سابق . وهناك وزراء آخرون ذوو مكانة هامة عند الناس مثل بيتر ثورنيكروفت الذى كان فى يوم من الأيام وزيرا للمالية وأصبح وزيرا للطيران ، وربما كان أكثر الشخصيات جاذبية ودنكان سانديز (وزير الدفاع السابق وزير علاقات الكومنولث حاليا وهو أكثرهم عنادا وصلابة وسلوين لويد وزير الخارجية السابق ووزير الخزانة حاليا وهو أكثرهم نشاطا وأحدهم ذكاء وأير أوف هوم ، فى وزارة الشئون وعضو مجلس اللوردات وهو أكثرهم أدباً ودافيد أكليس وزير التعليم وهو أقلهم شعبية ولورد ميلز الصراف العام وهو أقربهم إلى رئيس الوزراء ، وجون هير وزير العمال وهو ذو مستقبل باهر وهارولدواتكنسون وزير الدفاع وهو أقلهم نشاطاً ولورد هاليتام وزير العلم وسوف نتحدث عنه فيما بعد ولكنه فى الحقيقة رجل ألمعى واينوك باول » وزير الصحة ، وهو أشد الوزراء إخلاصا فى العمل وأكثرهم شجاعة وكريستوفر سومز وزير الزراعة وهو من ألطف الوزراء ، وارنست ماربلز وزير المواصلات وهو أكثرهم استعراضا

وريجنالد مولنج ، وزير التجارة ، وهو أكثر الوزراء انشغالا .

ولد ريتشارد أوستن بتلر المعروف للجميع باسم « راب » فى الهند فى عام ١٩٠٢ .

كان أبوه المرحوم سير مونتا جيوسى « د » . بتلر حاكم الولايات الوسطى فى ذلك الوقت كما كان استاذا فى كلية بمبرول بجامعة كامبردج وعمدة لكامبردج . وكان بتلر الابن متفوقا فى الدراسة فى كامبردج وقد بدأ حياته معيدا بالجامعة، كان خجولا ومثقفا ولذلك فإنه ظل دائم الدرس والتحصيل ، ويشغل مستر بتلر اليوم ثلاثة مناصب خطيرة فهو وزير للشئون الداخلية وزعيم مجلس العموم ورئيس حزب العمال .

وعندما أفلت منه منصب رئيس الوزارة الذى آل إلى ماكميلان أصيب بصدمة شديدة ، وهو يميل إلى الناحية اليسارية من حزب المحافظين مثله فى ذلك مثل ماكميلان وماكلويد .

والواقع أن الفضل يرجع اليه أكثر من أى شخص آخر فى وضع سياسة المحافظين الجديدة، وهو يعتقد اعتقادا راسخاً أن التخطيط والملكية العامة إلى حد ما وبعض مظاهر دولة الخدمات من الصفات التى يجب أن تتميز بها المجتمعات الحديثة » . وكان بتلر هو الذى يزود ماكميلان بالافكار التقدمية ولذلك أطلق عليه « الاشتراكية الخفى » .

وهو يعيش فى ايسكس ويهوى الزراعة إلى حد كبير، كما أنه ظل يمثل دائرة ريفية باستمرار منذ عام ١٩٢٩ . وقد ركز معظم اهتمامه على الهند والشئون الخارجية . وكان المساعد الايمن لنيفلى تشامبرلين فى فترة

محادثات ميونيخ . وكان دافيد لويد جورج يسميه « بالماكر الذكى »
ولم يكن هذا التعليق فى غير موضعه إذ أنى أ ذكر أنى اجريت مع
مستر بتلر حديثا صحفيا طويلا فى الأسبوع السابق لاعلان الحرب فى عام
٩٢٩، عندما كان يشغل منصب نائب وزير الدولة للشئون الخارجية
ولم أنس أبداً براعته فى الاجابة على الأسئلة ووضوح أفكاره وعمقها
ويحب بتلر التخطيط ويولع به ففى وزارة تشرشل أصبح رئيساً لمجلس
التعليم فى عام ١٩٤١ ومعنى ذلك أنه لم يكن من الشخصيات التى لعبت
دوراً رئيسياً أثناء الحرب العالمية ويقال إن بتلر شكر تشرشل عندما
أسند اليه هذا المنصب فاجابه تشرشل قائلا : « أتشكرنى على ذلك !أننى
كنت اقصد بها ان تكون اهانة » غير أن هذه القصة غير مؤكدة .
ولكن بتلر أبدى نشاطاً كبيرا فى منصبه التعليمى هذا وأصبح بعد ذلك
وزيرا للعمل ثم وزيراً للمالية وأصبح فى يناير من عام ١٩٥٧ وزيراً
للداخلية . وقال أخيراً إنه يريد أن يطبق سياسة « محافظة وموحدة
وانشائية » . وعندما رأيته فى العام الماضى وسألته عن التغيرات الكبرى
التى حدثت فى بريطانيا فى ربع القرن الماضى ذكر لى تغيرين وهما
القضاء على البطالة تماماً واختفاء الخلافات الرئيسية بين حزبى العمال
والمحافظين إلى حد كبير .

هناك عقلية أخرى راجحة فى مجلس الوزراء وهى عقلية لورد هيلشام
فقد ولد كوينتين ما كاريل هوج فى عام ١٩٠٧ وكان أبوه من المحكمين
البريطانيين المشهورين وأمه أمريكية . وقد خلف أباه فى مجلس اللوردات
فى عام ١٩٥٠ ومنذ ذلك الوقت لم يعد عضوا فى مجلس العموم . وكان

يقاوم بشدة انضمامه إلى مجلس اللوردات بل إنه طلب السماح له رسميا بالاستمرار فى عضوية مجلس العموم رغم أنه أصبح لوردا دون أن يكون له الاختيار . . ولو تمكن هيلشام من أن يظل عضوا فى مجلس العموم لأصبح بالتأكيد مرشحا قويا لرياسة الوزارة وإن كان لا يزال يرشح لها . وقد وقع فى أواخر عام ١٩٦ حادث مماثل لأحد النواب الأعضاء فى حزب العمال وهو أنتونى ويدجوود بن الذى خلف أباه فى مجلس اللو دات وأصبح الفايكونت ستانسجيت . وقد بذل بن مقاومة شديدة لتعيينه عضوا فى مجلس اللوردات على أساس الوراثة وقام بحملة عنيفة باحتفاظه بحق رفض هذا اللقب . ولكن ذهبت جهوده عبثاً . إن الساسة البريطانيين يضطرون فى بعض المناسبات إلى دفع ثمن التقاليد التى بدونها تغيروا وتغيرت حياتهم .

وكان لورد هيلشام متفوقا فى « ايفون » و « كرايست تشيرش بجامعة اكسفورد واشتغل بالسلك القضائى مثل والده ثم أصبح مستشارا للملكة فى عام ١٩٥٣ . وعندما تولى ذلك المنصب كان قد دخل فعلا مجال السياسة . وبعد أن خدم فى الجيش أثناء الحرب الأخيرة وأبلى فيها بلاء حسنا عين اللورد الأول فى الامبريالية ثم عين وزيراً للتعليم ورئيساً للمجلس التعليمى وعين أخيراً وزيراً للعلم . والواقع أن هذا المنصب الجديد الذى لا يوجد فى معظم الحكومات الكورية يعتبر تجربة له ولا يتبع هيلشام سوى عدد قليل جدا من الموظفين -- وفى رواية أن الموظفين فى وزارته يمكن أن يوضعوا فى سيارة أتوبيس عادية ـــ ولكن رغم ذلك فإن هذه الوزارة مسئولة عن وضع

وتنسيق سياسة العلم الحكومية . . ويعتبر العلم اليوم فى غاية الأهمية لبريطانيا، مثله فى ذلك مثل الدفاع، لأن كل موضوع من هذين الموضوعين يرتبط ارتباطا وثيقا بالموضوع الآخر .

وعندما تحدثت إلى هيلشام ذكر لى أنه يعتقد أن التغيرين الهامين فى انجلترا اليوم اللذين يميزانها عن انجلترا فى السنوات السابقة هو أولا عدم احتياجها إلى المساعدات الخارجية التى كانت تحتاج إليها فى الفترة السابقة على الحرب مباشرة وثانيا انخفاض الفوارق الطبقية إلى درجة كبيرة .

ويتميز كل من بتلر وهيلشام بالشعور بالفشل وإن اختلفت أسباب ذلك بالنسبة لكل منهما، ولكن كلاهما يتسم بالصلابة البريطانية العتيقة وإن كانا لا يظهران هذه الصفة .

جيتسكيل والمعارضة

ذكرت جيتسكيل مرارا فى الفصول الثلاثة السابقة، وأنه لما يسرنا أن نتعرض لوصفه ثانية ، فلم يكن سوى القليل من زعماء حزب العمال البريطانى فى موقف أصعب من موقف جيتسكيل ولأخطاء لم يقعوا فيها . . وربما كنا على حق إذا قلنا إن أيام جيتسكيل كزعيم للحزب أصبحت معدودة ، غير أن هذا الوضع سيصيب حزبه وبلاده بخسارة فادحة قد لا يمكن معالجتها . والواقع أن الذى أضر به فعلا هو فشل حزب العمال فى الانتخابات العامة ثلاث مرات متتالية على

الرغم من أنه لم يكن هو زعيم الحزب فى المرات الثلاث ولكن على الأقل ليس من اليسير على زعيم الحزب أن يظل فى منصبه بعد الفشل مرتين ، والمثال على ذلك أدلاى ستيفنسون . ونضيف إلى هذا العامل الانقسامات الخطيرة التى حدثت داخل الحزب نفسه . والواقع أن حزب العمال يتعرض للخطر سريعاً لأنه يفتقر إلى أية سياسة قوية وحيوية .

ولد هيو نيلور جيتسكيل فى عام ١٩٠٦ وهو ينتمى إلى إسرة متوسطة الحال فقد كان أبوه موظفا فى الهند والتحق هو بونشستر مثله فى ذلك مثل الكثير من الأعضاء البارزين فى حزب العمال . ومن بينهم مثلا ريتشارد كروسمان ثم التحق بنيو كوليدج باكسفورد حيث تخرج بمرتبة الشرف الأولى .

وقـــد أصبح اشتراكيا أثناء الاضراب العام الذى حدث فى عام ١٩٢٦ ثم انخرط فى سلك التدريس ثم أصبح فى خلال فترة قصيرة رئيسا لقسم الاقتصاد السياسى فى جامعة لندن وقد لعبت زوجته الصغيرة السن والتى تتميز بالحيوية الشديدة والنشاط المستمر والولع الشديد بالسياسة ـ لعبت دورا كبيرا فى حياته العملية ، ويعيش هو وزوجته فى منزل مريح وهادىء فى هامستيد ولهما ابنتان . . وتعيش أسرة جيتسكيل حياة سعيدة كما أنها تهتم بكل مظاهر الحياة وتتميز بالتعاون والاتحاد ويلتقى بها المرء فى الحفلات التى يقيمها والتى يعمها المرح والبساطة والابتعاد عن الرسميات (وجدير بالذكر أن مسز جيتسكيل هى التى تطهى المأكولات) ـ يلتقى

المرء أشخاصا مختلفين من أكثر خريجى أكسفورد تزمتا إلى الفنانين الشبان الفقراء .

ويتميز جيتسكيل بحب الاستطلاع الشديد وباتساع الأفق الثقافى وقد التقى به بعض الأصدقاء بعد أن ألقى سلسلة من المحاضرات فى هارفارد أثناء زيارته نيويورك وكان هؤلاء الأصدقاء يأملون فى أن يسألوه عن السياسة البريطانية . ولم يبد مستر جيتسكيل أى امتعاض من توجيه الأسئلة إليه ولكنه أدار دفة الحديث وأخذ يسألهم أسئلة قوية وكثيرة عن حالة القصة الطويلة الأمريكية .

ولكن يجب أن نستأنف الآن وصف حياته العملية فى مجال السياسة فعندما نشبت الحرب العالمية الأخيرة التحق بسلك الوظائف الحكومية وأصبح السكرتير الخاص لهيو دالتون وزير الرفاهية الإقتصادية. وسرعان ما صبح من أكثر الناس صلة بدالتون وكأنه ابنه وانتقل معه إلى وزارة التجارة ، وفى عام ١٩٤٥ انتخب عضواً فى مجلس العموم ثم تولى منصباً ثانوياً فى وزارة أتلى وأصبح وزيراً للوقود والطاقة فى عام ٩٤٧ رغم أنه لم يكن قد مضى على عضويته فى البرلمان سوى عامين فقط . وقلما ارتفع شخص بهـــذه السرعة . وأصبح لفترة قصيرة وزيراً للدولة للشئون الاقتصادية .وفى عام ١٩٥٠ أصبح وزيراً للمالية وكان أصغر وزير للمالية فى خلال نصف قرن مضى إذ كان يبلغ الرابعة والأربعين .

وبدأ فى ذلك الوقت يتعرض لهجوم عنيف إذ قامت بينه وبين أنورين بيفان سلسلة من المنازعات كانت إحداها عندما فرض جيتسكيل

رسماً صغيراً ومؤقتاً على الخدمات الصحية لتعزيز سياسة التسلح . عندئذ ثارت ثائرة بيفان وأخذ يهاجمه بعنف فرد عليه جيتسكيل بالمثل . وقد تولى جيتسكيل بعدئذ منصباً متوسطاً فى الحزب، وكان بمثابة القنطرة بين الجناحين الأيمن والأيسر . وأصبح فى عام ١٩٥٤ أمينا لصندوق الحزب، ثم انتخب زعيما للحزب بعد اعتزال مستر أتلى فى عام ١٩٥٥ ،

ومن أهم الصفات التى تميز شخصيته وضوح أفكاره إذ أنه يتمتع بقدرة لا مثيل لها على تلخيص المشاكل بوضوح ودقة ، وهو يتمتع أيضاً بقدر كبير من النشاط والحماس الشديد للتمام والتجارب وبالشجاعة النادرة وإلى جانب ذلك فهو من أكثر الناس كرماً وطيبة، ولا ينكر أحد براعته فى الجدل والمناقشة . ويظن البعض أنه جاف فى مناقشاته ولكنه فى الحقيقة جذاب للغاية . ويتوصل إلى هذا الرأى كل من استمع إليه فى برامج إذاعة نيويورك فى أن يفحم بعض المعارضين له فى مناقشة دارت حول السياسة الخارجية .

وجيتسكيل رجل عملى . وقد أدت به هذه الصفة إلى التعرض إلى الأزمة المعروفة حول « البند الرابع » من دستور الحزب الذى وضع عام ١٩١٨ وتتناول هذه الفقرة موضوع « التأميم » إذ أنها تدعو إلى تأميم الصناعة أى إلى الملكية العامة لوسائل الإنتاج والتوزيع والتبادل . ويعتقد جيتسكيل أن هذا التغيير لا يتمشى مع الظروف السائدة فى مجتمع ما بعد الحرب الأخيرة وأنه عبء ضخم يأخذه الحزب على عاتقه دون داع ، وكان موقفه حسنا ومعتدلا إذ أنه يعتقد أن « المشروعات العامة والخاصة لها مكانها فى الاقتصاد » . وكان

معارضو جيتسكيل — الذين كانوا يمثلون قوى مختلفة ومتشابكة داخل الحزب — كانوا يعتقدون أن هذه خيانة ، وأن الحزب يجب أن يلتزم سياسته القديمة ، ويحافظ على المفهوم المذهبي للاشتراكية المتزمتة والملكية العامة، حتى وإن أدى هذا إلى عدم فوزه ثانية فى الانتخابات ووصفوا سياسة جيتسكيل العامة — نحو صبغ الحزب بالروح الحديثة — « خيانة » . وقد أثرت هذه المناقشة على الجانبين إلى حد كبير لأنها أثارت الموضوع الحيوى الهام وهو تحديد معنى الاشتراكية الحديثة . وقد عقب شخص ما على موقف جيتسكيل قائلا فى تهكم « ان هيو لا يدرك مدى محافظة حزب العمال » .

والآن نعود إلى الحديث عن قصة انقسام حزب العمال من النقطة التى وقفنا عندها فى الفصل الخامس عشر . فالموضوع الهام والمؤلم حتما هو طبعا مشكلة نزع الأسلحة الذرية ووقف التسلح من جانب واحد . وينشب النزاع على مستويات متعددة، ولكننا نبسط الموقف قليلا ونقول إن أساسه هو النزاع الناشب بين عناصر مؤتمر نقابات العمال وحزب العمال البرلمانى . ولكى نفهم ذلك النزاع يجب أن نذكر كلمة تمهيدية عن حزب العمال بصفة عامة ويختلف هذا الحزب عن حزب المحافظين فى أنه لا يؤلف كيانا موحدا بل إنه أشبه إلى الحركة منه إلى الحزب أو أنه بالأحرى مجموعة تتألف من وحدات ترتبط ببعضها ارتباطا غير وثيق فهى تضم مؤتمر نقابات العمال الذى يتألف من ١٨٥ نقابة مستقلة وأحزاب العمال فى الدوائر الانتخابية — وهى عبارة عن حزب واحد عن كل دائرة ممثلة فى البرلمان — والجمعيات التعاونية وأخيراً حزب العمال

البرلمانى نفسه الذى يضم ٢٥٨ عضوا عماليا فى مجلس العموم .

ويتبع نقابات العمال حوالى ٩ر٧ مليون عضو — وليسوا جميعاً أعضاء فى مؤتمر نقابات العمال — ويبلغ رصيدها حوالى ٨٠ مليون جنيه وهى فى غاية الأهمية لأنها كانت من الناحية التاريخية الأساس الذى قامت عليه الحركة العمالية كلها . وكان الحزب بمثابة « السلاح السياسى » . . وهو مصدر للأموال فى الدوائر الانتخابية والبرلمان . وتخصص نسبة معينة من أموال معظم النقابات — من واقع اشتراكات الأعضاء للحزب لينفقها فى الأغراض السياسية . وبعض النقابات تسمى نقابات «دكتاتورية». وبعضها نقابات «ديمقراطية» وتعتبر «نقابة عمال النقل والعمال العموميين » من أكبر النقابات ويسيطر عليها الآن فرانك كزينس وكان يسيطر عليها ارنست بيفان فى وقت من الأوقات ويبلغ عـــدد اعضائها ٢ر١ مليون عضو ،

ومن النقابات الهامة أيضاً نقابة المهندسين المتحدة التى تغلغل الشيوعيون فى لجنتها الوطنية ونقابة عمال المناجم والنقابة الوطنية للعمال العموميين وعمال الشئون البلدية . ونقابات عمال السكك الحديدية الثلاث ونقابة عمال المحال التجارية والتوزيع المتحدين . وتعقد كل نقابة اجتماعا سنويا فى الربيع أو الصيف على أن يعقبه مؤتمر عام سنوى للحركة العمالية كلها فى الخريف وتؤخذ الأصوات فى هذا المؤتمر بالكتلات اى ان زعيم كل نقابة يدلى بصوت نقابته دون حاجة إلى اجراء استفتاء بين أعضاء هذه النقابات . وقد تعرض هـــذا النظام للهجوم الشديد بأنه غير ديمقراطى غيران المتمسكين به يقولون: ان رئيس نقابة قدانتخب بطريقة

ديمقراطية وهو يدلى بصوته ممثلا النقابة كلها وان هـذا النظام اشبه بنظام انتخابات رئاسة الجمهورية الامريكى الذى تؤخذ فيه أصوات الولايات .

وبدأت النقابات الواحدة تلو الأخرى . تتبع سياسة عدم التسلح من جانب واحد ونزع الأسلحة الذرية ، وقد سبق أن حاولت إيضاح أسباب ذلك من قبل . ولـكن هناك نقطة غريبة حقاً وهى أنه على الرغم من اتباع عدد كبير من النقابات لهذه السياسة منفردة فإن المجلس العام أو التنفيذى لم يوافق على هـــذه السياسة فقد وافق عليها سبعة أعضاء فقط من مجموع عدد الأعضاء البالغ ٣٧ عضواً وهناك نقطة أخرى وهى النفوذ الشيوعى الذى يلعب دوره وراء هـذه الحركة . فمن الناحية السياسية لا يقوم الشيوعيون بأى دور فى بريطانيا كما أن الحزب الشيوعى لم يحصل على أكثر من ٣٠ ألف صوت فى الانتخابات العامة التى أجريت فى أكتوبر من عام ١٩٥٩ . ولاشك فى أن هذا عدد ضئيل جداً، هذا فضلا عن أنه لم يفز أى مرشح شيوعى فى الانتخابات بعضوية البرلمان ولـكن رغم كل ذلك فإن نفوذه كبير فى عدد من النقابات مثل نقابة المهندسين والعمال الـكهربائيين . والغريب أن بعض رجال الصناعة المحافظين يميلون إلى تشغيل الشيوعيين فى مصانعهم إذ أن عمال المحال الشيوعيين أكفاء ونشيطون .

وقـد اجتمع المؤتمر السنوى لنقابات العمال فى جزيرة « مان » فى سبتمبر عام ١٩٦٠ وعرض كمينز مشروع قرار طالب فيه « برفض أية سياسة دفاعية تقوم على أساس تهديد الاسلحة الذرية » ونزع الاسلحة

أى أنه طالب بنهاية حلف شمال الاطلنطى والقواعد الأمريكية . وأكد فى خطابه ثورته ضد زعماء جيتسكيل للحزب قد تعقد الموقف بعد ذلك وقد أدلت « نقابة المهندسين المتحدة » وهى ثانى نقابة فى انجلترا بصوتها فى الجانبين أى انقسم الاعضاء وحدث نفس الشىء فى المؤتمر بصفة عامة وقد حصل مؤيد جيتسكيل للحزب وقد تعتمد ٠٠٠ر١٥٠ر٤ صوت مقابل ٠٠٠ر٠٦٠ر٣ صوت للابقاء على الرادع الذرى والسماح للقوات الأمريكية بالبقاء فى بريطانيا كلما اقتضت الضرورة ذلك غير أنهم فشلوا عندما أخذت الاصوات ثانية بأغلبية ساحقة وكان القرار هو بداية سياسة تقوم على أساس التهديد باستخدام الاسلحة الذرية واسفر ذلك الموقف عن بلبلة عامة .

انعقد المؤتمر السنوى لحزب العمال فى سكاربورو فى شهر أكتوبر وبعد أن انقسم حزب العمال البريطانى أستمر الرأى على اتباع برنامج تم فيه الموافقة على امتناع بريطانيا عن اتباع سياسة رادعة مستقلة مع التعهد بالوفاء بالتزامات بريطانيا ازاء حلف شمال الاطلنطى مع « الضغط من أجل تقليل الاعتماد على الأسلحة الذرية » ولم يكن هذا الوضع يرضى المتطرفين فى مؤتمر نقابات العمال وهكذا كسب كزيتس المعركة فى سكاروبورو وقد اتخذت عدة قرارات دلت على الموقف تماماً .

وقد اتخذ المهندسون قراراً طالبوا فيه صراحة بالامتناع عن إجراء « التجارب وصناعة الأسلحة الذرية وتكديسها فى بريطانيا وبناء قواعدها بها » وقد تمت الموافقة على هذا القرار بأغلبية ضئيلة أى بأغلبية ٠٠٠ر٢٤٠

صوت من مجموعة عدد الأصوات البالغ عددها حوالى ستة ملايين صوت واتخذ قرار آخر قدمته نقابة العمال العموميين وعمال النقل وقد ذهب هـذا القرار إلى أبعد من ذلك وتمت الموافقة عليه بأغلبية ٤٠٠٠ صوت . .

ونتيجة لذلك أصبح جيتسكيل يواجه حلين أو بالاحرى سبيلين إما أن يقدم استقالته من الحزب ويصبح من المحافظين أو أن يستميت فى القتال . وقد قرر القتال حتى النهاية من أجل حماية الحزب الذى يحبه وقال إنه سيكرس بقية حياته العملية ليعمل على تغيير قرارات سكاربورو وقلبها إن تطلب الأمر ذلك . وعندئذ حاول معارضوه فى حزب العمال البرلمانى منعه من رئاسة الحزب وكانوا يبررون تصرفهم هذا بأن مؤتمر سكاربورو قد تحدى زعامته هذه وأنه لم يعد يمثل وجهات نظر الحزب باجمعه، وكان رده عليهم أنه خادم حزب العمال البرلمانى الذى انتخب جميع أعضائه ولا يخضع لرؤساء مؤتمر نقابات العمال وأن هؤلاء الأعضاء انتخبوا عندما كان برنامجهم يتضمن التأييد التام لحلف شمال الاطلنطى والشخص الذى كان يريد انتزاع زعامة الحزب من جيتسكيل والذى كان يتحداه فى اجتماعات حزب العمال البرلمانى هو هارولد ويلسون العضو فى الوزارة البرلمانية الاسمية الذى كان من المقرر أن يتولى منصب وزير المالية لو عاد حزب العمال إلى الحكم . وفاز جيتسكيل بأغلبية ١٦٦ صوتاً مقابل ٨١ صوتاً . ويبدو أنه فاز بعدد كبير من الأصوات ولكن من الناحية الاخرى كان عدد الأصوات يدل على أن ثلث عدد أعضاء حزب جيتسكيل تقريباً لا يؤيدونه .

ولا شك أن هذا كان أصعب موقف واجهه جيتسكيل . والغريب فى الأمر حقاً أن ويلسون السياسى الماهر ليس من بين الذين ينادون بوقف بريطانيا عن إنتاج الأسلحة الذرية وخروجها من حلف شمال الأطلنطى .

وقد تعرض هذا النزاع لعدد كبير من التيارات الشخصية المتعارضة فقد عارض بعض الأعضاء جيتسكل فى موضوع النزاع الأساسى السابق الذكر ، بينما عارضه البعض على البند الرابع من دستور الحزب وعارضه بعضهم لا لأى سبب من الأسباب ولكن لمضايقته فقط ، فايمانويل شنويل الذى كان متفوقاً على جيتسكيل فى وزارة الوقود والطاقة وهربرت موريسون الذى تغلب عليه جيتسكيل فى زعامة الحزب فى عام ١٩٥٥ يكرهانه لأسباب شخصية . ويضم حزب العمال هيئات مختلفة أحدها المجلس التنفيذى الوطنى الذى ينتخب أعضاؤه بإجراء معقد والذى يرأسه ريتشارد كروسمان وغالبية أعضائه تؤيد جيتسكيل .

وهناك هيئة أخرى وهى التى تسمى بالوزارة خارج الحكم والتى اختارها أعضاء البرلمان من بين الأعضاء وبها على الأقل عضوان يعارضان جيتسكيل ، هما : ويلسون وفريدلى غير أن بقية الأعضاء يؤيدونه ويؤيده تأييداً تاماً كل من جورج براون نائب رئيس الحزب ودنيس هيلى المرشح لمنصب وزير الخارجية فى الحكومة العمالية وجيمس كالاجهان المتحدث الرسمى فى شئون المستعمرات وباتريك جوردون ووكر الوزير السابق لعلاقات الكومنولث .

ومن بين الأعضاء عضو يدعو بشدة إلى سياسة نزع السلاح من

بريطانيا وهو انتونى جرينوود ابن المرحوم ارثر جرينوود الذى كان من الوزراء البارزين أثناء الحرب الأخيرة . وقد ظل عضوا فى البرلمان منذ عام ١٩٤٩ كما ظل عضواً فى المجلس التنفيذى النوى منذ عام ١٩٥٤ وهناك عضو آخر يؤيد هذا الاتجاه وهو مايكل فوت الذى فاز بمقعد انورين بيفان القديم عن دائرة «ابوفيل» الذى بلغنى أنه «أكبر مشاكس فى انجلترا وهو ينتمى إلى أسرة بارزة فى ديفون وهو حر « تقليدياً » ويبلغ عمره سبعة وأربعين عاماً وهو يميل إلى الجناح الأيسر المتطرف وهو أحد أبناء سير ايزاك فوت المحامى والعضو الحرفى البرلمان. وأخوه هو سير هيو فوت وهو من حكام المستعمرات الاقوياء وكان الحاكم الأخير لقبرس، أما الآخر فيدعى دينجل وهو عضو عمالى فى البرلمان. ويقوم مايكل فوت بإدارة صحيفة (تربيون) لسان حال سياسة وقف إنتاج الأسلحة الذرية وهو شاب ألمعى .

وقد كان من أشد الناس اتصالا ببيفان ولكنه إنشق عليه عندما اتفق بيفان مع جيبتسكيل واتجه إلى الجناح الأيمن من الحزب ،وهناك عضو أخر يؤمن بعض هذه السياسة وهو « ميكاردوا » الذى فقد مقعده فى مجلس العموم عام ١٩٥٩ .

ويحق لنا أن نتساءل عن شخصية كزينس وحياته فقد ولد فى نوتنجامشير فى عام ١٩٠٤ وهو الابن الأكبر فى اسرته التى تضم عشرة أبناء وكان أبوه يعمل عاملا فى إحدى المناجم وقد اشتغل عاملا فى طفولته ثم تمكن من أن يحصل على قدر من التعليم , ثم برز بعدئذ مثله

فى ذلك مثل أنورين بيفان ، وقد اشتغل سائقا لإحدى عربات النقل فترة من الزمن ثم اندمج فى النشاط النقابى فى منتصف ثلاثينيات هذا القرن وقد ظل كزينس إشتراكيا يؤمن بمبدئه وهو من المتمسكين بالبند الرابع من دستور الحزب والمتعصبين له ، ولم يهتم بالشئون الدولية إلا أخيرا وهو من المتعصبين لسياسة الحياد ، ويتميز كزينس بمهارته فى التنظيم وبمقدرته الفائقة وهو من المتحدثين البارعين فى التليفزيون . ولم يكن أبدا عضوا فى البرلمان وهو السكرتير العام لعمال النقل وعضو المجلس العام فى مجلس النقابات منذ عام ١٩٥٦ .

والعمل القوى الذى حققه كزينس هو أنه حول أعمال النقل من نقابة يمينية كان يسيطر عليها أرنست بيفن وخليفته أرثر ديكن إلى منظمة يسارية ويعتبر هذا أكبر تطور فى الحركة العمالية فى بريطانيا منذ الحرب الأخيرة وقد وصف بأنه «أحدث الزعماء النقابيين وأكثرهم سفسطة . «ولكن لو تولت الحكم فى بريطانيا حكومة تخضع لنفوذه فقد يؤدى هذا إلى انفصال بريطانيا عن الولايات المتحدة ويكون ذلك بمثابة كارثة هائلة تصيب العالم الغربى .

وعلى عكس كنزينز فان جورج براون نائب زعيم الحزب الذى حل محل انورين بيفان فى الجناح الايمن وعلى الرغم من أنه كان عضوا فى نقابات العمال من قبل وأنه مازال عضوا فى نقابة عمال النقل فانه يتخذ موقفاً مماثلا لجيتسكيل فى معظم المسائل . وقد ولد براون الذى يبلغ عمره الآن ستة وأربعين عاما — فى ساوثورك ، وكان أبوه يعمل سائقاً

لسيارة نقل وترك المدرسة وكان عمره خمسة عشر عاما . وهو رجل عصامى يتميز بشخصية قوية وحيوية متدفقة . وهو على علاقة طيبة مع كزينس، كما أنه يعجب كثيراً بجيتسكيل على الرغم من أنه يعتقد أن جيتسكيل يبدو متكلفا فى بعض المناسبات ،وجدير بالذكر أنه اشتبك مع خروشوف عندما زار الزعيم الروسى لندن فى عام ١٩٥٦ فى حفل عشاء أقامه حزب العمال فى قصر كلاريدج،وقد وجد خروشوف أخيراً رجلا فى العالم الحر يستطيع أن يرد عليه بالعبارات التى يفهمها . وقد اتهم خروشوف البريطانيين باللين مع هتلر غير أن براون عارضه ودحض حججه .

أما هارولد ويلسون الذى نافس جيتسكيل فى زعامة الحزب فى أواخر عام ١٩٦٠ والذى مازال رغم ذلك عضوا فى الوزارة العمالية الاسمية فهو من يوركشير وكان أبوه يعمل كيميائيا ، وقد ولد فى عام ١٩١٦ . وقد ذهب إلى اكسفورد وظل مهتما بالأعمال التجارية . وقد شغل منصب وزير الوقود والطاقة فى عام ١٩٤٣ ودخل البرلمان فى عام ١٩٤٥ ثم أصبح رئيسا للغرفة التجارية فى عام ١٩٤٧ وكان على صلة وثيقة بانورين بيفان لبضعة سنوات وهو يوصف أحيانا بانه عضو *محايد ولكنه يميل الى الجناح اليسارى المعتدل فى معظم المسائل* . وقد زار مستر ويلسون موسكو عدة مرات لقضاء بعض الأعمال التجارية وهو متحدث لبق وجذاب . ولديه قصص مسلية ورائعة عن اجتماعاته بمستر ميكويان .

الأحرار

يردد البعض فكاهة طريفة مؤداها أن أى شخص يستطيع أن يكون حراً من أى لون من الألوان بشرط أن يكون لونه بنفسجياً (فيوليت) . وتشير هذه الفكاهة إلى الحقيقة المعروفة وهى أن ليدى فيوليت بونهام كارتر الابنة الكبرى لايرن اكسفورد واسكويت الزعيم الحر ورئيس مجلس الوزراء فى أثناء الحرب العالمية الأولى . .

وليدى فيوليت زوجة المرحوم سير موريس بونهام كارتر وهى

عظيمة الشأن . وجدير بالذكر أن الزعيم الحالى للحزب ويدعى جو جريموند قد تزوج فى عام ١٩٣٨ لورا ميراندا أبنة بونهام كارتر والواقع أن حزب الأحرار يكاد يقتصر اليوم على أفراد أسرة بونهام كارتر .

ويدعى مستر جريموند باسم جوزيف ، ولكنه يطلق على نفسه اسم جو وهو من أصل اسكتلندى وقد ولد فى عام ١٩١٣ وهو يمثل اوركنى وثتلاند منذ عام ١٩٥٠ واصبح زعيما لحزب الاحرار البرلمانى فى عام ١٩٥٦ ولايتفوق عليه فى الجاذبية سوى عدد قليل من الاشخاص البارزين فى الحياة العامة فى بريطانيا اذ انه ينعم بالجاذبية والسحر والمظهر الحسن والعقلية الحيوية . وقد التحق بإتيون وباليول وله سجل حافل فى الحرب . وقد اشتغل بالمحاماة . وهو يكتب كثيراً فى الشئون السياسية كما ان كتاباته رائعة . ويشبه له ايضا مارك بونهام كارتر الشاب الذى تلقى العلم فى جامعة

شيكاغو تزوج ابنة الناشر الامريكى كوندى ناست . وقد كتب عدة مقالات فى مجلة « انكاونتر » .

وللاحرار اليوم ستة مقاعد فقط فى مجلس العموم بعد ان بلغ حزبهم الذروة فى أيام جلادستون. ولكنهم على أى حال حصلوا على ٠٠٠ر٦٤٠ر١ صوت أى ٩ر٥٪ من مجموع اصوات الناخبين فى عام ١٩٥٩ . وكان حزبهم هو الحزب الوحيد الذى حصل فى عام ١٩٥٩ على عدد من الاصوات اكثر من العدد الذى حصل عليه فى الانتخابات العامة السابقة . وجدير بالذكر ان الأحرار قد حققوا لأنفسهم المركز الثانى فيما لا يقل عن ٢٧ دائرة انتخابية إلى جانب الدوائر التى فازوا فيها ، رغم أنهم لم يرشحوا سوى ٢٢١ شخصاً فقط فى الانتخابات . وهناك شك كبير فيما إذا كان فى الإمكان انعاش الحزب ثانية حتى يصبح قوة حقيقية . ولكن معظم الأحرار يعتقدون — عن حق — أنه لابد من وجود مكان لحزب وسط بين المحافظين المتطرفين والجناح لأيسر العمالى والشيء الذى يريد أن يحققه جريموند هو اقامة « حزب تقدمى على أساس كبير مع وضع الملكية الاشتراكية بدلا من التأمين ويعارض الحزب بشدة مبدأ الحياد، والتوقف عن انتاج الأسلحة الذرية .

حلف شمال الاطلنطى

نعود الآن إلى الحديث عن حلف شمال الاطلنطى ،أى « ناتو » . والفكرة السائدة اليوم هى الشك فى فعالية هذا الحلف والاعتقاد

بالعبارات التي قالها الجنرال ديجول فى وقت من الأوقات أي «أنه بنيان كان يقصد به مواجهة ظروف لم يعد لها وجود اليوم » ، أى أنه قام فى عام ١٩٤٩ ، قبل أن يدرك أى شخص الأشياء التى ينطوى عليها عصر الذرة . ولم يتوقع الا القليلون أن يمتلك الاتحاد السوفيتى القنبلة الذرية وأن يمضى فى انتاج الصواريخ العابرة للقارات التى تستطيع أن تعبر المحيطات بسرعة هائلة والصواريخ التى تستطيع الوصول إلى القمر .

ولم يفكر الكثيرون فى أن تتمكن القوات البرية من حمل الأسلحة الذرية ، أى أن الأعتبارات الذرية قد غيرت تماما النظم الاستراتيجية والنظم التكتيكية فى نفس الوقت .

وقد كتب ليبمان فى يونيو من عام ١٩٦٠ يقول . « إننا رفضنا ان ننظر إلى الحقيقة النوية الدامغة ، وهى أنه بمجرد أن يصبح لدى الاتحاد السوفيتى قوة ذرية ، فان الدول المحيطة به لن تتمكن من الدفاع عن نفسها . »

وكان المقصود من قيام منظمة حلف شمال الاطلنطى ايجاد قوة عسكرية دولية تستطيع فى حال الطوارىء وقف الروس بريا ، أو على الأقل تعطيلهم ، ان هم حاولوا الزحف نحو أوروبا فى حال الطوارىء .

والواقع أن حلف شمال الاطلنطى مازال يعد ذا قيمة هامة فى الوقوف أمام روسيا كدرع حام لأوروبا ، وسيف مسلط أيضاً لم يبلغ أبداً القوه التى كان المفروض أن يبلغها ، ولاشك فى أن الجيش السوفيتى الذى يتألف من ست وتسعين فرقة ، والمجهز بالأسلحة الذرية والصواريخ

والذى يضم قوات سهلة التحرك ، يستطيع أن يصل إلى المحيط الاطلنطى فى خلال أسابيع . ولكن رغم ذلك، فان حلف شمال الاطلنطى قوى، اذ زغم أن قوته قليلة العدد ، إلا أنها مجهزة تجهيزاً تاما ، أى أنها قد تقلل من سرعة الزحف السوفيتى إلى حد ما ، وقد تتمكن من اجبار الروس على استخدام قوات احتياطية ومن حرمان الروس من الأراضى التى يأمل الجيش الأحمر فى احتلالها سريعاً بناء على النظرية القائلة : بأننا — نحن الامريكيين — فى هذه الحال لن نجرؤ على القاء القنابل الذرية على السكان المدنيين الذين على علاقة طيبة مع أمريكا مثل ألمانيا الغربية أو دول الاراضى الواطئة ، أو فرنسا .

وما زال حلف شمال الاطلنطى على جانب كبير من الأهمية من الناحيتين النفسية والسياسية . وعلى أية حال فقد ظل هذا التحالف قائماً مدة اثنى عشر عاما أمام الصعوبات العنيفة التى واجهته. ولم تقم فى فرص السلم أية قوة دولية مماثلة له وتضم خمس عشرة دولة منتشرة فى رقعة تمتد فى نصف مساحة الكرة الأرضية .

ومن نقاط الضعف فيه بنيان القيادة المعقدة والبطىء ، ويتهكم البعض عليه بأنه لم يحدث فى التاريخ أن قامت القيادة الضخمة بتوجيه مثل هذه القوات القليلة العدد .

وثمة نقطة ثانية وهى أن المنظمة لا تعمل باعتبارها منظمة عسكرية ايجابية إلا أثناء المناورات، ونقطة الضعف الثالثة هى أن كثيراً من الدول لم تتبرع بالكثير لهذه المنظمة باعتبارها قوة عسكرية جدية ، ويستخدم البعض عبارة التبرع وكأنهم يتحدثون عن احدى الجمعيات الخيرية .

وأخيراً يجدر بنا أن نذكر أنه قد ظهرت صعوبات سياسية شديدة حول طول أوروبا وعرضها . وأحدها النزاع الذى نشب بين اليونان وتركيا حول قبرص والذى جعل قيام التعاون الفعال فى شرق البحر الأبيض المتوسط مستحيلا على أى مستوى من المستويات

وثمة سبب آخر للنزاع وهو السماح لأسبانيا بالانضمام اليه . وثمة نزاع طويل الأجل حول اتخاذ المياه البرتغاليه مقراً لقيادته ، ونزاع آخر ، وهو الاهم ، وهو دور فرنسا فى هـذا الحلف . إذ أن ديجول يعمل على اتخـــاذ سياسية للرادع الذرى مستقلة عن الحلف ،وعندما استاء من تصرف بريطانيا والولايات المتحدة ، الذى اعتبره مشينا بالنسبة لفرنسا . . فانه لم يخرج المقاتلات الامريكية من الاراضى الفرنسية فحسب ، بل أنه سحب أسطول البحر الأبيض المتوسط من حلف شمال الاطلنطى .

والواقع أن متاعب ديجول كثيرة ، فهو يعتقد أن الولايات المتحدة تميل إلى بريطانيا وتستهزىء بفرنسا فى تبادل المعلومات السرية . وترد أمريكا على ذلك بأنها لا تثق فى فرنسا وهو يشعر أيضاً بأن فرنسا لم يكن لها سوى نصيب ضئيل فى مسئوليات القيادة العليا للقوات فى أوروبا تخضع لرجل أمريكى هو الجنرال لويس نورستاد .

ورغم أن القيادة العليا للقوات فى أوروبا تتبعها ثلاث قيادات أخرى ، الشمالية ومقرها أوسلو وهى بريطانية ، والجنوبية فى نابولى وهى أمريكية . وعلى الرغم من أن الفرنسيين يحتلون مركزاً حيويا

فى الحلف فان القيادة الثالثة التى مقرها مالطة فى البحر الأبيض المتوسط تخضع لبريطانيا. هذا كما أن القائد الأعلى لحلف شمال الاطلنطى (وهو الاميرال روبرت دنيسون الذى يتخذ من نورث فولك بولاية فرجينيا مقراً له) فهو أمريكى ، أما القائد العام للقوات المتحالفة فى القناة البريطانية فبريطانى الجنسية وهو الاميرال سير ستانلى باور ويتخذ مقره فى بورتسماوث بانجلترا . أما السبب الثالث لغضب ديجول فهو أن جزءا كبيراً من الجيش الفرنسى يتماتل باستماتة فى الجزائر، رغم أنه مخصص من الناحية الفنية لحلف شمال الاطلنطى بينما تقضى معظم القوات الأمريكية والبريطانية والأوربية الأخرى فى حلف شمال الاطلنطى وقتها على ضفاف الراين .

وفى أوائل عام ١٩٦١ كان يتبع حلف شمال الاطلنطى إحدى وعشرين فرقة ونصف الفرقة فى غرب أوروبا مقابل قوة روسيا التى قد لا تقل عن مائة فرقة عند قيام أية عمليات عدوانية . وتتألف فرق حلف شمال الاطلنطى مما يأتى :

خمس فرق أمريكية وثلاث فرق بريطانية (وكان لبريطانيا أربع فرق منذ وقت قريب) وسبع فرق ألمانية وفرقتان من كل من فرنسا وبلجيكا وهولندا . أما نصف الفرقة فهى من كندا

وهناك أمل فى أن تنضم إلى قوات الحلف قريباً خمس فرق ألمانية فى أواخر عام ١٩٦١ . وهذا هو الحلم الذى يتوق اليه فرانز جوزيف ستراوس وزير الدفاع الالمانى .

وجدير بنا أيضاً أن نذكر القوات الأخرى التابعة للحلف غير القوات التى ترابط فى جبهة ألمانيا الغربية . وهى عبارة عن اثنتى عشرة فرقة فى تركيا وسبع فى ايطاليا وخمس فرق فى اليونان وفرقة واحدة فى كل من الدانمرك والنرويج وبعض القوات فى البرتغال . ويضاف إلى ذلك أيضاً الاسطول السادس الذى يتخذ من نابلى مقرآله والقواعد الجوية الكثيرة والضخمة فى جميع أنحاء ألمانيا الغربية وقواعد الصواريخ « جوبيتر » فى ايطاليا وتركيا .

وهناك بعض التفاصيل الجديرة بالاهتمام وهى احتلال كثير من الخبراء العسكريين الألمان لمناصب هامة فى حلف شمال الاطلنطى . ومنهم الجنرال أدولف هويزنجر الذى كان رئيساً للعمليات فى أثناء الحرب العالمية الثانية والذى يتولى منصب المفتش العام فى « بوندسفير » .

وفى شهر ديسمبر عام ١٩٦٠ أصبح هويزنجر رئيسا لمجموعة التخطيط العسكرى ومنظمى السياسة العسكرية فى منظمة حلف شمال الاطلنطى ومقره واشنطن وقد حل محل جنرال هولندى .

وعلى الرغم من ن هويزنجر لم يكن نازيا فى أى وقت من الأوقات فقد كان الرجل الثانى بعد هتلر فى يوم ٢٠ من يولية عام ١٩٤٤ عندما حاول المتآمرون العسكريون اغتيال الفوهرر بالقاء قنبلة عليه ولم يسترسل هويزنجر فى هذه المؤامرة ولكنه أصيب فيها بجراح شديدة ولكنه بعد مضى عدة سنوات أعلن عن تأييده العام لها . ومن كبار القادة الألمان أيضاً الجنرال « هانز شبايدل » الذى يتولى قيادة القوات

البرية المتحالفة فى وسط أوروبا وهو ضابط رائع ولامع .. وكان رئيس أركان حرب الجيش الألمانى فى عهد المارشال روميل وقد لعب دوراً كبيراً فى محاولة صد القوات المتحالفة عند غزوها لنورماندى .

وكان من الضباط الذين رفضوا إطاعة أوامر هتلر بتدمير باريس . و «شبايدل» حاصل على إجازة الدكتوراه فى الفلسفة وقد كان من قبل أستاذاً للتاريخ العسكرى وهو من القادة الذين يقومون بجولاتهم فى طائرات الهيلكوبتر . وقد لا يكون هناك أى داع لنذكر أن الجنرال « شبايدل » الذى كان يقاتل القوات الامريكية والبريطانية والفرنسية فى معارك عنيفة منذ ستة عشر عاما قد أصبح اليوم رئيساً لقوة دولية تضم قوات أمريكية وبريطانية وفرنسية . وقد يكون غريبا أن يكون أحد الألمان قائداً على شبان من « مين » بفرنسا أو « كانساس » بالولايات المتحدة .

ولكن يجب علينا الآن أن نعود إلى قصة حلف شمال الاطلنطى الجديدة أى تطور أسلحته العسكرية مجهزة بالاسلحة النووية . وقد غير هذا الوضع الصورة بأكملها بين ليلة وضحاها كما أنه يسيطر على كل اعتبار معاصر .

وهناك نقط هامة يجب التعرض لها :

١ — القوات الألمانية وغيرها من قوات حلف شمال الاطلنطى بغرب أوروبا قد أصبحت مجهزة بأسلحة قادرة على اطلاق الصواريخ ولكنها لا تملك أية رءوس ذرية فى الوقت الحاضر، فكل هذه الرءوس

الذرية -- طبقا للقانون الامريكى -- ملك للولايات المتحدة . وهى ممنوعة من التصدير . ولدى القوات الامريكية فى الأراضى الالمانية أسلحة ذات رءوس ذرية ، بينما لا تمتلك القوات الالمانية مثل هذه الاسلحة .

وقد يبدو لنا أن هذه الحقيقة تسبب متاعب استراتيجية كبيرة لأننا على استعداد لأن نفترض أن العدو - فى حال الهجوم - سيهاجم فرق حلف شمال الاطلنطى التى لا تملك أسلحة ذرية تستطيع أن تنتقم بها من أى هجوم ، غير أن هذا التفكير غير عملى ، فالفرق الامريكية مترابطة مع الفرق الأخرى ومتشابكة معها ، فكل فرقة ألمانية لديها بعض القوات المدربة على استخدام الصواريخ الذرية المتنقلة القصيرة المدى التى تستخدم فى الأغراض التكتيكية فى الحروب البرية , ولكن من الممكن تحويلها إلى صواريخ ذرية فى غاية السرعة بمجرد تثبيت رءوس ذرية عليها .

ولدى فرنسا الآن أسلحتها الذرية الخاصة التى لا تخضع لسطلة أمريكا التى بدأت فى تخزينها منذ أن بدأ ديجول فى اتباع السياسة « الرادعة » المستقلة . ويبدو أن الألمان يشعرون بالسعادة فى الوقت لأنهم غير مضطرين إلى الاحتفاظ بأسلحة ذرية فى مخازنهم غير أنهم لا يريدون الآن الحصول على الأسلحة الذرية بقدر حاجتهم إلى وسيلة مستقلة لاستخدام هذه الاسلحة أى المقاتلات الحديثة فالقوات الجوية الالمانية ما زالت صغيرة . . كما أن البلاد قد تعهدت -- فى حرية --

بعدم إنتاج التماثيلات الطويلة المدى أو الأسلحة الذرية . ولكن قد تطلب ألمانيا — وفى المستقبل القريب — التخلص من هذا التعهد وتشعر بأنها مضطرة إلى إنتاج الاسلحة الذرية . على الرغم من أن هذا الإجراء سيثير معارضة شديدة فى بريطانيا والدول الاسكندناوية ودول الأراضى المنخفضة وبعض الدوائر فى ألمانيا الغربية نفسها .

٢ — ظهرت بعض الصعوبات الجديدة والضخمة فى بعض النواحى مثل مسئولية القيادة .. ولنفترض مثلا عن طريق الصدفة عملا عدوانياً بدأ على أساس محلى ومحدود بالأسلحة التقليدية فقط . فهل يجب على قوات حلف شمال الاطلنطى أن ترد على هذا العدوان باستخدام الأسلحة الذرية وباطلاق القنابل الذرية أو حتى الهيدروجينية على نطاق صغير ولأهداف محدودة .

ولكن لو لم نقم بهـــذا التصرف الرهيب كما هو واضح . . أفلا نتعرض (نحن الأمريكيين) للخطر الناجم عن تحول العدو من استخدام الأسلحة التقليدية إلى الأسلحة الذرية ، ويقضى علينا فى أية لحظة من اللحظات .

إن السياسة الموضوعة تقضى بأن ترد قوات حلف شمال الاطلنطى - على مستوى تكتيكى - على أى هجوم بالأسلحة التقليدية ولاستخدام أية أسلحة غير تقليدية . ولا يمكن استخدام الأسلحة الذرية أبدا دون صدور أوامر صريحة من رئيس جمهورية الولايات المتحدة .

٣ — يبدو أن معظم الخبراء يوافقون على أنه . نشبت الحرب

فإنها ستكون قصيرة للغاية إما لأنها ستكون فى منطقة محدودة فى البداية أو لأنها ستتسع وتصبح حربا ذرية على نطاق واسع بحيث تؤدى إلى إفناء الجميع .

ومن بين خطط حلف شمال الاطلنطى خطة تعرف باسم MCTO وقد وضعت هذه الخطة على أساس أن الحرب الأوروبية لن تستمر أكثر من ثلاثين يوما وأنه من العبث تخزين المعدات والمهمات اللازمة للقوات لمدة أطول من ثلاثة أشهر .

٤ — ترى من الذى يضغط على الزر . . ؟ من الذى له سلطة على أن يصدر القرار النهائى والأخير باستخدام الأسلحة الذرية لو انتشر لهيب الحرب المحلية . ؟ هل هو ضابط فى ميدان القتال .. ؟ وهل هو جنرال نورستاد بحكم اختصاصه كقائد عام للقوات الأمريكية فى أوروبا وقائداً عاماً للهيئة العليا للقوات فى أوروبا . . ؟

ومن الذى ينصح رئيس الجمهورية الأمريكية باتخاذ إجراء حاسم فى هذا الموضوع ؟

وهل سيستشار رئيس الوزارة البريطانية . . ؟ وهل يمكن أن يتخذ هذا القرار مجلس حلف شمال الاطلنطى وهو المتخصص فى الشئون السياسية ،أم السكرتير العام المدنى . . ؟

وقد دار حديث ودى طويل فى باريس بينى و بين بول هنرى سباك الذى تولى هـــذا المنصب أخيراً ، ولكنه لم يبلغنى باسم الشخص

الذى له السلطة فى أن يضغط على الزر ولا أدرى إن كان هو يعرف هذا الشخص أم لا . .

لحقيقة اننى لم أتمكن أبداً من الحصول على إجابة مرضية لهذا السؤال . . فهل يتشاور الجميع معاً . . ؟ ولو كان هذا يحدث فعلا فإن الذين سيحضرون هذا الاجتماع سيكونون فى عجلة .

ويقدر البريطانيين أن الصاروخ السوفييتى القصير المدى المسمى « جوليم » يمكن أن يصل إلى الأهداف البريطانية من قواعده فى ألمانيا الشرقية خلال ثلاث دقائق .

عندما استعرض الجنرال تورستاد بالتفصيل اقتراحا كان يغلى فى النفوس بضعة أشهر لتحسين بعض هذه الاضطرابات أو كلها باتخاذ خطوة حاسمة ألا وهى تحويل منظمة حلف شمال الاطلنطى إلى قوة نووية مستقلة . . فتحصل هذه المنظمة كوحدة مستقلة على أسلحتها النووية الخاصة ، وتصبح بذلك — بعد الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وروسيا وفرنسا — القوة النووية الخامسة فى العالم .

وقدكان من بين ما تضمنه الاقتراح وجوب تخصيص خمس غواصات بولاريس لمنظمة حلف شمال الاطلنطى وكانت هناك عدة دوافع لهذا التطور — من بينها أن المنظمة لا تملك قوات برية كافية وأن طرق الحرب قد تغيرت تغيراً لا سبيل إلى علاجه .

وثمة دافع آخر هو الأمل فى أن مثل هــــذه الخطوة سوف تمنع الفرنسيين من التمادى فى سياستهم الرادعة المستقلة (فالفرنسيون ليست

لديهم بعد القدرة على إلقاء القنابل التى ينتجونها من الناحية الاستراتيجية) كما أنها إذا نظرنا إلى المستقبل سوف تثبط همة الألمان عن الوصول إلى الإنتاج النووى الخاص بهم . فألمانيا — كما سبق أن قلنا — محظور عليها فى الوقت الحاضر إنتاج أسلحتها النووية الخاصة كما حظر عليها تكوين سلاح طيران استراتيجى ولكن هذا الحظر قد لا يستمر إلى الأبد .

ويبدو من الواضح أن مشروع نورستاد لا يمكن تبنيه دون تعديل من الكونجرس لقانون الطاقة الذرية الذى يحظر على الولايات المتحدة أن تشارك أحداً فى أسلحتها الذرية . كما أن هناك صعوبة أخرى تقلق بال البريطانيين على وجه الخصوص وهى أن كل عضو من أعضاء منظمة حلف شمال الاطلنطى الخمسة عشر يجب أن يؤخذ رأيه قبل اتخاذ أى قرار باستخدام الأسلحة المعدة مما قد يكون إجراء شاقاً . كما أن البريطانيين يريدون أن يميزوا تمييزاً دقيقاً بين منظمة حلف شمال الاطلنطى نفسها وبين القيادة العليا للدول المتحالفة فى أوروبا التى تعتبر ساعدها الأيمن من الناحية العسكرية . فهم لا يريدون أن يضعوا المسائل العليا المتعلقة بالحرب والسلم والتدمير النووى المحتمل فى أيدى الرجال العسكريين وحدهم — إنهم يريدون قراراً سياسياً وعسكرياً . وعلى العموم فإن البريطانيين يميلون إلى أن يظلوا قانعين بالموقف الحالى الذى يشترط ألا تطلق أسلحة الولايات المتحدة الاستراتيجية (البعيدة المدى أو عابرة القارات) إلا بأمر من رئيس الجمهورية فى واشنطن . كما أن

حزب العمال البريطانى بالذات لا يريد قيام أى احتمال يستطيع به أحد ممثلى منظمة حلف شمال الاطلنطى أن يتسبب فى حرب هيدروجينية دون استشارة أحد .

ولكن الفرنسيين — وربما الأمم الأخرى — لا يريدون أن يضعوا المسئولية كلها فى يد الولايات المتحدة لتخوفهم من أن رئيس الجمهورية قد لا يصرح باطلاق الأسلحة الذرية الأمريكية دفاعا عن أوروبا ما لم تهاجم أراضى الولايات المتحدة نفسها . وهذا هو أحد الأسباب التى يريد ديجول من أجلها أن يكون لديه سلاحه الرادع . وقد سبق أن ذكرت أسباباً أخرى فى الباب السابع .

أحد رجال أوروبا الأقوياء

لقد خلف بول هنرى سباك وهو شخصية مرحة اجتماعية تمتاز بذلاقة اللسان . لورد أزماى السكرتير العام لمنظمة حلف شمال الاطلنطى فى ديسمبر ١٩٥٦ . وقد كان فى وظيفته هذه يحتاج إلى ثقله كله (فهو يزن أكثر من مائتى رطل) وإلى خفة حركة كان القواد فى القيادة العليا للدول المتحالفة فى أوروبا يعرفون كيف يعاملون أزماى أما سباك فقد كان شيئاً ، مختلفاً ، فقد أصبح من الصعب أن نحدد ما إذا كان سباك أقوى سلطة من نورستاد وهو القائد العام للقوات المتحالفة ، فمن الناحية النظرية لا يخضع أحدهما للآخر . إن سباك يشغل تقريباً نفس المركز

الذى يشغله همرشولد فى الأمم المتحدة أما نورستاد بقبعته التى تحمل شعار منظمة حلف شمال الاطلنطى فهو يمثل قائداً لقوة من قوات الأمم المتحدة . ولكن نورستاد كما ذكرنا آنفا ليس قائداً عسكريا لقوات حلف شمال الاطلنطى فحسب بل أيضا القائد العام للقوات الأمريكية فى أوروبا وهذا هو ما يعطيه مزيدا من السلطة

وذات مرة أن سمى سباك الذى يبلغ من العمر واحدا وستين عاماً « البلجيكى النمعى » لأن والده من الفلاندرز فى غرب بلجيكا وأمه من الوالون فى جنوبها . وقد ظلت عائلة سباك مشهورة لأجيال عديدة فقد كان أحد أجداده رئيساً للوزراء أما أبوه فكان أديباً معروفاً . . كما كانت أمه وهى اشتراكية متحمسة (كابنها) أول امرأة تنتخب عضوا فى مجلس الشيوخ البلجيكى .

وقد استولت السياسة وعلى الأخص الحركة العمالية على تفكير سباك فى وقت مبكر . . وقد بدأ حياته السياسية يساريا متطرفاً كما قاد المظاهرات فى الشوارع وقد أصيب مرة فى أحد هذه الاضطرابات ، وفى سنة ١٩٣٢ دخل سباك البرلمان ثم أصبح وزيراً للخارجية فى سنة ١٩٣٦ (وقد ظل يشغل هذه الوظيفة فى فترات متقطعة لمدة عشرين سنة تقريباً) ثم أصبح فى سنة ١٩٣٩ أول رئيس وزراء اشتراكى فى تاريخ بلجيكا كما كان أصغرهم سناً .

وقد تمكن من الهرب عندما اكتسح النازيون بلاده كما قام بدور رئيسى فى المعركة التى أطاحت بليوبولد بعيداً عن عرشه .

ولكن النقطة الرئيسية التى يجب أن نعلق عليها اهتماماً فى شخصية

سباك هى نظرته العالمية الحقيقية الصادقة . وقد كان رأس الوفد البلجيكى فى مؤتمر سان فرانسسكو سنة ١٩٤٥ ثم أصبح أول رئيس لجمعية الأمم المتحدة ١٩٤٦ - ١٩٤٧ فور تأسيسها وكان أحد مؤسسى اتحاد دول البنلوكس كما ساهم فى معترك التطور الذى تمخضت عنه جمعية الصلب والفحم الأوروبية والسوق المشتركة .

اتحاد الدول الست والدول السبع

ولكى نفسر تطور الجمعية الأوروبية الاقتصادية (أو السوق المشتركة) وعملها تلك الجمعية التى تسمى أحياناً « الستة الداخليين » يجب أن نعود إلى الوراء قليلا لنفهم بعض الأحداث المعقدة فى التاريخ الحديث وأن نعطى للاصطلاحات تعريفات موجزة .

فقد أوضح جان مونيه وهو أحد الاقتصاديين الفرنسيين وأحد رجال الأعمال الذين عرف عنهم بعد النظر وعمق التفكير فى أعقاب الحرب على روبرت شومان وزير الخارجية فى ذلك الوقت أن توحيد موارد الحديد والفحم والصلب فى فرنسا وألمانيا سوف لايكون خطوة منطقية نحو تحسين اقتصاد كلا البلدين فحسب بل يمكن أن يكون ذا أهمية لا تقدر فى تقريب وجهات النظر السياسية وقد كان شومان الذى ولد فى اللورين وحارب فعلا مع الجيش الألمانى فى الحرب العالمية الأولى ذا عقلية دولية متشبث بالفكرة فى الحال . .

وعلى أية حال فليس هناك فارق بين الفحم أو الحديد الفرنسى والألمانى تحت القشرة الأرضية ، فعروق هذه المعادن فى مناجمها المدفونة تحت

سطح الأرض لا تعرف الحدود السياسية ، وفضلا عن ذلك فإن السار واللورين والرول يكمل كل منها الآخر تماماً من ناحية الموارد الطبيعية وفى ٩ مايو سنة ١٩٥٠ اقترح شومان رسمياً تكوين سلطة مشتركة للاشراف على الفحم والصلب الفرنسيين الألمانيين فبدأت عندئذ المفاوضات الصعبة التى كلفت كثيرا من الجهد .

وقد امتد المشروع فشمل إيطاليا وبلجيكا والأرض الواطئة ولوكسمبورج ، وفى ١٨ أبريل سنة ١٩٥١ وقعت فى باريس معاهدة رسمية على مستوى الحكومات تقضى بإنشاء الجمعية الأوروبية للفحم والصلب E.S.C.S. وأصبح مونيـــه أول رئيس لسلطتها العليا أو للهيئة الحاكمة فيها .

وفى صيف عام ١٩٥٢ بدأت الهيئة عملها . كان مركزها الرئيسى فى لوكسمبورج ، وكانت هذه الهيئة ناجحة منذ بدايتها تقريبا . . فقد ربح جميع الشركاء . كما افتتحت فى عام ١٩٥٣ سوق مشتركة فى الفحم والحديد الخام والخردة ثم تبعتها سوق للصلب .

والغريب فى هذه المؤسسة أنها لم تكن دولية فحسب بل كانت فوق مستوى القومية بالمعنى الصحيح لأن الأمم المشتركة فيها وافقت فى كثير من الميادين على التنازل عن سياستها للهيئة الجديدة كما منحتها السلطة فى فرض الضرائب .

وبالإضافة إلى ذلك قد تضمنت فكرة مونيه — شومان تكوين جمعية مشتركة أو برلمان قام بعقد جلسته الأولى فى ستراسبورج فى سبتمبر عام ١٩٥٢ تحت رئاسة بول هنرى سباك أول رئيس له .

وقد شرع مونيه وزملاؤه وجميعهم من المثاليين الطموحين بعد وقت قصير فى تطوير فكرتهم وفى نفس الوقت كان هناك آخرون أيضا يعملون بجد واجتهاد على مستوى سياسى أعلى لتوحيد أوروبا مثل أديناور وريفيه بليفان رئيس وزراء فرنسا . ثم تقدم بعد ذلك بوقت قصير اقتراح بتكوين ما سمى بعد ذلك بجمعية الدفاع الأوروبى وهى محاولة لإمكان إعادة تسليح ألمانيا داخل اطار أوروبى عام وجعل هذا الموضوع أكثر استساغة من طريق تكوين جيش أوروبى دولى موحد ولكن البرلمان الفرنسى قضى على فكرة تكوين جمعية الدفاع الأوروبى (فى أغسطس ١٩٥٤) وكان السبب الرئيسى فى ذلك أنه ما زال يشعر بالخوف الشديد من ألمانيا . وفكر مونيه أن التطور التالى ينبغى أن يتخذ اتجاها مختلفا وأنه كان من الخطأ محاولة انشاء وحدة سياسية عسكرية بدون وضع أساس اقتصادى سليم فى البداية . وقد تضامن هو وسباك ووصلا الى فكرة امكان اتخاذ اجراء مجد فى ميدان الطاقة الذرية . وكان هذا الميدان يبشر بالمصلحة الخاصة فى الذرة فقد كان الميدان الجديد للتقدم النووى تحديا تمثيليا .

كما أن الدول الصغيرة وحدها لم تستطع تحمل نفقات انشاء مؤسسات لكبح جماح الطاقة الذرية . ولذلك فقد نجحت بسرعة فكرة تنفيذ ما سبق تنفيذه وفى نفس الوقت كان اتحاد بنلوكس الاقتصادى يقوم بعمله على خير وجه. فقد عقد وزراء خارجية الدول الست الأعضاء فى جمعية الفحم والصلب فى يونيو سنة ١٩٥٥ اجتماعا فى مسينا بصقلية ليتخذوا خطوات أخرى نحو تحقيق الوحدة الأوروبية . وقد كان نفوذ

مونيه الذى قدم استقالته من رئاسة السلطة العليا (أو الهيئة الحاكمة) ليتفرغ لهذه التطورات الجديدة وحدها بالتضامن مع سباك وآخرين نفوذا عميقا عريضاً . ونتيجة لهذا تكونت هيئتان جديدتان هما الجمعية الأوروبية الاقتصادية أو السوق المشتركة ويوراتم أو الجمعية الأوروبية للطاقة الذرية . وقد وقعت معاهدات رسمية فى روما فى ٢٥ مارس ١٩٥٧ بعد عمل شاق وقد جاء ذلك مفاجأة إلى حد ما لكل شخص . وبمقتضى هذه المعاهدة أنشئت الوكالتان الجديدتان وبدأتا عملهما حالما تم التصديق على المعاهدات .

السوق المشتركة نفسها

إن السوق المشتركة لها مظهران رئيسيان ، أولهاأن الدول الأعضاء التى تمثل عددا من السكان يبلغ ١٧٠ مليونا وتشغل مركزا من أغنى مراكز القوة الصناعية فى العالم وافقت على تخفيض الحواجز الجمركية بينها وبذلك تتحول فرنسا وألمانيا الغربية وإيطاليا وأمم البنلوكس فى النهاية إلى منطقة موحدة للتجارة الحرة مثل الولايات المتحدة . والفكرة من ذلك أن يتمكن مشتر فى ألمانيا مثلا من شراء بضائع فرنسية بنفس الثمن الذى تباع به فى فرنسا تقريبا كما يشترى نبيذ كاليفورنيا أو فاكهتها فى نيويورك بنفس الثمن الذى تباع به فى كاليفورنيا ويستمر التخفيض فى التعريفة الجمركية تدريجيا وقد كان المعتقد أساسا أن تخفيض هذه الرسوم إلى الصفر بين الدول الأعضاء سوف يستغرق

بين عشر وأثنتى عشرة سنة . وقد بدأت التجربة بتخفيض متواضع قدره ١٠ ٪ فى أول يناير سنة ١٩٥٩ بعد مضى سنة من تنفيذ هذه المعاهدة . وفى صيف ١٩٦٠ حدث تخفيض آخر قدره ١٠ ٪ أخرى وكذلك حدث تخفيض ثالث فى أول يناير سنة ١٩٦١ وينتظر أن تنخفض هذه الرسوم إلى الصفر فى سنة ١٩٦٦ . والمظهر الثانى لهذه السوق المشتركة أن الدول الأعضاء اتفقت على توحيد التعريفة الجمركية فى مواجهة الدول غير الأعضاء . وبعبارة أخرى سوف تتصرف الدول الست فى مسائل التجارة الخارجية كما لو كانت دولة واحدة . ولتنفيذ هذا سوف تخفض الدول التى ظلت حتى ذلك الوقت تفرض حماية قوية على أسواقها المحلية تعريفتها الجمركية وعلى عكس ذلك فإن الدول التى كانت تميل فى الماضى إلى التجارة الحرة مثل بلجيكا وهولندا سوف تضطر إلى رفع هذه الرسوم .

كما كان للسوق المشتركة خارج هذا المجال ومع إغفال التفصيلات المتعلقة بالزراعة والحصص تأثير هام جدا . والذى يهمنا حقيقة هو أن معظم الأنصار المتحمسين للدول الست مثل مونيه واديناور يأملون أن تصبح هذه الهيئة وقد خطت فعلا السوق المشتركة خطوات واسعة كما أصبحت سكرتاريتها فى بروكسل منظمة دقيقة تحت رئاسة البروفسور والترهالشتين . كما انتعشت التجارة انتعاشا « ملفتا » للنظر فقد بلغت ٢٩ ٪ مقابل نسبتها فى العام الماضى داخل حدود الدول الست كما بلغت ٨ ٪ بين الدول الست والعالم الخارجى . وكذلك فقد ارتفع إنتاج الصلب فى إيطاليا إلى أربعة أمثاله. ويتحدث المتحمسون عن التطورات

المنتظرة فى المستقبل مثل توحيد رخص السيارات للمواطنين فى جميع الدول الست وتوحيد العملة بل توحيد حقوق المواطنة أيضاً وكذلك فسوف تختفى الحدود نظريا ولكنها لن تختفى عاطفيا . فالحد الفاصل بين فرنسا وألمانيا أو بين فرنسا وإيطاليا سوف لا يعنى أكثر من الحدود التى تفصل بين فرمونت ونيوهامبشير أو بين كنت وتيكس.

وقد دعى البريطانيون لحضور المناقشات الأولى التى أدت إلى تكوين السوق المشتركة فى صيف ١٩٥٥ ولكنهم غضوا النظر عنها فى إهمال واحتقار — ولكنهم أبدوا مزيدا من الاهتمام عندما أصبح من الواضح أن هذا المشروع الثورى سوف يبدأ فى العمل فعلا . وعرضوا عرضا تجريبيا بأن يضموا لكلتا الجمعيتين الفحم والصلب واليورانم . ولكن رفض هذا العرض إذ قالت دول السوق المشتركة إن بريطانيا يجب أن تنضم للدول الست دون قيد أو شرط وأن تصبح عضوا كاملا فى الجمعية الاقتصادية الأوروبية بيد أن البريطانيين أحسوا أنهم لا يستطيعون ذلك لعدة أسباب مختلفة . أولها أنهم ظلوا يلعبون بسياسة توازن القوى منذ نعومة أظفارهم فشعروا بعداء عاطفى فى عقلهم الباطن قبل هذه الكتلة الأوروبية الموحدة القوية الجديدة التى تكونت من مجموعة من الدول عبر المانش . وثمة سبب آخر وهو أنهم لا يستطيعون الانضمام إلى الدول الست دون أن ينضموا بعلاقاتهم التجارية مع الكومنولث التى تعتبر مصدرا لما يقرب من ٤٠ ٪ من مجموع التجارة البريطانية . فبريطانيا مثلا تستورد معظم سلع الكومنولث وعلى الأخص المواد الغذائية والمواد الخام دون فرض ضرائب جمركية

فى ظل نظام التمييز الاستعمارى . ولكنها قد تضطر إلى وضع تعريفة جمركية على مثل هذه الواردات بانضمامها إلى الدول الست مما سوف يجعل من الصعب على دول الكومنولث أن تنافس المـــوردين الأوروبيين .

ومع ذلك فقد اكتشف البريطانيون بعد وقت قصير أنهم أيضاً يتكبدون خسائر فادحة ببقائهم خارج هـــذا الاتحاد حتى ولو كانت عضويتهم فيه قد تكلفهم الشىء الكثير لأن السوق المشتركة فى مركز يمكنها من الحاق الضرر الشديد بتجارة التصدير فيها وخاصة إلى أوروبا وهو عنصر على جانب كبير من الأهمية فى مركز التجارة البريطانية وعلى الأخص فى فترة تزداد فيها الواردات على الصادرات زيادة سريعة كما ذكرنا آنفا فى باب سابق فكان عليهم أن يواجهو بعض المشاكل المعقدة .

فكيف يواصل البريطانيون بيع آلاتهم الأراضى الواطئة مثلا إذا كانت الترتيبات الجمركية المتبادلة للدول الست سبباً فى حصـــول الهولنديين على آلات مشابهة لهـا بسعر أرخص من ألمانيا أو فرنسا ؟ وكيف يمكن أن يبيعوا السيارات لبلجيكا أو إيطاليا أمام الحواجز الجمركية فى حين أنها تستطيع شراء سيارات فرنسية منافسة لها على سبيل المثال دون رسوم جمركية .

وقد قرر البريطانيون بعد تردد طويل بغض النظر عن النتائج سواء أكانت حسنة أم سيئة ان خير حركة يقومون بها هى إنشاء جهاز تجارى أوروبى منافس .

ويعرف هذا الجهاز باسم جمعية التجارة الحرة الأوروبية أو الدول السبع الخارجة وهى تشمل بريطانيا وسويسرا والنمسا والبرتغال وثلاث من دول اسكنديناوة وهى السويد والنرويج والدنمارك . وقد تم التصديق على المعاهدة التى تقضى بإنشاء الدول السبع فى مايو سنة ١٩٦٠ . وكما حدث بين الدول الست ، فنى نية الدول السبع إلغاء جميع الحواجز الجمركية الداخلية بينها فى فترة لا تتجاوز سنوات قليلة . وقد تم التخفيض الأول على وجه السرعة فى أول يونية .

أما الحواجز الجمركية الخارجية (ضد الخارجين على هذا الاتحاد) فسوف تبقى كما هى دون تغيير والغرض من ذلك بالطبع هو تأكيد دخول سلع الكومنولث وموادها الخام إلى بريطانيا بدون رسوم جمركية أو برسوم مخفضة جداً .

وثمة نقطة عرضية وهى أنه بينما أن جميع أعضاء اتحاد الدول الست أعضاء أيضاً فى منظمة حلف شمال الأطلنطى نجـــد أن ثلاثة أعضاء فى الاتحاد السباعى محايدون وهم النمسا طبقا لشروط معاهدة الصلح والسويد تمشياً مع ميولها وسويسرا بناء على تصميمها .

إن الدوافع السياسية الخفيـة للتضامن والشعور الغريزى بتحقيق الوحدة فى المستقبل فى اتحاد الدول السبع ليست بالقوة التى تشعر بها الدول الست

وسرعان ما نشبت الحرب بين اتحاد الدول الست الداخلية وبين اتحاد الدول السبع الخارجية . فأطلقت الدول السبع على اتحاد الدول

الست فى احتكار ظاهر اسم « منتدى الأثرياء » إذ يبلغ عدد السكان فى هـــذه الدول الست ٧٠ مليوناً كما بلغ مجمل إنتاجها القومى فى سنة ١٩٥٧ ، ١٤٦ بليوناً من الدولارات وقد يزيد اليوم على هذا الرقم .

أما الدول السبع فهى أقل تركيزاً من الناحية الجغرافية وأقل تصنيعاً كما أنها لا تضم أكثر من ٨٦ مليوناً من السكان وكان مجمل إنتاجها القومى فى سنة ١٩٥٨ لا يتجاوز ٨٤ بليوناً من الدولارات

ومن هذه الأسباب التى جعلت السوق المشتركة فى انجلترا على قدر كبير من النشاط إن جانباً قوياً من الرأى العام يعتقد أنه من السخف إلى حد ما أن تكون هناك حرب تجارية تؤدى إلى تقسيم اوروبا فى هذه الفترة بالذات من تاريخ العالم التى هى أحوج ما تكون فيها إلى أقوى صورة من صور الاتحاد والتضامن .

ويرى أعضاء حزب الأحرار وبعض العماليين وعدد قليل من المحافظين أن يتخلوا عن اتحاد الدول السبع وأن ينضموا إلى الدول الست على أن ذلك ليس من السهل إذ لا تزال الكومنولث قوة عاطفية كبيرة كما أنها قوة سياسية واقتصادية لدى البريطانيين . أما الدول الست فى انضمام بريطانيا إلى صفوفها وفى نفس الوقت يظل التناقض قائماً من حيث أن حكومة انجلترا هى أكثر الحكومات تشيعاً لأوروبا فى التاريخ ، ومع ذلك فإنها لا تشترك فى تلك الخطوة التقدمية التى ربما كانت تعتبر من أهم الخطوات نحـــو تحقيق الوحدة والرخاء والسلام فى أوروبا .

أعمال الجمعية الأوروبية

إن كلا من السوق المشتركة واليوراتم له أدواته التنفيذية فى بروكسل فالمركز الرئيسى للسوق المشتركة يوجد فى آفينيو لاجويوز انتريه . ويبدو أن الاسم فى حد ذاته فأل حسن ولكن وجود هذه المؤسسة الجديدة هناك لا يبدو أن يكون مجرد مصادفة عارضة وقد زاد عدد الموظفين فى هذه المؤسسة زيادة ضخمة فبلغ عدد موظفى سكرتارية السوق المشتركة الآن حوالى ١٨٠٠ كما بلغ عدد موظفى اليوراتم حوالى ٦٠٠ موظفاً بما فى ذلك علماء الأبحاث .

وقد كان الدكتور والترهالشتين رئيس هيئة السوق المشتركة يعمل أستاذا فى القانون عندما استدعاه الرئيس أديناور منذ بضع سنين لتولى وزارة الخارجية الألمانية وهو رجل يبلغ من العمر واحدا وخمسين عاما ويتكلم الفرنسية والألمانية والإنجليزية بطلاقة .

وفى الواقع فإنه أحد الألمان القلائل الذين يمكنهم أن يناقشوا أخطر المسائل الفنية المتشابكة باللغة الفرنسية مع زملائهم الفرنسيين . وقد حارب هالشتين مع الجيش الألمانى فى الحرب العالمية الثانية وأسره الأمريكيون . وعندما نقل إلى الولايات المتحدة راح يعلم الأسرى اللغة الإنجليزية فى مختلف معسكرات الاعتقال ثم ظهر فى النهاية سنة ١٩٤٧ ، وقد التحق بكلية الحقوق فى جامعة جورج تون فى واشنطون . ولما كان يتصف بهدوء الطبع إلى حد ما وعدم الرغبة فى العجلة والإسراع الذى

يبلغ حد التهور لذلك فإنه على جانب كبير من الدقة فى التفكير ، والسياسة فى حد ذاتها لا تثير اهتمامه كثيراً ولكنه أوروبى مخلص ذو عقلية دولية .

أما رئيس اليوراتم فهو أيتيين هيرشى الذى كان النائب الأول لمونيه فى برنامج التطوير والتعمير (مشروع مونيه) ذلك المشرع الذى شرع فى وضع الاقتصاد الفرنسى على قدميه بعد الحرب .

وهيرشى مواطن فرنسى من أصل يهودى ذو شخصية محبوبة وقلب كبير ولكنه لم يمتحن بعد امتحاناً كافياً فى ميدان السياسة . كما يمتاز بمجال واسع من الاهتمامات الفكرية وهو يستعين فى عمله بمساعدين ثلاثة رئيسيين أحدهم إيطالى والآخر هولندى والثالث ألمانى . والواقع أن اليوراتم عملية على جانب كبير من التعقيد .

ففى فرنسا يدور العمل فى أربعة مناجم لليوراتم والنوريم كما يوجد طبقات من هذه المعادن قابلة للاستغلال فى فرنسا وإيطاليا وألمانيا الغربية . أما مراكز البحث فإنها توجد فى جر نوبل وفى مكانين آخرين فى فرنسا وفى روما وثلاثة أماكن أخرى فى إيطاليا وفى ثلاثة أماكن فى ألمانيا الغربية وفى مكان واحد من برلين الغربية وفى مكانين من هولندا وفى مكان واحد من بلجيكا .

أما المفاعلات التجريبية فإن العمل يدور فى ستة منها فى فرنسا وخمسة فى ألمانيا وواحد فى برلين الغربية وواحد فى بلجيكا وواحد فى هولندا . وفى ماركول وهى مركز لجميع التجارب العلمية الفرنسية

فى الطاقة الذرية يدور العمل فى مفاعلين لتوليد الطاقة . وفى اثنين آخرين فى إيطاليا أحدهما فى لاتينا بالغرب من روما والآخر على مقربة من تورين .

وأخيراً فهناك اثنا عشر مصنعاً أو أكثر لمعالجة الخامات من هذه المعادن وكذلك فهناك مصانع أخرى لمعالجة المواد المشعة ذات الخلايا القابلة للانقسام .

كما يوجد المركز العام لجمعية الفحم والصلب فى لوكسمبورج ورئيس الهيئة الحاكمة فيه رجل إيطالى اسمه بيرو مالفستيتى كان المساعد الأول لهالشتين فى السوق المشتركة ويبلغ عدد موظفى سكرتارية الجمعية الأوروبية للفحم والصلب حوالى سبعمائة موظفا . وقد أدخلت هذه الهيئة على الحياة فى لوكسمبورج كثيرا من النشاط والانتعاش . وفى الوقت الذى لا نجد فيه لدى منظمة السوق المشتركة إلا ما يسمى دستور « الاطار الخارجى » نجد أن لائحة الجمعية الأوربية للفحم والصلب أكثر تحديدا ، إنها أول منظمة فوق مستوى القومية فى التاريخ تخولها حكومات الدول الأعضاء فيها سلطة فرض ضريبة أوروبية . على ألا تتجاوز هذه الضريبة ١٪ من قيمة مجموع الانتاج السنوى ، وعلى النقيض من ذلك نجد أن السوق المشتركة واليوراتم تمولهما مخصصات من ميزانيات الحكومات الست الأعضاء ومن الناحية النظرية يشغل كل من هالشتين وهيرش ومالفستيتى مناصب متساوية لا رئيس فيها ولا مرءوس . ولكل منهم مجلس وزراء

وقد يجتمع معهم أيضاً وزراء الحكومات المحلية ويتوقف ذلك على الموضوع الذى تدور حوله المناقشة .

كما تكونت أيضاً محكمة تعقد جلساتها فى لوكسمبرج ويرأسها هولندى هو الدكتور أ ، م دوتر . وفى النهاية فإن جميع اعضاء الجمعية الأوربية مسئولون من الناحية النظرية أمام برلمان واحدمشترك يعقد جلساته فى ستراسبورج ويجتمع تسع مرات فى السنة ، وقد نشأ هذا البرلمان من « المجلس المشترك » القديم لجمعية الفحم والصلب ويعرف الآن باسم البرلمان الأوروبى ويبلغ عدد أعضائه ١٤٢ عضوا يجب أن يكونوا جميعا من بين أعضاء البرلمانات الوطنية الست الممثلة فى هذه الجمعية . ومع ذلك فإنهم لا يجلسون فى البرلمان حسب دولهم ولكنهم تماما كما يحدث فى البرلمانات المحلية ينتمون إلى وجهات وأحزاب مختلفة فالاشتراكيون الايطاليون والفرنسون والألمان مثلا يجلسون معا دون النظر إلى جنسياتهم كما يفعل المحافظون .

ويجتمع البرلمان الأوروبى فى مبنى فى ستراسبورج يطلق عليه اسم « بيت أوروبا » كان قد سبق بناؤه للمجلس الأوروبى وليس لهـذا البرلمان سلطات تشريعية كما ليس له أهمية سياسية كبيرة ولكنه يعتبر نقطة ابتداء . إن إجراءات المركز الرئيسى الحالية ليست على جانب كبير من البطء فقد تقدم دكتور فرانز فايرز وهو رئيس وزراء شمال الراين . وسنغاليا أخيرا باقتراح لتأسيس (عاصمة) جديدة للجمعية الأوروبية على بقعة خارج الحدود وتبلغ مساحتها مائة ميل مربع حيث تجتمع المانيا الغربية وبلجيكا وهولندا .

وهذا يذكرنا بالاقتراحات المثيرة الأخيرة التى تقدمت بها ألمناشستر جارديان على وجه الخصوص لحل أزمة برلين وذلك بنقل جميع سكان برلين الغربية بقضهم وقضيضهم وكذلك جميع المعدات الصناعية والمعدات الأخرى إلى منطقة مشابهة خارج الحدود .

حادث الطائرة ـــ ى ٢

إن المجال لا يتسع لنا لسرد قصة الطائرة ى ـــ ٢ باسهاب . وعلى ذلك فإننا نجردها من التفاصيل ونضع هنا أهم ملابساتها . فنى يوم الأحد ، الأول من مايو ، قامت طائرة من نوع خاص يقودها طيار واحد تقدر على الطيران المستمر وعلى ارتفاع كبير جداً ، تعرف باسم ى ـــ ٢ ، كانت تتخذ من أدنه فى تركيا قاعدة لها ، ويقودها الطيار باورز ، قامت هـــذه الطائرة من قاعدة بالقرب من بيشاور فى الباكستان لكى تقوم برحلة للتجسس الفوتوغرافى فوق الاتحاد السوفييتى . واسقطت هذه الطائرة بالقرب من سفرد لوفسك . وهى مدينة سوفييتية صناعية وتعدينية عظيمة فى الأورال ، بعد أن طارت حوالى ١٫٢٥٠ ميلا .

ولسنا نعرف الارتفاع الذى أسقطت منه ـــ وكذلك لا نعرف الكيفية التى أسقطت بها وعلى وجه التحديد وكان من المعتقد أن الطائرة ى ـــ ٢ ، التى كانت تطير على ارتفاع سبعين ألف قدم أو أكثر من ذلك ، كان المعتقد أنها ستكون محصنة ضد أى هجوم . .

ويؤكد الروس أنها قذفت بنيران الصواريخ ، ومن الممكن أن تكون قد أصابها انفجار أرغمها على الهبوط إلى ارتفاع يمكن معه اصابتها وعندئذ قذفت بالنيران .

ومن البديهى أن العالم أجمع كان يجهل أن الولايات المتحدة اعتادت على ارسال طائرات ى — ٢ برحلاتها هذه منذ أربع سنوات تقريباً ، فى ظروف تحيط بها السرية التامة وأنها نجحت فيما لا يقل عن ثلاثين رحلة للتجسس فوق أراضى الاتحاد السوفيتى .

وفى يوم الثلاثاء — الثالث من شهر مايو — أعلن الرسميون الأمريكيون فى تركيا أن « طائرة تابعة لإدارة أبحاث الفضاء مفقودة منذ اليوم الأول من مايو » فى رحلة من قاعدة انكيرليك الجوية بالقرب من أدنة . وبدأ أن هذا إجراء روتينى ، ولم يكن له أثر يذكر . ولكن لا يزال الأمر غامضاً حول السبب الذى من أجله اختارت الولايات المتحدة أن تطلق جزءاً من الحقيقة بهذا التصريح الموجز .

ولقد أعطى ذلك الفرصة للروس لأن يعدوا كميناً بأسنان حادة . وعلاوة على ذلك كان ذلك مضللا — فربما كانت الطائرة تابعة لإدارة أبحاث الفضاء ، ولكن إدارة المخابرات المركزية هى التى كانت تديرها ، وحتى لو كانت الطائرة قد قامت من انكيرليك فإنها لم تكن قريبة من الفضاء الجوى التابع لتركيا عندما أسقطت إلى الأرض . ثم فى يوم الخميس الخامس من شهر مايو هاجت الخواطر .

فقد أعلن خروشوف رئيس الوزراء السوفييتى أن طائرة أمريكية « لا تحمل أية علامة مميزة » ضبطت وهى تنتهك الفضاء الجوى السوفييتى وباختصار فإن الطائرة أسقطت وأعقب ذلك ضجة كبيرة .

وفى نفس الوقت أصدرت واشنطن قصة « غلاف » تفسر بها رحلة الطائرة وأعلنت إدارة معدنية مكلفة بمشروعات الفضاء الأمريكية — فى الخامس من مايو أيضاً — ان إحدى الطائرات ى — ٢ الخاصة بأبحاث الفضاء والتى تعمل منذ عام ٩٥٦ « فى برنامج مستمر فى دراسة الظروف الجوية الموجودة على ارتفاع شاهق » مفقودة منذ يوم الأحد عندما قرر طيارها أنه « يعانى من نقص فى الأكسجين فوق بحيرة فان فى تركيا » — وتلك أكذوبة صارخة . كما قرر التصريح علاوة على ذلك أن الطيار مدنى وأن طائرته غير مسلحة ، وأنه « ربما يكون قد فقد وعيه من جراء نقص الأكسجين » وأنه نتيجة لذلك ربما تكون الطائرة قد استمرت أوتوماتيكياً فى الاتجاه نحو الحدود الروسية ، وبالطبع ، اعتبرت واشنطن أن الطيار باورز لا بد أن يكون قد لقى حتفه .

ولما كانت الولايات المتحدة لازالت تتظاهر بالبراءة ، أرسلت مذكرة إلى موسكو تطلب مزيداً من التفاصيل عن الحادث . وضماناً لعدم وجود وقوع حوادث أخرى فى المستقبل .

أعلنت الحكومة الأمريكية أنها أمرت جميع طائرات ى — ٢ الخاصة بأبحاث الفضاء ، والموجودة فى القواعد الأجنبية ، أن تلزم مطاراتها لمدة خمسة عشرة يوما ، لكى يمكن اختبار معداتها » .

وبعدئذ تردت وزارة الخارجية الأمريكية فى شركها أكثر من ذلك ، بأن حاولت إبطال أثر الزوبعة التى أثارها البيان الذى أصدره مستر خروشوف فى العالم أجمع بأن قررت بصفة سطحية فىاليوم التالى (السادس من شهر مايو) أنه « لم تكن هناك أية محاولة متعمدة لخرق الفضاء الجوى السوفييتى . . وأن هـــذه المحاولة لم تحدث قط » .

وقد لعبت يد مستر خروشوف الماكرة بذلك إلى حد كبير ، فقد عرض خروشوف ، فى يوم السبت (السابع من مايو) وهو يتحدث أمام مجلس السوفيت الأعلى ، عرض تفاصيل حادثة الطائرة ى - ٢، كماأعلن أن الطائرة لم تصب بكثير من العطب عندما نزلت إلى الأرض، وعرض على المجلس بعض الصور الفوتوغرافية التى كانت الطائرة قد التقطتها ، وأعلن علاوة على ذلك أن مستر باوزر لم يقتل فى ضرب الطائرة ، ولم يقتل نفسه بعد ذلك كما هو مفروض دائماً عند الجواسيس المهرة ، بل هو حى يرزق — سجين فى قبضة السوفيت ، وأنه أعطى الروس وصفا تفصيليا لما قام به . وعلاوة على ذلك فقد أتى خروشوف بأمتعة غريبة الشكل كان يحملها باورز ، وفيما بينها روبيات روسية ، وعملات أجنبية ، وذهب ، وأسلحة ، وجهاز للانتحار ، وكتاب لتعليم اللغة الروسية ، ومجموعة من الساعات والخواتم ! إن إدارة أبحاث الفضاء تزود مبعوثيها بخير الأمتعة .

ومن الواضح أن كل ذلك قضى على قصة الخلاف الأمريكية ووجدت الولايات المتحدة نفسها مرتبكة بدرجة مخجلة . وبمهارة

فائقة ، أخفى خروشوف إذاعة النبأ الذى يقرر أن باورز حى لم يصب بسوء ، إلى أن وقعنا نحن فى شره المثير الذى أعده لنا بدقة . وحتى ذلك اليوم كانت بعض العقد التى أعقبت ذلك لا زالت دون تفسير .

وفضح خروشوف الولايات المتحدة بشكل مثير ، وقال لتركيا ، وباكستان ، والنرويج (وهى الدولة التى كان باورز فى طريقه إليها) انها ستلقى حسابا عسيراً إذا استمرت تشارك « فى الأعمال العدوانية ضد الاتحاد السوفيتى » . ومن ناحية أخرى ـ وتلك نقطة ايعازية ـ . كان خروشوف حريصاً للغاية على إعطاء الرئيس ايزنهاور فرصة لكى يتبرأ من المسئولية فى ارسال الطائرة . ومن البديهى أنه كان ينوى التوسع فى استغلال حادثة الطائرة ى ــ ٢ من أجل كل من الأغراض السياسية والأغراض الآدعائية ، ولكنه كان لا يزال يريد بصفة جادة لمؤتمر القمة أن ينعقد ، وكان يحاول المناورة لكى يتمكن الرئيس الأمريكى نفسه من الخروج عن ارتباكه . غير أن رد واشنطن كان يدعو إلى الحيرة ، وتضاربت القصص التى أعلنتها مختلف مصادر الحكومة الأمريكية . وفى السابع من مايو أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية أن نتيجة التحقيق الذى أمر الرئيس أيزنهاوز بإجرائه « أثبتت ، أنه لم يكن هناك أى ترخيص بمثل هذه الرحلات الجوية مثل تلك التى وصفها مستر خروشوف » .

وعلى أية حال فقد مضى البيان يقول « إن إحدى الطائرات المدنية غير المسلحة ربما تكون قد قامت برحلة فوق الاتحاد السوفيتى ، محاولة منها للوصول إلى المعلومات التى تختفى اليوم خلف الستار الحديدى » .

أو بمعنى آخر بدا أن الولايات المتحدة تعترف بأن رحلات الطائرة ى ــ ٢ حدثت ولكن (دون ترخيص) أى أن السلطات العليا بالحكومة الأمريكية لم تكن تعرف ما يجرى فى هذا المجال البالغ الحساسية .وكان ذلك سبباً فى تأزم كل شئ وعلى ذلك، أعلن هيرتر، وزير الخارجية ، فى التاسع من شهر مايو ، أن الرئيس الأمريكى ، كان ــ مع ذلك ــ على علم بهذه الرحلة الجوية ــ وعلاوة على ذلك فإن هذه الرحلة سوف تستمر . وفى يوم الأربعاء الحادى عشر من شهر مايو ، أخذ الرئيس أيزنهاور على عاتقه مسئولية شخصية عن الحادثة ، وهذا ما كان خروشوف يأمل يائساً أنه لن يقدم عليه وكان هذا فى نفس اللحظة التى عقد فيها مستر خروشوف مؤتمراً صحفياً غير رسمى فى موسكو عرض فيه على الصحفيين حطام الطائرة ى ــ ٢ وبعض محتوياتها .

وفى هذه الأثناء ، ازدادت حدة التوتر العالمى . . وبدا أن فرنسا وبريطانيا لم تكونا تعلمان بالتفصيل عن عمليات طائرات ى ــ ٢ ، ومن الطبيعى أنهما كانتا تخشيان من تطور الأحداث فيما يتعلق بمؤتمر القمة المقرر عقده فى يوم الاثنين التالى . . واستمر خروشوف يقذف حممه على تركيا وباكستان والنرويج . . وشعر النرويجيون بضرورة احتجاجهم لدى الولايات المتحدة على خط السير الأصلى الذى كان معداً للطائرة . . أما الباكستانيون فقد انتابهم الفزع بوجه خاص ، وتزايد توتر الأعصاب فى العالم أجمع .

وتهكم بعض الناس على ملابسات هذه الحادثة ،ولكن خروشوف

كسب نقطة أخرى بأن تساءل عما يمكن أن يكون رد فعل أمريكا لو أن طائرة سوفييتية للتجسس أسقطت فوق مدينة أوماها أو مدينة كانساس فى الأسبوع السابق على انعقاد مؤتمر القمة .

وانتهى الدير الأول من هـــذه القصة المؤسفة عندما ناقض مستر هيرتر نفسه — بعد كثير من التردد والمواربة — بعد وصوله إلى باريس ،وأعلن أن رحلات الطيران الأمريكى فوق روسيا أوقفت ولن تستأنف فى المستقبل . . ولكن جاء هذا متأخراً عن ميعاده ، ولم يكن فى الإمكان إنقاذ المؤتمر . . ولما لم يكن خروشوف قد هدأ بعد فقد أوغر فى جدله بمجرد أن وصل إلى باريس ، وطلب — ثمنا لاشتراكه فى مؤتمر القمة — أن تعتذر الولايات المتحدة عن « عدوانها » وأن تعاقب المسئولين عنه .

والشيوعيون مصرح لهم بمزاولة نشاطهم ، ولهـــم مقعد واحد فى البرلمان . وهناك حزبان محافظان يعرف أحدهما بحزب الأحرار . ورئيس الوزراء ايرلندر جيرهاردسن ، له مكانة مرموقه ، أما وزير خارجيته فهو هيلفارد لانج ، وهو يشبه إلى حد كبير أوندن فى السويد، مع أنه يصغره سنا ، وهو ماهر ، بعيد النظر ، مرن ؛ كما أنه قاس فى المحافظة على مصالح دولته . وعادة ما ينسب اليه الفضل فى التأثير على الدانيمارك وايسلندة والنرويج للانضمام لحلف شمال الاطلنطى . وقد نال والده جائزة نوبل للسلام ، وقد عاش فى بريطانيا عدة سنوات وكان عضوا فى حزب العمال البريطانى ذات مرة .

ويحتمل أن تكون النرويج أكثر مقاومة لحلف شمال الاطلنطى من الدنيمارك ، ولكن إلى حد معقول. فقد أعلنت عن شعورها المحايد هذا برغم علاقتها العاطفية التى لا تتغير نحو الغرب. والنرويج لا تسمح بقيام قواعد أمريكية فوق أراضيها ، هذا مع أن الولايات المتحدة تتمتع « بتسهيلات » معينة فى المطارات النرويجية ، فمثلا ، كان من المقرر أن تنتهى رحلة الطائرة ى — ٢ فى مايو ١٩٦٠ فى النرويج . وعندما هدد الاتحاد السوفيتى — فى أعقاب حادثة الطائرة ى — ٢ — بضرب جميع القواعد التى تتجه منها الأعمال العدوانية ضد الاتحاد السوفيتى بالقنابل ، عندئذ انتابت شعب النرويج نوبة من الذعر . وبعدها طلب مستر لانج -- مع أنه من أشد المؤيدين لحلف شمال الاطلنطى — طلب من حلفاء النرويج « ألا يعرضوا العلاقات بين دولته وبين الاتحاد السوفيتى للتوتر باثارة أحداث مثل حادثة الطائرة ى — ٢ » وأوضح أن « احتياجات الامن المشروعة الخاصة بروسيا تستحق الاحترام » ، تلك الاحتياجات المشروعة التى يجب أن تراعيها النرويج بدقة ، ذلك لأن النرويج تربطها بالاتحاد السوفيتى حدود مشتركة . ولقد أثارت خطة راباكى اهتماما بالغاً فى النرويج ، وكثير من النرويجيين يتطلعون فى يقين إلى تخفيف حدة التوتر بين الاتحاد السوفيتى والدول الغربية .

وأخيراً ننتقل إلى فنلندة ، ولا تعتبر هذه الدولة الصغيرة القوية الشكيمة (تبلغ مساحتها ١٣٠١٤٨ر٠ ميلا مربعاً . ويبلغ عدد سكانها ٤ر٤ مليون نسمة) لا تعتبر ، كما ذكرت آنفا فى بداية هذا الفصل ، احدى دول اسكنديناوة بالمعنى الصحيح ، ولكنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً

بدول اسكنديناوه وخاصة السويد . وفنلندة جمهورية يرأسها أورهو كيكونين ، وهو أيضاً أبرز شخصية سياسية بها وقد انتخب عام ١٩٥٦ لمدة ست سنوات . ولقد تناقلته الانباء فى مناسبات هامة عندما وجه خروشوف الدعوة لنفسه — قبل انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة فى عام ١٩٦٠ مباشرة — لزيارة هيلسنكى ، للاشتراك فى الاحتفال بعيد ميلاده الستين . وهناك حقيقة واقعة وهى أنه يعرف خروشوف جيداً، ويبجله كثيراً ، ولقد قام بعدة زيارات رسمية لموسكو فى الماضى ، كما أن خروشوف وبولجانين زارا فنلندة فى عام ١٩٥٧ .

وحكومة فنلندة ، تحت رياسة فاينوجوهانز سوكسيلنين حكومة أقلية تمثل حزب المزارعين (وهم متحفظون معتدلون) والحكومة تسيطر على ٤٧ مقعداً من مائتى مقعد فى البرلمان ذى المجلس الواحد . ولكن أكبر حزب فى فنلندة — وهذه نقطة هامة - هو الاتحاد الديموقراطى لشعب فنلندة ، وهو يسيطر على خمسين مقعداً ، ويعد وجهة أمامية للشيوعيين . والاشتراكيون الديمقراطيون، الذين يتمتعون بربع الأصوات ، منقسمون بين طائفة منتظمة يتزعمها فاينو تانر، وهو رجل عظيم محنك ، وطائفة أخرى هم أتباع سكوج الذين انشقوا بزعامة أميل سكوج . أما عن الجبهة الشيوعية فلم تشارك فى أية حكومة ائتلافية منذ عام ١٩٤٨ ، برغم قوتها الملحوظة ، ولكنها تؤثر كثيراً على معظم المناورات السرية التى تحدث .

وفنلندة تتميز ببعض الخصائص والمميزات . فلقد رزحت تحت نفوذ السويد عدة قرون ، ولكنها ضمت إلى روسيا القيصرية فى عام

١٨٠٩ ، ولم تحصل على حريتها القومية الا عندما قامت الثورة البلشفية في عام ١٩١٧ ، ولا زال أهل فلندة الذين يتحدثون اللغة السويدية يؤلفون ٨٪ من شعب فنلندة . وتتخلل أراضى فنلندة ٥٥٫٠٠٠ بحيرة ، وهـــذه تبتلع ٩٪ من المساحة الكلية . وتبتلع ما لا يقل عن ثلاثين ألف جزيرة فى مواجهة شاطئها ، ويقع ثلث فنلندة فوق الدائرة القطبية . وتعتبر هيلسكى ، مثلها فى ذلك مثل كوبنهاجن ، احدى العواصم الصغيرة الجميلة البهيجة ولقد كان شعب فنلندة أول شعب فى أوروبا يعطى النساء حق التصويت .

وفنلندة ، التى أعلنت حيادها ليست عضواً فى حلف شمال الاطلنطى ، لها علاقات وثيقة مع الاتحاد السوفيتى ، والاتحاد السوفيتى هو العميل الرئيسى لها بعد المملكة المتحدة . والروس حريصون على المحافظة على الممتلكات التى تواجه فنلندة ـ وفى الواقع يقول البعض إن الروس يحافظون على فنلندة عن عمد كشيء استعراضى ، كى يظهروا أنهم لا يكنون أية نوايا عدوانية نحو الدول الديمقراطية الصغيرة المتاخمة لهم ـــ وفى عام ١٩٥٥ أقدمت روسيا على حركة هامة وهى اعادة قاعدة بوركالا البحرية إلى فنلندة . وهـــذه القاعدة ، التى كانوا قد استولوا عليها فى الحرب العالمية الثانية ، تسيطر على المداخل العسكرية إلى هيلسنكى ، وقد ارتاح الفنلنديون عندما عادت اليهم . ثم بعد ذلك فى عام ١٩٦٠ وافق السوفييت على بدء المفاوضات لاعادة قناة سايما إلى فنلندة ، وهى قناة داخلية تهم الصناعات القائمة على الغابات فى فنلندة ، وكان السوفييت قد استولوا عليها أيضاً فى عام ١٩٤ ، وأخيراً أعلن

الاتحاد السوفيتى ، فى هذه اللحظة التى أكتب فيها ، أنه لن يعارض انضمام فنلندة إلى « منظمة التجارة الحـــرة » — وهى التى يتوق الفنلنديون إلى الانضمام اليها . وعلى الجملة فان خروشوف يهادن فنلندة إلى حد كبير، ويرجع ذلك جزئيا إلى أنه يريد أن يوازن نفوذ حلف شمال الاطلنطى فى دول اسكنديناوه كـكل. وبرغم كل ذلك فان العلاقات مع روسيا لا زالت هى مشكلة فنلندة الرئيسية ، وفى امكان الكرملين أن يعيد قبضته على الدولة فى أى وقت تقريباً .

والآن ، وقد انتهينا من جولتنا الطويلة المعقدة فى أوروبا نصل إلى الاتحاد السوفيتى ، وشخصية خروشوف الشائكة ، التى تستوعب كثيراً من تفكير أوروبا .

٢١ — خروشوف فى مؤتمر القمة

لقد قدر لى أن أحضر عددا كثيراً من المؤتمرات الصحفية ، وكان بعضها هاما ، ولـكن لم يكن أحدها يشبه ذلك المؤتمر الذى عقد فى قصر شايوه فى باريس فى عصر يوم الأربعاء ١٨ من مايو عام ١٩٦٠ ، عندما حفر نيـكيتا سيرجيفتش خروشوف قبرا لمؤتمر القمة ، ودفنه فى ذلك القبر ، وفى خلال ساعتين واثنتين وأربعين دقيقة من الثورة والهياج ، بصق بحنق على ما تبقى من المؤتمر .

ولا يمكن لأى فرد من بين الصحفيين والرسميين الذين بلغ عددهم جميعاً ثلاثة آلاف شخص أو أكثر ، أقول لا يمكن لأى فرد أن ينسى

هذه التجربة التى تعد — تقريباً — أكثر عرض يدعو إلى الدهشة قام به رجل واحد على مسرح السياسة وهو عرض خسيس شاذ يدعو إلى الدهشة والغرابة .

تناولت طعام الغذاء أنا وزوجتى مع دافيد دوجلاس دنكان ، المصور ، فى باركريللو ، وقمنا على عجل لكى نصل إلى قصر شايوه فى الوقت المناسب .

ومن البديهى أن جمهور الحاضرين كان أكبر بكثير من أن تستوعبه أية قاعة تستخدم عادة للمؤتمرات الصحفية ، ولذا استخدم بدلا من ذلك « الدهليز » الضخم المكشوف فى قصر شايوه ، وكان المؤتمر أشبه ما يكون باجتماع أو حشد كبير .

وفى الوقت الذى وصلنا فيه كان هذا « الدهليز » ممتلئا إلى النصف وسرعان ما امتلأ النصف الآخر من « الدهليز » وكان الجو مكهربا مثل الجو الذى يسود جاديسون سكوير جاردن قبل نشوب صراع كبير .

وكانت الأصوات المنبعثة من هذا الجمع أصوات مخيفة ، واستمر الناس من خلفنا يصيحون : « اجلسوا ! » لأن أناساً آخرين كانوا يقفون من وقت لآخر أثناء انفعالهم .

هكذا كانت الصحافة فى العصر الحديث — ولا جدال فى ذلك وتناثرت عدسات التليفزيون فى أرجاء الدهليز ، وامتدت الأسلاك المغطاة بالمطاط على أرض الدهليز .

وكان فى إمكان الحاضرين أن يتراجعوا إلى الطرف الآخر من القاعة

ويكون بوسعهم إما أن يشاهدوا خروشوف نفسه ، أو أن يتخذوا وضعاً مريحاً وينظروا إليه على شاشة التليفزيون فى نفس اللحظة .

ومبلغ علمى أن تنظيمات الأمن كانت قد تلاشت تماماً . فلم يكن هناك من ينظر إلى أوراق اعتماد أى شخص ، وكان بوسع أى دخيل أن يطلق طلقة نارية أو يلقى بقنبلة . ومن بين الأشياء الغريبة عن خروشوف هى نسيانه لاحتياطات الأمن .

ومن الواضح أنه يؤمن بالقدر ، ولا بد أنه - على خلاف ستالين - ولد بغير خوف :

وفى الوقت المحدد بالضبط دلف رئيس الوزراء السوفييتى إلى القاعة الطويلة الحارة التى تعج بالضجيج وحلقات الدخان المتصاعد من السجائر تموج تحت الضوء المنبعث من أشعة الشمس التى تدخل من خلال النوافذ الكبيرة ، واتخذ خروشوف مكانه على منصة وبجانبه أندريه جروميكو وزير الخارجية، وفيتو جراداف السفير السوفييتى فى باريس ،والمرشال روديون مالينوفسكى وزير الدفاع السوفييتى .

ونهض خروشوف ليتحدث - وكما سوف يتذكر كل فرد تقريباً - كان شرساً عنيفاً صارماً واثقاً من نفسه وماهراً فى خبث ، وكما هى عادته ظهرت عليه سمته الخاصة التى تميزه وهى سماجته الريفية . وعندما قوبل بالصفير وعلامات عدم الرضا قال بلهجة ملؤها الاحتقار :

إن الذين صدرت عنهم هذه الحركات لابد وأن يكونوا من « أوباش » ألمانيا الغربية فروا بطريقة أو بأخرى من ستالينجراد ، وشحنهم

دكتور أديناور إلى باريس. ولكن كان من الواضح أنه أهين من حركات الاشمئزاز والصفير .

وكما يحدث مع الروس دائما ، سرعان ما استغل الاهانة التى حدثت فى المجال الشخصى إلى المستوى السياسى وكما لو كان الاتحاد السوفييتى نفسه هو الذى قوبل بعلامات الاشمئزاز والصفير وليس مستر خروشوف فقط ، فبدأ مباشرة يردد انتصارات « ثورة أكتوبر العظيمة» «وزعامة لينين العظيم » ، وهكذا.. وهو دائماً ما يسهب فى الحديث عن أى موضوع

وفى هذه المناسبة لم ينس لدقيقتين أو ثلاث دقائق أن الصفير كان موجهاً له هو وحده ، وقال متعجباً .

إن هذا الصفير يشد عزمى . . إنه يشد عزمى ويفعم قلبى بالرضا إننى أحب منازلة أعداء الطبقة العاملة ، ومما يدخل السرور على قلبى أن أسمع حنق وجنون عملاء الاستعمار هؤلاء » . .

ومن بين كل ما قاله خروشوف وردت فقرتان شهيرتان عن القطط جاءت الأولى اجابة على سؤال ما إذا كان مستر خروشوف لا يزال يأمل فى عقد مؤتمر آخر للقمة فى المستقبل .

وأجاب خروشوف على ذلك بالايجاب ولكنه أضاف : إن هناك صعابا من بينها « العدوان الأمريكى » ، وقال :

سيداتى وسادتى :

إن لنا جميعاً أمهات . وأنتم أيضاً لكم أمهات ، وإلا لما كان يقدر لكم أن تجيئوا إلى هذا العالم ، إننى أتذكر أثناء شبابى - اننى قد ولدت

فى أسرة فقيرة جداً ، ولم يكن فى استطاعة أمى أن تشترى لنا شيئاً من الزبدة إلا نادراً جداً، ولكنها أحياناً عندما كانت تشترى لنا الزبدة كانت قطتنا تزحف وتأكل شيئا من الزبدة وتسرق شيئاً منها .

وعندئذ كانت أمى تمسك القطة من مؤخرة رقبتها وتهزها بعنف ثم تدس أنفها فى الزبدة لكى تجعلها تفهم أن مثل هذه السرقة أمر غير مشروع . فهل كان من الأفضل سيداتى وساداتى ، أن نمسك بالمعتدين الأمريكيين من مؤخرة الرقبة أيضاً ونهزهم قليلا ونجعلهم يفهمون أنهم يجب ألا يرتكبوا مثل هذه الأعمال العدوانية ضد الاتحاد السوفييتى .

وقرب النهاية أصبح خروشوف أكثر اعتدالا ، وقال :

« أريد أن أنهى حديثى بأن أقول إن الاتحاد السوفييتى سيمضى فى تمسكه بسياسة التعايش السلمى بين النظامين ، النظام الرأسمالى والنظام الاشتراكى .

إننا سنمضى فى انتهاج سياسة السلام التى تهدف إلى حل جميع المشاكل المتنازع عليها عن طريق المفاوضات».

وفى النهاية سمح لنفسه بنكتة لطيفة — وهى أن الوقت قد حان للكف عن الكلام ، ذلك لأن المترجمين قد أدركهم التعب ، وقال إنهم يقومون بعمل زائد طالبوا باحترام قانون العمل وبدأ الجمع ينفض ! .

وهربت من المبنى وركبت إحدى عربات التاكسى عائداً إلى الفندق الذى كنت أقيم فيه . وقال السائق ساخراً : « لن يمضى وقت طويل حتى يطلقوا على قصر شايوه (قصر خروشوف) » .

٤ ـ « ان سر غضب روسيا وحنقها من حادثة الطائرة ى ـ ٢ هو خوف السوفييت من الحرب . لقد سمعت هذه الملاحظة فى لندن بعد فشل مؤتمر القمة بوقت قصير ، وكان قائلها واحد من أعقل الروس وأبعدهم نظراً ـ وهو ليس شيوعيا وفى هذه العبارة معان كثيرة فلقد كانت روسيا دائما تشعر بحساسية مفرطة بالنسبة لأى شىء يمس أرضها المقدسة . ويمكننا أن نأتى بالأمثلة على ذلك منذ عهود ساحقة. وعلاوة على ذلك ، فان السرية تلعب دوراً فى الإدارة الروسية لدرجة لايفهمها الغرب ، وعلى ذلك ، لم تكن طائرة باو ز إلا رمزاً للعدوان وبذلك كانت تقتحم أسرار روسيا . وكذلك تنتهك أمنها الغالى . وكان على خروشوف أن يبين لشعبه أنه لا يخشى الامريكيين ولا يهابهم ، بصرف النظر عن الأثر الذى أحدثته قصة الطائرة ى ـ ٢ فى الوهم السائد حول عدم احتمال تعرض روسيا للهجوم .

وبطريقة عرجاء نوعا تحدث الامريكيون فى باريس أثناء مؤتمر القمة عن الحقيقة بأن خروشوف قد ذكر « احتياجات الاتحاد السوفيتى السياسية الداخلية » أثناء خطابه الذى القاه فى قصر شايوه ـ وهذا شىء غير عادى ـ وعلاوة على ذلك فقد كان فى صحبته دائما فى المناسبات العامة المارشال مالينوفسكى القوى المهيب الطلعة . وعلى ذلك غالبا ما يقال إن البواعث الحقيقية لسلوك خروشوف كانت السخط السياسى فى روسيا إلى جانب التبرم فى الجيش الأحمر ، ومن المعتقد أن هذا بدوره كان نتيجة للتبرم من طريقة خروشوف العنيفة ، وهى أنه لكى يوفر المال ولكى يسد النقص فى العمال ، خفض قوة القوات

المسلحة السوفيتية ، بأن عزل حوالى ٢٥٠٠٠٠ ضابط من ضباط الجيش الأحمر ، وخفض عدد الجيش نفسه بحوالى ١٫٢ مليون رجل .

وكل ما يمكن أن يضيفه المرء إلى ذلك هو أنه فى تلك اللحظة لم يظهر أى دليل يؤيد هذه الافتراضات ، وقد يكون من الممكن أن يلقى خروشوف متاعب داخلية خطيرة بمرور الوقت ، ولكن يبدو من غير المفهوم تماما أن يكون التبرم العسكرى له علاقة كبيرة ، إذا كانت له علاقة على الاطلاق بمؤتمر القمة ، هذا إذا نظرنا إلى الأحداث فى الشهور السالفة . إن مالينوفسكى من أتباع خروشوف وهو ليس بالرجل الطموح ، كما أنه لا يتسم بكثير من الاستقلال فى الرأى ، ويحتمل أن يكون خروشوف قد اصطحبه معه إلى باريس ليكون شاهداً يؤكد للكرملين ما حدث — وكذلك كرمز يبين قوة الروس العسكرية أمام الغرب .

ماذا عن النتائج .. ؟

وأخيراً ننتقل إلى النتائج . فمن المؤكد أن خروشوف حصل على شىء واحد على الأقل — ألا وهو وقف رحلات التجسس الجوى فوق الاتحاد السوفيتى . ومن الجانب الآخر ، من الواضح تماما أنه منذ عام ١٩٥٦ هيمنت إدارة أبحاث الفضاء على عمل من أعجب أعمال التجسس فى التاريخ — ولا بد أن يكون هذا العمل قد جمع فوراً معلومات بالغة الأهمية عن المنشآت الصناعية والعسكرية فى الاتحاد السوفيتى ، وربما عن المنشآت المماثلة لذلك فى البلدان الشيوعية الأخرى كذلك .

وهناك احتمال آخر فى مقابل ذلك ، وهو أن الروس قد تغيروا إلى حد كبير من فشل حادثة الطائرة ى ــ ٢ وقد إنشغلوا منذ ذلك الحين فى تغيير مواقع مثل هذه المنشآت التى يمكن نقلها ، ولما كانت رحلات طائرات التجسس لم تستأنف فليست لدينا أية وسيلة للتحقق من هذه التغيرات .

أما فى الحقل السياسى ، فليس هناك من شك فى أن الولايات المتحدة بصفة خاصة ، والحلفاء الغربيين بصفة عامة ، قد واجهوا هزيمة مخجلة . وأن مجرد الإعلان بأن الولايات المتحدة لديها النية على قذف الاكاذيب الصارخة فى مسألة تهم الرأى العام كان حقيقة قاسية وزوالا لنومهم . ولكن التجسس عمل قذر ، وهكذا كان دائماً . ومن المؤكد أنه لم يحدث على مر التاريخ مثل هذا المثل اللاذع على التناقض . فالاتحاد السوفيتى الذى اعتاد التجسس وأدمن عليه أكثر من أية دولة فى العالم ، يقف فى حالة طائرة باورز ــ من دون الدول أجمع ــ موقف الشخص البرىء الفاضل .

وقد تحدثت إحدى صحف لندن « صنداى اكسبريس » عن رحلة الطائرة بأنها « عمل غيرضرورى على الإطلاق ، كما أنه مثير » وحذرت زعماء بريطانيا بأن مصير العالم » معلق بين الأصابع الناعمة لحفنة من الجنرالات الأمريكيين » . وفى مجال آخر أشد خطراً ، يجب حساب الانزعاج والارتباك الذى شعر به كثير من حلفاء أمريكا . وكذلك هبطت هيبة أمريكا إلى حد كبير فى كثير من أرجاء العالم . وقد أعلن المارشال مالينوفسكى عند عودته إلى موسكو أنه أعطى الأوامر إلى

قوات الصواريخ السوفيتية بأن تضرب مباشرة أى قاعدة تنطلق منها الطائرات الأجنبية وتنتهك الفضاء الجوى الروسى أو الفضاء الجوى للدول حليفة السوفييت . وبذلك ثارت قضية القواعد الأمريكية فى كل مكان من العالم ، وازداد الميل نحو الحياد ، وأدى ذلك ، من بين أشياء أخرى إلى إلغاء زيارة الرئيس ايزنهاور التى كان مقرراً له أن يقوم بها إلى اليابان ، بشكل مهين .

ومن الجانب الآخر لم يكن الارتباك الشامل عنيفاً كما كان متوقعاً له ، فقد اعتقد المراقبون بعد انهيار مؤتمر القمة مباشرة أن الروس سيتحركون إلى برلين ، ولكن خروشوف — كما سبق لى أن قلت — ألقى خطاباً عند وصوله إلى برلين الشرقية وكانت لهجة الخطاب على العموم معتدلة . كما أن المفاوضات بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة أصبحت بطيئة التقدم ، ولكنها لم تنقطع . ولم يقل النشاط فى مجال التبادل الثقافى أو توالى وصول السياح الأمريكيين إلى موسكو وكانت الحرب الباردة لا تزال مستمرة ولكن شدتها لم تعظم . وأخيراً ، ربما يكون لانهيار مؤتمر القمة بعض القيمة بالنسبة للغرب فى أنه أوضح بصفة نهائية — إذا كنا لا نزال فى حاجة إلى معرفة — أوضح طبيعة زعامة خروشوف .

تشبيه وفلوف . .

وفى الثامن عشر من شهر مايو عام ١٩٦٠، نشرت جريدة «التايمز» اللندنية خطاباً هاماً من دكتور وليم سارجانت ، وهو أحد أساتذة بريطانيا المبرزين فى الطب النفسانى ، عبر فيه بطريقة لاذعة عن الرأى

القائل بأن سلوك خروشوف فى باريس، وكذلك سلوكه المشابه فى أماكن أخرى ، كان يقوم على نظريات دكتور إيفان بيتروفتش بافلوف ، أحد مشاهير علماء النفس فى روسيا ، الذى مات فى عام ١٩٣٦ ، ولقد حصل بافلوف على جائزة نوبل فى عام ١٩٠٤ ، وهو صاحب نظرية التصرف العكسى حسب الظروف المحيطة — فمثلا يسيل لعاب الـكلاب أو يعتريهم رد فعل جسمانى استجابة لحافز خارجى مثل رنين الأجراس ، أو تعرضهم لصدمات كهربائية خفيفة .

ومع أن بافلوف لم يكن شيوعياً إلا أنه عمل فى ظل النظام الشيوعى سنوات عدة ، وأصبح بطلا سوفيتياً عظيماً منذ وفاته . ومن المؤكد أنه ليس هناك جديد فى أن الروس غالباً ما يستخدمون مبدأ التصرف العكسى حسب تهيئة الظروف فى أساليبهم التعليمية والدعائية . اضغطوا على الزر وسوف يعمل الإنسان الآلى . وهذا تبسيط كبير لمفهوم بافلوف . ولـكن ليس هناك أى شك فى أن أساليب بافلوف كانت لفترة طويلة نوعا من الدعامة السيكولوجية لـكثير مما لا يطبق فى النظام السوفيتى مثل غسيل المخ مثلا .

وتمادى دكتور سارجانت بعيداً . فافترض أن الساسة السوفييت فى الوقت الحاضر يستخدمون أساليب بابفلوف عن عمد للقضاء على « التوازن العصبى » عند دول الغرب البورجوازية كما تعلموا بالضبط كيف يقضون على التوازن العصبى عند الـكلاب والحيوانات الأخرى ، وبذلك يخلقون فيهم حالة من الهياج العصبى الذى يصعب

السيطرة عليه ، وربما يؤدى ذلك فيما بعد إلى سلوك هيستيرى ويتسم بالإذعان والخنوع ، وربما يؤدى أخيراً إلى التراخى الذى يأتى نزولا على إرادة الغير .

وهذه النظرية تطوير لأسلوب « ضربة ساخنة ، وضربة باردة » وما يعمله الروس هو أن يعطوا « إشارات إيجابية وإشارات سلبية » ، ومن شأنها مجتمعة أن تجعل الصحافة والرأى العام فى أمريكا وبريطانيا « فى حالة اضطراب ، وتشويش وقابل للتوجيه و... مثل كلاب بافلوف » . واستطرد بروفيسور سارجانت يقول : يبدو أن السياسة الروسية « تسبب ارتباكاً شديداً للذين يعتادون على أسلوب بافلوف » ولكن بافلوف يمدنا بمفتاح يحسن بنا أن نأخذه مأخذ الجد ، فالروس يرسمون تغيير الإشارات بشكل سريع جداً باعتبارها تمريناً فى الحرب النفسية مدبراً عن عمد لكى يبغت الأعداء ويقضى على المقاومة ، ولكى يتأكد الروس أننا — ونحن نشبه الكلاب التعسة فى لينينجراد — قد تأثرنا بالتنويم المغناطيسى . ولم يصبح لنا أثر كما فقدنا تمسكنا .

وقد كان خطاب سارجانت سبباً فى إثارة مجموعة من الردود المثيرة فتوالت الخطابات على جريدة « التايمز » من عشرات الخبراء بما فى ذلك العلماء الآخرون والدبلوماسيون والعسكريون ، وكان أحد الاقتراحات التى تقدم بها سارجانت رداً على الأسلوب السوفيتى هو تجاهل هذا الأسلوب . ولكن عدداً من المعلقين قالوا إن هذا ليس بالدفاع الكافى أو بمعنى آخر إن الهرب لا يعد حلا للموقف .

وقال آخرون من المراسلين إن قول سارجانت خيالى ومتطرف بعض الشىء ، قائلين إن شعوب الغرب لم تخضع بأية وسيلة لسلسلة متشابهة من الحوافز المؤثرة . وتمادى أحد الكتاب الذين انضموا إلى هذا الجدل فقالوا إن سلوك الغرب الخاطىء هو الذى يمثل دكتور بافلوف بشكل أوقع ؛ وأن الاتحاد السوفييتى هو الضحية الحقيقية ، وأنه على وشك أن يسقط فريسة « للاضطراب العقلى والانهيار الكامل »

وهذه الخطابات التى وردت إلى جريدة « التايمز » تعكس اختلافاً فى الرأى . وقد جاء فى أحد هذه الخطابات :

« من المؤكد أن تحليل دكتور سارجانت للأساليب الروسية ، يحمل درساً للمواطنين فى كل البلدان التى تخلصت من البيروقراطية ، بما فى ذلك المملكة المتحدة . وتخرج من ذلك بأن الكلب الذى يتسم بالتعاون ويشعر بصوت الضمير يلقى أسوأ معاملة » .

وجاء فى خطاب آخر :

« أعتقد أن الجاسوس موظف عمومى له قيمته ، مع أنه غير معترف به . ويجب علينا أن نمتدحه لأنه يساعد على تجنب الحروب المفاجئة ، وأحياناً يساعد على منع وقوع الحروب . . وقديماً كان الجاسوس يسير على قدميه ، ثم استخدم الحصان ، ثم ركب السيارة ، وهو اليوم يستخدم الطائرة .. فلم كل هذه الضجة حول واحدة من أقدم وأفيد المهن فى العالم ؟ »

وربما ترجع الكلمة الأخيرة لأحد المراسلين ، وهو أ . د . انجرام

الذى كتب فى ٢٤ من مايو يقول : « إننى أعتقد أنه يجب أن نلاحظ أن تصرف مستر خروشوف الأخير يعتبر فى الواقع أقل شبهاً لبافلوف عن كلب بافلوف » .

وبعد أن قلنا كل ذلك ، يجب أن نردد ، على مستوى خطير ، إن السياسة السوفيتية تميزت منذ عدة سنوات بظاهرة ، وهى تقلب تكتيكها السياسى ، سواء أكان بافلوف مسئولا عن ذلك أو العكس فهم يمارسون الضغط ، ثم التراخى الظاهرى الواحد بعد الآخر ويمكننا أن نأتى بالأدلة على ذلك من أسلوب الروس فى لاوس ، وكوبا ، والمفاوضات الجارية لتحريم التجارب الذرية .

وكان رد الفعل من جانب أمريكا عنيفا . وكتب جيمس ريستون فى جريدة « نيويورك تايمز » فى ٢١ مايو ، وقد شق سحابة من الدعاية قامت لتحمى الرئيس الأمريكى — وقال بطريقة سطحية : « لقد كان مستر ايزنهاور مسئولا بشكل مباشر أو غير مباشر ، عن أكبر سلسلة من الأخطاء المخزية التى تعرضت لها الولايات المتحدة فى حقبة من الزمن وقال السيناتور فولبرايت أمام مجلس الشيوخ الأمريكى : « إننا أرغمنا خروشوف على تحطيم المؤتمر بغبائنا » ، واستشهد بخطأين فاحشين من بين الأخطاء الأخرى . (ا) أصدر الأمر لطائرة ى ٢ للقيام برحلتها فى اليوم الأول من شهر مايو وهو موعد قريب جداً من انعقاد مؤتمر القمة ، (ب) القرار السىء الذى أخذ بمقتضاه الرئيس الأمريكى على عاتقه المسئولية الشخصية عن رحلة الطائرة . وفى العادة أن الحكومات

– وخصوصاً رؤساء الدول – ينكرون علمهم بأية عملية للتجسس إذا فرض وكشفت هذه العملية .

وكتب والتر ليبمان فى جريدة « نيويورك هيرالد تريبيون » يقول : « يجب أن نتذكر أن الطائرة عندما أسقطت ، فتح خروشوف الباب أمام الرئيس أيزنهاور لكى يهيئ له مخرجاً دبلوماسياً من ورطته ، فقد قال مستر خروشوف : إنه لا يعتقد أن مستر أيزنهاور كان مسئولا عن إصدار الأمر إلى الطائرة . . وكان الرد الدبلوماسى هو ألا يقال شئ فى ذلك الوقت ، أو على الأكثر أن يتعهد الرئيس الأمريكى بإجراء تحقيق دقيق فى المسألة بأكملها . وبدلا من ذلك ، أجاب مستر أيزنهاور أنه كان مسئولا عن ذلك ، وأن مثل هذه الرحلات الجوية كان أمراً ضرورياً . وبعد ذلك ترك العالم يعتقد – وإن لم يكن قد قال ذلك فى كلمات محددة – أن هذه الرحلات الجوية سوف تستمر ، وبذلك أقفل الباب الذى كان خروشوف قد فتحه . وهكذا تحول الارتباك الذى نشأ عن كشف عملية التجسس هذه إلى تحد مباشر لسيادة الاتحاد السوفيتى » .

وقال ادلاى ستيفنسون فى حفل عشاء دعى إليه الحزب الديمقراطى فى شيكاغو ، قال : إنه برغم أن خروشوف هو الذى حطم المؤتمر «فنحن الذين وضعنا بين يديه الأدوات التى تحطم بها المؤتمر» واستطرد مستر ستيفنسون فى تحليله يقول :

« لقد أرسلنا طائرة تجسس فى أعماق الاتحاد السوفيتى قبل انعقاد مؤتمر *القمة* بوقت قصير ، ثم أنكرنا ذلك . ثم عدنا فاعترفنا به .

وعندئذ عندما أعطى مستر خروشوف للرئيس أيزنهاور مخرجا بأن افترض أن إيزنهاور لم يكن مسئولا عن إعطاء الأوامر للطائرة ، أكد الرئيس الأمريكى فى أنفة وكبرياء أنه كان مسئولا عن ذلك .. ثم بعدها أعدنا النظر فى ذلك وأمرنا بمنع الرحلات الجوية للتجسس. ولكننا لكى نزيد الموقف تعقيداً ، أرجأنا إعلان أن هذه الرحلات قد انهيت مدة طويلة ، مما جعلت الأمر يبدو كما لو كنا قد خضعنا أمام الضغط ، وكان تلكؤنا طويلا لدرجة جعلت خروشوف يصل إلى درجة الغليان .

ومرة أخرى عاد أحد كبار الأمريكيين فوصف ذلك قائلا :

« أولا أصدرت وزارة الخارجية أكذوبة ، ثم أصدرت مجموعة من البيانات المتناقضة ، وثالثاً أصدرت اعترافاً صريحاً جداً بخطئنا وتورطنا ، وأخيراً ، وبعد تباطؤ طويل أعلنت أن رحلات التجسس الجوى قد أوقفت .

من قال ذلك ؟ . . إنه واحد من أعضاء مجلس الشيوخ الصغار فى ماساشوتس ـ هو ـــ « جون كنيدى » الرئيس الحالى .

ونعود الآن إلى السؤال الذى طرحناه فيما سبق :

ـــ لماذا استغل خروشوف حادثة الطائرة ى ـــ ٢ إلى الحد الذى وصل إليه ؟ . .

إن هذا الأمر يدعو إلى الحيرة بوجه خاص ، ذلك أن القيادة العليا السوفييتية كانت تعلم بالرحلات السابقة التى حدثت . وفى الواقع، ذكر خروشوف إحدى رحلات التجسس الجوى هذه التى حدثت

فى التاسع من شهر أبريل ، ومن الواضح أن طائرة باورز كان لا يمكن تتبعها بهذه الكيفية وإسقاطها بهذه الدقة لولم يكن الروس قد استعدوا لها . . وقد سأل رئيس الوزراء السوفييتى فى المؤتمر الصحفى الذى عقده فى ١٨ من مايو ، على السبب الذى من أجله لم يحتج لدى الرئيس أيزنهاور عن رحلات التجسس الجوى هذه — لما كان يعلم بها — وهو يزور الولايات المتحدة . وكان رد خروشوف ممتعاً . إذ قال :

سوف أجيب على هذا السؤال بكل سرور .. فعندما كنت أتحدث فى كامب دافيد مع الرئيس أيزنهاور ، فتحت فمى تقريباً لكى أدلى بذلك التصريح . وكنت على وشك التصريح به لأن الجو كانت تسوده البهجة ، وفى هــذه اللحظة كان الرئيس أيزنهاور ينادينى ويطلب منى أن أناديه مستعملا كلمة : « يا صديقى » باللغة الانجليزية ، وهو يدعونى بنفس هذه الكلمة باللغة الروسية . وفى ذلك الحين فكرت ، لماذا لا أثير المسألة مع صديقى هذا ؟ . . ولكننى عدت تخشيت ذلك . فقد كنت أعتقد أن هناك شيئاً « له رائحة السمك » عند صديقى هذا ، ولم أتطرق إلى الموضوع ، وقد ظهر أنى كنت على حق فى ذلك ، لأننا عندما أمسكنا بهم وأيديهم مخضبة بالدماء ، قالوا إنهم ليسوا باللصوص . إنها مجرد سياستهم التى تشبه اللصوصية ، وهذا كل ما فى الأمر » .

وعند هذه النقطة جاءت إشارة مستر خروشوف الثانية إلى القطط :

« وهذا يذكرنى بما اعتدنا أن نفعله عندما كنا فى دونباس ، وكنت

فى ذلك الحين غلاما صغيراً .فعندما كنا نمسك بالقطة فى قفص الحمام ، فإننا كنا نمسك بالقطة من ذيلها ونضرب رأسها فى الحائط .

وهذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن بها أن نعلمها شيئاً من الأدب »

وبعدها عندما بدأ خروشوف يتحدث عن أيزنهاور باحتقار مكشوف — عندما قال مثلا : إنه لاعب جولف لا يصلح إلا لإدارة بيت للأطفال - سأله أحد الصحفيين : لماذا لم تحتج روسيا عن رحلات التجسس الجوى ؟ . . فأجاب خروشوف قائلا :

« لم تكن لدينا أدلة مادية لإثبات هذه الإعتداءات ، وعلى ذلك اعتبرت الحكومة السوفييتية أن إصدار أية احتجاجات يعتبر مضيعة للوقت » .

وفى الواقع ، هنا نجد اللغز لذى يكتنف أحد جوانب المسألة . . . فبعد رحلة الطيار باورز أصبح لدى خروشوف أهم أجزاء الجريمة — الدليل عليها ، البضاعة التى سيعرضها .

وعلاوة على دلك ، فإن الروس رغم أنهم كانوا على علم برحلات الطيار فوق أراضيهم ، فإنهم لم يكونوا على علم بنتائج هذه الرحلات إلى أن حصلوا على الأفلام التى كانت مع الطيار باورز وطبعوا ما بها من صور . ويبدو أنه لم يكن يخطر ببالهم أن أراضى الاتحاد السوفييتى يمكن التقاط خرائط لها بكل هـــذا الوضوح والدقة التفصيلية المذهلة .

واكتشف خروشوف — على حين غرة — أن الولايات المتحدة

كانت تعرف — بكل تأكيد — عن منشآت روسيا العسكرية والذرية وغيرها أكثر مما يعتقد أى فرد فى الاتحاد السوفييتى ، وكان من الطبيعى أنه لما كان جزء كبير من تهويش روسيا وضجتها يقوم على الضعف والخوف ، فقد كان ذلك باعثاً آخر على إثارة غضبهم وحنقهم .

ولكن إذا سلمنا بما سبق ، لماذا تكبد مشقة المجىء إلى باريس ..؟ وإذا كانت موسكو قد اتخذت قرارها صريحاً — قبل يوم السبت ، الرابع عشر من شهر مايو — والذى يقضى بعدم الاشتراك فى المؤتمر ، فلماذا لم يعان ذلك من الكرملين ويبقى فى روسيا ؟ ولدينا على ذلك إجابتان تصلح كل منهما للرد على ذلك ، فأولا ، لقد توفرت له فى باريس منصة عظيمة يلقى من فوقها دعاية فعالة ، ثانيا ، كان يأمل فى أن يحدث شقاقا بين الحلفاء الغربيين ، وذلك بأن يجعل من هذه الحادثة قضية عامة . ولكن ديجول وماكميلان حافظا على اتزانهما . وهناك احتمال ثالث أيضاً — مع أن من الصعب دعمه بالأسانيد — وهو أن خروشوف لم يكن يفهم على الاطلاق المزاج الامريكى والشخصية الامريكية ، وربما يكون قد اعتقد أن الرئيس ايزنهاور سوف يقبل انذاره ، ويعتذر ، ويفى بشروطه المستحيلة ، على أن قبول هذه الشروط تماما كان يعنى أن ايزنهاور كان يجب عليه أن ينزل العقاب بنفسه ، أو على الأقل ، يرمى بمستر ألن دالاس ، رئيس إدارة أبحاث الفضاء ، فى السجن .

وننتقل الآن إلى العوامل الأخرى .

كان خروشوف قد أفصح علنا عن إعجابه بايزنهاور فى ألفاظ فياضة وكان يعد له — كما سبق أن ذكرت — استقبالا لم يسبق له مثيل فى التاريخ

السياسى بكل تأكيد ولم يحدث أن تحدث أى رئيس لدولة شيوعية عن أى رئيس لدولة رأسمالية بألفاظ حارة أو حتى بألفاظ يكتنفها الود ، كما تحدث خورشوف عن إيزنهاور حتى مساء يوم انعقاد مؤتمر القمة . لقد كان يتكلم بكل تأكيد بروح كامب ديفيد وعلاوة على ذلك فقد سبق أن سجلت له بيانات لا حصر لها عن الآمال البراقة التى تتعلق بالتعايش السلمى . وعلى ذلك فعندما أخــذ إيزنهاور على عاتقه مسئولية الطائرة ى ــ ٢ دخلت عوامل إضافية عديدة فى المسرحية .

أولا ــ شعر خرُوشوف بالخيانة وآلمته ـ بكل تأكيد ـ خيبة الأمل الشخصية التى أحس بها .

ثانيا ـ اهتزت هيبته إلى درجة خطيرة فبرغم المعارضة الكبيرة كان يعلق الشىء الكثير على صداقته مع إيزنهاور وثقته به والآن ذهبت آماله سدى ، وأصبح بامكان زملائه فى الكرملين أن يعنفوه ويعيروه على سذاجته وعلى خروجه عن الاتجاه المعتاد للحزب وعلى ذلك . كان عليه أن يضاعف قبحه ، ويضاعف عنفه ، فى سلوكه فى مؤتمر القمة ، لكى يفصل ما بينه وبين إيزنهاور ، وكان موقفه ، عاملنى كفلاح روسى أبكم ، وسوف أريك كيف يمكن للفلاح الروسى أن يتصرف ! .

٣ ــ يحتمل أن تكون الصين قد لعبت دورا ، فبعد أن عاد خروشوف توا من واشنطن ذهب إلى بكين حيث يعتقد أن ماوتسى تونج

قد إستقبله ببرود ملحوظ ليس ذلك فحسب. بل أن الزعيم الصيني تحدث عن « أناس معينين خدعوا بأن وضعوا ثقتهم بايزنهاور ولذا شعر مستر خروشوف بإضطراره الى أن يثبت للزعيم ماو مثله فى ذلك مثل إتباع ستالين فى الكرملين ، أن قد عاد لى الطريق الصحيح وأن كل تخبط يرجع إلى خطأ إيزنهاور .

٣ — ليس هناك أى فرد — حتى هذا اليوم — يعرف على وجه التحديد ما حدث فيما يتعلق ببرلين فى كامب ديفيد. فقد أراد إيزنهاور وهو الرجل الظريف ، أن يكون ظريفا ، وما من شك فى أن خروشوف فسر معنى ما قاله أيزنهاور أو الطريقة التى تحدث بها كدلالة على أن الغرب ربما يكون مستعدا للنزول عن إمتيازات كبيرة فيما يتلق ببرلين وغالبا ما يكون سوء الفهم من هذا النوع نتيجة للاتصالات الشخصية غير الرسمية بين الزعماء ، فالدبلوماسية . كما كتب هارولد ينكلسون ذات مرة بحكمة بالغة « يجب أن يكون فن التفاوض باتفاقيات مكتوبة » ومن هنا فعندما أصبح واضحا قبل إنعقاد مؤتمر الأقطاب أن الولايات المتحدة ليست لديها أدنى ميل لتغيير موقفها من برلين ، ثارت ثائرة خروشوف فقد فشلت سياسته فى الاعتماد على إيزنهاور كما استنتج رفاقه فى موسكو دون شك . ولكن برلين وحدها لا يمكن أن تكون سببا لهذا التدهور .

حكم الارهاب الأسود روسيا وعندما بدأت الحرب الباردة وذلك فى الفترة من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٣ .

بيد أن الكرملين يحسن تكتم أسراره فعندما مات ستالين فى الخامس من شهر مارس سنة ١٩٥٣ بعد ثلاثين عاما من الحكم العنيف لم يكن معظم الناس خارج روسيا يعرفون شيئا عن خرزشوف أما فى الداخل فلم يكن يعرفه إلا الأقلون ، وقد جاءت نقطة التحول فى حياته فور وفاة ستالين . أما تفاصيل هذه القصة فمازالت فى طى الكتمان ، على أن المقربين لستالين اتخذوا قراراً فيما بينهم وربما كان ذلك على مشهد من جثة ستالين وهى لما تزل بين أيديهم بانهاء حكم الفرد وإقامة زعامة جماعية وإعادة تنظيم الحزب باعتباره الجهاز الرئيسى القوة السوفيتية .

ولقد كان الدافع لذلك هو حماية أنفسهم فلم يكن ستالين يحكم روسيا من خلال الحزب مطلقا لسنوات عدة بل كان يحكم بواسطة البوليس وسكرتاريته الخاصة المشئومة .

وقد شكلت لجنة ثلاثية كان الغرض منها إعادة تنظيم نظام الحكم فى الدولة وكانت تتألف من مولوتوف رئيس الوزراء السابق وجورجى مالينكوف الذى كان يعمل سكرتيرا رئيسيا لستالين مدة طويلة ولافرينتى « بريا » ذى السمعة السيئة والذى كان رئيسا للبوليس السرى ، ولم يكن خروشوف نفسه فى بادى الأمر عضوا فى هذه اللجنة الثلاثية ، بيد أن كان رئيسا للحزب فى موسكو واوكرانيا وقد كلف بالإشراف على ترتيبات دفن ستالين وأصبح مالينكوف رئيسا للحزب ورئيسا للوزارة فى ٩ مارس . واستمر يشغل هذا المنصب المزدوج مدة ثمانية أيام فقط ولظروف لم تفسر بعد تفسيراً كاملا قرر ماليكوف أن يتخلى عن سكرتارية الحزب ويحتفظ برئاسة الوزراء ، ولابدأن

مالينكوف كان يعرف جد المعرفة ، أن سكرتارية الحزب أهم بكثير من رئاسة الوزارة ولذا لا يسعنا إلا أن نفترض أنه اضطر إلى تقسيم وظائفه فمن الذى أجبره على ذلك ؟ هذا هو ما لا نعرفه ، بيد أننا نعرف جيداً أن خروشوف هو الذى حل محله فى المنصب الحزبى وبعد مرور أشهر قليلة عين خروشوف بصفة رسمية سكرتيراً أول للجنة المركزية للحزب الشيوعى الروسى ذلك المنصب الذى لا يزال يشغله حتى الآن وهو أخطر وأهم منصب فى الاتحاد السوفيتى وقد كان هذا المنصب بمثابة النبع الذى استمد منه خروشوف حياته بعد ذلك .

وقد ضعف مركز مالينكوف كرئيس للوزراء وتحولت اللجنة الثلاثية إلى لجنة رباعية ، وسرعان ما انقلب مالينكوف ومولوتوف وخروشوف نموراً شرسة على بريا فقبض عليه وحكم عليه بالاعدام وأطلق عليه الرصاص فى ليلة رأس السنة عام ١٩٥٢ .

وبذلك انتهى عهد حكم البوليس المطلق وأصبح الطريق الآن ممهداً أمام خروشوف الذى يمتاز بمرونته حتى سمى فى موسكو «باسم كرة القدم» كما يمتاز بقوة لاتجارى فى المناورة والاحساس السياسى ، وذلك لكى يدعم مركزه ، وأقيل مالينكوف من رئاسة الوزراء فى فبراير سنة ١٩٥٥ وحل محله الماريشال نيكولاى بولجانين المعروف وأحد زملاء خروشوف المقربين، وأنزل مالينكوف فأصبح وزيراً للقوى الكهربائية ثم حدثت أزمة يونيو سنة ٩٥٧ عندما انقض خروشوف فى هجمته المشهورة وتخلص من مولوتوف وكاجانوفتش وشبيلوف وغيرهم من أنصاف العمالقة فى نفس الوقت الذى هم فيه يعدون العدة للتخلص منه

فنفى مالينكوف إلى منطقة نائية فى شرق روسيا وعين مشرفا على مصنع هناك أما مولوتوف فقد أصبح فى النهاية سفيراً لمنغوليا الخارجية وهى تبعد أيضاً مسافة كبيرة عن موسكو ومما يسترعى انتباهنا فى هذا المجال أن أولئك الذين أبعدهم خروشوف لم يحكم على واحد منهم بالسجن أو الاعدام ، وقد تمكن خروشوف من القضاء على خطة مولوتوف ومالينكوف وهى لاتزل فى المهد بسيطرته الكاملة على جهاز الحزب ، وذلك بالرغم من أن الاستالينيين القدماء قد عارضوا اتجاهات خروشوف وسياسته ومازالوا يعارضونها ، وقد تمت الخطوة التالية عندما أعفى الماريشال زوكوف وزير الدفاع وقائد الجيش الأحمر من منصبه فى أكتوبر عام ١٩٥٧ وكان لهذا الخبر دوى هائل فى الدوائر السياسية ، ومما يذكر أن كثيراً ممن يطلق عليهم خبراء فى السياسة السوفيتية كانوا يعتقدون لمدة طويلة أن زوكوف كان يوجه خروشوف ولكن تبين أنهم كانوا مخطئين ، وأصبح الميدان الان خالياً لخروشوف وحده فحل محل بولجانين الوديع فى رئاسة الوزراة . ومع أن خروشوف كان يبلغ من العمر إذ ذاك ٦٤ عاما فإنه لم يسبق أن شغل حتى تلك اللحظة أى منصب آخر خلاف المنصب الحزبى ، فلم يحدث أن صار وزيراً أو رئيساً لاحدى ادارات الحكومة ، ومع ذلك فقد كان واضحاً لكل ذى عينين أن خروشوف هو الذى كان يسيطر على روسيا كلها مدة سنوات عديدة ، ولم يحدث فى تعديل سنة ١٩٥٨ أكثر من ابعاد بولجانين عن ميدان السياسة وتدعيم كيان الدولة .

شخصية خروشوف :

ومنذ سنين طويلة خلت كتبت أقول « إن ستالين جامد العواطف مثل كتلة من البازلت ، وإذا كانت لديه ثمة أعصاب فإنها كالشرايين التي تمتد فى الصخر . أما خروشوف إذا ما قورن بستالين فهو قنديل سميك ضخم هلامى الملمس يهتز ويرتعش فى كل خلجة من خلجاته مثله فى ذلك مثل قرن الاستشعار . وليس معنى هذا إنه لين العريكة فما من أحد منا فى العالم الغربى إلا ولديه من الحجج القوية ما يجعله يعلم مدى صلابته .

ويمكننا أن نتبين بوضوح جانباً من جوانب شخصية خروشوف إذا وضعنا فى اعتبارنا دائماً إنه فلاح قبل كل شىء ولذا فهو ماكر متمسك برأيه لبق فظ يسرف فى كبريائه دائماً كما أنه موهوب فى ردوده الجافة .

ويجدر بنا أن نذكر أيضاً سرعة غضبه فعندما كان ماكميلان يزور موسكو فى الرحلة الذى مهدت السبيل لانعقاد مؤتمر الأقطاب حدث أن قال فى صبيحة أحد الأيام أنه يكن احتراماً عميقاً للمستشار أديناور فاستشاط خروشوف غضباً إلى حد أن الزيارة أوشكت على الانتهاء فى التو واللحظة — كما يجب أن ننوه مرة أخرى بسلوكه الشائن فهل كان يجرؤ أحد سوى خروشوف عند سفره إلى يوغوسلافيا على أن يوقع السلطات اليوغوسلافية فى الارتباك . وذلك بدعوة جميع رجال البوليس السرى الذين كلفوا بحراسته ولم يكتشفوا عن حقيقة أمرهم له إلى

الجناح الذى يقيم فيه لتناول كأس من الشراب المنعش ، ومن سوى خروشوف كان يمكن أن يفكر فى تقديم دب حى صغير كهدية للملكة فى رحلة إلى انجلترا ؟ ومن من الزعماء الشيوعيين كان يستطيع أن يقول فى أول خطبة عامة له فى نيويورك « إذا كنتم تحبون الرأسمالية وهذا هو ما أعلم فسيروا على هذا المنوال وليباركـكم الله ! » .

وعندما بدأ خروشوف فى الظهور على مسرح السياسة العامة وقام بحملاته الأولى فى الخارج يصحبه فى العادة بولجانين الذى كان يبدو كمالك أرض منبوذ من فرجينيا يدمن تناول شراب النعناع المسكر كان الناس يميلون إلى الاعتقاد بأن خروشوف مهرج سكير أبله .

والواقع أنه مغرم بشرب الخمر وقد شوهد مخموراً فعلا فى بعض المناسبات . ولكنه فى نفس الوقت بالطبع ليس سكيراً . فخلف هذا المظهر الخداع يمكنك أن تستشف بوضوح صلابة إيمانه ورسوخ هدفه كما لا يمكن لأحد أن يغفل ذكاءه . ويحسن بنا فى هذا الصدد أن نذكر قصة صغيرة لها دلالتها قد أوردها كرانك شو فى كتابه « روسيا فى عهد خروشوف » فقد حدث مرة أن كان خروشوف مشتبكا فى نقاش مع جماعة من الدبلوماسيين الغربيين فى حفل استقبال أقيم فى موسكو وكان واضحاً أنه قد أفحمهم فى هذه المناقشة فصاح قائلا :

أنظروا إلى ! هأنذا شيوعى بسيط قد اشتغلت بيدى ولم أتلق العلم فى المدارس على الإطلاق :

أما أنتم أيها السادة العظماء فقد تلقيتم تعليمكم فى أحسن المدارس

وأصبحتم محترفين مدربين . ومع ذلك فقد استطعت أن أحكم الحصار حولكم فى هذه المناقشة . فما السبب فى ذلك ؟ ! » .

وهناك على ما أعتقد خمسة مصادر رئيسية لقوة خروشوف وهى :

١ — قوة شخصيته المجردة إلى جانب قيادته الشاقة الواعية القاسية لجهاز الحزب .

٢ — إن معظم المواطنين السوفيت الآن أحسن حالا من الناحية المادية عما كانوا فى أى وقت مضى .

٣ — إنه يرمز إلى انتهاء عهد الإرهاب — كما يرمز إلى التخلص من فساد بوليس ستالين .

٤ — إنه يمثل السلام الذى يريده كل فرد فى روسيا .

٥ — إنه يمثل فى وضوح وجلاء حيوية الهدف من النظام السوفيتى ووحدته التى لا مراء فيها .

لقد كانت صورة خرشوف تعلوها طبقة سميكة من القار غطتها به فرشاة ستالين الشريرة ولكن على أثر التطور الذى حل فيه خروشوف محل مالنكوف فى منصب السكرتير الأول للحزب سنة ١٩٥٣ كانت علامة الطريق الرئيسية فى حياته هى بلا شك تلك الخطبة الرنانة التى ألقاها فى المؤتمر العشرين للحزب فى فبراير ١٩٥٦ والتى دامت ست ساعات كاملة .

وقد ندد فى هذه الخطبة بالسياسة الاستالينية فى عبادة الفرد وإعادة التعبير عن الرغبة فى سياسة القيادة الجماعية كما كشف بطريقة مثيرة

عن بعض أعمال ستالين الإرهابية كما جذب القناع عن بعض جرائم سلفة الشنعاء الممقوتة .

ويشعر خروشوف قبل منظمة حلف شمال الأطلنطى والقواعد الأمريكية عبر البحار بالكراهية الشديدة لأنه يواجه فى وجودها احتمال اتخاذ إجراء انتقامى من جانبها فى حالة الحرب ، وكما يشعر بالخوف الشديد من إعادة تسليح ألمانيا الغربية هذا إذا وضعنا جانباً قوة أمريكا الرئيسية .

وهو أشد ما يكون رغبة فى نزع السلاح الذى يأتى فى الدرجة التالية لتقدم السوفيت . وأشد ما يبعث القلق فى نفسه هى مشكلة برلين وتليها مباشرة سكرتارية الأمم المتحدة .

ولنتحدث فى النهاية عن أعمال وأهمها كما سبق أن بينا هى تلك العملية التى يطلق عليها الروس « الشرعية الاشتراكية » . التى حلت محل الحكم الفردى الاستبدادى . وقد ألغيت معسكرات العمال إلى حد كبير كما عدل نظام القضاء ولم يعد للبوليس السرى تلك السلطة الشاملة والتى لا يمكن التنبؤ بنزواتها كما انتهى الحكم الإرهابى الصريح رغم أن الكثيرين من المواطنين السوفيت لا يزالون يرتعدون خوفاً عند ذكر رجل البوليس .

وقد وعد خروشوف الشعب السوفيتى أنهم بعد سنوات قلائل سوف يفوقون الولايات المتحدة فيما يخص كل فرد من إنتاج الزبد واللبن واللحم وهو ما قد يحدث أو لا يحدث . وقد عمل خروشوف

إلى حـــد ما على تمكين المواطنين من الحصول على المزيد من السلع الاستهلاكية بسعر معقول ولكن جهوده ما زالت قاصرة . فقد زاد إنتاج السوفيت لمصنوعات معينة مثل الدراجات والأحذية والساعات والراديو وآلات التصوير إلى آخر ذلك .

ثم بدأ خروشوف أيضاً فى تنفيذ نظام دقيق للتخلص من تركيز الصناعة كما افتتح ٨٧٫٥ مليوناً من الأفدنة فى كازاكستان وذلك فى مشروع التنمية الطموحية المجازفة للأراضى البكر . وكذلك فقد اتجه بالنظرية السوفيتية اتجاهاً جديداً بالتخلى إلى حد ما عن مبدأين ماركسيين أساسيين وهما ..

إن الحكومة البرلمانية لا تعدو أن تكون أضحوكة يهزأ منها الناس وإن العنف عامل جوهرى فى تغيير المجتمع » . وأخيرا فقد هدم نظرية لينين كما هو معروف لدى الجميع بأن الحرب بين الدول الشيوعية والرأسمالية لامناص منها ويتبنى قضية التعايش السلمى فى ظل المنافسة الحرة . .

خروشوف فى الأمم المتحدة

وبعد مؤتمر القمة فى باريس كانت حركة مستر خروشوف المسرحية التالية هى الاستعراض الذى استمر خمسة وعشرين يوما فى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نيويورك فى شهرى سبتمبر واكتوبر ١٩٦٠ . وبذلك تميزت زيارته الثانية إلى الولايات المتحدة وقد جاء إلى الولايات

المتحدة (فى سفينة صغيرة) دون دعوى ، بل عين نفسه رئيساً لوفد الاتحاد السوفيتى إلى الدورة الخامسة عشرة للجمعية العامة . وهكذا لم يكن باستطاعته أن يبتعد عنها . وقد قصرت السلطات الأمريكية حركاته على مانهاتان وأملاك روسيا الخاصة فوق لونج ايلاند . وان كان ذلك قد ضايقه إلا أنه لم يرهبه . ومن الشرفه التى تطل على بارك افنيو كان يلقى بالسخريات الصغيرة الماكرة حول « تحديد اقامته » .

ولم يحدث فى التاريخ ان قام مثل هذا الاشتباك بين أسماء غريبة ولم يحدث أن تجمع مثل هذا العدد من مشاهير الشخصيات الدولية فى مدينة واحدة فى وقت واحد — فقد كان هناك كاسترو وناصر ، ونهرو ، وسوكارنو ، ونكروما ، وتيتو ، وجومولكا . وماكميلان ، وهمرشولد ، وايزنهاور — ولكن خروشوف كان النجم وقد راقبته عن كثب فى كثير من حفلات الاستقبال ، من بينها حفلة اقامها الوفد الهندى وأخرى اقامها الوفد الاندونيسى. وكانت الصورة واحدة دائماً. ولا يهمنا أى شخص آخر وجد فى هذه الحفلات . وكان الضيوف — ماعدا القليل منهم — لاهم لهم الا خروشوف . وكان يتقفز فى الحجرة بجسمه المكتنز ووجهه الباسم ويسير على أطراف أصابع قدميه ، ويميل إلى الأمام فى جد وحزم ثم تبدو عليه اليقظة والانتباه ، ثم يختفى ذلك فى لحظة فى ثورة من الهجوم . وكان يشق حشود الصحفيين والضيوف الآخرين — وغيرهم من المندسين . ومن بين السمات الهامة التى تميز خروشوف — كما تميز جميع النجوم الحقيقيين . هى مغناطيسيته والناس يتدافعون ويعرضون رقابهم للكسر لكى يشاهدوه عن كثب او لكى

ينصتوا على احدى الكلمات السرية التي تصدر عنه — وليس ذلك من أجل شخص خروشوف فحسب بل من أجل ما يمثله خروشوف .

وفى نيويوك كان مستر خروشوف مكروها ، شديد الصياح والضجة ، وعنيفا فى غضبة . كان وغدا . كما كان خروشوف جلفا . ولكنه مرح سريع النكتة فى المناسبات ، مرن لا يروى ظمأه ، سفيه صلب ومتمسك ، رجل يتمتع بعبقرية ايجـابية تلهمه بقول الكلمة الأخيرة . وقد كانت حيويته تحديا . وفى بعض الاحيان كان يبدو وقد نسى كل شيء عن مؤتمر القمة منذ عدة أشهر . ولم يخطر بباله ان هناك أسبابا حقيقية تجعل الرئيس ايزنهاور ، وهو الشخص الذى أهانه خروشرف متعمداً لن يكون سعيداً لاستقباله .وبعد أن بذل ماوسعه الجهد ليحطم همرشولد ،عانقه بود فى احدى حفلات الكوكتيل فى اليوم التالى ولم يسبق ان كانت علاقته بالأمم المتحدة أكثر توتراً من ذلك ولكنه بذل جهده لكى يحطم مستر جيمس وارسورث مبعوث أمريكا فى الأمم المتحدة.واحتضنه فى مرح احتضان الدب ـ ولكن وارسورث الذى يزن ٢٤٠ رطلا كان أكبر من أن يحتضنه خروشوف — عندما التقيا فى إحدى الحفلات .

وفى إحدى الامسيات عندما سأل أحد الصحفيين مستر خروشوف أن يقول شيئاً عن نزع السلاح ، كتب محرر جريدة « هيرالد تريبيون » يقول إن خروشوف انبرى مباشرة فى براءة وجعل يفتش فى جيوبه ، لكى يبين للحاضرين أن جيوبه لا تحوى شيئاً من البنادق ، أو القنابل أو الصواريخ . وعلى أية حال فقد أخرج من جيبه مبراة . وقال وهو

يفتح المبراة «كيف يتسنى لأى شخص أن يحدث ثقباً فى زكيبة مثل وارسورث بشىء صغير مثل هــــذا ؟ وبعد ذلك بعدة أيام وصف مبعوث الفيليبين البرى بأنه «شخص تافه» ووصف مجلس الأمن بأنه «مكان للبصق»، وخلع حذاءه أثناء القاء خطاب له فى الجمعية العامة. ولوح به ثم هوى به على المكتب.

وكان خروشوف يعقد المؤتمرات الصحفية ليلا من شرفة السفارة السوفيتية، وهو يرتدى قميصه، ويصيح إلى الصحفيين الذين يقفون فى الشارع الذى ينخفض عن الشرفة مسافة عشرين قدما. وفى إحـدى الليالى غنى عدة أبيات من النشيد الشيوعى «الدولية»، وتظاهر باحترام أنه يقود أوكسترا فى عزف فقرة أو فقرتين فى إحــــدى المقطوعات الموسيقية التى سمعها عبر الشارع.

وقال إن خطاب أيزنهاور فى الجمعية العامة كان «موسيقى هادئة ولكنها لا تحتوى على أى معنى»، واقترح أن يتحول أحد مراسلى جريدة «نيويورك تايمز» المشهورين يصلح لأن يكون رئيساً للولايات المتحدة. وسأل مارجريت هيجنز — وهى إحدى المحررات فى جريدة نيويورك هيرالد تريبيون — سألها متوسلا ما إذا كان الطفل الذى وضعته أخيراً ولداً أو بنتا. وتبادل النكات مع أوموند ستيفنز، مراسل مجلة «التايمز» فى موسكو، عن لحيته وقارن بعض المتظاهرين المعادين له الذين كانوا يسيرون فى الشارع بالمواد التى يمكن أن يجدها الإنسان تحت الحصان.

وفجأة ذهب إلى حى هارلم لكى يزور كاسترو ، وهاجم مبدأ مونرى ، ووعد بإطلاق الصواريخ إذا هاجمت الولايات المتحدة كوبا ، وقال إن المصانع فى الاتحاد السوفيتى تنتج صواريخ الفضاء مثلما تنتج « السجق » . واعترف بأن بوليس نيويورك تصرف تصرفاً سليما بالطريقة التى تصدر عن أية سياسة سليمة فى أى مكان ، وقال إنه يشعر بحاجته إلى البقاء فى أمريكا مدة أطول لكى يبرر النفقات التى تكبدها. وأعلن بعد حديث خاص له مع مستر ماكميلان . « أن أنوفنا وأيدينا لا زالت فى نفس المكان » وقال للصحفيين أنه لا يتوقع أن يبدأ حرباً فى تلك الليلة ، ولذا يمكنهم أن يعودوا إلى منازلهم ويناموا فى سلام ، وأنكر أنه قضى على روح كامب ديفيد ، وقال إن الأمر لا يهم إذا كان هو لا يزال فى الولايات المتحدة أثناء إجراء الانتخابات طالما أنه لن يدلى بصوته .

وعندما سأله أحد المحررين عما إذا كانت الحكومة السوفيتية قد جاءت إلى الحكم بطريق الانتخاب ، أجاب: « ألا تعرف أننا فى بلدنا لا نملك بنطلونات طويلة لنلبسها ؟ . . هذه حقيقة ، اذهب سريعاً واكتشف بنفسك » .

وصاح فى مرح « يسقط جروميكو » ! عندما تأخر وزير خارجيته دون سبب عن إحدى المهام ، وضايقه عدد من رفاقه الشيوعيين لكونهم يدينون ، وقال إنه إذا حاولت الولايات المتحدة أن ترهبه أو « تغرق سفينته » فإنه سيغرق إلى القاع ويسحبنا معه ، وجعل الجمعية العامة تشعر بالملل من طول خطابه الذى دام ساعتين ونصف رهيبتين

عن نزع السلاح ،وقبل غليونا هنديا رمزاً للسلام من أحد الأمريكيين الذين يتمنون له حسن الحظ ، وأعلن أنه يؤيد كلا من القراصنة واليانكيز ، وقال إنه على استعداد لأن يجلس فى حجرة مقفلة مع أيزنهاور « لأطول مدة ضرورية » للوصول إلى اتفاق حول نزع السلاح ، وعند ما سئل ذات صباح ما إذا كان قد نام جيداً . أجاب بتوكيد « كما هى العادة ! »

وخلف هذه الجلبة الغريبة . كانت هناك بالطبع حقائق خطيرة فلم يأت خروشوف إلى الأمم المتحدة لكى يكون متقدماً للمسرحيات الاستعراضية والأناشيد الهزلية ، ولكنه جاء ليحصل على أهداف سياسية محددة . فأولا ، فقد أراد استغلال الأمم المتحدة كمنصة للأغراض الدعائية وثانياً أراد أن يقبض على زعامة الكتلة الأفريقية الآسيوية ، إذا أمكن ، ولكنه لم ينجح فى ذلك . وأن يرغم الأمم المتحدة على إعادة تنظيم سكرتارية الأمم المتحدة ولكنه فشل فى تحقيق ذلك . وثالثاً ، وفوق كل شئ كانت مسرحياته الهزلية مسهبة وأن ثمة سبباً لذلك فلأنه أراد أن يظهر لنا — وكذلك للصينيين — أنه لا يزال هو قائد العالم الشيوعى اليوم .

نبذة أخرى عن خروشوف

ولد نيكيتا خروشوف أبرز الشخصيات السياسية فى العالم بعد جون كنيدى فى ١٧ أبريل سنة ١٨٩٤ فى قرية كالينوفكا بالقرب من كورسك المجاورة لاوكرانيا بيد أن خروشوف روسى الأصل وليس من أوكرانيا كما يعتقد البعض . ويشغل ثلاث وظائف الآن وهى :

١ ـ السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعى الروسى .

٢ رئيس مجلس وزراء اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية.

٣ ـ رئيس مكتب الحزب الشيوعى فى الجمهورية الروسية لاشتراكية السوفيتية المتحدة .

من ذلك يتضح أن خروشوف يدير الحزب والدولة كما أنه زعيم لأكبر منظمة سياسية فى العالم بلا منازع . ويغطى الحزب الشيوعى سدس مساحة العالم .

ولم يحدث من قبل أن اختلفت اللغات فى هجاء اسم شخص واحد كما حدث فى اسم خروشوف ، وكان والد خروشوف من عمال المناجم وقد استطاع أن يكسب قوته برعى قطعان الماشية غير أن أسرته تعيش فى فقر مدقع .

ولم ينـــل خروشوف أى قدر من التعليم تقريباً فى صغره بل لقد ذكر كرانك شو أحد ثقاة البريطانيين المطلعين فى كتابه

« روسيا فى عهد خروشوف » أن خروشوف كان يجهل القراءة والكتابة حتى سن الثالثة والعشرين .

وكتب خبير انجليزى آخر موثوق به فى جريدة لندن أوبزرفر فى ١٥ مايو سنة ١٩٦٠ يقول إن خروشوف بدأ يتعلم القراءة فى سن السادسة والعشرين فإما أن يكون كل ما نسمعه عن ضرورة التعلم فى الصغر مبالغة ليس لها نصيب كبير من الصحة وأما أن مقدرة خروشوف على استيعاب العلم وهو فى سن الرجولة كانت عجيبة فائقة . وقد تكون هناك بعض المآخذ على ثقافته ومعلوماته ولكنه على درجة فائقة من العلم بمواضيع شتى .

ورغم أنه يتحدث بلغة ينتم منها التعاليم بيد أن فصاحته فى التعبير عن نفسه ولغته الرصينة . وفكره الثاقب يعجز عنها معظم السياسيين .

ومن خصائصه التى التى تدل على أن تعليمه فى الصغر كان يعتمد على السمع لا على الكتب هوايته لحكايات الفلاحين وثروته الكبيرة من الأغانى الشعبية والأمثال التى يستشهد بها كثيراً .

لقد قامت الثورة الروسية عام ١٩١٧ عندما كان عمر خروشوف ٢٣ سنة . وكان يعمل وقتذاك صانع أقفال كما كان يعمل راعياً للماشية ، ثم انضم للقوات البلشفية وأبلى فيها بلاء حسناً وأرسل بعد الحرب الأهلية مباشرة إلى مدرسة الحزب فى منطقة دوبناس وهناك تشرب بعض مبادىء التعليم ثم أرسل بعد ذلك إلى مدرسة للعمال فى معهد دونيتز الصناعى .

وفى عام ١٩٢٩ عندما كان عمره ٣٥ سنة التحق بأكاديمية ستالتين الصناعية التى تقع فى موسكو والتى تسمى الآن « أكاديمية موسكو الصناعية » .

وكما سبق أن بينت فى كتابى « داخل روسيا اليوم » إنه من المميزات التى تدعو للاعجاب فى الاتحاد السوفييتى عادة انتقاء الشبان الموهوبين ومنحهم الفرصة للحصول على تعليم عال متخصص .

وفى سنة ١٩٣٠ ظهر خروشوف فى ميدان السياسة الروسية كالصاروخ الذى انطلق فجأة . فقد أصبح عضواً قوياً فى الحزب وأخذ يرتقى فى مناصبه حتى أصبح وهو لم يبلغ الأربعين بعد من عمره سكرتيراً للجنة الحزب الإقليمى فى موسكو وهو منصب حيوى وكان من بين أنصاره شخص أقاله بعد ذلك هو لازار كاجانوفيتش وهو أحد الشخصيات التاريخية الأولى فى الثورة .

وفى سنة ١٩٢٩ أصبح خروشوف عضواً يتمتع بكامل حقوق العضوية فى المجلس الأعلى للحزب الشيوعى وهو الهيئة الحاكمة للحزب وقد أصبح عضواً فى هذه الهيئة التى تعتبر أهم هيئة فى الاتحاد السوفييتى منذ ذلك التاريخ كما كان خروشوف أول عضو يسمح له بعضوية هذا المجلس الذى يعد من أهم مقدسات هناك والذى نما بعد الثورة مباشرة . وأصبح رمزاً للجيل الصاعد من الزعماء الجدد .

ولم يكن لخرشوف أى نشاط يذكر قبل قيام الثورة فهو كما قرر البعض « من صنع عصر الثورة السوفييتية كلية » .

وعندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية كان خروشوف رئيساً للحزب فى أوكرانيا وقد أصبح ضابطاً فى القوات المسلحة برتبة عميد واشترك مع الجيش فى الدفاع عن ستالنجراد كما اشترك فى حرب العصابات التى قام بها الروس فى المناطق المجاورة . وقد ظل محتفظاً بمنصبه فى أوكرانيا إلى جانب احتفاظه برئاسة منظمة الحزب فى موسكو وفى الفترة التى أعقبت الحرب مباشرة كان يقسم وقته بين موسكو وكييف عاصمة أوكرانيا .

كما أنه مسئول عن حركة التطهير الممقوتة المضادة لسياسة ستالين التى عانت منها أوكرانيا بعد الحرب .

وقد استطاع أن ينجو من تطهير ستالين له هو نفسه بل تمكن من أن يصبح أحد زعماء الكرملين الستة المقربين لستالين فى الفترة المظلمة ويخلفه فى غيابه وأن نظام الحكم يخضع لنظام ثابت حتى أن رفاقه يستطيعون أن يتخذوا قرارات روتينية هامة أينما كان .

والواقع أن الدكتاتورية لم تتحرر فحسب بل إن رئيس الوزارة قد أصبح يواجه معارضة شديدة فى بعض المناسبات وبالنسبة لستالين فإن خروشوف ليس متعصباً غير أن اليمينيين لا يتقبلون تغيره السريع وإستعداده للارتجال وتفاوضه مع الخارجين على الشيوعية مثل تيتو . وهو بالنسبة لبعض المتطرفين أقرب ما يكون إلى تروتسكى .

وهناك نقاط خطيرة تتطلب الحل فى روسيا أولها الصين فالشيوعيون الصينيون — وهم من المذهبين المتشددين — لا يزالون يتمسكون بمبادىء

ماركس ولينين ولكن خرشوف لا يفعل ذلك لأنه امتنع عن تأييد المذهب التقليدى .

وثانياً الزراعة ، فقد أصيبت الأراضى الحديثة بكارثتين نتيجة لانخفاض مستوى المحصول . والزراعة فى الاتحاد السوفييتى هى أكبر نقطة ضعف ولو نقص المحصول مرة أخرى فى كازافستان أو فى غيرها فإن خرشوف سيواجه متاعب جسيمة .

وثالثاً ، إن هناك موضوعات أخرى تتصل بالسياسة الداخلية إذ أن هناك الكثيرين من الأشخاص الذين يريدون دخول معترك السياسة . ولكن رغم كل ذلك فإن خروشوف فى غاية الحذر وهو يسيطر على الحزب فى حزم كما أنه يسيطر على معظم زملائه وكأنه عملاق بين مجموعة من الاقزام .

تغيرات فى النظام السوفييتى

لاشك أننى كتبت ما فيه الكفاية فى هذا الفصل والفصل السابق كما أشرت إلى هذا الموضوع فى أماكن أخرى وأشرت إلى عمق التغيرات التى طرأت على الاتحاد السوفييتى ومداها منذ أن ألفت كتابى « داخل وأربا » منذ ربع قرن مضى تقريباً ، فقد مات ستالين وتحطمت سلطة البوليس السرى الذى كان عبارة عن دولة أخرى داخل الدولة وإزداد حجم الاتحاد السوفييتى على حساب جيرانه المختلفين ، وأضحت تتاخمه فى الشرق مجموعه من التوابع التى تدور فى فلكه ونتج عن ذلك إتساع السلطة السوفيتية حتى نهر الدانوب .

وقد قام خروشوف بدور كبير فى سبيل إحياء الاقتصاد السوفييتى والاهتمام بالتعليم وتشجيع الأساليب الفنية الإنتاجية وتحسين مستوى المعيشة وتشجيع الإتصال بالعالم الخارجى إلى حد ما . وقد أسفرت عملية القضاء على الاتجاهات الستالينية عن إصلاحات قضائية هائلة ومن ثم أصبح الجو أخف حتى وإن كان النظام لم يتغير ، كما قيل فى أحد الأيام .

والفرق بين موسكو فى عام ١٩٣٥ عندما قمت بزيارتها فى بداية أسوأ فترات دكتاتورية ستالين وروسيا عندما زرتها فى عام ١٩٥٦ أشبه للفرق بين الليل والنهار فى بعض المجالات وأقول باختصار إن روسيا تقدمت بحيث أصبحت الدولة الثانية صناعيا وعسكرياً فى العالم أما عن الأقمار الصناعية فهى (على الأقل حتى كتابة هذا الكتاب) الدولة الأولى فى غزو الفضاء الخارجى وارتياده .

ومن الناحية الأخرى فلم تتغير روسيا فى عدة نواح . ولكن مازال العار يلحق بالحكومة لقمعها ثورة المجر ولاجبار شخص مثل بوريس باسترناك على رفض جائزة نوبل وتعذيب صديقته مدام ايفنسكايا وابنتها وربما تؤدى عملية القضاء على الاتجاهات الستالينية إلى صبغ البلاد بالصبغة الديمقراطية . وحتى أن كان الروس يأملون فى الاتفاق على نزع السلاح وتحسين العلاقات مع الغرب فإن أساليبهم فى التفاوض مطاطة وغير مستقيمة وتتسم بالعناد .

كلمة أخرى عن خروشوف والصينيين

إن الصين خارجة عن نطاق هذا الكتاب ولكن لا يمكن أن يبحث أحد المسائل الأساسية المتعلقة بروسيا دون الاشارة إلى الصين . وقد اتسمت العلاقات بين الاتحاد السوفييتي والصين الشيوعية بعدم الاتفاق والشعور السيء بل والتوتر لعدة سنوات ويرجع ذلك لأسباب عاطفية ، فالصين أكبر دولة فى العالم من حيث عدد السكان إذ يبلغ عدد سكانها حوالى ٦٥٠ مليون نسمة ويزيد عدد سكانها كل عام بحوالى ٢٥ مليون نسمة ولذلك فمن المقدر أن يبلغ عدد سكانها ١٠٠٠ مليون نسمة فى عام ١٩٨٠ .

أما روسيا فعلى الرغم من أن مساحتها أكبر مساحة فى العالم فإن عدد سكانها يبلغون حوالى ٢١٠ مليون نسمة كما أن معدل المواليد فيها غير مرتفع . ولما كان الاتحاد السوفييتى قد فقد كثيراً من الشبان أثناء الحرب ولذلك فإن الاطفال الذين أصبحوا فى فترة الشباب اليوم هم قليلون .

وما زال الاتحاد السوفيتى يعتبر نفسه أكبر من الصين غير أن إرتفاع معدل المواليد فى الصين يعتبر خطراً يتهدده .

ترى ، أين تذهب الأعداد المتزايدة من الصينيين ما دامت الصين لا تكاد تطعم نفسها حاليا ؟ هناك احتمال واحد أمامهم وهو سيبيريا المتاخمه لهم إن لم يكن كازاخستان .

أما الخطر الثانى فهو التصنيع والواقع أن مدى التصنيع فى الصين لا يبلغ مداه فى الاتحاد السوفيتى ولكنه يتقدم بسرعة ، ويتنبأ البعض بأن انتاج الصلب فى الصين سيبلغ فى خلال عشرين عاما مثل انتاج غرب أوروبا من الصلب. أما الخطر الثالث فهو المنافسة بين العملاقين لمباشرة النفوذ على أوروبا وآسيا .

أما من الناحية الايديولوجية فإن الخلاف بين روسيا والصين هو خلاف خاص وقد أشرنا إليه فى مكان آخر . ويعتنق الصينيون رأى لينين القديم القائل بأن الحرب بين الدول الرأسمالية والدول الشيوعية أمر لابد منه وأن سياسة خروشوف بشأن التعايش السلمى لامعنى لها . ولا شك فى أننى أعمل فى هذا المجال على ضغط موضوع على جانب كبير من التعقيد المذهبى الذى يتطلب كثيرا من الاهتمام غير أن الاتجاه الرئيسى فى سياسة الصين هو أنه لا يمكن التغلب على القوى الاستعمارية إلا بالصراع الثورى المكشوف .

أما الروس فإن رأيهم يختلف عن ذلك إذ أن خروشوف لم يعد يعتقد أنه لا بد من الحرب لأن قوة الشيوعية فى روسيا والدول التابعة لها وفى غيرها من الدول قد تقدمت بسرعة . وهو يعتقد أن الرأسمالية ستنهار من تلقائها عندما يكتشف الناس فى جميع أنحاء العالم أن النظام الشيوعى أفضل من النظام الرأسمالى وأنه يحقق لهم فوائد أكثر ولذلك فإن نشر الأفكار الشيوعية عن طريق الأعمال الثورية المكشوفة لا تساوى المغـــامرة التى تنطوى عليها إثارة الحرب الانتقامية التى تستخدم فيها الأسلحة الذرية . وهذا طبعا لا يستبعد احتمال انتفاع

الروس من فرصة إستغلال المواقف المحلية فى بعض البلدان مثل العراق ولاوس والكونغو .

إن خروشوف يريد السلام بلا شك حتى يحسن من مستوى المعيشة فى الاتحاد السوفيتى وحتى يقوى حكومته ولكنه يلعب فى الجانبين .

ومن الأسباب التى تجعل الصينيين على إستعداد للمخاطرة هى أنهم سيتعرضون لخسارة أبسط بكثير من التى قد تتعرض لها روسيا فى حال قيام حرب ذرية .

إن زيادة عدد سكان الصين سيجعلها قادرة نظرية على تحمل أكبر خسارة فى الأرواح فلو فقد الاتحاد السوفيتى ٢٠٠ مليون نسمة فإنه سوف يزول ولو فقدت الصين نفس هذا العدد فان عدد سكانها سيصير ٤٥٠ مليونا ، وفضلا عن ذلك فإن الأهداف الصناعية فى الصين مبعثرة ومنتشرة بينما قد تخسر روسيا - نظريا - أكبر قدر من التقدم الصناعى بها .

ويشكو الصينيون كثيراً من الاتحاد السوفيتى من المسائل التالية.

١ - القنابل : فقد رفضت روسيا إعطاء الصين أسلحة ذرية أو معدات نووية اللهم إلا مفاعل ذرى صغير للتجارب .

٢ - إن الهند رسم للاتحاد السوفيتى صورة قاتمة لتوغل الصين فى التبت والتحركات التى قامت بها الصين بمحاذاة جبال هملايا بينما كان الصينيون يحقدون على عدم تأييد الروس لهم .

٣ ـ تقدم الروس إلى الصين مساعدات فنية كثيرة غير أن الصين تعتقد أنها فى حاجة شديدة إلى المزيد .

٤ ـ يريد الصينيون التعبير عن تأييد إيجابي أكثر للاحزاب الشيوعية الضعيفة فى العالم الغربى ولا يرضون عن مساعدات روسيا الاقتصادية للدول البورجوازية .

نود أن نقول كلمة أخرى عن القنابل الذرية إذ يعتقد كثير من المراقبين أن الصين قد أنتجت فعلا قنبلتها الذرية الأولى أو بالأحرى على وشك إنتاجها بدون مساعدة روسيا لها . ولدى الصين الآن علماء وفنيون وليس من العسير عليهم أن ينتجوا القنبلة اليوم .

وجدير بالذكر أن الصينيين هم الذين اخترعوا البارود . ومن الأسباب التى تجعل روسيا على استعداد لمناقشة موضوع التجارب الذرية والعمل على وقف التجارب (بشروطها الخاصة طبعا) أن القرار الذى قد يتخذ سيحرم الصين من الانضمام إلى الدول المنتجة للقنابل الذرية بحيث لا تبدأ فى إجراء تجاربها .

ولما كانت الظروف كذلك فلماذا لا يعجل الروس من تدهور علاقتهم بالصين :

إن السبب الرئيسى طبعا هو أن الانقسام المكشوف سيضر بالنفوذ الشيوعى وقد يجعل من الصين جارا أخطر مما هى الآن ولماذا إذن يعمل الصينيون على تقويض علاقتهم بالروس ؟

إن الإجابة على هذا السؤال لا يمكن أن تكون أسهل فى الإجابة على السؤال السابق لأن الصين تعتمد كلية على روسيا فى الحصول على الآلات والمعدات ، إذ لا يمكن أن تحصل الصين من أى مكان آخر على السلع الضرورية لبرامجها العسكرية والصناعية ابتداء من الآلات الميكانيكية إلى البنزين ، غير أن الروس لا يقدمون للصين إلا الحد الأدنى اللازم أى ما يكفى لاعالة أنفسهم بحيث لا يتفوقون على الاتحاد السوفيتى .

وثمة نقطة أخرى جديرة بالذكر وهى أن ملاطفة خروشوف للغرب قد ترجع إلى خوفه من الصين فهو لا يستطيع أن يكون تحت رحمة ماوتسى تونج فى يوم من الأيام لذلك فإن علاقته الطيبة مع الغرب ستحفظ له خط الرجعة . وهذا الأمر هو ما يدعوه إلى المطالبة بعقد مؤتمر للأقطاب .

وفى معظم الأحيان يعمل خروشوف على تذليل صعوباته مع الصين الشيوعية ويذكر أن الاختلافات فى الرأى لا قيمة لها . وقد قال أخيراً من المستحيل قيادة جميع الدول الاشتراكية والأحزاب الشيوعية من مركز واحد . وأهم من ذلك إن هذا العمل غير ضرورى » . وهو يرفض أن يقيد نفسه بأى نقد يوجه إلى الصين من جانب يوغوسلافيا مثلا ، وفى نفس الوقت يحذر ماوتسى تونج من أن « الصين لا يمكن أن تقف وحدها أمام العالم الرأسمالى » .

وقد حدث ذلك كله فى مؤتمر حزب العمال برومانيا فى بوخارست

فى شهر يونية من عام ١٩٦٠ الذى حضره بينج تشين عمـــدة بكين وعضو المكتب السياسى فى جمهورية الصين الشعبية كما حضره كثير من الزعماء الأوربيين أمثال كادار وألبريخت وجومولكا . وقد أيد الثلاثة الآخرون خروشرف تأييداً كاملا فى سياسه التعايش السلمى واتفقوا معه على أن الحرب العالمية الجديدة ستكون ضرباً من الجنون بل إنهم رحبوا به عندما قال إن بعض مبادىء لينين قد أصبحت عتيقة ويجب تفسيرها على ضوء ظروف العالم الحديث » .

وقد أنصت إليه الصينيون بامعان ولم يتحدثو طويلا . . عندئذ ظهرت علامات التوتر ، ورددت الأنباء أن الخبراء الفنين الروس على وشك مغادرة الصين وانبرت الصحف الصينية الهامة تقول إنه يجب عدم الخروج عن مبادىء لينين الأساسية فى جميع الظروف وأن الحروب ضد الاستعمار لها ما يبررها وإنه لا يمكن أن يقوم السلام إلا « بالقضاء » على النظام الرأسمالى فى كل مكان من العالم . وتراجع الصينيون بعد ذلك وكأنهم شعروا بالتمادى فى الهجوم .

وفى يوم ٢٢ من أكتوبر أرسل زعماء الصين الأربعة ــ ماوتسى تونج وليوتشاوتشى رئيس الجمهورية وشواين لاى رئيس الوزراء والماريشال تشوتيه ــ أرسلوا برقية جماعية إلى خروشوف وصفوا فيها الاتحاد السوفيتى بأنه « زعيم العالم الشيوعى ومصدر الوحى » وأكدوا تضامن الدولتين الشيوعيتين أى روسيا والصين .

وانعقد بعد ذلك مؤتمرا لأقطاب الشيوعية فى موسكو فى شهر



نوفمبر عام ١٩٦٠ ، وقد حضره ممثلوا الأحزاب الشيوعية وكان عددهم لا يقل عن ٨١ عضوا . وقد عقدت الجلسات فى سرية تامة ودامت ثلاثة أسابيع . وقد حضر ١٢ ممثلا من ممثلى الدول الشيوعية فى العالم عددها ١٣ وكان المفروض أنهم تحدثوا نيابة عن أعضاء الحزب الشيوعى فى جميع أنحاء العالم والبالغ عددهم ٣٦ مليون عضو . وكان ليوتشاوتش رئيس جمهورية الصين هو ممثل الصين . وكانت النتيجة هى التراجع .

رأى ديجول فى خروشوف

عندما قام الرئيس شارل ديجول بزيارة نيويورك فى أبريل سنة ١٩٦٠ جرى الحديث التالى فى مؤتمر صحفى :

س ـ سيدى الرئيس هناك سؤال جوهرى وهو هل تعتبرون خروشوف رجلا حسن النية أم أن ذلك لا أهمية له ؟

ج ــ لقد سنحت لى أخيراً فرصة الاتصال الشخصى مرات عديدة بالرئيس خروشوف عندما كان فى فرنسا . ولقد تحدثنا كثيراً على نطاق واسع فى جميع الموضوعات التى تهم العالم فى الصميم فى الوقت الحاضر . وإذا أردت أن تعرف الفكرة التى كونتها من هذه الاتصالات فقد بدا لى أن مستر خروشوف شخصية قوية . إنه رجل حارب طيلة حياته من أجل أفكاره وقد كان لهذا الكفاح أثره عليه .

والواقع أنى أعتقد أنه وهو فى المستوى الذى وصل اليه يدرك تماما

أن مشاكل العالم ربما كانت أقل بساطة مما يظن الانسان عندما يفكر فيها الانسان من وجهة نظر واحدة . وفضلا عن ذلك فهو رجل واسع الخبرة بالمشاكل الجارية مطلع تماما على أحوال الناس وشئونها . وباختصار . . فانى لا أظن أن الاتحاد السوفيتى يمكن أن يمثله رجل يستطيع أن يفضل خروشوف فى التعبير عن روسيا اليوم التى تختلف فى رأيى — وهذا هو رأيى أنا عن روسيا بالأمس أو حتى عن روسيا منذ عشر سنين .

الحزب الشيوعى والقيادة الجماعية والخلافة

من بين الحكام والاتباع الذين أحاطوا بستالين منذ خمس وعشرين سنة هناك شخص واحد لا يزال يحتل مركزا هاما اليوم هو أناستاس ميكويان ذلك الرجل العنيد الذى لا يحيد عن مبدئه وهو لايزال نائبا أول لرئيس الحكومة . وهو أرمنى ولد فى سنة ١٨٩٥ وقدزار الولايات المتحدة ١٩٥٩ ليمهد الطريق لرحلة خروشوف . وهو يحتل مكانة عالية فى كل من مجلسى الحكومة والحزب ولكنه فى نظر معظم الناس لايمكن أن يخلف خروشوف مهما كان حب خروشوف له واعجابه به للأسباب الآتية :

أولا : أنه طاعن فى السن .

ثانياً : إن اهتماماته على جانب كبير من التخصص .

ثالثاً : وقبل كل شىء فهو أرمنى . فالاتحاد السوفيتى اليوم لا يقبل

أن يكون رئيس وزرائه أرمنياً تماما كما يأبى الاسرائيليون أن يكون رئيس وزرائهم عربياً وكما يأبى اهالى جنوب أفريقيا أن يكون رئيس وزرائهم من الزولو العراة .هذا بالرغم من أن ستالين نفسه كان من ولاية جورجيا ورغم أن الحكومة تتظاهر دائماً بفكرة المساواة بين جميع الجمهوريات المكونة للاتحاد السوفيتى .

وهناك ثلاثة آخرون من المحاربين القدماء ولكنهم ليسوا على جانب كبير من الأهمية وهم كليمنت فوروشيلوف وزير الدفاع السابق وقد جاوز الثمانين من عمره ولا يتمتع بصحة جيدة وقد حل محله أخيراً فى رئاسة مجلس السوفييت الأعلى (وهو الرئيس الاسمى للبلاد) فى يونية سنة ١٩٦٠ ليونيد برزنيف ذلك النجم الصاعد فى سرعة لاتعرف التدرج . أما ثانى هؤلاء الندامى فهو أوتوكوزينين وقد ولد فى سنة ١٨٨١ وهو شيوعى فنلندى يضع النظريات الجديده فى الشوعية كما يتمتع بمكانة عالية مسيطرة رغم شيخوخته . وثالثهم هو نيكولاى شفرنيك وقد كان رئيسا للمجلس السوفيتى الاعلى قبل فوروشيلوف وقد بنيت حياته تقريباً على نشاط النقابات وقد ولد فى سنة ١٨٨٨ وقد انضم للبلشفيين عندما كان فى السابعة عشرة من عمره وكان يشتغل عاملا فى مصنع لاستخلاص المعادن من خاماتها واعدادها للاستعمال. ثم أصبح بعد سنوات عديدة العضو الوحيد المهم فى الاتحاد العام لمجلس النقابات العمالية الذى نجا من حركات التطهير التى قام بها ستالين.

أما جميع أنصاف الآلهة الآخرين المعاصرين لستالين فقد ماتوا أو جردوا تماماً من السلطة باستثناء مولوتوف الذى يبلغ السبعين

من عمره وقد نقل أخيراً من منصبه في منغوليا الخارجية إلى فيناحيث يعمل كممثل للسوفيت فى المنظمة الدولية للطاقة الذرية. أما كاجانوفيتش الذى كان اليهودى الوحيد فى المكتب السياسى للحزب طوال سنوات عديدة فهو يعيش الان « متقاعدا » فى مكان ما كما يفعل زوكوف. ويعمل مالنكوف مديرا لاحدى محطات توليد الكهرباء فى أوست كامنجورسك بكازاكستان التى تبعد عن موسكو بآلاف عديدة من الأميال ، ولو أعدت قائمة بالزعماء البلشفيين منذ ربع قرن لشملت تروتسكى وزينوفيف وكاميف وسميرنوف وأوردزنيكليوزى وزدانوف الذى كان يعد نفسه ليخلف ستالين ، كما كان هناك رجال عسكريون مثل الماريشال توكاشفلسكى المشهور.

ولم يمت من بين هؤلاء جميعاً ميتة طبيعية إلا زدانوف وربما كانت وفاته ليست طبيعية تماماً.

أما الباقون جميعاً فقد اعدموا على أثر محاكمات الخيانة المعروفة عامى ٩٣٦ و ١٩٣٧ أو استبعدوا فى حركات التطهير أو اغتيلوا بطريقة أخرى كما حدث لتروتسكى.

وربما كان من أهم الزعماء اليوم وأكثرهم اثارة للاهتمام فرول كوزلوف وأليكس كوزيجين وليونيد بريزنيف وفى قائمة أخرى ميخائيل سوسولوف ، أما الثلاثة الأول فهم من رجال خروشوف قلباً وقالباً وكوزلوف رجل قد جاوز الخمسين من عمره بقليل ، وكان يشتغل عامل نسيج كما كان - بالإضافة إلى أعماله الأخرى - رئيس للحزب فى لينينجراد

ووزيراً لمزارع الدولة ورئيساً لمكتب الحزب فى الجمهورية الروسية الاشتراكية المتحدة .

وهو يمتاز بنشاطه ورقته وتفكيره العملى وقد أخرجه خروشوف من دائرة الحكومة فى حركة التنظيم الحزبية التى حدثت فى شهر يونية الماضى وأعطاه منصباً قياديا فى الحزب وربما كان ذلك ليزيد من خبرته وهو يعمل الآن سكرتيرا للجنة المركزية فى الحزب الشيوعى السوفييتى وقد قام كوزلوف بزيارة الولايات المتحدة سنة ١٩٥٩ كما فعل ميكويان وكانت زيارة نيكسون نائب رئيس الولايات المتحدة لموسكو ردا على زيارة كوزلوف ، وقد أخبر خروشوف أفريل هاريمان أخيراً بأنه قد اختار كوزلوف خليفة له.

وقد ولد كوزيجين عام ١٩٠٥ وهو رجل عملى ومواطن كفء وأصبح عضو فى مجلس الوزراء فى عهد ستالين وهو لم يبلغ بعد الواحد والأربعين من عمره ، وقد اشتغل عمدة لليننجراد فترة من الزمن كما كان فى وقت ما وزيراً للمنسوجات والصناعة الخفيفة والمالية ـ كما كان أيضاً مثل كوزلوف رئيساً لمكتب الحزب فى الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية المتحدة ، وكان التخطيط دائماً مثار اهتمامه الرئيسى فقد كان من أهم الاعضاء التنفيذيين فى لجنة التخطيط التابعة للدولة التى تتولى إدارة مشروع جوسيلان ، وفى عام ١٩٦٠ نقل كوزيجين ليحل محل كوزلوف فى منصب النائب الأول لرئيس الوزراء . وهناك نظرية تقول أنه حدث شىء لخروشوف فسوف يحاول هذان الرجلان أن يحل محله فى إدارة دفة الحكم وذلك بأن يكون كوزلوف مسئولا عن شئون الحزب وكوزيجين رئيساً للوزراء .

وثمة شخص آخر جدير بالذكر وهو أيوسيف كوزمين أحد أعضاء « الارستقراطية الفنية » أيضاً مثل كوزيجين وهو بيروقراطى نشأ من طبقة المديرين الجديدة ، ولد هذا الرجل عام ١٩١٠ واشتغل ميكانيكيا ثم أصبح مهندساً ، ثم رقى فصار مديراً لمشروع جوسبلان وكان أول رجل فى تاريخ السوفييت يعين نائباً لرئيس الوزراء قبل أن يصبح عضواً فى المجلس الأعلى للحزب الشيوعى .

كما أن هناك نجماً آخر صاعداً وهو الشاب ديمترى بوليافسكى الذى ولد عام ١٩١٧ وقد أصبح الرئيس الجديد لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، وقد حدثت تنقلات عديدة مثيرة للاهتمام فى التعديلات التى تمت عامى ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ فقد استبعد اثنان كانا يساعدان خروشوف مدة طويلة من المجلس الأعلى للحزب وهما نيكولاى بايايف واليكس كيريشنكو الذى ظل حاكما لأكرانيا مدة طويلة .

كما نقلت صديقة أخرى لخروشوف وهى « يكاترينا فورتسيفا » من سكرتيرية الحزب إلى الحكومة كوزيرة للثقافة . وهى أهم الأعضاء من النساء فى الحكومة . وكذلك فهناك سكرتير آخر للحزب وهو آفركى آريستوف نقل إلى الخارج سفيراً فى بولندا وقد أنزل آخرون ممن كانوا يشغلون مناصب عالية مثل نيكولاى اجنافوف وبيوتر بوسبيلوف ذلك المشرع العنيف ذو المكانة المحترمة . أما الآن فهناك خمسة سكرتيرون فقط للحزب هم كوزيفيين وكوزلوف وبرزنيف وموسلوف ونوريتوين موكيتدينوف ، وهو أزبكستانى ومن الممثلين

القلائل للقوميات « الجديدة » الذين يتمتعون بحقوق العضوية الكاملة في المجلس الأعلى للحزب .

وكان بريزنيف رئيس الجمهورية السوفيتي الحالي رئيساً لجمهورية كازافستان بضع سنوات على الرغم من أنه ولد في عام (١٩٠٤) في « مولدوفيا » بالقرب من الحدود الرومانية في الطرف الأقصى للاتحاد السوفيتي وظل طيلة حياته من اخصائيي الحرب كما ظل عضوا في المجلس السوفيتي الأعلى منذ شهر يونية عام ١٩٥٧ . وهو رجل صلب قدير ومن المتصلين بمستر خووشوف .

وجدير بنا أن نذكر أيضا أسماء بعض الشخصيات التي تقوم بدورها في الدائرة الداخلية مثل جورج أ . وكزوف المراسل السابق لصحيفة « البرافدا » الذي أصبح يتولى قسم العلاقات الثقافية في الخارج وهو في مرتبة وزير (والواقع أن مجلس الوزراء السوفيتي معقد إذ أنه يضم ما لا يقل عن ٦٥ عضوا) ، و أ . ن . شبلين الرئيس السابق رئيس لجنة أمن الدولة الحالي أي أنه رئيس جيل جديد من ضباط البوليس ، وأليكسى أدزوبي رئيس تحرير صحيفة أزفستيا وزوج ابنة خروشوف وهو لا يكاد يفارق حماه .

وأخيرا نذكر سوسلوف الذي يختلف عن أي شخص آخر في هذه القائمة فهو أولا من أصحاب النظريات القديمة الذين لم يتولوا أية وظيفة حكومية وثانياً أنه آخر المخلصين لستالين على قيد الحياة من بين الأشخاص الذين يتولون مناصب هامة وكان أبوه فلاحاً ونشأ هو بالأسلوب التقليدي عن طريق الكومسمول ثم انضم إلى الحزب منذ

عام ١٩٢١ (ويتميز سوسلوف بصلابة عقليته وتعصبه وعناده وبأنه من المثقفين وظل دائماً من المتخصصين فى الدعاية فقد كان منذ عهد قريب مديراً لجهاز الدعاية السوفييتى وكان رئيساً لتحرير صحيفة «البرافدا» وهو يمثل الجناح الأيمن . وعلى الرغم من عدم شعبيته وعدم تمتعه بأية جاذبية سياسية وعدم خبرته فى المناورات الحكومية فالمعتقد أنه مرشح قوى لسكرتيرية الحزب (وربما كان خروشوف لا يزال يحتفظ به لأنه يقوم بدور كبير مع أعضاء الحزب القدامى والبيروقراطيين الذين كانوا يؤيدون ستالين والذين ما زالوا على قيد الحياة رغم أنه يختلف معه فى كثير من المسائل .

وعندما يوجه أى سؤال إلى خروشوف عن رجاله فإنه يتجنب الإجابة عن الأسئلة .وقد سأله أحد الصحفيين خلال زيارته لنيويورك « من الذى يدير المتجر » أثناء غيابه عن روسيا . فأجاب قائلا : « أحفادى — نيكيتا واليكسى وحفيدى الثالث الذى هو نيكيتا أيضا » .

لا شك فى أن خروشوف هو الذى يحكم الاتحاد السوفيتى اليوم ولكن جدير بنا أن نشير إلى أن الحكومة ما زالت تضم أعضاء متساوين فى المرتبه . فخروشوف هو المسيطر ولكنه يسيطر بعد الاستشارة فلا شك فى أنه — فى التحليل الأخير — مسئول أمام هيئة تتمتع بالسلطة أى أمام أعضاء اللجنة المركزية للحزب البالغ عددهم ١٣٥ عضوا ومجلسها الأعلى (ويضم ١٤ عضوا ثابتاً و ٧ أعضاء بالتناوب) وهو يستطيع أن يخدع الحزب ويسخر منه ويدفعه إلى عمل أشياء لا يريدها كما أنه يقوم بمناورات دقيقة قوية داخل الحزب

ولكنه لا يستطيع أن يتجاهله ، إن المستبدين لا يتركون عرشهم أبداً ولذلك فإن ستالين لم يغادر روسيا إلا مرة واحدة أو مرتين فى خلال حكمه الذى دام ثلاثين عاما ، أما خروشوف فإنه يسافر إلى أبعد الأماكن دون خوف ولا يمكن تفسير ذلك إلا على أنه لا يخشى على منصبه .

وقد وافق الصينيون على موقف خروشوف من التعايش السلمى ومبدئه القائل بأن الحرب بين الشيوعية والغرب أمر لابد منه ومقابل ذلك فقد أصدر الروس بياناً تتوقف أهميته على تفسيره فى المستقبل . وجاء فى هذا البيان أنهم سيمضون بقوة ودون تردد فى اصرارهم على القيام بكل ما فى وسعهم ـ باستثناء الحرب ـ للتعجيل من سرعة الثورة وقد فسرت موسكو ذلك بأنه انتصار لخروشوف . ولكنه على أية حال فقد تجنب تدهور علاقات روسيا مع الصين ولا يزال الموقف حالياً كما كان فى ذلك الوقت .

يوغوسلافيا

ودولة يوغوسلافيا التى تضم ١٨ مليون نسمة وتقل مساحتها عن كولورادو أطلق عليها ثلاثة أسماء منذ تأسيسها فى عام ١٩١٩ . ومن بين مؤسسيها دودرو ويلسون . وكان يطلق على يوغوسلافيا فى أول الأمر « مملكة الصرب والكردانيين والسلاف » ، وفى عام ١٩٢٩ استبدل هذا الاسم بـ « مملكة يوغوسلافيا » ، وفى عام ١٩٤٥ أسست فى عهد تيتو « جمهورية يوغوسلافيا الشعبية الاتحادية » . والجهاز

الحكومى فى يوغوسلافيا — كما هو الحال فى الاتحاد السوفييتى — فيدرالى يتألف من ستة جمهوريات شعبية — الصرب ، وكرواتيا ، والسلاف ، وبشنه ، وهيرزجوفينا ، ومقدونيا ، ومونتيجرو . وحقيقة الأمر هو أن يوغوسلافيا على الرغم من مقاطعتها الشهيرة للكرملين فإنها تشبه إلى حد كبير روسيا نفسها أكثر من أى دولة تابعة أخرى . ويعتبر السلاف عنصراً أساسياً فى يوغوسلافيا وهى تشترك فى سماتها مع الألبان والمجر والأتراك . ويمتاز شعبها بالنشاط وشدة العضلات والرغبة الجامحة . وقام اليوغوسلافيون بمقاومتهم الحربية فى الحرب العالمية الثانية ولم يحصلوا إلا على مساعدة قليلة من السوفيت . ومن الغريب أن جيش يوغوسلافيا القوى يضم عدداً كبيراً من النساء ، وهو الجيش الوحيد فى العالم الذى يفعل ذلك فيما عدا إسرائيل حيث أن جيشها يحتوى على بعض القوات النسائية .

والماريشال تيتو بالطبع هو الرئيس الكبير. ومنذ أن رأيته فى عام ١٩٦٠ لأول مرة بعد مضى اثنى عشر عاماً على اجتماعى به فى زغرب بدالى وكأنه أصغر سنا — عينان براقتان ، ووجه ينم عن الصحة والقوة ، ، ومرح وشباب وأسنان ناصعة البياض ، وشعره لم يتخلله إلا قليل من الشيب . ومنذ أن أنشئت الدولة كان رئيساً لكل من الجمهورية والمجلس التنفيذى الفيدرالى ، وكان سكرتيراً عاماً (لاتحاد يوغوسلافيا الشيوعية) لعدة أعوام وعلى هذا فإنه يعتبر رئيس الدولة، والحكومة والحزب والأخير هو أقوى الهيئات نفوذاً . وقد يكون تيتو قد اختلف مع الكرملين حول مسائل معينة ، ولكن علينا

ألا ننسى أنه كان شيوعياً أولا وأخيراً ولـكنه يعتبر شيوعياً « أفضل » من خروشوف . فقد حقق أهدافاً ضخمة من بينها إنهاء النزاع بين الصرب وكرواتيا الذى كان يسبب متاعب كثيرة فى يوغوسلافيا خلال الأربعين عاماً الأولى وكذلك قضى الرئيس تيتو على الميول الانفصالية القديمة من جانب المقدونيين والدلماشيين والبوشنن (ومعظمهم من المسلمين) والجبليين الثائرين فى مونتيجرو .

أننا جميعاً نعرف — جيداً — تاريخ حياة الرئيس تيتو ، وعلى ذلك يمكننا أن نتحدث عنها باختصار . فهو من أصل « كراوانى » ولد بالقرب من « زغرب » فى ٢٥ من مايو عام ١٨٩٢ وسمى جوزيف بروزوفيك ثم اختصرت الـكلمة الثانية فيما بعد إلى بروز فقط . وبعد ذلك بعدة أعوام أطلق على نفسه « اسم الثورة » تيتو ، وليس هناك شك فى أنه قد اختار هذا الاسم عن طريق الصدفة ، أو لأنه اسم بسيط وقوى ومن السهل على الفرد أن يتذكره .

وهناك نظريات كثيرة تفسر اختيار هذا الاسم . ومن بينها أنه أطلق على نفسه هذا الاسم تيمنا باسم تيتوس الامبراطور الرومانى أو تيمنا باسم القديس تيتوس وهو راهب بلقانى .

وهناك نظرية أخرى تقول أن حروف الاسم ترمز إلى « المنظمة الارهابية الدولية السرية » ، وأخرى تقول إن رنين كلمة « تيتو » تشبه رنين الـكلمات اليوغوسلافية « أنت » و « بفعل » وقد ظهرت أسطورة تقول أنه عند ما أعطى تيتو الأوامر فى العهود القديمة ، تعود أتباعه على مناداته بعبارة مشابهة .

وكان تيتو واحداً من بين أربعة عشر أخاً وأختاً ، وقد مات منهم ثمانية فى سن الطفولة ، وكان هذا دافعاً قوياً للقيام بثورة وكان يعمل صبياً فى مصنع لصنع الأقفال . وبعد فترة قصيرة حاول السفر إلى فيينا حيث درس فى الجامعة . وتطوع فى الجيش المجرى النمسوى أثناء الحرب العالمية الأولى لمدة طويلة وبعد ذلك اعتقله الروس، وكان تيتو شيوعياً قبل ذلك ، إلا أن إقامته فى الاتحاد السوفيتى قد أكدت معتقداته وتعلم نظريات الحزب الشيوعى ووسائله فى موسكو ، ولم يعد إلى يوغوسلافيا إلا فى عام ١٩٢٣ .

وعندما أصبح سكرتيراً لنقابة العمال فى بلغراد ، حكم عليه بالسجن مدة خمس سنوات بسبب ممارسته نشاطاً سرياً ، وبعد ذلك أصبح قائداً كبيراً فى إحدى فرق العصابات أثناء الحرب العالمية الثانية ، ونظم تيتو حركة لتحرير وطنه تولى هو رياستها وتخلص تدريجياً من خصومه مثل الجنرال « دراجا ميلهيلوفيك » الذى وجهت إليه تهمة التعاون مع النازيين .

ولم يكن تيتو ليصل إلى هذا المنصب لولا ونستون تشرشل الذى أرسل ابنه راندولف وبعض العملاء البريطانيين ليقوموا باتصالات سرية مع تيتو خلال أعنف مرحلة من مراحل المقاومة ضد الألمان الغزاة .

وفى مخاطرة جسيمة أنزل راندولف بالبراشوت فى إقليم تيتو . وأدرك تشرشل الأكبر ـ على الفور ـ أن تيتو هو الشخص الوحيد

له أهمية كبيرة فى يوغوسلافيا واجتمع به فى نابلى فى ظروف حاسمة . وقد أعجب به وأيده إلى أقصى حد .

وبعد الحرب أدى نفوذ تشرشل الكبير إلى اعتراف الحلفاء بحكومة تيتو حتى إذا كان هذا سيعنى نهاية الملك بيتر الثانى ، ولم يتخذ تشرشل موقفا معادياً للملك من قبل ، ولكن هذه الظروف تعد ظروفاً خاصة إلى حد كبير .

ومن بين صفات تيتو البارزة ـــ منذ أن قوى نفوذه ـــ هو أنه يبدو دائما أنيقاً ، وفى بعض الأحيان يرتدى زيا رسمياً مزركشا وليس هناك شك فى أنه يعوض أيام الفقر المدقع الذى كان يقاسيه فى صغره حتى لا يقول شيئاً عن أيامه المؤلمة عندما كان يزاول نشاطه سراً .

ولم تتغير شخصيته كثيراً بمرور الزمن ، وأنه ما زال رجلا فخورا ، صبياً له تصرفاته الصبيانية ، صبوراً ، وقبل كل شىء فهو رجل مقدام شجاع .

وقد أعلن عن الشقاق اليوغوسلافى مع الكرملين يوم ٢٨ من يونية عام ١٩٤٨ ، وبعد مضى شهور مريرة من التوتر ـ وكان ستالين بالطبع لا يزال حياً ـ حدث الانفصال . واتهمت موسكو تيتو وأتباعه بمختلف صفات الإهمال ، وبعد تبادل الرسائل الجافة والشديدة اللهجة طردوا من الكومنفورم .

ومن المهم أن نتذكر فى هذه الأيام أن اليوغوسلافيين بذلوا قصارى جهودهم حتى لا يطردون من الكومنفورم ، وأن الرسائل التى كانت

تبعث إلى موسكو بعيدة كل البعد عن الإصرار والعناد ، وفى أول الأمر كانت تتسم بالهدوء . وحاول اليوغوسلافيين عدة مرات إظهار ولائهم القوى المتحمس للشيوعية والاتحاد السوفيتى . ولكنهم رفضوا التراجع عن « كفرهم » ، وأعلن تيتو عن وجهة نظره — بصراحة .

إن احتياجات دولية وقومية قد أرغمت اليوغوسلافيين على تطوير الاشتراكية فى بلادهم إلى « نوع مختلف بعض الشىء » عن الاشتراكية المتبعة فى الاتحاد السوفيتى .

والشىء الجدير بالاهتمام هو أن خروشوف بعد مضى إثنى عشر عاما — وهو يواجه الصينيين وجها لوجه — قد وافق على هذا المبدأ وتبناه بحماس بالغ. وقد أصبح خروشوف نفسه من مقتنعى مذهب تيتو إلى حد بعيد ، مهما أدى إلى غضب بكين الشديد إزاء خروشوف .

وحقيقة الأمر ، فإن خرشوف كان يقف دائماً إلى جانب تيتو على الرغم من أنه لم يصرح بذلك فى عهد ستالين . .

ولكن بمجرد أن أعتلى السلطة ، ودعم مركزه بدأ فى مفاوضات الصلح مع يوغوسلافيا التى تعرضت فى ذلك الوقت لاهانات بالغة من جانب السوفييت . وسافر خروشوف وبولجانين وميكويان إلى بلغراد عام ١٩٥٥ ، ووقعت هناك معاهدة هدنة .

وقام ديكتاتور يوغوسلافيا بزيارة إلى موسكو فى يونية عام ١٩٥٦ ، وأصدر تيتو وخروشوف بلاغا مشتركا ، يوضح أنه من الممكن لمختلف الدول أن تسلك « طرقا مختلفة للاشتراكية » . . ومنذ ذلك الوقت

كانت العلاقات السوفيتية اليوغوسلافية « متارجحة » كما يتضح من الوثائق الرسمية . وبطريقة أخرى بسيطة يمكننا أن نعبر عن هذا بأن نقول . مستر تيتو ومستر خروشوف قد تعانقا ، وانفصلا ثم عادا إلى نفس الوضع عدة مرات .

وبعد ثورة المجر وانقلاب جومولكا فى أكتوبر عام ١٩٥٦ تدهورت علاقاتهما . ففى الحقيقة اتهمت روسيا اليوغوسلافيين بأنهم مسئولون عما حدث من اضطربات فى المجر . ومنع الكرملين القروض عن يوغوسلافيا ، وبمعنى آخر حاول الكرملين معاقبة اليوغوسلافيين.

وبعد ذلك اجتمع خروشوف وتيتو مرة أخرى فى رومانيا عام ١٩٥٧ واستأنفا تعاونهما . . ثم حـــدث شقاق آخر ، ورفض تيتو حضور الاحتفال بالذكرى السنوية للثورة البلشفية فى موسكو . . وانتقاما لهذا قاطعت روسيا والدول التابعة المخلصة ، يوغوسلافيا واستؤنفت من جديد الاهانات والشتائم .

وفى أكتوبر عام ١٩٦٠ أجرى خروشوف وتيتو محادثات ودية فى دورة الأمم المتحدة بنيويورك ونتيجة لهـذا أعلن تيتو أن بلغراد وموسكو لهما آراء متقاربة بالنسبة لمعظم المشكلات الهـامة فى الوقت الحاضر . وصرح خروشوف لأحد الصحفيين بقوله : «ان يوغوسلافيا دولة محايدة ولـكننى أعتقد أنها ستحارب إلى جانب السوفييت إذا ما هوجم الاتحاد السوفيتى »

ونتيجة لهذه الخلافات المستمرة أخذ تيتو يتقرب إلى الدول المحايدة الأخرى ، فأقام علاقات وثيقة مع ناصر ونهرو وسوكارنو وقام

برحلتين طويلتين إلى دول أفريقيا وآسيا غير المنحازة ، فزار بورما وأثيوبيا وسيلان والهند والجمهورية العربية المتحدة وأندونيسيا . ويعتقد أن المعونات للدول غير المنحازة ضرورية ، ويتفق مع مستر نهرو فى أن التطور المنظم للدول المتخلفة يشكل أعظم مشكلة فردية فى العالم اليوم بعد نزع السلاح .

ويبدو أن الولايات المتحدة لا تنظر إلى تيتو نظرة جدية وأنها استغلت موقفه الحيـــادى لمصلحتها أو أنها انتهجت سياسة تجاه اليوغوسلافيين تتسم بالحرص أو المهارة . وكان المفهوم — بصفة عامة — أن الماريشال سوف يدعى لزيارة الولايات المتحدة بعد تسوية النزاع حول تريستا مع ايطاليا ولكن لم توجه له أية دعوة . وفى أكتوبر عام ١٩٦٠ مكث تيتو عدة أسابيع فى نيويورك ، ولكن الرئيس أيزنهاور لم يوجه اليه الدعوة لزيارة واشنطن .

ومن ناحية أخرى يجب أن نشير إلى أن الولايات المتحدة قد منحت يوغوسلافيا أكثر من بليون دولار فى صورة معونات اقتصادية منذ أن انشقت على الكومنفورم ، وسوف يبدأ عهد من العلاقات السياسية المثمرة ، نتيجة لتعيين جورج كينان كسفير للولايات المتحدة فى يوغوسلافيا من قبل حكومة كنيدى .

* * *

ويبلغ تيتو الآن من العمر ٦٨ عاما ، ومع أن صحته لا يمكن أن تكون أحسن مما هي عليه الآن ، إلا أن المسألة الخاصة بمن يخلفه في الحكم يجب مواجهتها . والشخص المرشح لان يخلف تيتو هودفارد كارديلج وهو من « السلاف » ويبلغ من العمر خمسين عاما . وقد ظل عدة سنوات المشرع الأول للحزب الشيوعي اليوغوسلافي ، وهو ليس محبوبا بصفة خاصة ، ولكن كفاءته تلقى احتراما عاما .

وكارديلج في الوقت الحاضر يتولى منصب نائب رئيس المجلس التنفيذي الفيدرالي ، وهو عضو في اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي اليوغوسلافي ، وسكرتير عام التحالف الاشتراكي — كما تسمى منظمة الجبهة الجماعية للحزب . وظل عدة سنوات وزيراً للخارجية .وكارديلج « يعرج » في مشيته .

وهناك شخص آخر يتمتع بنفوذ كبير وهو الجنرال الكسندر رانكوفيل ويبلغ من العمر ٥٠ عاما . وكان من الأنصار السابقين الذين حاربوا إلى جانب تيتو (مثل كارديلج) . وقد تولى منصب وزير الداخلية لعدة سنوات . وقد قتل أبوه وأمه على يد الجستابو خلال الاحتلال الالماني .

والشخص الثالث المعروف هو ميلوفان جيلاس . وقد حارب إلى جانب الملكيين في الحرب الاهلية الاسبانية ونتيجة لذلك أصبح أحد الاشخاص المقربين إلى تيتو .

ولكن جيلاس - وهو شخص متحمس - ظل يعرض نفسه

للمتاعب بسبب انحرافاته المذهبية . وفى عام ١٩٥٩ ألقى القبض عليه وقدم للمحاكمة . وأرسل إلى السجن . وأثناء سجنه ألف كتابا بعنوان « الطبقة الجديدة » الذى وصف فيه الحكومة اليوغوسلافية بأنها حكومة استبدادية جماعية . ونتيجة لهذا زادت مدة سجنه ثم أطلق سراحه فى عام ١٩٦١ .

الخاتمة . . .

وأخيراً لكى نختتم هذا الفصل الطويل يجب أن نعود إلى الاتحاد السوفييتى نفسه . وبجمل القول فان جوهر السياسة الخارجية السوفييتية فى عهد خروشوف بسيطة للغاية . ومن المؤكد أن الروس لا يريدون الحرب لأنهم قد يخسرونها ، وبالطبع فإنه فى حالة حدوث حرب ذرية سيعانى الروس خسارة جسيمة وكارثة كبرى ، وأن التصنيع الذى يعتبر من بين الأهداف الرئيسية التى حققها الروس سوف تتدهور عدة أعوام إلى الوراء .

أما الذى يريده الروس بالفعل هو « كسب العالم بدون حرب » . وعلى هذا الأساس نشأت سياسة التعايش « السلمى » ولم تقم هذه النظرية على أساس الرغبة الصادقة فى السلام من أجل السلام نفسه فحسب بل أنها تعتمد أيضاً على أن العالم يعطى لهم الفرصة الطيبة من أجل متابعة أهدافهم البعيدة المدى .. ولا يعنى التعايش السلمى — كما جاء فى الكلمات الرسمية للبيان الذى صدر فى ديسمبر عام ١٩٦٠ بعد مؤتمر الدول الشيوعية فى موسكو — لا يعنى التوفيق بين النظريات الفلسفية » . بل على العكس فإن كلمات هذا البيان تتضمن مضاعفة الكفاح الذى تقوم به الطبقة العاملة من أجل انتصار الأفكار الاشتراكية حيث أنها تقوم على أساس التنافس .

وحتى مستر خروشوف نفسه قد قال : إن التعايش السلمى يخول للاتحاد السوفييتى « الحق فى أن يجعل الدول الرأسمالية تتلوى مثل السمكة فى المقلاة » ، ومع أن هذه الملاحظة ربما لا تعدو تعبيراً عن شجاعة مظهرية واسرافا فى المبالغة

وليس من البساطة تلخيص السياسة الأمريكية — كما هى عليه الآن أو كما ينبغى أن تكون — لاشك أننا نريد السلام كما يريده الروس ، وفضلا عن ذلك فإننا مستعدون لاتخاذ الإجراءات المعقولة للوصول إلى حل وسط .. ومع ذلك فإن الولايات المتحدة ، تجد نفسها غالباً — وكذلك العالم الغربى — أيضاً — فى موقف شديد الحرج .

وقد تقدمنا بسياسات عدة . فقد طبقنا سياسة الاحتواء ولكن يتعذر علينا أن نقول بأنها نجحت نظراً للتوسع المنتظم لسلطان روسيا ونفوذها مثلما هو حادث فى أفريقيا وآسيا .

أما التجربة الثانية فكانت سياسة « الانتقام على نطاق واسع » . فإن أمريكا لا تزال تملك قوة ضخمة مذهلة ، وقدرة على الانتقام إذا لزم الأمر ، ولكن هذه السياسة كان يجب أن تتبخر عندما أصبح واضحاً أن الاتحاد السوفييتى على قدم المساواة ، معنا فى قوته النووية — إن لم يكن أقوى منا — فهل يعنى هذا أننا مضطرون الآن لملاقاة الروس فى الميدان الذى يختارونه ، وللدخول فى المباراة طبقا لقواعدهم ؟ هل نكون بجرد سمكة فى مقلاة ؟ . . بالطبع لا . .

إن المشكلة الحاسمة بالنسبة للعالم الغربى هى كيفية امكان التعايش

مع الاتحادالسوفييتى دون تخاذل أو مهادنة ، وعتداتفاق دون تسليم .. إذ يجب أن نعمل وننافسهم ثم ننتصر ، وهذا معناه أن نحافظ على عالمنا من السقوط فى أيدى الاتحاد السوفييتى . كما يجب علينا أن تنظم هذا العالم نظاما حسناً ، وأن نكون أكثر اخلاصاً له ، وهو ليس بالأمر السهل نظراً لحيل الروس فى إثارة الاضطرابات والمراوغة والاستفزاز .

لا شك أن السلام أفضل من الحرب ، والانسجام أفضل من الشقاق ، والاتفاق خير من الفوضى ، والهدوء خير من الاضطراب . ولكن ليست هذه هى كل الأسباب التى يجب من أجلها على الولايات المتحدة أن تقبل تحدى الروس أيا كان مجال هذا التحدى ، ونحاول فى الوقت نفسه أن نحتفظ بعلاقات سليمة إلى حد معقول . وإذا لم نتمكن من ذلك فسوف يعنى هذا أننا كنا نعلم — بهزيمتنا — وهذا ليس صحيحاً .

* * *

الختام

إننا نقترب من النهاية . وقد ناقشنا باختصار الاختلافات القائمة بين أوروبا اليوم وبين أوروبا منذ ربع قرن مضى ، وأمعنا النظر فى الموقف السياسى المعاصر فى جميع دول القارة .

إننى أشبه هذا الكتاب بالثوب ، ولذلك أقول : إنه بقى على الآن أن أشذب أطراف هذا الثوب وأجمع أجزاءه لتكون وحدة واحدة .

أولا — أن معظم الزعماء الأوروبيين حالياً طاعنون فى السن ، فأديناور يبلغ ٨٥ عاما ، وديجول يبلغ ٧٠ عاما ، وماكيلان يبلغ ٦٦ عاما ، وجرونكى يبلغ ٧٣ عاما ، وخروشوف ٦٦ عاما .

والواقع أن هناك أسئلة قليلة أكثر أهمية من مجرد التساؤل عما يمكن أن يحدث فى فرنسا إذا خرج ديجول من الحكم .

أما فى بريطانيا والاتحاد السوفييتى فإن الموضوع قد لا يكون حيويا إلى هذا الحد لأن النظام فى كل من هاتين الدولتين سيسير دون حدوث أية اضطرابات أو حتى تغيير النظام المتبع .

والحقيقة الثابتة هى أن تغيير الزعماء فى كل دولة من الدول الأوروبية الهامة شيء لا بد منه فى خلال السنوات العشر القادمة أو ربما قريباً .

ثانيا — أن المشكلة الصعبة والعسيرة حقا فى أوروبا بعد مشكلة نزع السلاح هى مشكلة برلين ومستقبل ألمانيا ، فلابد للغرب من البقاء

فى برلين لأسباب سبق توضيحها فى الصفحات السابقة ، ولكن الشرق يريد أن يبعدنا عنها .

والواقع أن انقسام برلين إلى شطرين يرمز إلى انقسام أوروبا نفسها إلى شطرين . وتعكس برلين صورة مصغرة للحرب الكبرى كلها كما أنها أشبه بوضع تبلورت فيه حقيقة انقسام العالم بين الكتلتين .

ثالثا — أن التحالف الغربى يصاب بضربات قوية ولكنه يعود مرة أخرى كما كان من قبل ، والدليل على ذلك أزمة قنـــاة السويس .

فديجول يريد تحقيق المزيد من النفوذ والقوة والمجد لفرنسا بينما يخاف أديناور من احتمال تغيير الولايات المتحدة وبريطانيا لموقفهما بالنسبة لألمانيا الغربية فى ظروف معينة - من أجل تحقيق تسوية أوروبية عامة . ولكن لماذا يظل التحالف الغربى قائماً ومتينا على الرغم من كل عوامل الانقسام هذه وغيرها أيضاً ؟ . .

وأسباب ذلك تكمل بعضها البعض :

١ — أن غرب أوروبا لا يمكن أن يعيش فى حال التعرض لهجوم سوفيتى — بدون مساعدة أمريكا له — وهذه المساعدة مازالت تقدم لأوروبا الآن .

٢ — سوف ينهار موقف أمريكا فى صراعها أمام الاتحاد السوفيتى لو أنها فقدت غرب أوروبا ومن ثم فإنه من صالح دول الأطلنطى جميعا أن تتماسك وتترابط .

رابعاً — ما زالت الكتلتان تنتظمان كما يلى :

الولايات المتحدة وكندا والمملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا الغربية وأسبانيا والبرتغال وإيطاليا واليونان وتركيا وبنيلوكس والنرويج والدانمرك ضد الاتحاد السوفييتى والصين وبولندا وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وبلغاريا وألبانيا .

وقد لا يفيد كثيراً تحليل القوة النسبية لدى كل من الكتلتين من حيث السكان والمساحة وموارد الثروة الطبيعية . وإجمالى الناتج القومى والقوة العسكرية إلى غير ذلك من العوامل .

وهناك خمس دول محايدة . النمسا وإيرلندا وسويسرا والسويد وفنلندا .. أما يوغوسلافيا فلا يمكن إدراجها تحت أى قسم من الأقسام الثلاثة السابقة .

وجدير بالذكر أيضاً أن أسبانيا ليست عضوا فى حلف شمال الأطلنطى وأن أهمية البرتغال بسيطة كدولة متحالفة . وأخيراً هناك اتجاهات محايدة فى كثير من دول حلف شمال الأطلنطى على الرغم من أن هذه الاتجاهات غير حاسمة فى الوقت الحاضر . . وهذه الدول هى : الدانمرك والنرويج وايسلندا وبريطانيا أيضاً . أما اليونان فموقفها غامض وسيظل كذلك لفترة طويلة . . أما تركيا فهى فى حال تغير ثورى أو بالأحرى تغير ثورى مضاد . .

ولما كنا قد أوضحنا جميع النقاط السابقة ، فجدير بنا أن نتحدث عن النقطة الخامسة وهى أن مستقبل أوروبا قد يعتمد كلية على الأحداث

التى تقع خارج أوروبا نفسها . ويرجع ذلك إلى أن انجلترا وفرنسا وبلجيكا وهولندا قد تنازلت جميعها عن الكثير من (أن لم يكن جميع) عناصر مركزها الاستعمارى فى المناطق التابعة لها . وعلى ذلك فقد أصبحت دول كثيرة محايدة أو غير مرتبطة فى فترة قصيرة جداً كما أن الحكومات فى لدل العديدة الحديثة المتحررة لم تتحمل بعد مسئوليتها كاملة .

وأى طريق سوف تتبع هذه الدول ؟

وما الذى يطرأ على توازن القوى فى العالم لو أصبح مثلا جزء من أفريقيا شيوعيا أو اندفع إلى الفوضى ؟

وما مستقبل لاوس أو الكونغو ؟ وماذا عسى أن يحدث فى كوبا أو غيرها من دول أمريكا اللاتينية ؟

وعلى أية حال فإن الدول الأفريقية والآسيوية الجديدة لا تريد أن تنحاز إلى أى من الجانبين لو ترتب على هذا الانحياز خطر على حريتها التى نالتها حديثاً . . ولا بد من الاعتراف بأن نصف الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة اليوم — أو ربما أكثر من النصف — هى دول محايدة وهى تأمل فى أن تظل على هذا الوضع بغض النظر عن الضغط الذى تتعرض له نتيجة للصراع الشديد الناشب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى

خامساً — أن القوى المتعددة التى تميل إلى المساهمة فى سبيل تحقيق الوحدة الأوروبية وتشجع عليها مثل اتحاد الفحم والصلب الأوروبى والسوق الأوروبية المشتركة . ولكن فى نفس الوقت توجد قوى

تعرقل الوحدة مثل ابتعاد بريطانيا عن السوق الأوربية المشتركة وكبرياء الجنرال شارل ديجول الوطنى .

إن القومية لا تزال تعتبر بلا شك قوة هامة وخطيرة فى كل مكان بأوروبا ، غير أن غرب أوروبا قد قطع خطوات إلى الأمام نحو الوحدة الاقتصادية فى خلال الخمسة والعشرين عاما الماضية أكثر مما قطعها فى خلال القرون الخمسة الماضية ومن المؤكد أن يتبع ذلك بوادر التكامل فى المستوى السياسى ؛ والحقيقة التى لا خلاف فيها هى أن حدود السوق المشتركة تكاد تكون بدقة نفس حدود أمبراطورية شارلمان باستثناء الحذاء الايطالى .

سادساً — إن البواعث الديمقراطية تزداد قوة فى غرب أوروبا بشكل يبعث على الارتياح ، ففى بريطانيا وجمهورية ألمانيا الاتحادية يتوفر نظام الحزبين السليم أما فرنسا وإيطاليا فهما تخضعان لحكومات ائتلافية ، وديجول على رأس فرنسا ويقابلة أديناور فى ألمانيا الغربية ولكن لا يمكن أن نطلق على أيهما لفظ الديكتاتور ، فمنذ ربع قرن مضى كانت أوروبا كلها ـ فيما عدا المملكة المتحدة وفرنسا والدول المحايدة ـ تخضع لحكام ديكتاتوريين .

أما اليوم فمازال يوجد فى غرب أوروبا ديكتاتوران هما، فرانكو وسالازار وكلاهما فى عزلة عن تيارات التطور الأوروبى الرئيسى .

وأخيراً أكرر ما سبق أن ذكرته فى بداية هذا الكتاب وهو أنه محاولة تجريبيه لمقارنة أوروبا منذ خمسة وعشرين عاما وأوروبا فى عام ١٩٦١ . .

أما الحرب العامة فهى بعيدة الاحتمال لأن مهاجمة الغرب ليست من مصلحة روسيا أو من مصلحة الشيوعية ، ويستطيع خروشوف أن يعترض ويمتنع عن الموافقة وهو ينصرف فى بعض المناسبات مثل الفلاحين دون لياقة أو مجاملة كما حدث فى الأمم المتحدة عام ١٩٦٠ .

ومن الواضح أن سياسته فى المدى الطويل تعتبر تهديداً للأسلوب الديمقراطى فى جميع أنحاء العالم ولكنه ليس كهتلر الذى كان يريد الحرب وهو غير متعطش إلى الدماء أو يميل إلى الاجرام مثل هتلر ، ولكن الحرب العالمية نتيجة لخطأ أو لسوء التقدير - على الرغم من كل المحاولات التى تبذل للحيلولة دون وقوعها - فان العالم سيواجه احتمالا لم يعرفه التاريخ من قبل أبداً وهو الفناء التام .. وقد سئل البروفيسور أنشتين يوما عن نوع الاسلحة التى ستستخدم فى الحرب العالمية الثالثة فأجاب قائلا : « إننى لا أعرف .. ولكننى أعرف أن أسلحة الحرب العالمية الرابعة ستكون من الأحجار ..

من أنباء القنـــاة

توقف تحصيل الرسوم الإضافية على السفن العابرة

أعلنت الأمم المتحدة أنه تقرر وقف تحصيل الرسوم الإضافية على مرور السفن بقناة السويس ، اعتباراً من يوم ١٥ مارس سنة ١٩٦١ .

والمعروف أن هذه المبالغ الإضافية . كانت تحصل بواقع ٣ فى المائة من رسوم العبور لسداد النفقات التى تحملتها الأمم المتحدة فى سبيل تطهير القناة من آثار العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ .

وجدير بالذكر أن هذه النفقات التى بلغت ٨٤٠٠٠٠٠ دولار ، كان قد تقرر تحصيلها فى مدى ثلاث سنوات ، ابتداء من ١٥ سبتمبر ١٩٥٨ ، إلا أنه أمكن تغطيتها فى سنتين ونصف سنة فقط .

وقد وصفت بعض الصحف العالمية هذا النبأ بأنه كان مفاجأة لها .

ولكننا ، فى هيئة قناة السويس ، لم نفاجأ به على الإطلاق ، إذ أن زيادة حركة الملاحة ، وبالتالى زيادة الرسوم المحصلة ، إنما هى نتيجة طبيعية لأعمال التحسين التى قامت الهيئة بتنفيذها ، دون هوادة منذ التأميم .



من أنباء القناة

استقبل السيد رئيس هيئة قناة السويس ، بمكتبه بالإسماعيلية ، صباح ٦ مارس ، السيد أزهوسكو ، وزير التجارة الخارجية النرويجي ، وكان برفقته ، كل من السادة رئيس اتحاد الغرف التجارية ومدير اتحاد المصدرين ، ورئيس فرع الشرق الأوسط بمجلس التصدير النرويجي .

وتحدث إليهم المهندس محمود يونس عن الجهود التي تبذلها الهيئة في سبيل خدمة التجارة العالمية .

مجموعة

اخترنالك

تصدر

نصف شهرية باللغات العالمية

يشترك فى تحريرها وإعدادها

لجنة " اخترنالك "

المراسلات : الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ ـ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥

الثمن ٥

عدد ممتاز